التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

(٤٦١-٥٣٧هـ)

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبّوش   سارية فايز عجلوني

المجلد الثاني عشر

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير

في

التفسير

(١٢)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

يُمنع طباعةُ هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويرُه ورقياً أو إلكترونياً

إلا بإذن خطي من الدار الناشرة

تحت المُساءلة الدُّنيوية والأُخروية

9 786052 279311

دَارُ اللُّبَاب

للدِّرَاسَاتِ وَتَحْقِيقِ التُّرَاثِ

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان

009615813966

0096170112990

Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا

00905454729850

00902125255551

info@allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ الرُّومِ

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي يفرِّح المؤمنين بنُصرته، الرحمنِ الذي يبسط الرزقَ لمن يشاء ويقدر بقدرته، الرحيمِ الذي يحيي الأرض بعد موتها بآثار رحمته.

روى أبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ ملكٍ[1] يسبِّح اللهَ بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيَّع في يومه وليلته»[2].

وهذه السورة مكية، وهي ستُّون آية، وقيل: تسعٌ وخمسون، الاختلاف في: ﴿بِضۡعِ سِنِينَ﴾[3].

وكلماتُها ثماني مئة وخمسَ عشرة، وحروفها ثلاثة آلاف وثلاث مئة وتسع وتسعون[4].

---

(١) في (أ): «كل ملك». وفي (ف): «كل من».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩١)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٩٠٩)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٥)، وفيه: اختلافها أربع آيات: ﴿الٓمٓ﴾ عدَّها الكوفي ولم يَعُدَّها الباقون، ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لم يَعُدَّها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون، ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ لم يعدَّها المدني الأول والكوفي وعدها الباقون، ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون، وكلهم عد ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

(٤) في المصدر السابق: كلمها ثماني مئة وتسع عشرة كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وأربعة وثلاثون.

وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنه قال في ختم تلك السورة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقال في أول هذه السورة: ﴿الٓمٓ﴾؛ أي: أنا الله أعلمُ بالمحسنين وغيرِ المحسنين.

وانتظام السورتين: أن كلَّ واحدة منهما مكيةٌ متضمِّنةٌ ذكرَ التوحيد ومحاجَّةَ المشركين وبيانَ العاقبة للمؤمنين والكافرين.

* * *

(١ ـ ٣) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾: مرَّت الأقاويل فيه في أول سورة البقرة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: غَلبت فارسُ الرومَ في أقرب أرض الشام إلى حدود أرض فارس والروم[(١)].

قال مقاتل ـ هو قول ابن عباس رضي الله عنهما ـ: هي أرض الأردن وفلسطين[(٢)].

وقال مجاهد: هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس[(٣)].

وقال عكرمة: هي أذرعات وكسكر[(٤)].

---

(١) «والروم» ليست في (أ).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٠٦)، وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٦٤٣) عن السدي. ولم أجده عن ابن عباس بهذا اللفظ، لكن روى عنه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٨) قوله: طرف الشام.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٦٩).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٠) مطولاً دون كلمة: «وكسكر».

وقال مقاتل بن حيَّان: هي ريف الشام[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾: أي: والروم بعد أن صاروا مغلوبين، وهو إضافة المصدر إلى المفعول.

قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ أي: سيصيرون غالبين لغالِبِيهم وهم فارس.

* * *

(٤ ـ ٥) ـ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وقال الفرَّاء: يقال: غلب غَلَبةً، وسقطت التاء هاهنا للإضافة كما في قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣][2].

وقال الزجاج: الغَلَب مصدر كالغَلَبة؛ كالجَلَب والجَلَبة[3]، والبضع: القطعة من العدد، وتستعمل في الثلاث إلى العشرة، قاله الخليل والقتبي[4].

وقال الحسن: لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فقال كفار قريش: والله لا يكون ذلك أبداً، أن يظهر الروم على أهل فارس أهلِ البأس والشدة والعدَّة، فأنزل الله تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾؛ أي: يظهر أهل الروم على أهل فارس، فقال كفار قريش: إن كنتم صادقين فراهِنوا، قال: فتراهنوا على خمس قلائصَ، وجعلوا بينهم من الأجل خمس سنين، فولَّوا قمار المسلمين أبا بكر الصدِّيقَ رضي الله عنه، وولَّوا

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٧).

(٤) انظر: «العين» (١/ ٢٨٦)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٤٠).

قمار المشركين أبيَّ بن خلف، فمضت خمس سنين ولم تظهر أهل الروم على أهل فارس، فقال المشركون: أعطونا القمار، فاشتدَّ ذلك على المسلمين، فشكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إن الله عز وجل قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى العشر، فزايِدوهم[1] في القلائص وزايدوهم في الأجَل»، فزادوهم في الأجل خمسَ سنين وفي القلائص خمساً، فلما كان في السنة السابعة ظهر أهل الروم على أهل فارس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ فظهر أهل الروم على أهل فارس[2].

قال: فقدم رسول الله ﷺ المدينةَ ولم يقبض القمارَ، فأنزل الله تعالى تحريم الخمر والقمار في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآية.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: التقَينا مع رسول الله ﷺ ومشركو العرب، والتقت الرومُ وفارسُ في ذلك اليوم، فنصرَنا اللهُ تعالى على مشركي العرب ونصر الله أهل الكتاب على المجوس، ففرحْنا بنصر الله إيانا على المشركين وفرحْنا بنصر الله أهلَ الكتاب على المجوس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾: أي: الأمرُ في غلبة فارس للروم

---

(١) في (ف): «فدابروهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٧)، عن قتادة، ولم أجده عن الحسن، وقد روي في هذه القصة أحاديث وآثار كثيرة يطول ذكرها، جمعها السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٤٩). وإسناده ضعيف.

وغلبة الروم لفارس لله تعالى، لو شاء أن يهلك الفريقين معاً أو أحدهما(١) لفعل، وليست غلبةُ فارسَ للروم على ما توهَّمه المشركون من أنَّ مَن لا كتاب له ولا نبوةَ فدينُه هو الحقُّ ودينُ مَن له نبوةٌ وكتابٌ باطل، وكما غلبت فارسُ الرومَ فكذلك يغلب(٢) مشركو قريش المسلمين، بل كلَا الفريقين مبطِلٌ، ولو شاء الله لمنع أحدهما عن الآخر، فله الأمر من قبلِ غلبة فارس للروم، ومن بعد ذلك.

وقيل: أي: من قبلِ كلِّ شيء، ومن بعد كلِّ شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾: أي: يومَ غَلبت الروم فارسَ يفرح المؤمنون، لا بنصرة النصارى، ولكن بتحقيق الله وعدَه دالًّا على صدق نبيِّهم فيما أخبرهم به.

وقيل: بل بنصر الله المسلمين على المشركين، على ما روينا أنه كان ذلك في ذلك اليوم(٣).

وقيل: كان ذلك عامَ الحديبية(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: أي المنيعُ بسلطانه لا يُغلب على أمره ولا يَجري في خَلْقه إلا ما يريده ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلا يعاجلُ العصاةَ بالعقوبة.

* * *

---

(١) في (أ): «وأحدهما» وليست في باقي النسخ، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): «فكذلك فعلت»، وفي (ف): «لغلبت»، بدل: «فكذلك يغلب».

(٣) انظر ما تقدم قريباً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٧)، عن قتادة، وقد تقدم قريباً.

(٦) ـ ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: نصب على المصدر، كأنه قال: وعَدَ الله ذلك وعداً، وهو لا يخلف وعده.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: المشركون جهَّالٌ[1] لا يعلمون أن محمداً ﷺ وسائرَ الأنبياء لم يؤيَّدوا بالمعجزات إلا ليَدُلَّ ذلك على صدقهم، فلا يكذِبون فيما يخبرون، فإذا كذَّبوا محمداً ﷺ فيما أَخبر عن غلَبة الروم فارسَ فلجهلهم كذَّبوه.

***

(٧) ـ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي: همَّتُهم دنياهم، فيصرفون تدبُّرهم وتفكُّرهم وتعلُّمهم إلى أمور الدنيا فيَعلمونها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾: لا يتفكَّرون فيها، وما يكون لهم فيها من الحساب والعقاب.

وقيل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما يعلمون ما يشاهدونه ولا يعرفون ما يدل عليه من أمور الآخرة.

ثم في الآيتين نفيُ العلم عنهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإثباتُ العلم لهم بقوله: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾، ولا تناقُض فيه، فإن الأول نفيُ العلم بأمور الدين، والثاني ثبوتُ العلم بأمور الدنيا، ولأن الأول نفيُ الانتفاع بالعلم بما ينبغي، والثاني صرفُ العلم إلى ما لا ينبغي، ومن العلم القاصر أن يهيِّئ الإنسان

---

(١) في (أ): «بحال».

أمورَ شتائه في صيفه وأمور صيفه في شتائه وهو لا يتيقن بوصوله إلى ذلك الوقت، ويقصِّرَ في الدنيا في إصلاح أمور معاده ولا بد له منها(١).

* * *

(٨) ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾: هي كلمة استبطاءٍ، ومعناها: هلا تفكَّروا إذ(٢) أخَّروا التفكُّر وتركوه.

وقوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ قيل: أي: في خلق أنفسهم؛ كما قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: لو تفكَّروا في خلق أنفسهم أفادهم ذلك علماً في الآخرة وزوال الغفلة عنهم. وانقطع الكلام ثم قولُه:

﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كلام مبتدأ.

وقيل: هو متصل بالأول، والتفكُّر واقعٌ على ﴿مَّا﴾، ومعنى الكل على هذا القول: أولم يَخْلوا بأنفسهم فيتفكَّروا في الخلوة(٣) التي يتمكَّن معها الإنسان من عقله أنْ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بإضمارِ (أنْ) الخفيفة، ويكون التفكُّر واقعاً على هذا، وإضمار (أنْ) للوصل جائز كما في قوله في هذه السورة:

---

(١) في (ر): «من العلم القاصر على منافع الدنيا يفني الإنسان شبابه في تعلم أمور الدنيا وهو لا يتيقن بوصوله إلى ذلك الوقت ويقصر في أمور دينه واستعداده لمعاده الذي لا بد له منه»، بدل: «ومن العلم القاصر أن يهيئ...».

(٢) في (أ): «لم»، وفي (ف): «إذا لم».

(٣) في (ف): «الحياة»، وفي (ر): «الحياة الدنيا».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾؛ أي: أنْ يريكم البرق، فقد صرَّح بـ(أنْ) قبل هذه الآية في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ويكون معنى[1] هذه الآية على هذا الوجه: أوَلم يتفكروا في خلق السماوات والأرض أنَّ الله تعالى لم يخلقهما عبثاً ولا جزافاً، ولكن ليَعتبر بها عباده ويَستدلُّوا بها على وحدانيته وكمالِ قدرته، فإنه إنما خلقهما لمنافع عباده بلاغاً لهم في دار التكليف ليحاسبهم في دار الجزاء، وهو معنى قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: للحق، وهو هذا.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: وليوم القيامة الذي يحاسبهم فيه ويجازيهم على أعمالهم فيه، وقد جعل الله أجلاً لذلك، فيخرجهم هذا التفكُّرُ عن الغفلة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾: أي: تركوا هذا التفكُّر فغفلوا وكفروا بالبعث والجزاء.

وقيل في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: خلقهما في الوقت الذي كان سماه لخَلْقهما فيه وأراده[2]؛ أي: لم يخلقهما على سهوة وغفلةٍ ومجازفةٍ، بل على مقدارٍ معلوم ووقتٍ معلوم.

وقيل: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وقتٍ معلوم[3] مؤقَّتٍ إذا بلغت ذلك الوقت أفناها وبدَّل الأرضَ غيرَ الأرض وغيرَ السماوات.

* * *

---

(١) في (ف): «معناه في».

(٢) في (ف): «سماه بخلقهما فيه على علم وإرادة».

(٣) «معلوم» ليست في (أ).

(٩) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾: وهذا تنبيهٌ آخر عن الغفلة: أولم يسيروا في الأرض في أسفارهم للتجارات وغيرها ﴿فَيَنظُرُوا﴾ إلى آثار القوم الذين كانوا قبلهم فعَصوا الله وكذَّبوا أنبياءهم.

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾: وهم هؤلاء.

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: من مشركي قريش.

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾: للزراعة[1] ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بأنواع الأبنية ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾؛ أي: مشركو قريش، فلم يعصمهم شيء من أموالهم وحصونهم مما نزل بهم، فكيف يمتنع هؤلاء من مثل ذلك؟

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ ﴾: نزل بهم هذا بعد أن جاءتهم رسل الله إليهم بالحجج الواضحة ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾؛ أي: ليعذبهم من غير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بمعاصيهم فعُوقبوا لذلك.

* * *

(١٠) ـ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا ﴾: أي: كذبوا أنبياءَ الله وردُّوا البينات ﴿السُّوأَىٰ﴾؛

---

(١) في (أ): «للزراعات».

أي: العقوبةُ الغليظة التي تَسوءُ صاحبها، ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا الدمار وفي الآخرة عذابُ النار.

وقيل: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: تأنيث الأسوء؛ أي: أسوأُ العقوبات.

وقيل السوأى: اسم لجهنم كالحسنى اسم للجنة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: بأنْ كذبوا بها واستهزؤا منها.

ووجه آخر: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ المكذِّبين[١] ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: فعلوا الفعلةَ السوأى؛ أي: وهي بمعنى السيئة، ويكون مفعولاً بـ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾، ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ ويكون هذ اسمَ ﴿كَانَ﴾، و﴿أَن﴾ مع الفعل مصدرٌ، وهي بمعنى التكذيب؛ أي: كان عاقبةَ إساءتهم التكذيبُ بآيات الله؛ أي: ألقاهم شؤمُ معصيتهم في الكفر، وهو كقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٧٧].

***

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: قرأ أبو عمرو في رواية[٢] بياء المغايَبة، والباقون بتاء المخاطبة[٣].

---

(١) «المكذبين» من (ف).

(٢) في (أ): «قرأ أبو عمرو غير عياش وأوقيه [كذا] وسهل ويحيى عن أبي بكر وحماد عن عاصم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥)، عن أبي عمرو وأبي بكر.

قيل: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أي: المخلوقَ من الماء ثم يعيده من التراب.

وقيل: إلى التراب، وكان خلقه من التراب.

وقوله تعالى: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: يَقنط المشركون من رحمة الله ومن شفاعة الشفعاء.

وقال سعيد بن جبير: ﴿يُبْلِسُ﴾: يُبْهَتُ(١). وقال الأخفش: يَنْدم(٢). وقيل: يَدْهَشُ.

***

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾: أي: ولا يكون لهم من أصنامهم التي جعلوها شركاءَ لله شفعاءَ يشفعون لهم إلى الله.

﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾: أي: فيكونون عن أصنامهم متبرِّئين حين رأوها لا تشفع(٣).

وقيل: أي: الملائكة والجن والشياطين يتبرؤون من المشركين، وهو كقوله: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ أي: يتبرأ بعضكم من بعضٍ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾: قيل: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقيل: يتفرقون في آلهتهم، فلا يجتمعون فيتناصرون، وهو تأكيدٌ للآية التي قبلها.

---

(١) في (أ) و(ف): «يهتم». ولم أجده.

(٢) لم أجده عن الأخفش، وقاله أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ١٢٠).

(٣) في (أ): «لا تنفع» وفي (ف): «تضر ولا تنفع».

وقيل: يتفرقون في الأحوال والمحالِّ على ما فسَّره[١] بعدها.

* * *

(١٥) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾: أي: يُصار بهم إلى الجنة فيكونون فيها[٢] في رياضٍ ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يُسرُّون، والحَبْرةُ: السرور.

وقيل: أي: ينعَّمون.

وقال وكيع: هو بالسماع[٣]، والحِبَار والحَبَر: الأثر، والحُبور: سرورٌ يظهر أثره في الوجه.

وقال أبو بكر بن عياش: أي: يتوَّجون على رؤوسهم[٤]، من قولهم: ذهب حَبْرُه وسَبْرُه؛ أي: هيئتُه[٥] وجماله.

وقال ابن كيسان: أي يزيَّنون ويحلَّون[٦]، والمحبَّر: المزيَّن.

* * *

---

(١) في (ر) و(ف): «فسر».

(٢) في (أ): «منها».

(٣) ذكره عن وكيع الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤٧١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٧٢) عن يحيى بن أبي كثير.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤٧١).

(٥) في (ر) و(ف): «حبره ونضره أي: بهاؤه».

(٦) «ويحلون» من (أ).

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: أي: أُحضروا جهنم ليعذَّبوا فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: أي[١]: صلُّوا لله، مصدر بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، والتسبيح: الصلاة؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣]؛ أي: المصلين، وهي رأس الأعمال الصالحة التي ذُكرت في الآية المتقدمة.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: أي: مساءً، وهي صلاة المغرب. وقيل: صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: أي: صلاة الفجر.

﴿وَعَشِيًّا﴾: هي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: هي صلاة الظهر، وقد[٢] أَظهَرَ؛ أي: دخل في وقت الظهيرة، قال امرؤ القيس:

تُقطِّعُ غِيْطانًا كأنَّ متونَها ... إذا أَظْهرتْ تُكْسَى مُلاءً منشَّرا[٣]

* * *

---

(١) في (أ): «يعني».

(٢) في (ر) و(ف): «وقيل».

(٣) انظر: «الديوان» (ص: ٩٥). الغيطان: الأرض المطمئنة. متونها: ظهورها، الملاء المنتشر: الثوب المبسوط. وقوله: تقطِّع، لعل معناه هنا: تطوي، والضمير للناقة المذكورة قبلُ.

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وهو المحمود عند جميع خلقه من سكان سماواته وأرضه، يحمدونه على نعمه ويثنون عليه بصفاته.

وقيل: تحمده الملائكة في السماوات والمؤمنون في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: أي: البشَرَ من النطفة، والطيرَ من البيضة، والشجرة من الحبة، والمؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل.

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: النطفةَ من البشر، والبيضةَ من الطير، والحبَّ من الشجرة، والكافر من المؤمن، والجاهل من العالم.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ الميتة اليابسة[1] ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات في الربيع.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: أي: يخرجكم الله من قبوركم، دلَّ بها على البعث بعد الموت.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: عدَّد في هذه الآيات بعضَ الآيات المنبِّهةِ على كمال قدرته، الدالةِ على وحدانيته، المبطِلةِ قولَ مَن أشرك به شيئاً من خليقته، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن علامات ربوبيته ووحدانيته ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛

---

(١) في (ف): «المائتة»، وليست في (ر).

أي: خلق آباءكم؛ كما قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]؛ أي: قتل آباؤكم، ولأن الولد فرعُ الوالد فكان مخلوقاً مما خلق أصله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾: أي: آدميون عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما فيه قِوامُ معاشكم، فلم يكن الله ليخلقكم هكذا عبثاً، بل يتعبَّدكم بشكره ثم يجزي المحسنَ بإحسانه والمسيء على إساءته، فإذا تفرَّد بخلقكم فهو المنفردُ باستحقاق العبادة له.

***

(٢١) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أي: نساء تَزْدِجون[1] معاً ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ أي: لتكون نساؤكم سكَناً لكم تطمئنون إلى معاشرتهنَّ وقضاء اللذات منهن.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾: أي: في الشباب[2] وحالَ قيام الشهوة.

﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: في حالة الكبر وقِدَم الصحبة يودُّ كلٌّ واحدٍ من الزوجين صاحبَه حالَ شبابهما، ويرحمه ويعطف عليه حالَ كبرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من نطفة الرجال.

وقيل: أي: حواء خلقت من نفس آدم، والأولاد راجعون إلى الأصل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: لأنه إذا تفكَّر بالعقل السليم

---

(١) في (أ): «تزوجون».

(٢) في (ر) و(ف): «النساء».

تبيَّن[1] له بذلك أنه لم يكن كذلك إلا لِقوام الدنيا بوقوع التناسل فيها إلى الأجل المعلوم، وذلك إنما هو لأن الدنيا دارُ عمل وامتحان، ولا بد بعدها من دارِ حسابٍ وجزاء، وفي ذلك إثباتُ البعث، ويتدرَّج بذلك إلى إثبات الأنبياء والشرائع.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وكانت العرب مقرِّين بأنَّ الله تعالى هو المنفرد بخلقهما، ومَن قدر على خلقهما على ما فيهما من عجائب الصَّنعة وبدائع الخِلقة لم يُعجزه البعث بعد الموت، ولم يجز أن يشرَك به مَن لا يمكِنه خلقُ مثلهما.

ثم في ذلك دلالة أن لهما صانعاً ومدبِّراً؛ لِمَا فيهما من آثار الصنعة وعلامات الحدوث، وإذا استحال أن يكون خلَقَهما أحدٌ من البشر، واستحال أن يكونا بأنفسهما من غيرِ صانع، دل على أن لهما خالقاً، وهو حجة على كلِّ ملحد ومشرك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: والألسنة: اللغات والأصوات، والألوان: الصور والهيئات، وذلك أبينُ الدلالات، فإن الأصل واحد وهو التراب والماء، وفي الحال لحم ودم وعظم وعصب وعرق وجلد، وتختلف النغمات واللغات، وتتفاوت الألوان والكيفيات، بحيث لا يُشبه وجهٌ وجهاً على اتحاد الصورة، ولا تُشبه نغمةٌ نغمةً على اتحاد الآلة، فدل ذلك على كمال قدرته ونفاذ مشيئته، وفيه إثبات خلق الأفعال والأقوال.

---

(١) في (ر) و(ف): «تميز».

والحكمة في إثبات هذا الاختلاف: وقوعُ التعارف، وتميُّز الأشخاص؛ لتَتِمَّ أسباب التعامل في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾: قرأ عاصم في رواية حفصٍ بكسر اللام؛ أي: فيه حجج لقوم يعلمون؛ أي: يرجعون إلى علمٍ وإدراكِ حقائق الأمور، ولا يقصُرون همهم على علم الظاهر من الحياة الدنيا، وقرأ الباقون بفتح اللام[1]؛ أي: فيه حُججٌ وأعلام على الحق للخلق كلِّهم جنِّهم وإنسهم، وملائكتهم وشياطينهم؛ لأن[2] كلًّا منهم متعبَّد.

***

(٢٣) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي: ومن أعلام[3] وحدانيته وكمالِ قدرته ومُجازاتِه العبادَ في آخرته: نومُكم الذي هو راحةٌ لأبدانكم، وجمامٌ[4] من أشغالكم؛ ليدوم لكم البقاء في الدنيا إلى آجالكم، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أيضاً على حسَب الحاجة، فإذا تنبَّهتم[5] من منامكم انتشرتُم لمعاشكم تطلبون من فضل الله، وهو القوتُ وغيره الذي به قِوامُ[6] الحياة.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٥).

(٢) في (ر) و(ف): «أن».

(٣) في (ر) و(ف): «علامة».

(٤) الجمام: الراحة. وتحرفت في النسخ إلى: حمام.

(٥) في (ف): «إذا انتبهتم».

(٦) في (ر) و(ف): «قيام».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: أي: يُصْغون إلى هذا التذكير ويتدبَّرون فيه.

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يعني: أنْ يريكم، يقول: ومِن أعلامه ما يُنزِّل من المطر من السحاب[١] ليُخرج به النباتَ من الأرض متاعاً لكم ولأنعامكم؛ لحاجتكم إلى ذلك في ظَعْنكم وإقامتكم[٢] ويقدِّم قبل المطر البرقَ بشارةً به، وفيه طمعٌ في الغيث وخوفٌ من الصواعق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يتفكَّرون بعقولهم في جميع ما ذكرنا من وجوه الدلالة بهذه الآيات[٣].

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾: قال الفراء: أي: تدومان قائمتين بأمره بلا عَمَدٍ[٤]، ثابتَتين تماماً لمنافع الخلق.

---

(١) في (أ): «السماء».

(٢) في (ر): «ومقامكم».

(٣) في (أ): «الآية».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٣).

وقيل: ﴿تَقُومَ﴾؛ أي: تقف وتسكن بإقامته.

وقيل: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: أمرهما الله بذلك، وقيل: أي: بأمره بالعدل، وفي الخبر: بالعدل قامت السماوات والأرض[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: أي: وهو القادر على أن يُخرجكم من الأرض أحياءً للحساب بعد الموت، لا تمتنعون عليه إذا دعاكم كما لا[٢] تمتنع السماوات والأرض من القيام بأمره.

وقيل: معناه: إذا دعاكم دعوةً وأنتم في الأرض أمواتٌ إذا أنتم تخرجون أحياءً، كما يقول الرجل لآخر: دعوتُك من البستان فلم تخرج؛ أي: وأنت في البستان.

وقيل: هو مؤخَّر، وتقديره: إذا أنتم تخرجون من الأرض.

وقيل: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ توسُّعٌ، ومعناه: إذا أخرجكم؛ لأنهم ليسوا هناك بمحلٍّ يُدعون ويُؤمرون ويُنهون.

وقيل: هي النفخة الأخرى، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢].

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: أي: مطيعون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مطيعون في الحياة والنشور والموت، عاصون في العبادة[٣]، ويتصل بقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ١٠٢٠): لم أجده.

(٢) في (أ) و(ف): «لم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٣).

وقيل: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ أي: مطيعون بإقرارهم بأنه ربُّهم وخالقهم؛ قاله قتادة[١].

وهـذا فـي مشـركي العـرب، فأما مَـن أنكـر الصانـع فقُنوتـه لله شـهادةُ خلقته علـى أن الله خلَقـه.

وقيـل: هـو فـي حق أهـل السـماء على العمـوم، وفي حـق أهـل الأرض على الخصوص.

وقيل: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يومَ القيامة، فقد ذكره بعد قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةً﴾ يعني: نفخةَ إسرافيل بالبعث، يقول في الصور: أيتها الأجساد البالية، والعظام النَّخِرة، والعروق المتمزِّقة، واللحوم المتشتِّتة[٢]، قوموا إلى محاسبةِ ربِّ العزة.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾: أي: هـيِّـنٌ عليه؛ أي[٣]: يسير. قال الشاعر:

تمنَّـى رجـالٌ أنْ أمـوتَ وإنْ أمُـتْ فتلك سـبيلٌ لسـتُ فيهـا بأوحَـدِ[٤]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٤).

(٢) في (ر): «المتلبثة»، وفي (ف): «المنبتة».

(٣) «هين عليه أي» ليس في (ر).

(٤) نسب لطرفة في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٣٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٨)، ونسبه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٥) للشافعي، و(٥/ ٤٩٢) لطرفة.

أي: بواحد. وقال الفرزدق:

إن الـذي سـمَكَ السـماء بنـى لنا بيــتاً دعائمُـه أعزُّ وأطـولُ[١]

أي: عزيزة طويلة.

وقيل: الإعادة أيسرُ من البداية[٢] في تَعارُفكم فيما تبتدِئون فعلَه وتعيدونه.

وقيل: أي: فيما تصوِّرون في أنفسكم من ابتداء الشيء من غيرِ شيء ثم إعادتِه بعد أن بَلِيَ وتفرَّقت أجزاؤه.

وقيل[٣]: أهونُ عليه بما يتوهَّمون؛ كقولك للرجل تريد أن تصف له سهولة الأمر وخفَّته: هو أهونُ عليَّ من ذلك، ثم تحذف (من ذلك).

وقيل: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على المخلوق من الابتداء؛ لأنه في الابتداء يخلقُ[٤] نطفةً ثم علقةً، ثم تمر عليه[٥] التارات، ثم يولد ويكون[٦] طفلاً ثم رضيعاً، ثم بعد الفِطام[٧] غلاماً، ثم شابًّا ثم كهلاً ثم شيخاً، فأما الإعادةُ فإنه يُبعث بشراً عاقلاً، فهذا أهونُ عليه في المتعارف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: الوصفُ الأرفعُ؛ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٨] [الرعد: ٣٥]؛ أي: صفتُها.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص: ٧١٤)، و«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (١/ ٣٥٤).

(٢) في (ف): «البدو».

(٣) في (ر) و(ف): «وهو».

(٤) في (ر) و(ف): «بخلق» بدل: «لأنه في الابتداء يخلق».

(٥) في (ر) و(ف): «على» بدل: «ثم تمر عليه».

(٦) «ويكون» من (أ).

(٧) في (أ) و(ف): «طفلا ثم بعد الرضاع فطيماً ثم».

(٨) في (ر): «مثل الحياة»، وفي (ف): «مثل الحياة الدنيا».

قال قتادة: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: بيَّن الله لكم معاشرَ المشركين مَثَلاً من أنفسكم لتقريبِ الأمر من أفهامكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾: أي: هل لكم معاشرَ الأحرار من عبيدكم شركاء ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾؛ أي: فأنتم معاشرَ المالكين والمملوكين في ذلك الرزقِ سواءٌ يَحكم مماليكُكم في أموالكم كحُكْمِكم ويتصرَّفون فيه تصرُّفَكم.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: وتخافون أنتم معاشرَ السادة عبيدَكم فيه، فتشفِقون عن[٢] أن تأمروا فيه بأمرٍ دون أمرهم، فلا تُمضون فيه حكماً دون إمضائهم[٣]؛ خوفاً من لائمةٍ تلحقُكم من جهتهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٩).

(٢) في (أ): «وتتوقفون على»، وفي (ف): «فيتفقون على»، بدل: «فتشفقون عن».

(٣) في (أ): «بدون إذنهم» وفي (ف): «بدون رأيهم».

﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: كما يخاف بعضُ الأحرارِ بعضاً أن ينفرِد بأمرٍ(١) مشتركٍ بينهم.

وقيل: تخافونهم أن يرثوكم بعد موتكم.

وهو استفهامٌ بمعنى التقرير؛ أي: فإذ لم يكن هذا هكذا فيما بينكم، بل لا يستحقُّ العبد شركةً مع سيده فيما يملكه، فكيف استجَزْتُم هذا المعنى في حقِّ الله تعالى فأشركتُم به عبيده؟ وكيف رضيتُم له بما لا ترضونه لأنفسكم؟ وفي ذلك تسفيهٌ لأحلامهم وتعجيبٌ من فعلهم(٢).

قال قتادة: كما لا يرضى الإنسان أن يكون عبده مشاركاً له في فراشه وزوجه، كذلك لا يرضَى ربُّه أن يُعدَل به أحدٌ من خلقه(٣).

وقال أبو مِجْلَزٍ: تخافونهم في المال أن يقاسموكم إياه كما تخافون الشريك من نظرائكم(٤).

وقيل: معناه: هل تنبسط أيديهم في أموالكم وتخافون منهم إتلافَها كما تنبسط أيديكم فيما تملكون وتخافون من جهتكم إتلافها وإنفاقها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: أي: كما بيَّنَّا لكم هذا المثلَ وفصَّلنا لكم الحججَ، كذلك نفصِّل الآيات لقوم يرجعون إلى عقلٍ فيتدبَّرون فيها.

---

(١) في (أ): «فيما هو»، وفي (ف): «هما»، بدل: «أن ينفرد بأمر».

(٢) في (ف): «وتعجيب لفعلهم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٩١).

(٢٩) ـ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ﴿بَلِ﴾ لردِّ ما قبله، وتقديره: ليس إصرار هؤلاء المشركين لانقطاع الحجج وتأخُّرِ الإرشاد، بل يتَّبعون ما تميلُ إليهم نفوسهم اتِّباعاً لسلَفهم بغيرِ علمٍ أتاهم من الله، وبغيرِ معرفةٍ منهم بصوابِ ما هم عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: فلا هاديَ لمن أضله الله.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: جمعَ لأن (مَن) للجنس، فبَدأ بالتوحيد للَفْظه وجمَعَ في آخره لمعناه، ومعناه: فلا مانع لهم من العذاب يوم القيامة كما لا هاديَ لهم في الدنيا.

* * *

(٣٠) ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾: الخطاب للنبيِّ ﷺ والمعنى لأمته؛ أي: قد بان لكم بطلانُ الشرك بما أوضحنا لكم من الآيات، فلا تلتفتوا إلى أهله وأقيموا وجوهكم للدِّين الحقِّ مستقيمين عليه؛ أي: أقبِلوا بقلوبكم على[1] ذلك، وانحرفوا عن غيره من الأديان؛ كمَن قصد موضعاً يقيم[2] وجهه إلى سَمْته عالماً أنه لو انحرف عنه ضلَّ عن مقصده.

---

(١) في (أ) و(ف): «إلى».

(٢) في (أ): «يتم».

وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: أي: خلقةَ الله، نصبٌ على الإغراء؛ أي: الزَموا هذا الدِّين الحقَّ فإنه فطرةُ الله ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: خلَقها عليها؛ أي: على خلقةٍ تَشهد أن لها صانعاً وتدل على التوحيد.

وقيل: أي: فطر الناس لها، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، واللام و(على) متعاقبان، يقال: ما على هذا بعثتُك، وما لهذا بعثتُك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا يتهيَّأ لأحد تبديلُ هذه الخلقة وتغييرُها عن هذه الدلالة بإقامةِ حجةٍ على ضدها، إنما يُورد الناس الشُّبَهَ على الحجج ليستزِلُّوا بها الناس، فمَن تأمَّلها بان له بطلانُها.

وقيل: معناه: خلق الله العباد ليأمرهم بالإسلام، فلا يمكنُ تبديل ذلك وجعلُهم بغيرِ ذلك الدِّين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: المستقيم، وهو ما ذكر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: ولكن الجهل غالب على كثير من الناس لتقليدهم الأسلافَ وتركِهم التأمُّلَ.

وقيل: أي: ولكنَّ قريشاً[1] لا علم لهم[2] فلذلك ضلُّوا عن هذا الدين، ولو كانوا علماء لم يَدينوا[3] بغيره.

* * *

(١) في (ف): «ولكن عبدوا من».

(٢) بعدها في (ف): «به».

(٣) في (ر): «يتدينوا».

(٣١) ـ ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾: أي: أقمْ وجهك للدِّين أنت وأمتُك راجعينَ إلى الله بآمالكم مقبلين عليه بقلوبكم وأعمالكم، وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، لأن أمر النبيِّ عليه السلام أمرٌ لأمته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: اتَّقوا الله واحذروه، يعني: مخالفتَه في[١] الأمر والنهي.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أديموها لأوقاتها.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أي: اتَّقوه وحده، وأنيبوا إليه وحده، وأقيموا الصلاة له وحده، ولا تكونوا ممن يشرك به غيره في العبادة.

وقيل: هذا يتصل بما قبله: وأقيموا الصلاة ولا تتركوها فشؤمُ تركها قد يفضي إلى الكفر.

قال محمد بنُ أسلمَ الطوسيُّ[٢]: بلغني عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن ترك صلاة متعمِّداً فقد كفر»[٣]، وكان بلغني عن النبيِّ عليه السلام أنه قال: «إذا رُوي لكم عنِّي

---

(١) في (أ): «يعني مخالفة».

(٢) محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد، أبو الحسن الكندي مولاهم، الطوسي، من حفاظ الحديث، اشتهر بالصلاح، ونعته الذهبي بشيخ المشرق، صَنَّف: «المُسند»، و«الأربعين»، وغيرَ ذلك. توفي سنة (٢٤٢هـ).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٣٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «من ترك الصلاة...». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٩٥): (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون إلا محمد بن أبي داود فإني لم أجد من ترجمه).

وله شاهد من حديث بريدة رضي الله عنه، رواه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه =

حديث فاعْرِضوه على كتاب الله تعالى، فإنْ وافقَ كتابَ الله فاقبَلوه، وإن خالفه فردُّوه»[1]، فطلبتُ صحةَ الحديث الأول في القرآن ثلاثين سنة حتى وجدتُه في هذه الآية.

***

(٣٢) ـ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

ثم وصف هؤلاء المشركين فقال: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾: أي: عبدوا أصناماً متفرقةً، كلُّ قوم يعبدون صنماً غيرَ صنم الآخرين، واختار قوم اليهودية، وقومٌ النصرانيةَ، وقومٌ المجوسيةَ، وكذا وكذا.

وقرئ: ﴿فارَقوا دينهم﴾[2]؛ أي: جانَبوا الدِّين الذي فطرهم الله تعالى عليه وشهدتْ خلقتُهم به، فلمَّا فارقوا دينهم اتَّبعوا الأهواء على غيرِ علمٍ فاختلفوا.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾: أي: صاروا فرقاً كلُّ فرقةٍ تشايع[3] مَن وافقَها على هواها.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾: مسرورون لتوهُّمهم أنهم على حقٍّ وأنَّ مَن خالفه باطلٌ، وليس كذلك بل كلُّهم على باطل.

وقال أبو العالية ومقاتل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ يعني: أَخذ الميثاق عليهم حين أخرجهم من صُلب أبيهم آدم عليه السلام وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢][4].

= (١٠٧٩). قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(١) انظر: «الموضوعات» للصغاني (ص: ٧٦).

(٢) قراءة حمزة والكسائي، وقرأ الباقون: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(٣) في (ر) و(ف): «تتابع».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤١٣)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٧)، وابن أبي حاتم في =

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كما تُنتجُ البهيمةُ [بهيمةً جمعاء] هل تُحسون فيها من جدعاء؟» ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: أي: وإذا أصاب هؤلاء المشركين بلاءٌ من مرض ونحوِه استغاثوا بالله في كشفِ ما نزل بهم مقبِلين بالدعاء إليه وحده دون الأصنام؛ لعلمهم أنه لا فرج عندها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: أي: ثم إذا أعطاهم من ذلك الضرِّ عافيةً ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: إذاً وجدتَ فريقاً منهم يشركون[2] به في العبادة.

* * *

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: أي: يفعلون ذلك ليكونوا كفاراً بما أنعم الله عليهم من كشفِ الضرِّ وإبداله بالعافية فيجحدون ذلك.

= «تفسيره» (٥/ ١٦١٥)، من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، وما بين معكوفتين منهما.

(٢) قوله: «أي إذا وجدت فريقاً منهم يشركون» ليس في (ر).

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: أي: يا معاشر المشركين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمركم من عقوبة الله.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾: أي: ما[1] أنزلنا، استفهامٌ بمعنى النفي، أو قدر هاهنا ألفُ الاستفهام ثم عطف عليه بـ﴿أَمْ﴾، يقول: أيفعلون هذا بحجةٍ جاءتهم من السماء أنزلناها عليهم فهم لذلك معذورون في الشرك في الرخاء مع إخلاصهم في الشدة؟ أي: فليس كذلك، إنما الشركُ هوًى لا حجة عليه.

والسلطان: الحجة، وذاك قد يكون بكتاب من السماء وقد يكون برسول وقد يكون بغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾: أي: فهذا السلطانُ يوضِّح عذرَهم في الإشراك بالله ويأمرهم بذلك، فإن كان السلطان رسولاً فكلامه حقيقةٌ، وإن كان كتاباً فكلامه ذكر على وجه التوسُّع والمجاز؛ لأنه للإبانة كالكلام، قال أبو العتاهية:

وعَظَتْــكَ أجــداثٌ صُمُتْ ... ونَعَــتْكَ أزمنــةٌ خُفُــتْ
وتكلَّمــتْ عــن أوجــهٍ ... تَبْلى وعــن صــورٍ سَـبَتْ
وأَرَتْــكَ قبــرَكَ فــي القُبــو ... رِ وأنــت حــيٌّ لــم تَمُــتْ[2]

***

(٣٦) ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

---

(١) «ما» ليست في (أ) و(ف).

(٢) انظر: «الشعر والشعراء» (٢/ ٧٨٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾: خصباً وسعة برحمة منا ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾؛ أي: أظهروا بها سروراً.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾: أي: أمرٌ يَسُوءهم من قحطٍ ومجاعة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بسبب معاصيهم، وقيد باليد لأن أكثر العمل وأظهرَه باليدين.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾: أي: وجدتَهم يجزعون فعلَ الذين عن رحمة الله ييأسون، ولم تدخل الفاء في قوله: ﴿إِذَا هُمۡ﴾ لِمَا قلنا: إنَّ تقديره: وجدتَهم، وإذا كان الجواب بالفعل لم يَحتجْ إلى الفاء.

* * *

(٣٧) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾: أي: قد رأى هؤلاء أن الله يوسِّع الرزقَ ابتداءً ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ أي: يضيِّق، فليس يجب أن يدعوَهم التضييق في الرزق إلى القنوط من رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: لعلاماتٍ لأهل الإيمان على أن التضييق في الرزق والتوسعةَ فيه على ما سبق من علمه وإرادته.

* * *

(٣٨) ـ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: فأعطِ قريبك حقَّه من البرِّ والصلة والمواساة، وأعطِ الفقير والغريب حقوقَهم، فليس فقرُهم وغناك إلا لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ أي: وليس فقرُ القفير لهوانه على الله ولا

غنَى الغنيِّ لكرامته على الله، لكن امتحَن عباده بالفقر والغنى، وآتِـهم حقوقَهم من مال الله[١] قِبَلك[٢]، فإنه وإن كان قتَّر عليهم فقد[٣] أوجب مقدارَ كفايتهم عليك.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: وهو إيتاءُ هؤلاء حقوقهم ﴿خَيْرٌ﴾ لك من بُخلك بمالك.

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: أي: يطلبون به التقرُّب إلى الله ونيلَ ثوابه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الفائزون ببقاء الأبد ودَركِ الطلب.

❊ ❊ ❊

(٣٩) ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: وما أعطيتُم أحداً من شيء طلبَ الازدياد به لتَزيدوا من أموالهم في أموالكم ـ وهو أن يكون العطاء طلباً للمكافأة في الدنيا والاستكثار ـ فإنه لا يزداد عند الله؛ أي: لا يضاعَف لكم أجره؛ لأنكم قد نلتُم أجرَ ذلك في الدنيا بإعطائكم إياه، فلا مكافأة لكم عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾: أي: وما أَعطيتم من شيء تلتمِسون به الطُّهرة من الذنوب، والجزاءَ في الآخرة لا في الدنيا، وهو قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: التقرُّبَ إلى الله.

---

(١) في (أ): «حقوقهم بالله».

(٢) «قبلك» ليست في (ف).

(٣) في (ف): «فإنه».

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: أي: الواجدون الضِّعفَ؛ أي: الإضعافَ بالواحدة العشرةَ إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي هبةُ الرجل يَهَب الشيءَ يريد أن يثاب أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله؛ أي: لا يؤجَرُ فيه صاحبه ولا إثم عليه، قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال: هي[1] الصدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[2].

* * *

(٤٠) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: رجع الكلام إلى محاجَّة المشركين، يقول: هذه قدرة الله لا يُعجزه شيء، فهو الخالق وحده والرازق وحده والمميت وحده والمحيي وحده.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾: أي: هل ممن جعلتُموهم شركاء لله مَن يفعل شيئاً من ذلك؛ أي: فإذا كانوا لا يفعلون شيئاً من ذلك فكيف أشركتموهم بي؟

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تقدَّس الله وتنزَّه عن أن يكون له شريك، وهو أمر بتنزيهه سبحانه.

* * *

---

(١) في (ر): «هي مال».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٨١)، وليس في مطبوعه: عن ابن عباس.

(٤١) ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: قال الفراء: أي: أجدبَ البرُّ وانقطعت مادةُ البحر بذنوبهم، كل ذلك ليذوقوا الشدةَ بذنوبهم في العاجل(١).

ويتصل هذا بقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وبقوله: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، وضِيقُ الرزق بشؤم المعصية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٠]، وسعةُ الرزق بالإيمان والطاعة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وعلى هذا الفسادُ بمعنى عقوبة الفساد؛ كجزاء السيئة يُسمى سيئةً.

وقيل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾؛ أي: غلب أهلُ الفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَ القرية ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: ٤]؛ أي: أهلِ قرية، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: بسبب معاصي الناس، وهو كقول النبي ﷺ: «إذا غضب الله على قومٍ سلَّط الله عليهم شرارَهم في البر والبحر»(٢).

قيل: هما على ظاهرهما؛ البرُّ: المفازة، والبحر: موضع(٣) الماء الكثير.

وقال مجاهد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: ما في البر فهو قتلُ ابنِ آدم أخاه، وما في البحر فهو جُلندَى الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً(٤).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (ر) و(ف): «البر المفاوز والبحر مواضع».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٧٧٦١)، رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥١٢).

وقيل: البرُّ بلادٌ ليس فيها[1] ماءٌ جارٍ، والبحر بلاد فيها ماء جارٍ[2].

وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، أي: يعاقبهم في الدنيا على بعض[3] ما عملوا فيها من انتهاك المحارم، وكمالُ الجزاء يكون في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ليرجع مَن سوى هؤلاء المعذَّبين اتِّعاظاً بمن عذِّب مِن جنسهم.

وقيل: أي: ﴿ظَهَرَ﴾ أثرُ الفساد وهو عقوبةُ أهل الفساد ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ بإهلاك القرى ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ بتغريق فرعون وقومه، ولذلك قال بعده:

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾: أي: قل لأهل مكة: سافروا فانظروا في بلاد عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ ونحوها كيف أهلكناهم وخرَّبنا ديارهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾: يقول: قد بلغ الإعذار مبلغه فلا تهتمَّنَّ بإعراض هؤلاء واقصِدْ أنت الطريقَ الذي يُسلك بك إلى الدِّين المستقيم، وهو ما تقدم ذكره: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

---

(١) في (أ): «بها».

(٢) في (أ): «مياه جارية».

(٣) بعدها في (أ): «جزاء».

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: لا يردُّه الله وإذا لم يردَّه هو لم يستطِعْ أحدٌ ردَّه، فهو آت لا محالةَ وهو يوم القيامة فاستعِدُّوا له.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾: أي: يتفرَّقون، وأصله: يتصدَّعون، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ الآية [الزلزلة: ٦] وبيَّنه هاهنا أيضاً فقال:

* * *

(٤٤ ـ ٤٥) ـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: أي: ضررُ كفره وعقوبةُ كفره في دار الجزاء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾: أي: يوطِّئون مقارَّ[1] أنفسهم في القبور، وقيل[2]: في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: متصلٌ بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ... لِيَجْزِيَ﴾؛ كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] يقول: إنهم يتفرقون في المنازل ليتميَّز الكافر من المؤمن ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وحده ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ له وحده ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: بفضله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: فيسويهم بالمؤمنين، بل يُبغضهم فيميِّز بينهم وبينهم، فيعاقب الكافرين عذاباً غيرَ منقطعٍ وذلك عدل منه، ويثيب المؤمنين ثواباً غيرَ منقطعٍ وذلك فضل منه.

* * *

---

(١) في (ر) و(ف): «مهاد».

(٢) «قيل» زيادة من (أ).

(٤٦) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ثم عاد الكلام إلى ذكر الآيات، يقول: ومن الأعلام الدالة على قدرته إرسالُ الرياح ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ أي: بالمطر لأنها تتقدمه وتُطمع فيه على العادة، يُرسلها ليبشِّر بها ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: يرزقكم من نعمته التي يرحمُكم بها ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحار ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بهذه الرياح، ولتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة في البحار والجهادِ فيها واصَلَ لكم هذه النعمة لتشكروا له عليها فتستحِقُّوا نِعَم الآخرة بشكركم على نعم الدنيا، وإذا كان فعَل ذلك ليستأديهم شكرَه فلا بد من التمييز بين مَن أطاعه بذلك وبين مَن عصاه، وإذا لم يميز في الدنيا وقع ذلك في دار الآخرة[1]، وفي ذلك إثباتُ البعث.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: للدعاء إلى الإيمان وشكر النعم.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالحجج الواضحات، فآمن بهم البعضُ وكفر بهم البعض.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ﴾: أي: كفروا، بالإهلاك في الدنيا.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: ونصَرْنا المؤمنين بهم، فأنجيناهم من

(١) في (أ): «أخرى».

العذاب ومنعناهم من الكفار إذ كنا وعدناهم ذلك، وكان حقًّا علينا بوعدنا الذي لا خُلف فيه أن ننصرَ المؤمنين، فعَلْنا ذلك بالأوَّلين وكذلك نفعلُ بالآخِرين، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين.

***

(٤٨) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: عاد الكلام إلى ذكر آياته بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ فيبعث الرياح سحاباً؛ أي: فينشأ عند مجيء الريحِ السحابُ، أضاف الفعلَ إليها بطريق التسبيب[١].

وقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: أي: يبسطه الله في السماء في أيِّ موضع يشاء، وعلى أيِّ قَدْرٍ يشاء، فيكون المطر في ذلك الموضعِ على ذلك القَدْر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: أي: ويجعل الله السحابَ قطعاً يركَب بعضُه على بعضٍ حتى يَكْثف.

قرأ ابن عامر: ﴿كِسْفًا﴾[٢] ساكن السين، وقرأ الباقون بفتحها[٣]، والواحدة: كِسْفةٌ، والجمع: كِسَف، بفتح السين وتسكينها.

---

(١) في (ر): «التسبب».

(٢) في (أ): «قرأ ابن عباس في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر». ولعل «ابن عباس» محرف عن (ابن عامر)، وانظر التعليق الآتي.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥) عن ابن عامر من رواية ابن ذكوان، واختلف فيه عن هشام، وهما راويا ابن عامر. وقرأ بها من العشرة أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٩).

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾؛ أي: وسطِ السحاب مع كثافته وغلظته.

وقيل: فيبسطه في السماء مرةً ويجعلُه كسَفاً مرة؛ أي: يجعله منبسطاً يأخذُ وجهَ السماء مرةً، ويجعله قطعاً متفرقةً غيرَ منبسطةٍ مرةً.

وقيل: فيه تقديم وتأخير: يجعله كسفاً ـ أي: قطعاً متراكمةً ـ ثم يبسطه في السماء كيف يشاء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: فإذا أصاب بالودق مَن يشاء من عباده أن يصيبه به استبشروا[1] به؛ أي: فرحوا فرحاً يظهر ذلك في بشرات وجوههم طمعاً في الخصب، ثم مع هذا الموقع إنهم[2] يشركون به غيره ممن لا يقدر على ذلك.

***

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: وما كانوا من قبلِ أن ينزَّل عليهم الودْقُ من قبلِ ظهور السحاب إلا مُكتئبين[3] باحتباسه عنهم اكتئابَ الآيس من الشيء، حتى يظهرُ ذلك في وجوههم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في

---

(١) في (ر): «إذا هم يستبشرون»، بدل: «استبشروا».

(٢) في (ر) و(ف): «أهم».

(٣) في (ر) و(ف): «مبلسين».

رواية حفص[1]: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ على الجمع[2]، وقرأ الباقون: ﴿إلى أَثَر﴾ على التوحيد، والمعنى واحد؛ لأن المراد: ما[3] أثَّر المطر، وهو يؤدي معنى الجمع، فانظر إلى آثار رحمة الله.

﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: أي: فانظروا بعقولكم إلى ما أثَّره المطر من إنبات العشب[4] وأصناف النبات كيف أحييتُ الأرض بذلك بعد أن كانت ميتة؛ أي: كيف اهتزَّت بعد أن كانت هامدةً، فاستدِلُّوا بذلك على أن الذي قدر على إحيائها يقدر على إحياء الموتى أيضاً لأنه قادرٌ على كل شيء.

***

(٥١) ـ ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾: أي: ولئن أرسلنا ريحاً على ذلك مُفسدةً، فرأوا ما أثَّر المطر من الزرع قد اصفرَّ بتلك الريح المفسِدة، لظلُّوا من بعد استبشارهم يكفرون بربهم، وهو تعجيبٌ من جهلهم وخفَّةِ عقولهم في عبادتهم لله تعالى على شكٍّ؛ كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ الآية [الحج: ١١].

وقيل: كانوا إذا استبطؤوا المطر سألوا الله، فإذا حُبس عنهم كفروا بالله تعالى.

---

(١) في (أ): «قرأ ابن عباس وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص والمفصل»، ولعل الأول محرف عن (ابن عامر) والأخير محرف عن (المفضل). وانظر التعليق الآتي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥)، عن ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص.

(٣) في (أ): «ماء» وليست في باقي النسخ، ولعل الصواب المثبت.

(٤) في (ف): «من الإنبات للعشب».

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾: يقول بعدما أقام الحجج وامتنع المشركون عن الإيمان: فإنك يا محمد لا يمكنك أن تُسمع مَن لا روح فيه من الأموات، وهؤلاء الكفار بمنزلةِ الأموات كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]؛ أي: ولا يتهيأ لك إسماعُ الصم ما تدعوهم إليه إذا أعرضوا عنك وتباعَدوا عن السمع منك، وهؤلاء الكفار كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾: أي: ولا يتهيَّأ لك يا محمد أن تهدي الأعمى إلى طريقٍ قد ضلَّ عنه بإشارةٍ منك له إليه مع ذهاب بصره.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: ما يَسمع مواعظَ الله إلا المؤمنون الذين فتح الله تعالى على[1] أسماعهم المصدِّقون بآيات الله.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي: خاضعون منقادون لأحكام الله.

* * *

(٥٤) ـ ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾: قرأ عاصم وحمزة بفتح[2] الضاد في جميعهن، والباقون بالضم،

---

(١) «على» من (ف).

(٢) في (أ): «قرأ حمزة وعاصم غير المفضل بنصب» وفي (ف): «قرأ عاصم وحمزة بنصب».

وهو اختيار خلف وحفص[١]، وعن عاصم[٢] في رواية ضمُّ الأُولين وفتح الثالثة[٣].

وقيل: الضُّعف بالضم: ما كان أصلاً وبالفتح ما كان عارضاً[٤].

يقول: الله الذي خلقكم من نطفةٍ ضعيفةٍ كما قال تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

وقيل: أي: ﴿خَلَقَكُم﴾ على صفةِ[٥] ﴿ضَعْفٍ﴾ في الأوَّل وهي حالة الصغر والطفولية، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾؛ أي: حالةَ الشباب وبلوغِ الأشُدِّ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ وهي حالة الهرم، وقوله تعالى: ﴿وَشَيْبَةً﴾؛ أي: بياضَ شعر، وقال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] فيعود في ضعفه وانقطاعه عن التصرُّف إلى مثل[٦] ما كان عليه في حال طفوليته، فمَن قدِر على هذا[٧] قدِر على إحياء الموتى، وكما يَردُّ الحيَّ في آخر حياته إلى أولِ[٨] خلقه فغيرُ بعيدٍ أن يردَّه بعد موته إلى ما كان عليه في أول أمره.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٥ ـ ١٧٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٥). قال الداني: روى حفص عن عاصم بفتح الضاد فيهنَّ، غير أنه ترك ذلك واختارَ الضَّم اتِّباعاً منه لروايةٍ حدثه بها الفضيل بن مرزوق عن عطيَّة العوفيّ عن عبد الله بن عمر: أن النَّبي عَلَيْهِ السَّلَام أقرأه ذلك بالضمِّ وردَّ عليه الفتحَ وأباه، وعطية يضعَّف، وما رواه حفص عن عاصم عن أئمَّته أصح، وبالوجهين آخذ في روايته لأتابع عاصمًا على قراءته وأوافق حفصاً على اختياره.

(٢) في (ر) و(ف): «وعن عاصم بالضم في رواية وعنه» بدل: «وهو اختيار خلف وحفص وعن عاصم».

(٣) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٧).

(٤) في (ر): «أصليًّا.. عارضيًّا».

(٥) «صفة» من (أ).

(٦) «مثل» من (أ).

(٧) في (ر): «ذلك».

(٨) في (أ): «أصل».

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: من صِغَرٍ وكِبَرٍ، وضَعفٍ وقوةٍ، وشبابٍ وشَيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح خلقه وبلوغِ مَن بلغ منهم الشبابَ والكهولةَ والهرمَ ومَن انقطع منهم قبل ذلك، والعليم بوقت البعث ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على كل شيء.

* * *

(٥٥) ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾: أي: يحلف هؤلاء المشركون المنكرون للبعث أنهم ما لبثوا في الدينا إلا ساعةً من نهار.

وقيل: أي: ما لبثوا في قبورهم إلا ساعة؛ أي: يستقلُّون مدةَ كونهم في القبور أو كونهم في الدنيا؛ لهول يوم القيامة وطولِ مقامهم في الآخرة وشدةِ العذاب فيها.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يقولون: لم نلبث في الدنيا إلا ساعةً كيف عملنا فيها المعاصيَ؟! وهذا إنكارٌ منهم للذنوب[١].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصْرَفون في الدنيا عن الصِّدق إلى الكذب، وكانوا يحلفون على الكذب ويقولون: ما هي إلا حياتُنا الدنيا، ولا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاء، فكذلك قالوا في الآخرة: ما لبثنا في الدنيا ـ أو: في قبورنا ـ إلا ساعة.

وقيل: أقسموا عليه لأنه كان عندهم كذلك، وكانوا عند أنفسهم صادقين، وذلك أنهم في الآخرة لا يتعمَّدون الكذب، ومعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: يُصْرَفون عن الصواب فيقولون يوم القيامة ما لا يعلمون كما كانوا يقولون في الدنيا ما لا يعلمون، والتشبيه من هذا الوجه لا في تعمُّد الكذب.

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٢٩٢).

(٥٦) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾: أي: قال المؤمنون بالبعث العالمون به للكفار: لقد لبثتُم إلى يوم البعث كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فقد لبثتم مدةً طويلة إلى أن حضَر يومُ البعث ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ كما أخبر الله تعالى ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾: أي: لا تَرجعون إلى العلم ولا تتدبَّرون فكنتُم تُكذِّبون بالبعث كذلك.

وقيل: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: في حُكم الله.

* * *

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾: أي: كفرُوا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ ﴾: أي: عذرُهم.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾: أي: لا يُطلب منهم الإعتابُ وهو الإرضاء؛ لأنه لا يُقبل فلا يطلب(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾: أي: في التنبيه(٢) على التوحيد وعلى البعث وغير ذلك.

---

(١) في (أ) و(ف): «يطالب».

(٢) في (ف): «في الألسنة»، وليست في (ر).

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾: أي: بمعجزةٍ، أو آيةٍ من القرآن ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾: آتون بالباطل، لا يزيدون على الدعوى بعد إقامة البرهان منكم.

* * *

(٥٩ ـ ٦٠) ـ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فسَّرنا الطبع والختم في أول سورة البقرة، ومعناها هاهنا: كذلك يخذل الله الذين لم ينظروا في أسباب العلم فلم يعلموا، وهذا في حق مَن علم الله منهم اختيارَ الضلال، ودل ذلك على خلقِ الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك ﴿حَقٌّ﴾.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: أي: ولا يَحملنَّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفَّة والعجلة في الدعاء عليهم بالعذاب.

وقيل: أي: ولا يستفزَّنَّك هؤلاء ولا يُغضبُنَّك فتمتنعَ عن تبليغ الرسالة لذلك.

والحمدُ لله علَّامِ الغيوب، الذي ستَر علينا قبائحَ الذنوب، وأَسْبَلَ علينا ذيلَ فضله، ولم يفضحنا بين خلقِه، بسبب المعاصي والعيوب[1].

* * *

---

(١) في (ف): «والذنوب». والكلام من قوله: «والحمد لله علام الغيوب...» إلى هنا ليس في (أ).

سُورَةُ لُقْمَانَ

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الذي آتى لقمان الحكمة، الرحمنِ الذي أسبغَ علينا النعمة، الرحيمِ الذي ينزل الغيث ويكشفُ الغمة.

وروَى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة لقمان كان لقمانُ له يومَ القيامة رفيقاً، وأُعطي عشرَ حسنات بعددِ مَن عمِل بالمعروف ونهى عن المنكر»[1].

وهذه السورةُ مكية إلا آيتينِ نزلتا بالمدينة: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى قوله: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وهي ثلاث وثلاثون آية، وكلماتها خمسُ مئة وسبعٌ وأربعون، وحروفُها ألفان ومئة وعشرون حرفاً[2].

وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنَّ ختمَ تلك بذمِّ الكفار لأنهم لا يوقنون وافتتاح هذه السورة بمدحِ المؤمنين أنهم بالآخرة هم[3] يوقنون.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٩)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٩١٨)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٠٩)، وفيهما: (وكلمها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة، وحروفها ألفان ومئة وعشرة).

(٣) «هم» من (أ).

وانتظام السورتين: أنهما مكيتان، وكلٌّ واحدةٍ منهما في بيانِ وحدانية الله وبيانِ حقِّيَّة الكتاب والرسولِ، ومدحِ المؤمنين وبيانِ حُسن عاقبتهم، وذمِّ الكافرين وبيانِ سوءِ خاتمتهم.

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾: قد بينَّا الأقاويل فيه.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: أي: هذه آياتُ القرآن المحكَم، من قوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ [هود: ١].

وقيل: أي: ذي الحكمة.

وقيل: أي: الحاكمِ، ومعناه: أنَّ فيه بيانَ الأحكام.

* * *

(٣ ـ ٤) ـ ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾: قرأ حمزة بالرفع على الاستئناف؛ أي: هو هدًى ورحمةٌ، وقرأ الباقون بالنصب على القطع[(١)]؛ لأنه نكرة جُعل نعتاً للمعرفة، ومعناه: هذه الآيات يُهتدَى بها إلى سبيل[(٢)] الحق، ورحِم الله بها عباده بأنْ أودعها ما بهم إليه حاجةٌ في دينهم ومصالح دنياهم، فصاروا بذلك محسنين؛ أي: يُحسنون العمل لله تعالى، وخصَّهم بالإضافة لاختصاصهم بالانتفاع بها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(٢) في (أ): «سبل».

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: صفات المحسنين.

***

(٥ ـ ٦) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: وعدٌ لهم؛ أي: هم على الرشاد في الدنيا ولهم الفوزُ في العقبى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: ومن الناس مَن يختارُ على هذا الكتاب الذي مرت صفتُه ومدحُ متَّبعيه ووعدُهم عليه في الدارين[١] حديثاً يُلهيه؛ أي: يَلِذُّه في غير دينه، كأحاديثِ ملوك فارسَ والروم، فيقطع الزمانَ بمثله ويدعو نظراءَه إلى التلهِّي به.

وقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عن دِينه الحقِّ.

وقيل: سبيلُ الله هاهنا هو القرآن وذكرُ الله، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي: جهلاً منه وقلةَ تمييز بين ما يُفيد نفعاً في مصالح الدارين وبين ما يفيد وِزراً وخُسراناً[٣] في الدارين.

وقيل: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر به في الآخرة.

---

(١) في (أ): «في الدار الآخرة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠).

(٣) في (أ): «وخساراً».

وقيل: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صفة المفعول بالإضلال؛ أي: يضلُّ به مَن قلده توهُّماً أنه على علم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: عطف على ﴿لِيُضِلَّ﴾؛ أي: وليتَّخذ سبيلَ الله هُزواً؛ أي: سخريةً يسخر منه وممن اعتقده، ويقول: هؤلاء يضيِّعون أيامهم، ويتحمَّلون أثقالَ شرائعَ على أمرٍ[1] مظنونٍ مشكوك فيه، لا ثمرة له على نَصَبه.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي: هذه الطائفةُ لهم السبي والقتل في الدنيا.

وقيل: لهم العذاب المذِلُّ المخزي في الآخرة.

* * *

(٧) - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾: أي: القرآنُ ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرَضَ[2] عن الاستماع إليه.

﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: متعظِّماً مترفِّعاً عن استماعه واتِّباعه.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي: يعرض عنها كإعراضِ مَن لم يسمعها.

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: وكإعراض مَن في أذنيه ثقلٌ أو[3] صمم.

---

(١) في (أ): «أثقال على أمر»، وفي (ف): «أثقال شرائع أمر».

(٢) في (ف): «﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: مدبراً معرضاً» وفي (ر): «﴿وَلَّىٰ﴾ مدبراً أي: أعرض».

(٣) في (أ): «و».

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]: أي: وجيع، وجَمع في ختم الآيتين[٢] لأنه من جنسٍ أُريد به الجمع، فوحَّد في الابتداء للَفظه وجمعَ في الآخر لمعناه.

وقيل: المراد بالبشرى هو البشرى المعروف.

وقيل: المذكور في الآيتين هو النضر بن الحارث بن علقمة من بني عبد الدار، وهو الذي قُتل ببدر، وكان يتَّجر ويخرج إلى فارس، فيرجعُ بكتب الأعاجم ويقول لقريش: إن محمداً يحدِّثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث كسرى وبهرام[٣].

وقال مقاتل: كان يحدث قريشاً بحديث رستم وإسفنديار وكانوا يستملحون حديثه فيصدُّهم بذلك عن النبي ﷺ[٤].

وقيل: اللهو في هذه الآية: الغناءُ وما يتصل به من الملاهي، وكان منهم مَن يشتري القَينةَ تُلهيه وتغنِّيه، فيقطعُ بذلك أيامه ويُحسن الاستماع[٥] إليه، ويستكبر عن استماع مواعظ الله تعالى، وهو قول ابن عباس ومجاهد[٦].

وروى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحلُّ بيعُ المغنيات ولا التجارةُ فيهن، وثمنهنَّ حرام، وإنما أنزلت هذه الآية في هذا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي

---

(١) في (أ): «فبشرهم بعذاب أليم» وهو سهو فإن الآية هنا: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ بالإفراد. وانظر التعليق الآتي.

(٢) كذا في (أ) و(ف)، وسقطت الجملة من (ر)، والصواب أن الأولى فقط هي التي ختمت بالجمع، ولعل هذا الخطأ مبني على ما تقدم في النسخة (أ) من مجيء (فبشرهم) بالجمع فيها.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٨٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٩١٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٠) عن مقاتل والكلبي، وهو قطعة من خبر ابن عباس السابق.

(٥) في (أ): «الاستمتاع».

(٦) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣٤ ـ ٥٣٨)، ورواه أيضاً عن ابن مسعود وجابر وعكرمة.

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ والذي نفسي بيده لا يرفعُ الرجل عقيرته بالغناء إلا اكتنَفه شيطانٌ من هذا الجانب وشيطان من هذا الجانب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[١].

وقال قتادة: هو كلُّ لهوٍ ولعب[٢].

وقال عطاء: هو الترهات وفضول الكلام[٣].

وقيل: لهو الحديث هو الشرك لأنه يلهي عن الطاعات لله؛ لجحود صاحبه بيوم الحساب[٤].

* * *

(٨ ـ ٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: هو في مقابلةِ وعيد أولئك بالعذاب الأليم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أي في جنات النعيم لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: أي: وعَد اللهُ ذلك وَعْداً صدقاً.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٧٤٩). وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٥٧٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٠). وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٨٥)، الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٣٣)، عنه قوله: (والله لعله أن لا ينفق فيه مالاً، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحقّ)، زاد الطبري: (وما يضرّ على ما ينفع).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٠). بلفظ: (الترهات والبسابس).

(٤) في (أ): «القيامة».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيع الذي لا يغالب فيما يفعل بأوليائه وأعدائه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يفعل من التمييز بينهم وبينهم.

***

(١٠) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: أي: العزيز الحكيم ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فأقامها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأنتم ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أنها بغير عمدٍ.

وقيل: جعل لها عمداً ولكنكم لا ترونها وهي القدرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾: أي: وخلق فيها جبالاً ثوابت.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: أي: لئلا تضطرب بكم؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: لئلا تضلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: أي: نشر[١] فيها ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ من أنواع الحيوانات التي تدبُّ على وجه الأرض، وهذا كلُّه على المغايبة[٢].

ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: وهذا إخبارٌ عن نفسه كخطاب الملوك على الجمع، وهو من تلوين الخطاب، وهو أحد أنواع البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: أي: من كلِّ صنفٍ من النبات حسنٍ مُؤْنق.

***

---

(١) في (ر): «فرق»، وفي (ف): «أنشر».

(٢) في (ر): «المعاينة».

(١١) ـ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: أي: مخلوقُ الله ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ من الأصنام والملائكة والشياطين فيستحِقُّوا بذلك العبادة.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: ﴿بَلِ﴾ ردٌّ لِمَا قبله صريحاً أو تقديراً، وتقديره هاهنا: ليس إشراكهم بالله لأن ما أشركوا به[1] خلَق شيئاً بل هم واضعون العبادةَ في غير موضعها على سبيلِ ضلالٍ عن الحق ظاهرٍ وجهلٍ بيِّن.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: ذكر قصةَ لقمان وأمرِه ابنَه بتجنُّب الشرك وملازمة الإخلاص وغير ذلك من الأمور التي كان مشركو قريش يخالفونها؛ لأن أمر[2] لقمان كان مشهوراً عند أهل الكتاب، وكان مشركو العرب يرجعون إليهم، فكان تصديق أهل الكتاب بقصته حجةً على المشركين.

واختلف في لقمان: هل كان نبيًّا أو لا؟

قال الواقدي: كان عبداً حبشياً مجدَّعاً مصكَّك الركبتين مصفَّح القدمين، قاضياً في بني إسرائيل[3].

---

(١) «به» من (أ).

(٢) «أمر» من (أ).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٢) عن الواقدي مقتصراً على قوله: (كان قاضياً في بني إسرائيل)، =

وقال وهب: هو ابن أخت أيوب صلوات الله عليه[١].

وقال مجاهد: كان عبداً نوبيًّا غليظَ الشفتين ذا مَشافرَ[٢].

وقال محمد بن إسحاق: هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر والد إبراهيم عليه السلام[٣].

وقال قتادة: كان حكيماً من غير نبوة[٤].

وقال عكرمة: كان نبيًّا[٥]، وتفرَّد بهذا القول.

وقال مجاهد: الحكمة هي العقل والإصابة في القول والعمل[٦].

وقال وهب: هي العلم والفهم والفطنة من غير نبوة.

قال: وكان عبداً لرجل من بني إسرائيل فأعتقه وأعطاه مالاً فبارك الله له فيه، وكان لا يأتيه سائل إلا أعطاه، ولا ينزل به ضيف إلا أضافه، وكان في زمن داود عليه السلام قد نوَّر الله قلبه بالإيمان، وأطلق لسانه بالحكمة، وعمِّر عمراً طويلاً، بعث الله تعالى طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون للقائلة، فدخلوا عليه بيته يسمع كلامهم ولا يرى صورهم، فسلَّموا عليه فرد عليهم السلام،

= ورواه بنحوه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٧)، عن مجاهد، ولفظه: كان لقمان الحكيم عبداً حبشيًّا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٧) عن سعيد بن المسيب.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٢).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٦).

فقالوا: إنا رسل ربِّك ليجعلك خليفةً في الأرض تحكُم بين الناس بالحق، قال لقمان: إنْ جبَرني ربي على ذلك سمعتُ له وخضعتُ لطاعته ورجوتُ أن يُعينني ويسدِّدَني عليه، فإذا أعفاني قبلتُ العافية ولم أتعرَّض للفتنة؛ لأن الحكم بين الناس بأشدِّ المنازل وأكثرِها لمواقع الفتن، والحاكم إذا لم يحكم بالحق خُذل، وإذا حكم بالحق أُعين، وفيه خطرٌ عظيم، ومَن أخطأ الحقَّ أخطأ طريقَ الجنة، ومَن يكن في الدنيا حقيراً خاملاً كان أهونَ عليه يومَ المعاد و﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ويوم ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فعَجِبت الملائكة من حكمته، ورضي الله تعالى قوله.

فلما أمسى لقمان وجنَّه الليل وأخذ مضجعه، غشَّاه الله بالنعاس، وأنزل عليه الحكمة فصبها عليه صبًّا وحشا بها جوفَه، وأظهرها على لسانه، فاستيقظ وهو أحكمُ أهل زمانه، فلا يلقى أحداً إلا وعظه وذكَّره.

وآتى الله تعالى داود عليه السلام الخلافةَ، وبينما لقمان يوماً يَعِظ الناس وهم مجتمعون عليه إذ مر عظيم من عظماء بني إسرائيل، فأقبل ينظر[1] في وجهه فإذا رجل أسود، فتحوَّل حتى أتاه من خلفه، فأخذ برقبته فغمزها ثم قال: أنت لقمان؟ قال: أنا لقمان، قال: أنت راعي بني فلان؟ قال: نعم، قال: فما الذي بلَّغك[2] ما أرى وأنت أنت؟ قال: صدقُ الحديث وأداءُ الأمانة وتركي ما لا يَعنيني، قال: صدقت.

وقد وعظ ابنَه ثاران بعشرة آلاف حكمة، وقيل: إنه لمَّا[3] فرغ منها لقمان خرجت روح ابنه لِمَا أثقله من حملها.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: وقلنا له: اشكر لله.

---

(١) في (أ): «قيل فنظر»، بدل: «فأقبل ينظر».

(٢) في (ف): «بلغ بك».

(٣) في (أ): «ولما»، وفي (ف): «وقيل إنه كان لما»، بدل: «وقيل إنه لما».

وقيل: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ ترجمةٌ لقوله: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهو بيان أن رأس الحكمة للمخلوقين شكرُهم نِعَمَ الله تعالى.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾: أي: نفعُه يعود إليه بتمام النعمة ودوامها وزيادتها والثواب على شكرها ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكر عباده، لا يتكثَّر بشكرهم، ولا يتعزَّز بطاعتهم ﴿حَمِيدٌ﴾ على إنعامه لأن آثار إنعامه ظاهرةٌ على كافة بريَّته.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾: أي واذكر يا محمد إذ قال لقمان لابنه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾:

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: تصغير على جهة الشفقة والتلطف ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تجعل لله شريكاً في العبادة.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾ من المشرك على نفسه ﴿عَظِيمٌ﴾ لأنه يورده[1] عذاباً لا ينقطع ولا يُفتَّر، ولأنه وضْعُ العبادةِ غيرَ موضعها وهو عظيم؛ أي: شنيع منكر في العقول.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

---

(١) في (ر): «يؤديه».

وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾: قيل: هو عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ... وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾.

وقيل: هذا كلام معترِضٌ في قصة لقمان إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم عاد الكلام إلى قصته.

وقيل: هو متصل كلُّه، وهاهنا مضمر تقديره: وقلنا له ـ أي: للقمان ـ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾.

قيل: أي: ببرِّ والديه، وقد صرح به في آية أخرى: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ و: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾، ثم نبَّه على المعنى الموجِب لبِرهما فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾: أي ضَعفاً على ضَعفٍ؛ أي: تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعفٍ؛ لأن الحمل في البداية خفيفٌ ثم يَثْقُل شيئاً فشيئاً.

وقيل: معناه: أن المرأة ضعيفة في الخلقة ثم يُضعفها الحمل لثقله.

وقوله تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾: أي: فطامه عن الرضاعة لتمام عامين؛ أي: أنها ترضعهُ وتربِّيهِ في هذه المدة، وهذا مما يوجِب لها حقًّا، ويُلزمه لها شكراً.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾: قيل: هو متصل بقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ... أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾: اشكر لي على الإيجاد ولهما على التربية.

﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾: وهو ترغيب وترهيب.

* * *

(١٥) ـ ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾:

أي: إني وإن كنتُ عظَّمتُ عليك حقَّهما، فلم يبلغ من حقِّهما عليك أن[1] يجوز لك طاعتُهما فيما يأمرانك به من الإشراك بي وإن اجتهدا عليك في ذلك.

وهذا كلُّه تعريفٌ لهؤلاء المشركين شدةَ في الأمر في الشرك، فإنه لا يباح بحال، وانتظمت هذه الآية[2] بالأولى بهذا المعنى، فإنه قال هناك: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، وهاهنا قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي... فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: أي: في أمور الدنيا بالمعروف لمثلهما، وهو الطاعةُ لهما فيما لا يُفسد عليك دينك.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أي: واتَّبع أيها الإنسان طريقَ مَن أقبل عليَّ بتوبته وعبادته[3].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: أي: رجوع جميعِكم في الآخرة.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: أخبرُكم بأعمالكم وأجازيكم عليها.

وقيل: نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص، وذلك أن أمه حمنةَ بنت سفيان[4] بن أمية بن عبد شمس، نذرت أن لا تأكل ولا تشرب حتى[5] يمس سعدٌ إسافاً ونائلةَ[6]، وهما صنمان كانا على الصفا والمروة.

---

(١) في (ر) و(ف): «فلا»، بدل: «فلم يبلغ من حقهما عليك أن».

(٢) في (ف): «الحالة».

(٣) في (ف): «ثبوتك على عبادته» بدل: «من أقبل علي بتوبته وعبادته».

(٤) قيل: بنت سفيان، وقيل: بنت أبي سفيان. انظر: «أسد الغابة» (٢/ ٤٣٣).

(٥) في (أ): «أو»، وفي (ف): «ما لم».

(٦) رواه بنحوه مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢)، والترمذي (٣١٨٩)، من حديث سعد رضي الله عنه.

وقال سعد بن أبي وقاص نزلت فيَّ ثلاث آيات: هذه الآية، وآية الوصية، وآية تحريم الخمر[١]، وقد ذكرناها مبسوطة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الآيةَ.

***

(١٦) ـ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: قرأ نافع: ﴿مِثْقَالُ﴾ رفعاً[٢]، وعلى هذا قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ تكون الكناية عماداً كما في قوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤]، وتأنيثُه ردٌّ إلى القصة أو الحادثة أو الواقعة، وقوله: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾ بالرفع يكون رفعاً بـ(كان)، وهو تامٌّ لا خبر له، وتأنيثه ـ مع أن المثقال مذكَّر ـ لِمَا أنه مضاف إلى ﴿حَبَّةٍ﴾، و(مثقال حبة) هي الحبةُ حقيقةً، وهو كقول الشاعر:

طولُ الليالي أسرعتْ في نقضي[٣]

لأن طولَ الليالي هي الليالي حقيقةً.

وقرأ الباقون: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالنصب، وعلى هذا قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ تكون كنايةً عن الفعلة ونحوِها؛ أي: إن كانت فعلةُ الإنسان مقدارَ[٤] خردلةٍ في الثقل والوزن من خيرٍ أو شر.

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٥). وقرا باقي السبعة بالنصب كما سيأتي.

(٣) الرجز للعجاج كما في «الكتاب» (١/ ٥٣)، و«مجاز القرآن» (١/ ٩٩)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٦٥٨)، وعزاه العيني في «المقاصد النحوية» (٣/ ١٣١٧) للأغلب العجلي، وبعده:

طوَين طولي وطوَين عَرضي

(٤) في (أ): «مثقال».

﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾: قيل: في جبل، وقيل: في حجر.

﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: مع سعتهما.

﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: أي: يُحضرها الله صاحبَها[1]؛ كما قال: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] حتى يوفِّيه جزاءها إن خيراً وإن شرًّا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: أي: عالمٌ بكل دقيقٍ وجليل من الأشياء.

﴿خَبِيرٌ﴾: أي: عالم بالأشياء على حقائقها وبواطنها، لا بقَدْر[2] ما يعلمه العباد من ظواهرها.

وقال أبو معاذ: هذا في الرزق؛ أي: وإن كان للإنسان رزقُ مثقالِ حبةٍ من خردلٍ في هذا الموضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَن هي رزقُه؛ كأنه قال: لا تهتمَّ للرزق اهتماماً يشغلك عن أداء فرائض الله تعالى.

* * *

(١٧) - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: حافِظْ عليها بأركانها وسُننها وأدائها[3].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: ما عُرف حُسْنُه عقلاً وشرعاً.

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: ما أنكره الشرع والعقل.

---

(١) في (ف): «لصاحبها»، وفي (ر): «مع صاحبها».

(٢) في النسخ: «يقدر»، ولعل المثبت هو الصواب.

(٣) «أي حافظ عليها بأركانها وسننها وأدائها» من (أ)، ولعل الصواب: (وآدابها).

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾: أي: مِن أذى مَن أمرتَه ونهيتَه، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا هريرة، مُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك، فإن ذلك من وثائق الأمور»، قال: يا رسول الله آمُرُ بالمعروف وأَنْهَى عن المنكر وأُوذَى؟ قال: «نعم كما أُوذيَتِ الأنبياء، ليس أحدٌ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا سيُؤذى في الدنيا»(١).

وقيل: هو مبتدأ؛ أي: واصبر على ما أصابك من شدائد الدنيا من الله تعالى مثلَ الأمراض والفقر، وهو أن لا يجزع، ويعلمَ(٢) أن الله تعالى إنما(٣) يفعلُ به ذلك تأديباً أو تمحيصاً، أو ليُثيبه عليه في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: هذه الأشياءُ مما عزم الله تعالى به على عباده؛ أي: أمرهم به أمراً حتماً، فعليهم الثباتُ عليه واعتقادُ وجوبه.

وقيل: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي تدل على أن صاحبه ثابتٌ في دينه، قويُّ النية(٤) في طاعة ربه، عالمٌ بصحة ما يَدين به، مستبصِرٌ في أمره، وفلانٌ من أولي العزم هو هذا.

* * *

(١٨) - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: أي: لا تُـمِلْه مُعْرِضاً عن الناس تكبُّراً أو استخفافاً لمن يُقبل عليك يكلِّمك، بل أَقبِلْ عليه بوجهك متواضعاً.

---

(١) لم أقف عليه، وأحاديث الأمر بالمعروف كثيرة في الصحيحين وغيرهما.

(٢) في (أ) و(ف): «أن لا تجزع وتعلم».

(٣) في النسخ: «إن»، والصواب المثبت.

(٤) «النية» من (أ)، وفي (ف): «دينه».

وقرئ: ﴿ولا تُصاعِرْ﴾[1] وهما لغتان في معنًى واحد، وهو من الصَّعَر، وهو داءٌ يأخذ البعير في عنقه فيُميله، والتصعير والمصاعرة كالتضعيف والمضاعفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: أي: بطراً وأشراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: والاختيال مشيةُ المتكبِّر، والفخر: ذكر المناقب للتطاوُل بها على السامع.

* * *

(١٩) ـ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾: هو المشي في لِينٍ وتواضعٍ، كما قال تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: أي: واخفِضْ صوتَك إذا تكلَّمتَ ولا تُفْرِط في رفعه كفعلِ المتعظِّم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أي: أقبحَ الأصوات وأشنعَها عند السامعين.

﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: جمع حمار، ولو كان في ارتفاع الصوت فضيلةٌ لم يُستشنع صوتُ الحمار الذي هو أرفعُ الأصوات.

و﴿أَنكَرَ﴾ بمعنى: أقبح؛ كقولهم: هذا[2] رجل منكرُ الوجه؛ أي: قبيحُه، وقال

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ بتشديد العين من غيرِ ألف، والباقون بالألف وتخفيف العين. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٦).

(٢) في (ف): «هو».

عمر بن عبد العزيز لرجل رفع صوته في الكلام: لا ترفع صوتك، فإنه بحسْبِ المرء[١] من الكلام ما أسمع جليسَه، أو صاحبه[٢].

وعن عبد الله بن زَحْرٍ قال: كان النبي ﷺ يعجبه أن يكون الرجل خفيضَ الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت[٣].

❊ ❊ ❊

(٢٠) ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: وهذا تعجيبٌ من الله عبادَه من هؤلاء المشركين بعد انقطاع حُججهم وزوال عُذرهم في الشرك، واعترافهم بما يُبطله، قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾؛ أي: ألم تعلموا العلم الذي يقوم مقام رؤية العين أن الله خلق لكم ما في السماوات وما في الأرض من شمسٍ وقمرٍ ونجمٍ ونباتٍ وبرٍّ وبحر مما جعله الله مذلَّلاً لكم غيرَ ممتنعٍ عليكم منفعةً لكم وقِواماً لحياتكم في دار الامتحان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾: أي: أتمَّ عليكم ﴿نِعَمَهُ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: ﴿نِعَمَهُ﴾ جماعةً مضافة، والباقون: ﴿نعمةً﴾ واحدةً منوَّنةً غير مضافةٍ[٤].

---

(١) في (ف): «المؤمن».

(٢) في (أ): «وأصابه» بدل: «أو صاحبه».

(٣) حديث مرسل، ولم أقف عليه مسنداً.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

أي: أنعم عليكم نعماً ﴿ظَـٰهِرَةً﴾ تَظهر وتُشاهد ﴿وَ﴾ نِعماً ﴿باطنةً﴾ لا تَظهر للأبصار ولا تشاهَد.

فالظاهر: ما يُرى على العبد من نعمة الجمال والمال، وحُسن الصورة، وسعة العيش، وتمام الجاه، وثناء الناس، والعلم والمعرفة بالأمور، والتوفيقِ للإيمان والأعمالِ الصالحة.

والباطن: ما يجده الإنسان في نفسه من الاستبصار في دينه، والعلمِ بربِّه[1]، وما يستره الله من عيوبه وذنوبه، وما يدفع الله عنه من بليَّاته، وما يُنعم الله عليه في دينه ومصالحِ دنياه مما لا يقف على كُنْهه، فهذا باطن عن المنعَم عليه وعن سائر الناس.

ومَن قرأ ﴿نعمةً﴾ على الوحدان فقد قال المفسرون: هي نعمة الإسلام؛ هي ظاهرةٌ بالإقرار وباطنةٌ بالتصديق، ويجوز أن يكون هذا الواحدُ دلالةً على الجمع كما يقال: خوَّله الله مالاً.

وفي النعمة الظاهرة والنعمة[2] الباطنة أقاويلُ كثيرة، ونحن ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بكتاب[3] «بحر علوم التفسير على نحو رسوم التذكير» عند قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثلاث مئة قول على البسط والتطويل، ونذكر هاهنا بعضها على الاختصار فنقول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا من مخزوني الذي سألتُ عنه رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ فقال: «يا ابن عباس، أما

---

(١) في (ف): «والعمل به» وفي (ر): «والعمل لربه».

(٢) «النعمة» من (ف).

(٣) «الموسوم بكتاب» ليس في (ف).

ظاهرُها فالإسلام وما سوَّى مِن خلْقِك وما أفضَلَ عليك من الرزق، وأما ما بطَنَ فسترُ مساوئ عملك»(١).

وقيل: الظاهر الجوارح والباطنة المصالح، وهي الصفات القائمة بها.

الظاهرة التصوير، والباطنة التنوير.

الظاهرة الإقرار، والباطنة الاعتقاد.

الظاهرة الدعوة إلى الإيمان، والباطنة الهداية إلى الإيمان.

الظاهرة إعطاء الإيمان، والباطنة الإبقاء على الإيمان(٢).

الظاهرة الدعاء إلى الإسلام، والباطنة الدعاء إلى دار السلام.

الظاهرة النفع، والباطنة الدفع.

الظاهرة التوفيق للإيمان والطاعات، والباطنة العصمة عن الكفر والجفوات.

الظاهرة إظهار الطاعات، والباطنة إخفاء السيئات.

الظاهرة التخفيف، والباطنة التضعيف.

الظاهرة النطق، والباطنة العقل.

الظاهرة التبيين: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢١] والباطنة التزيين: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

الظاهرة التكليف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، والباطنة التأليف: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٨) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. وجويبر متروك.

(٢) «الظاهرة إعطاء الإيمان، والباطنة الإبقاء على الإيمان» من (أ).

الظاهرة تعديد الحسنات: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١٢] ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥] ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] الآيات ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢] الآيات ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧] الآيات، والباطنة إجمال السيئات: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

الظاهرة الأوصاف، والباطنة الأسرار.

الظاهرة الأفعال المرئية، والباطنة الضمائر المطوية.

الظاهرة الأقوال والأفعال، والباطنة المقامات والأحوال.

الظاهرة الشخوص والأشباح، والباطنة القلوب والأرواح.

الظاهرة حسن الصورة، والباطنة حسن السيرة.

الظاهرة الرسوم، والباطنة العلوم.

الظاهرة حسن الخَلق، والباطنة حسن الخُلق.

الظاهرة وجود النعمة، والباطنة شهود المنعم[1].

الظاهرة الدنيوية، والباطنة الدينية.

الظاهرة نفس بلا زلة، والباطنة قلب بلا غفلة.

الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفائها.

الظاهرة توفيق الطاعات، والباطنة قبول الطاعات.

الظاهرة التسوية[2]، والباطنة التصفية.

---

(١) في (أ): «النعم».

(٢) في (ف): «التسرية».

الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حفظ حرمتهم.

الظاهرة الزهد في الدنيا، والباطنة الاكتفاء بالمولى.

الظاهرة الزهد، والباطنة الوَجد.

الظاهرة توفيق المجاهدة، والباطنة تحقيق(١) المشاهدة.

الظاهرة وظائف النفس، والباطنة لطائف القلب.

الظاهرة اشتغالك بنفسك عن غيرك، والباطنة اشتغالك(٢) بربك عن نفسك.

الظاهرة طلبه، والباطنة وجوده.

الظاهرة أن تصل إليه، والباطنة أن تبقى معه.

الظاهرة الخدمة، والباطنة الحرمة

الظاهرة الأمر، والباطنة الأجر

الظاهرة ما سمَّى من نعيم الجنة، والباطنة ما أخفاه منها، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧].

الظاهرة المال والثروة، والباطنة العلم والحكمة.

الظاهرة حفظ القرآن، والباطنة فهم القرآن.

الظاهرة محكم القرآن، والباطنة متشابه القرآن.

الظاهرة تفسيره، والباطنة تأويله.

---

(١) في (أ): «توفيق».

(٢) في (ر): «إشغالك».

الظاهرة الترغيب، والباطنة الترهيب.

الظاهرة الترغيب والترهيب، والباطنة التزيين والتحبيب، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

الظاهرة أنك تحبه، والباطنة أنه يحبك.

الظاهرة أنك مريده، والباطنة أنك مراده.

الظاهرة النعم المنقودة(١)، والباطنة النعم الموعودة.

الظاهرة المحضرة، والباطنة المنتظرة.

الظاهرة النصر على الأعداء في الحروب، والباطنة إلقاء الرعب في القلوب.

الظاهرة الصحة، والباطنة العلة؛ تقدر على الأعمال الصالحات في صحتك، ويكتب لك ثوابُ الأعمال من غيرِ عملٍ في علتك.

الظاهرة الشباب، والباطنة الشَّيب؛ الشباب سرور والشيب نور.

الظاهرة إدامة النعمة عليك لتشكر فتنالَ ثواب الشاكرين، والباطنة سلب النعم عنك لتصبر فتنالَ ثواب الصابرين.

الظاهرة الإعطاء بالمسألة، والباطنة الإعطاء من غير مسألة.

الظاهرة الرزق، والباطنة تفريق الرزق.

الظاهرة قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، والباطنة قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

---

(١) في (ر): «المنقادة».

الظاهرة التنعيم، والباطنة التعليم.

الظاهرة الرزق، والباطنة البركة في الرزق.

الظاهرة سلام النبي عليه السلام ظاهراً، والباطنة سلام الملائكة ليلة القدر وعند الموت وفي القيامة وفي الجنة ثم سلام الرب بلا واسطة.

الظاهرة أولياؤك، والباطنة أعداؤك؛ تستعين بالله على أمورك بأوليائك، وتستعيذ بالله من أعدائك، يذكر وليك محاسنك فتلازمُها، ويذكر عدوك مساوئك فتفارقُها، يُعينك وليُّك فيكثر لك الحسنات، ويظلمك عدوُّك فتصبرُ فتُغفَر لك السيئات.

الظاهرة الزوجة المساعدة، والباطنة الزوجة المخالفة؛ تلك تشرح بالسرور صدرك، وهذه تُعْظِمُ بالصبر والاحتمال أجرك وقَدْرك[1].

الظاهرة الجار المرضيُّ، والباطنة الجار المؤذي؛ ذاك يقرُّك في دارك فتعيش في الرخاء، وهذا يزعجك عن وطنك فتنال فضيلة الغرباء.

الظاهرة قبول القلوب، والباطنة نفرة القلوب؛ وفي ذلك وجود برِّ الأبرار، وفي هذا زوال رحمة الأغيار.

الظاهرة الجاه والرفعة، والباطنة الخمول والضَّعَة[2]؛ في ذاك يُنشر عملك[3] فتثابُ بكلِّ ما عمِل به أحد من الأمة، وفي هذا يَسْلَم[4] دينك فلا تقع في الرياء والسمعة.

---

(١) «وقدرك» ليست في (أ).

(٢) في (ف): «والضعفة».

(٣) في (أ): «ينتشر علمك».

(٤) في (أ): «تسليم».

الظاهرة الولد البار، والباطنة الولد العاق؛ ذلك يُكثر الأعداد(١) وهذا يقطع عن الخلق الاعتماد.

الظاهرة ولادة الولد، والباطنة موته؛ ذاك فرح(٢) وهذا فَرَط.

الظاهرة النهار، والباطنة الليل؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣].

الظاهرة البحار والأنهار، والباطنة العيون والآبار.

الظاهرة الصلوات، والباطنة الصوم.

الظاهرة قصة الماضين علينا لنعتبر، والباطنة ترك(٣) قصَّتنا على غيرنا لنستتر .

الظاهرة اختلاف الهيئات، والباطنة اختلاف الهمَّات، لو(٤) استوت الهيئات لم تتميَّز الذوات، ولو علَتِ الهمم لم يشتغل أحد بالحِرَف الخسيسة فتعطَّلت الحاجات.

الظاهرة النظر في ملكوت الأرضين والسماوات، والباطنة التدبر في السور والآيات.

الظاهرة التقويم، والباطنة التقديم.

---

(١) في (أ): «هذا يكسر الاعتقاد»، وفي (ف): «ذلك تكثير الأعداد».

(٢) في (ر) و(ف): «فرج».

(٣) في (ف): «ستر».

(٤) في (أ): «لو اختلفت».

الظاهرة التعديل، والباطنة التبديل: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: ٥٥].

الظاهرة التحسين، والباطنة التحصين[1].

الظاهرة التصريف، والباطنة التعريف.

الظاهرة حسن العمل، والباطنة صدق الوجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الظاهرة الحمد على النعمة، والباطنة الشكر في[2] النعمة؛ والحمد ثناء اللسان وذكره، والشكر معرفة الإحسان ونشره.

الظاهرة المنح، والباطنة المحن؛ والمنح: الأموال للتصرُّف، والأعمال للتشرُّف، والثياب للتجمُّل، والعيال[3] للتمتُّع. والمحن: الخسران والنقصان، والأدواء والأسواء، والنوائب والمصائب، وعاقبتُها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والموعود عليها: الصلوات والرحمة ودوام الهداية.

الظاهرة العروق المتحركة، والباطنة الساكنة.

الظاهرة التربية بعد الولادة، والباطنة التربية قبلها؛ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢].

الظاهرة ما يَكتسِب، والباطنة ما يأتيه من حيث لا يحتسب.

الظاهرة الأمر بمحاربة الكفار، والباطنة الأمر بمحاربة الشيطان؛ ذلك لئلا يستوليَ على نفسك، وهذا لئلا يزيلَك عن دينك.

---

(١) في (أ): «الظاهرة المحسنين والباطنة المحصين».

(٢) في (أ): «على».

(٣) في (ف): «والجمال».

الظاهرة الأمر بالصدقة، والباطنة إعطاء الخَلَف على النفقة.

الظاهرة العمل، والباطنة النية.

الظاهرة الإطعام والإسقاء، والباطنة الإشباع والإرواء.

الظاهرة إساغة الطعام والشراب، والباطنة إخراجهما بسهولة من[1] ذلك الباب.

الظاهرة الإشباع والإرواء، والباطنة الإجاعة والإظماء.

الظاهرة إنزال الأمطار، والباطنة إخراج الحبوب والثمار.

الظاهرة ما ظهر من الزروع والثمار، والباطنة ما بطن من الرطاب[2].

الظاهرة ما يستفاد بالتجارات والصناعات، والباطنة ما يستفاد بالزراعات، وهذا أكثر ربحاً لأنه معاملةٌ مع الله تعالى.

الظاهرة صيود البر، والباطنة صيود البحر.

الظاهرة ما يكتسب في الأسواق من الدرهم والدينار، والباطنة ما يستخرج من المعادن والبحار.

الظاهرة التجارات لإصلاح المعاش، والباطنة أن لا تشغلَك هذه التجارات عن إصلاح المعاد؛ قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [النور: ٣٧].

الظاهرة العمل الصالح، والباطنة العلم النافع.

الظاهرة ذكر اللسان، والباطنة ذكر الجَنان.

الظاهرة أنك تدعوه، والباطنة أنك تريده؛ قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) في (أ) و(ف): «عن».

(٢) في (ف): «والباطنة نتاجه ورطوباته».

الظاهرة البسط، والباطنة القبض؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الظاهرة النوم بالسكون والراحة، والباطنة التهجد للمناجاة والخلوة.

الظاهرة الصيف فالنعم ظاهرة في الكروم، والباطنة الشتاء فالنعم باطنة في البيوت.

الظاهرة إحسان العبادة، والباطنة رؤية منة الله تعالى في التوفيق للعبادة.

الظاهرة شريعة الرسول، والباطنة شفاعة الرسول.

الظاهرة السمعيات، والباطنة العقليات.

الظاهرة أعيان النصوص، والباطنة دلائل المنصوص.

الظاهرة العبارات، والباطنة الإشارات.

الظاهرة التمكين، والباطنة التسكين؛ ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤].

الظاهرة ما يؤكل ظاهره ويلقى باطنه كالتفاح والكمَّثْرى والسَّفَرْجَل ونحوها، والباطنة ما يؤكل باطنه ويلقي ظاهره كالرمان والجوز واللوز ونحوها.

الظاهرة الاختبار: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والباطنة الاختيار[١]: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ [الحج: ٧٨].

الظاهرة المناداة، والباطنة المناجاة.

الظاهرة حياة النبي ﷺ، والباطنة موته عليه السلام؛ قال عليه السلام: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم» الحديث[٢].

---

(١) في (أ): «الاجتباء».

(٢) رواه الحارث في «مسنده» (٩٥٣ ـ زوائد الهيثمي) عن بكر بن عبد الله المزني عن النبي ﷺ مرسلًا، =

الظاهرة قضاء غيرِك حاجتَك، والباطنة قضاؤك حاجةَ غيرك؛ قال النبي ﷺ: «يا علي، وإذا أتاك طالبُ حاجة فاعلم أنها نعمةٌ ومنةٌ من الله تعالى عليك حين أراد أن يغفر لك ذنبك ويقضيَ حوائجك»(١).

الظاهرة الأمن في الدنيا، والباطنة الأمن في العقبى.

الظاهرة صحة الأبدان، والباطنة صحة الأديان.

الظاهرة البدن السليم، والباطنة القلب السليم.

الظاهرة غنى المال، والباطنة غنى الحال.

الظاهرة إخراجنا بعد الأنبياء والأمم لئلا يطَّلعوا على قبائحنا، والباطنة ذكرنا(٢) الأنبياء بعد(٣) مجيئنا بأوصاف مدائحنا.

الظاهرة الرواية، والباطنة الرعاية.

الظاهرة ركوب الأنعام، والباطنة ركوب السفن العظام.

= والبزار في «مسنده» (١٩٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «حياتي خيرٌ لكم تُحْدِثُون ويُحدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤) والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٥١): (رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح).
زاد العراقي: (إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون، ورواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف).

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (ف): «ذكر».

(٣) في (أ): «للأنبياء قبل» بدل: «الأنبياء بعد».

الظاهرة المراكب في حياتك، والباطنة المناكب بعد وفاتك.

الظاهرة المال والبنون، والباطنة المفروض والمسنون؛ وهما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦].

الظاهرة قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والباطنة قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ [التوبة: ٢١].

الظاهرة الحياة، والباطنة الموت، قال الشاعر:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا: ... للموت ألفُ فضيلة لا توصفُ

منها أمانُ لقائه بلقائه[1] ... وفراقُ كلِّ[2] مُعاشرٍ لا يُنصفُ[3]

ثم ذكرُ النعمة استبداءٌ لشكرها، والشكر يكون من جنس النعمة، فإذا عرفتَ أن الله تعالى أسبغ نعمه[4] ظاهرةً وباطنة فشكرُ ذلك أن تعمل بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: يقول: هذه نعمي على عبادي، ثم منهم ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ في توحيدي وإخلاصِ طاعتي يريد بذلك إثبات الشريك والتعطيلَ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منه بما يخاصم به إنما هو مقلِّد، ﴿وَلَا هُدًى﴾: ولا دلالةٍ عليه نظراً وعقلاً ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: ولا كتابٍ أنزله الله تعالى بصحةِ ما يدعو إليه ويدَّعيه.

---

(١) في (ر): «ونعيمه»، وسقطت من (ف). والمثبت موافق للمصادر.

(٢) بعدها في (ف): «معاندو».

(٣) البيتان لابن الرومي كما في «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (٢/ ١٧٢)، ولمنصور بن إسماعيل أبي الحسن التميمي الشاعر المصري الضرير أحد أئمة المذهب الشافعي، كما في «معجم الأدباء» (٥/ ٥٣٠)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٣/ ٤٧٨).

(٤) في (ف): «أسبغ عليكم نعمه» وفي (ر): «أصبغ نعمه عليكم».

وقيل: إن الآية نزلت في شأن(١) النضر بن الحارث(٢).

* * *

(٢١) ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾: أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في الله: إنه ليس معكم من الله هدًى ولا كتابٌ يدل(٣) على ما تقولون فهلمُّوا إلى كتاب الله.

﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ الأدنَيْنَ(٤) والأقصَيْنَ الذين كانوا يعبدون الأوثان، ونشرك كما أشركوا تقليداً لهم.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾: وقال أبو عبيدة: (لو) هاهنا محذوفةُ الجواب؛ أي: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى الكفر الذي يفضي إلى عذاب جهنم يتَّبعونه(٥)، وهذا استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: فلِمَ يتَّبعونه وهو يدعو إلى ذلك.

---

(١) «شأن» من (أ).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٢٠)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٤٣)، ولم يذكروا له سنداً، لكن نسبه الماوردي لأبي مالك، كما أنه ذكر سبباً آخر لنزول الآية، وهو: أنها نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته.

(٣) في (أ): «منير».

(٤) في (ر): «الأولين».

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٢٠).

(٢٢) ـ ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: ومَن يخلِص عمله لله ويتوجَّه إلى طلب رضا الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيما يعمل تاركٌ للإساءة ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: فقد[١] تعلَّق بالركن الأوثق الذي لا أوثق منه، فهو مخلِّصه[٢] من العذاب الذي لا انقطاع له.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: ومصيرُ الأمور في أواخرها إلى الله، وهو يحاسب بها ويجازي عليها.

* * *

(٢٣) ـ ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾: أي: ومَن لم يُسلِم وجهه لله وكفر به، فليَهُنْ عليك أمره، ولا يَغُمنَّك كفرُه، فلا يرجع إلا إليه ضرُّه.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: يوم الحساب ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾؛ أي: فنجزيهم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: عالم بضمائر القلوب فكيف بعلانيَة الأعمال، فهو يجازيهم بما أَظهروا وبما[٣] أضمروا.

وأنزلت الآية في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يفتري على الله، فحزن لذلك، فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) «فقد» من (أ).

(٢) في (أ): «يخلصه».

(٣) قوله: «أظهروا وبما» ليس في (أ) و(ف).

وقيل: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: يعلم بما في قلبك من الحزن لكفرهم.

* * *

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾: أي: نبقيهم في الدنيا فيمتَّعون[1] بالبقاء فيها مدةً قليلةً وهي مُدَد أعمارهم.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: أي: ثم ندخلُهم كرهاً في ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديدِ الإيلام عظيمِ المكروه، والاضطرارُ: الإلجاء، وهو متعدٍّ، وجُمع في هذه الآية ووحِّد في الآية الأولى لأن ﴿مَنْ﴾ اسمُ جنس يصلح للواحد والجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: أي: إذا سئل هؤلاء المشركون عن خالق السماوات والأرض اعترفوا بأنه هو الله.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: قل: الحمد لله على ما هدانا لدينه[2] وجعلنا من أهل العلم به، وأوضح حججنا على مَن خالفنا فيه إذ قرَّرهم[3] بما فيه الحجة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي ليس شركُهم لانقطاع الحجج عنهم، لكن أكثرهم لا يعملون بعلمهم؛ أي[4]: يتركون التدبُّر في الدلائل فيَفوتهم العلم بسفههم.

---

(١) في (ف): «فيتمتعون».

(٢) «لدينه» من (أ).

(٣) في (ف): «أو قررهم».

(٤) في (أ): «لا يعلمون أو» وفي (ف): «لا يعلمون به» وسقط منها ما بعده. وفي (ر): (لا يعلمون بعلمهم أي). والصواب المثبت.

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: له ذلك كلُّه، وهو مالكه وخالقه، ولا حاجة له إلى إيمان هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: إن الله هو المستغني عن خلقه، المحمودُ بشهادة خلقه كلِّهم بوحدانيته وقدرته وإلهيته بشهادة الخِلقة[١].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: قرأ أبو عمرو: ﴿والبحرَ﴾ نصباً عطفاً على (ما)، والناصبُ كلمة ﴿أَنَّ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ رفعاً[٢] على الاستئناف[٣].

يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ جُعلت بالبَرْي أقلاماً ليُكتب بها ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: فكان البحرُ مداداً[٤]، ومَدَّه ـ أي: زاد فيه ـ سبعةُ أبحر، فكتب بها كلمات الله في إقامة الحجج على عباده، وضربِ الأمثال لهم، وتنبيهِهم على مصالح دينهم ودنياهم، وذكر أقاصيص مَن سلَف قبلهم من الأمم، وغيرِ ذلك من ضروبِ ما يشتمِل عليه كلامه، وما اختَصَّ العلماءَ به[٥] من معاني كلامه، وما استأثر الله به دون خلقه، لم يَفْنَ كلامُ[٦] الله، وذلك قوله:

---

(١) في (ر) و(ف): «الخليقة».

(٢) في (أ): «بالرفع».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

(٤) في (ف): «ممداً».

(٥) في (ف): «وما اختص من اختصه».

(٦) في (ف): «لم يفن ذلك من كلام»

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

ذُكر أن بعض المشركين قالوا فيما تلا[1] عليهم النبي ﷺ: إن هذا كلام سينفد، فنزلت هذه الآية[2].

وقيل: نزلت جواباً لليهود إذ قالوا: قد أوتينا التوراة وفيها كلُّ الحكمة، فنزلت الآية، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أي: منيعٌ في ملكه فلا يُرام[4] ولا يغالَب.

﴿حَكِيمٌ﴾: يُطْلع عبادَه على ما يشاء، ويفعل ما يشاء، ويضع كلَّ شيء في موضعه.

* * *

(٢٨) - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: أي: إلا كخَلْقِ نفسٍ واحدة وبعثِ نفسٍ واحدة في أن أمري إذا أردتُ شيئاً أن أقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، فلا يَلحقُني نَصَب[5] بكثرةٍ، ولا يَخِفُّ عليَّ بقلَّةٍ، وقدرتي على الكل قدرتي على الواحد، فإذا قدرتُ على الواحد فأنا على الجميع قادر.

---

(١) في (أ): «قرأ».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٠) دون عزو، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٧) وعزاه لقتادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٣) مطولًا. وهذا الخبر يدل على أن الآية مدنية، ومن قال: إنها مكية، علله بأن اليهود أمروا وفد قريش أن يسألوا عنه النبي عليه الصلاة والسلام. انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٨٧).

(٤) في (أ): «يلام»، وفي (ف): «يرى».

(٥) في (أ): «تعب».

وقوله تعالى: ﴿كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: كقوله: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: كدوران الذي يغشى عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لافتراء المشركين على الله في أنه لا بعث ولا نشور ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم فهو مجازيهم عليها(١).

* * *

(٢٩) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: وهذا احتجاج على المشركين؛ أي: ألم تر أن الله يأخذ من الليل فيَزيد(٢) في النهار، وكذا في النهار، وهو كقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤].

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: لمنافع العباد ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: إلى أن يكون الأجل المسمى وهو يوم القيامة، فيفني الله هذا كلَّه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: أي: عليم بذلك(٣).

* * *

(٣٠) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾: أي خلَق ما خلَق على ما شاهَدْتُموه ليدلَّكم بخلقه إياه على أنه هو الإله(٤) الحقُّ لا إله غيرُه.

---

(١) في (أ): «فهو مجازيهم» وفي (ف): «فهو يجازيهم»، وفي (ر): «هو يجازيهم عليها».

(٢) في (ف): «فيزيده».

(٣) «بذلك» ليست في (أ).

(٤) في (أ): «الله».

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾: لا يستحقُّ العبادة[1] غيرُه؛ لأنه لا يقدر على شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: العالي على كل شيء، وكلُّ ما دونه فهو له متذلِّلٌ منقاد، وهو الكبير وكل شيء دونه فهو له متصاغر.

* * *

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾: أي: ألم ترَ أن السفن تجري في البحر مع صغرها وكِبَر البحر وهولِ أمواجه ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بتسخيره إياها وإنعامه بذلك على خلقه.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾: من أعلام قدرته.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي: لكلِّ مَن هو من أفاضل المؤمنين؛ لأن جميع خصال الإسلام ترجع إلى الصبر والشكر، والصَّبَّار والشَّكور مبالغةٌ في هذين الوصفين، أي: الانتفاعُ بهذه الآيات إنما يحصل لهؤلاء، فكأنها لهم دون غيرهم.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾: أي: وإذا جاءهم في البحر موجٌ متراكبٌ بعضُه على بعضٍ كأنها ظللٌ فوقهم؛ أي: جبال مُظِلَّة أو سحاباتٌ.

---

(١) في (أ): «لا مستحق للعبادة».

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: حين علموا حينئذ أنه لا مُنْجيَ لهم غيرُه.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: قال قتادة: أي: مقتصدٌ في قوله مصرٌّ على كفره[١]؛ أي: محسنٌ القولَ في ربه وهو مع ذلك ثابتٌ على كفره، ولا يَعتبر[٢] بذلك إلا قَدْرَ الاقتصاد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾: أي: وما يجحد بما جعلناه آيةً من أمر البحر وغيرِه إلا كلُّ غدَّارٍ قبيحِ الغدر، يَنقُض عهدَ الله من بعد ميثاقه بما جَعل له من الـمَشاهد في نفسه على وحدانية الله تعالى، وبما أعطاه الله من الإقرار بلسانه أنه خالقُه ومنجيه من الأهوال، كفورٍ لإنعام الله تعالى عليه.

وقيل: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: مُوفٍ بما عاهَدَ الله عليه في البحر[٣]، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

وقيل: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: سالك قصدَ السبيل بالإسلام.

* * *

(٣٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

---

(١) لم أجده عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٧٣) عن مجاهد.

(٢) في (ف): «يتغير».

(٣) في (ر): «الخير».

(٤) في (أ): «وقال ابن عباس فمنهم مقتصد موف بما عاهد الله عليه في البحر». وذكره عن ابن عباس الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٢)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٢٦).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾: ختَم السورة بتجديدِ الموعظة وترهيبِهم بيوم القيامة؛ توكيداً للأمر بمخالفة المشركين في جحد البعث، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ فلا تخالفوا أمرَه ولا نهيه(١).

﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾: أي: لا ينوبُ فيه والد عن ولده.

﴿مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾: أي: نائب.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: بالبعث والحساب والجزاء.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: لا تغترُّوا بهذه الحياة القُربى فتُهلِكوا(٢) أنفسَكم وترتكبوا المعاصي مستبعِدين للقيامة، أو مغترِّين بقول هؤلاء المشركين الجاحدين له، فإن الحياة الدنيا قريبةُ الانقضاء تَفْنى لذَّاتُها وتبقى تَبِعاتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: أي: ولا يخدعنَّكم مِن التوقِّي من عذاب الله مَن يغرونكم فيدعوكم إلى المعاصي، ويُوهموكم أنْ لا بعثَ ولا حساب ولا جزاء.

وقيل: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ اسم الشيطان، والاسم صالحٌ لكلِّ مَن عمل هذا(٣) بالعبد من شيطان وغيره.

❊ ❊ ❊

(٣٤) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

---

(١) في (أ): «أمره ونهيه».

(٢) في (أ) و(ف): «فتهملوا».

(٣) في (ف): «ذلك».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: أي: علم[١] وقت قيام الساعة عند الله لا يعلمه غيره، فإياكم أن تأتيكم بغتة وأنتم مغترُّون بالحياة الدنيا.

وقيل: نزلت الآية في الوارث[٢] بن عمرو بن حارثة بن محارب رجلٍ من أهل البادية، أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل بها الغيث؟ وامرأتي حُبلى فما تلد؟ وإني أعلم ما عملتُ أمس فما أعملُ غداً؟ وإني أعلم أين ولدتُ فبأيِّ أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقال النبي ﷺ: «خمسٌ لا يعلمُهنَّ إلا الله» وتلا هذه الآية ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[٤]، وهو يعلم متى تقوم.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي: هو الذي ينزِّل الغيث للوقت الذي يعلم الصلاح في إنزاله لعباده[٥] وبلاده، ولا يَعلم العباد بذلك.

---

(١) «علم» من (أ).

(٢) في (ر): «الحارث». وانظر التعليق بعد الآتي.

(٣) رواه ابن المنذر في «تفسيره» عن عكرمة كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠)، وسمى الرجل: الوارث من بني مازن.
وذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٤٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٧)، وذكره الواحدي أيضاً في «البسيط» (١٨/ ١٢٨) وعزاه لمجاهد ومقاتل، واسم صاحب القصة عندهم عدا «أسباب النزول»: عبد الوارث بن عمرو. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٨٥) عن مجاهد ولم يسمه. فهذا الخبر مع الاختلاف في اسم صاحب القصة لم يرو بسند متصل إلى النبي ﷺ، وإنما هي مراسيل عن عكرمة ومجاهد ومقاتل.

(٤) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٥) في (ف): «هو الذي ينزله للوقت الذي يعلمه للإصلاح في أمره لعباده» وفي (ر): «هو الذي ينزله للوقت الذي يعلمه لإصلاح أمر عباده».

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: هو الذي يعلم ذلك: أذكر هو أم أنثى؟ أحيٌّ هو أم ميت؟ وعلم جميع صفاته وهيئته ووقت ولادته.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: أي: ما تعمل في مستقبل العمر من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: أي: بأيِّ بلد.

وقيل: أي: بأيِّ قدم تموت.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: أي: هو العالم بظواهر الأشياء وبواطنها بتفاصيلها وجملها، ما كان وما يكون وما لا يكون[1] وجاز أن يكون أنْ لو كان كيف كان يكون.

وقال الزهري رحمه الله: أكثِروا من قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب[2].

الحمد لله الذي إذا دُعي يجيب، الرحمنِ الذي هو القابلُ للمنيب، الرحيمِ الذي[3] منا من حبل الوريد قريب، وصلى الله على محمدٍ العطوفِ للمقيم والغريب[4].

* * *

(١) قوله: «وما لا يكون» ليس في (أ).

(٢) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد في تفسير آيات القرآن المجيد» (٤/ ٣٨٤)، والقنوجي في «فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٠/ ٣٠٥).

(٣) في (ر): «الذي هو أقرب».

(٤) في (أ): «والحمد لله رب العالمين» بدل قوله: «الحمد لله الذي إذا دُعي يجيب، الرحمنِ...» إلى هنا.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

سورة السجدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، الرحمنِ الذي أنشأ لنا السمع والبصر والأفئدة والأفهام، الرحيمِ الذي يسوق الماء إلى الأرض الجرُز فيُخرج به زرعاً تأكل منه البشر والأنعام.

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة تنزيل[1] السجدة وتبارك فكأنما أحيَا ليلة القدر»[2].

---

(١) «سورة تنزيل» من (أ).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٥) دون ذكر تبارك، وفي إسناده أبو عصمة نوح بن أبي مريم قال عنه الحافظ في «التقريب»: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

ورواه بذكر السجدة وتبارك ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وزاد: «بين المغرب والعشاء الآخرة». قال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ١٣١): في إسناده داود بن معاذ وهو ساقط.

قلت: وقد روي مرسلاً ضمن حديث طويل رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٩٦) عن إسحاقَ بنِ عبدِ الله بن أبي فَرْوةَ، قال: (بلَغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال...)، فذكره.

وروي من قول طاوس وعطاء، رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٨١٨) عن أبي يونسَ عن طاوسٍ قال: «مَن قرأ (الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ)، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ كان مثلُ أجرِ ليلةِ القَدْرِ»، قال (يعني أبو يونس): فمرَّ عطاءٌ فقُلْنا لرجلٍ منَّا: ائته فاسأله، فقال: صَدَق، ما تركتُهما منذُ سمعْتُهما.

وروى جابر رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ هاتين السورتين: تبارك والسجدة[١]. ويقول: فضِّلن على القرآن بستين حسنةً[٢].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ في ليلةٍ سورة تنزيل السجدة، وسورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أو في يوم، بنى الله له بيتان في الجنة، وكان كمَن وافق ليلة القدر، وحفَّت به الملائكة، وحفَّته بسورة[٣] ﴿الم تَنْزِيلُ﴾ السجدة، ومنعته ملائكةَ العذاب»[٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ هي المانعة تمنع من عذاب القبر[٥].

وسورة السجدة مكية إلا ثلاثَ آيات نزلت بالمدينة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلت في عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعُقبةَ بنِ أبي معيط على ما نبيِّن إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٦٥٩)، والدارمي في «سننه» (٣٤١١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٨١٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٧) و(١٢٠٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٦ ـ ٧٠٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٥)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه لأن مداره على حديث ليث بن أبي سليم عن أبي الزبير.

(٢) ليس هذا حديثاً، لكن رواه الدارمي في «سننه» (٣٤١٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٨١٧)، والترمذي عقب الحديث (٢٨٩٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» عقب الحديث (٦٧٥) عن ليث بن أبي سليم عن طاوس قوله، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» عقب الحديث (١٢٠٧) عن ليث عن أبي الزبير قوله. ووقع في بعض الروايات: (بسبعين حسنة).

(٣) في (ر) و(ف): «سورة».

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

وهي تسع وعشرون آيةً، وثلاثون في قول، والاختلاف في قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وكلماتها ثلاثُ مئة واثنان وسبعون، وحروفها ألف وخمسُ مئة وأربعة وعشرون[1].

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ مرت الأقاويل فيه.

وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنه قال في ختم تلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ وقال في افتتاح هذه: ﴿الٓمٓ﴾ ومعناه: أنا الله أعلمُ.

وانتظام السورتين: أنهما في بيان وحدانية الله تعالى، وذكرِ الكتاب والرسول، ومحاجَّةِ المشركين، ومدحِ المؤمنين، وبيانِ عاقبة الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: قيل: هذا جواب ﴿الٓمٓ﴾، وقيل: أي: هذا تنزيل الكتاب.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه أنه من عند الله. وقيل: أي: لا ترتابوا فيه.

﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: هو من ربِّ العالَمين، وهو كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قيل: هو جواب ﴿الٓمٓ﴾، وقيل: أي: هذا ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2].

* * *

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٧)، وفيه: وكلمها ثلاث مئة وثمانون، وحروفها ألف وخمس مئة وثمانية عشر.

(٢) «قيل هو جواب ﴿الٓمٓ﴾ وقيل أي هذا ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾»، من (ر).

(٣) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: قيل: (أيقولون: افتراه محمد)، ويجوز أن يقدَّر قبله استفهام ثم يعطف عليه بـ﴿أَمْ﴾: أيقولون: هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم يقولون: اختلقه محمد.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي ليس كما يقولون أنه مفترًى، بل هو الحق من ربك يا محمد، رجع من المغايبة إلى المخاطبة، وهو من تلوين الكلام(١).

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: أي لم يأتهم رسول منذرٌ وهم مشركو العرب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: أي: لتنذرهم العذاب إن أصروا على كفرهم فيُسْلِموا ويهتدوا إلى الحق.

* * *

(٤) ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: فسرناه في سورة الأعراف.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: أي: ليس لكم سوى الله تعالى وليٌّ يتولى أموركم، ولا شفيع يشفع لكم إليه(٢) إن متُّم كافرين؛ أي: فإليه وحده فافزعوا

---

(١) في (ر) و(ف): «وهو تلوين الخطاب».

(٢) في (ف): «ولا شفيع يشفع إليه»، وفي (ر): «ولا شفيع لكم إليه يشفع».

فلـن ينفعكـم أحـد دونـه كما يتوهَّـم المشـركون من ولايـة آلهتهم وشـفاعتها.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أفلا تتَّعظون بمواعظ الله.

❋ ❋ ❋

(٥) ـ ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾: أي: يدبـر الأمر من السـماء فيَنـزل بـه بعـض ملائكتـه مـن السـماء إلـى الأرض[١]، فيُلقي ذلـك إلى الـذي أُمر بإلقائـه إليه من الرسـل.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾: أي: يعرج الملك ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الموضع الذي أُمر بالعروج إليه من السماء.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾: في نزول الملك إلى الأرض وعروجه منها إلى السماء ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: من أيامكم في الدنيا؛ لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرةُ خمسِ مئة عام، فإذا قطع الملَك ذلك في يوم واحد نازلاً وصاعداً حصل له[٢] مسيرة ألف سنة في يوم واحد.

وهذا التدبير هو ما يكتب في اللوح المحفوظ للملائكة الموكَّلين به، حتى إذا رأوا ذلك قد وجد في اللوح المحفوظ عرفوا أنه أراد أن ينزلوا به إلى نبيِّه في الأرض، فيفعلون ذلك ثم يرجعون إلى مكانهم الذي كانوا فيه.

---

(١) «من السماء إلى الأرض» من (أ).

(٢) في (ف): «حصل قاطعاً».

وقوله: ﴿يَعۡرُجُ﴾: ظاهره يرجع إلى الأمر فهو المذكور قبله[1]، ومعناه: عروج المأمور بتبليغ ذلك الأمر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ﴾ ظاهره يرجع إلى الله تعالى، ومعناه: العروج إلى المكان الذي كان الخطاب الأول فيه والأمر بالعروج إليه.

وقيل: ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى السماء، فقد ذكر قبله وهو يذكَّر ويؤنَّث، قال الله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] وقال الشاعر:

فلو رَفَع السماءُ إليه قوماً ... لكنا في السماء مع النجوم[2]

وقوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ﴾ قيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة؛ كما في قوله: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩].

وقيل: معناه: إن هذا مما عرفتُموه من قبلُ، فأما قوله في سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فهو يومُ القيامة وذلك مقدارُه.

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾.

---

(١) بعدها في (ف): «يرجع إلى الله تعالى».

(٢) البيت للفرزدق، وهو في «ديوانه» (١/ ٣٣)، و«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (٣/ ١١٠٥)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢٨) و(٣/ ١٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٩١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ١٤٣)، و«المذكر والمؤنث» لأبي بكر الأنباري (١/ ٤٩٣)، وغيرها. ورواية الديوان: (الإله) بدل (السماء)، وعجزه في المصادر:

لحقنا بالسماء مع السحاب

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي: الموصوف بما مرَّ عالمٌ بما غاب عن الخلق وما شهِدوه وما[1] شاهدوه، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيع بسلطانه فلا يغالَب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه بإيصال المنافع ودفع المضار.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بتحريك اللام وهو ماضٍ، ومعناه: أتقن كلَّ شيء قد خلقه كما قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقيل: أي: عَلِم كلَّ شيء قد خلَقه، من قولهم: قيمة كل شيء ما يحسنه؛ أي: عَلِم قبل أن يخلقه أنه كيف يكون إذا خلقه، وعَلِم بحاله ومدةِ بقائه، وما يكون منه وما يحتاج إليه إلى انقضائه.

وقيل: عَلِم ما خَلَق فلم يَحتجْ أن يَحتذيَ فيه على مثالٍ سَبَق.

وقيل: أي: جعَله حسناً، على معنى: أنه خلق ما له[2] أن يخلقه، ومَن فعَل ما ليس له أن يفعله فقد أساء، أو: جعَله حسناً على ما علَّق به من الحكمة وجعَل فيه من الدلالة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ﴾ بتسكين اللام[3] على أنه مصدر والفعل واقعٌ عليه، وتقديره: أحسن خَلْق كلِّ شيء، ثم هو يقع على الإتقان وعلى العلم وعلى التحسين على ما مر، وظاهرُ نَظْمه أن قوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعول به، وقوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بدلٌ عنه، وهو كقوله: ضربتُ زيداً رأسَه.

---

(١) «ما» ليست في (أ).

(٢) بعدها في (ر): «قبل».

(٣) وهي قراءة ابن عامر أيضاً. انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾: أي: بدأ خلقَ آدم من طينٍ وهو التراب المبلول بالماء.

***

(٨ - ٩) - ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾: أي: نسل آدم، وهو ما توالَدَ منه من الذرية ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾؛ أي: من ماءٍ سُلَّ من أصلاب الرجال ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ صفةُ السلالة أنها نطفةٌ ضعيفة رقيقة لا خطر لها عند الناس.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾: أي: عدلَه، ويجوز أن ترجع الهاء إلى ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ويجوز أن ترجع إلى النسل.

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾: أي: أدخل فيه الروحَ الذي خلقه[1] له، والإضافة إليه للتشريف؛ كبيت الله، وناقة الله، وشهر الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾: أي: جعَل لكم معاشرَ الناس ما تسمعون به فتميِّزون به[2] بين الأصوات، وما تبصرون به فتميِّزون به بين الأشخاص والألوان، والأفئدةَ حتى تعقلوا بها الأمور وتتدبروها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: وهذا حثٌّ على الاستكثار من الشكر له على ما ابتدأهم به من هذه النعم لينالوا به النعيمَ المقيم في الآخرة أيضاً[3].

---

(١) في (ف): «خلقت».

(٢) «به» ليست في (ف).

(٣) في (ر): «النعيم في الجنة أيضاً».

(١٠) ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾: أي: وقال المشركون المنكرون للبعث للأنبياء: إذا بَلِينا في الأرض وهلَكت أجسادنا فيها فلم تتبيَّن لأنَّا صرنا تراباً كما يَضِلُّ الماء في اللبن فلا يتبين فيه نعاد بخلقٍ جديد[١] فنَحيَى كما كنا قبلَ موتنا؟! أي: إن هذا عجَبٌ منكَر، فهذا استفهام بمعنى الإنكار.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾ ردٌّ لِمَا قبله صريحاً أو تقديراً، وتقديره هاهنا: ليس لهم[٢] جحودُ قدرة الله تعالى على البعث و[٣]الإعادة؛ لأنَّا نبهناهم بالآيات على قدرتنا، لكنْ قد اعتقدوا ألَّا دارَ للحساب والجزاء، فهم لهذا ينكرون البعث والإحياء بعد الموت.

* * *

(١١) ـ ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾: أي يقبض أرواحكم ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ لإحصاء آجالكم وقبض أرواحكم، وهو عزرائيل عليه السلام.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: في[٤] القيامة، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها.

وأضاف التوفِّيَ هاهنا إلى ملك الموت، وإلى الملائكة في قوله تعالى:

---

(١) في (ر): «أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جديد» بدل: «نعاد بخلق جديد».

(٢) في (ف) و(أ): «بهم».

(٣) «البعث و» ليس في (أ) و(ف).

(٤) في (أ): «يوم».

﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، وإلى نفسه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، والجمع بينها: أن الملائكة ـ وهم[١] أعوان ملك الموت ـ ينزعون الروح إلى الحلقوم، ثم يقبضه ملك الموت، والله تعالى هو الآمِرُ بذلك، وهو الخالق لأفعال العباد[٢]، والإضافةُ إليه بالأمر وبالتخليق أيضاً.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: أي: ولو ترى يا محمد ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذا بيانُ حالهم إذا رجعوا إلى الله يوم القيامة ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ـ وهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حياءً وخزياً[٣] ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: عند حساب ربهم والعرض على ربهم[٤].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: أي: يقولون: يا ربنا أبصرنا الآن ما لم نكن نُبصره في الدنيا وسمعنا ما لم نكن[٥] نسمع؛ أي: تيقنَّا بالبعث وزالت[٦] الشكوك.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾: أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: الإيمانَ والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب، وأنه لا ينفعنا عبادةُ مَن كنا نشركُه بك.

---

(١) «وهم» ليست في (ف).

(٢) في (أ): «البشر».

(٣) في (ر) (ف): «وخوفاً».

(٤) في (أ): «أيهم» في الموضعين.

(٥) «نكن» ليست في (أ) و(ف).

(٦) في (أ): «وزوال».

وقيل: معناه: ربنا لك الحجةُ علينا، فقد أبصرنا رسلك وآياتِ وحدانيتك، وسمعنا كتابك ووعظ أنبيائك، فلا حجة لنا عليك ولكن بنا حاجةٌ إليك، وهو أن تَرْجِعَنا إلى الدنيا لنُطيعك، فقد تيقنَّا أنه لا ينفعنا عندك إلا العملُ الصالح.

وجواب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ محذوف، وتقديره: لرأيتَ منظراً هائلاً؛ كقولك: لو رأيتَ فلاناً وقد أخذته السياط.

* * *

(١٣) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: ولو شئنا لأعطَينا[1] كلَّ نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيارُ ذلك لاهتدوا، ولكن لم نعطهم ذلك اللطفَ لَمَّا علمنا منهم اختيارَ غيرِ ذلك.

وعلى قول المعتزلة: شاء أن يعطي كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها لكنها لم تهتد.

فقولهم مخالفٌ للآية؛ لأنهم يقولون: شاء أن تهتديَ كلُّ نفس، وآتى كلَّ نفس ما تهتدي به لكنها لم تهتد، لكنهم يقولون: المشيئة هاهنا[2] مشيئةُ الجبرِ والقسر.

فيقال لهم: زعمتُم أنه قد شاء أن يهتدوا وآتاهم ما يهتدون به، فلم يهتدوا ولم تنفذ مشيئتُه، فكيف يقدِر ويملك أن يشاءَ مشيئةً تقهرُهم وتجبرهم حتى يهتدوا؟ وكيف يؤمَنُ على ذلك؟ فذلك بعيد على قولكم.

---

(١) في (ر): «لآتينا».

(٢) بعدها في (ر): «ليست»، وليست في «التأويلات».

ويقال لهم أيضاً: إن الإيمان به والتوحيدَ في حال القهر والقسر لا يكون إيماناً؛ لأن القهر والجبر يرفع[١] الفعل عن فاعله ويحوِّله عنه، فكيف يصح تأويلكم على هذا؟!

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وجَب القول مني لـمَّا علمتُ أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم، وهو ما علم منهم أنهم يختارون الردَّ[٢] والتكذيب[٣].

***

(١٤) ـ ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾: عاد الكلام إلى خطاب المجرمين في القيامة، وكان قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في الآية كلاماً معترِضاً.

وقيل: هو متصل؛ قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار إذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ الآية ﴿فَذُوقُوا۟﴾؛ أي: يقال لهؤلاء: قاسوا العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ أي: بترككم العمل لهذا اليوم كأنكم نسيتُموه فلم تذكُروه ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في جهنم[٤].

وقيل: أي: جازيناكم على نسيانكم.

---

(١) في (ر): «يخرج»، وفي (ف): «يرجع». والمثبت من (أ) و«التأويلات».

(٢) في (ر): «الكفر».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٣٥).

(٤) قطعة من خبر طويل رواه عن محمد بن كعبٍ الطبريُّ في «تفسيره» (١٧/ ١١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: واعلموا أن هذا العذاب خالدٌ لكم غيرُ زائل عنكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: هذا لكم بأعمالكم من الكفر والمعاصي.

* * *

(١٥) - ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: إن هؤلاء المشركين لإلفهم الشركَ وتقليدهم الآباءَ في أنه لا بعثَ ولا حساب ولا جزاء لا يؤمنون بآياتنا؛ أي: القرآن، إنما يؤمن بها المتدبِّرون لها المستمِعون إلى مواعظها، فهم إذا قرئ عليهم القرآن ووُعظوا به ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ لله على وجوههم تذلُّلاً لله وتعظيماً لآياته ﴿وَسَبَّحُواْ﴾؛ أي: في سجودهم ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

قيل: يقولون: (سبحان الله وبحمده) في السجود.

وفي بعض الأخبار أن النبيَّ ﷺ كان يقول في سجوده ذلك[1].

ويجوز أن يكون التسبيحُ تنزيهَ الله تعالى عما لا يليق به، وحمدُ الله وصفَه بصفاته العلى وتسميتَه بأسمائه الحسنى، فإذا قال: (سبحان ربي الأعلى) فقد نزَّه الله عزَّ وعلا بقوله: (سبحان ربي) وحمِده بقوله: (الأعلى).

* * *

---

(١) رواه البخاري (٧٩٤) و(٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عن عائشةَ قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثرُ أن يقولَ في ركوعِه وسجودِه: «سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك، اللهمَّ اغفِرْ لِي» يَتأوَّلُ القرآن.

(١٦) ـ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾: أي: تتباعد ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾: جمع مضجع، يقول: تتباعدُ جنوب هؤلاء وتنوء ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1]: مواضع الاضطجاع من الفُرش وغيرها؛ شغلاً منهم بالصلاة في أوقات اضطجاع الناس للنوم والاستراحة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾: في الصلاة وخارج الصلاة.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾: خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه.

خوفاً من نقمته وطمعاً في رحمته.

خوفاً من فراقه وطمعاً في لقائه.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾: أي: يتصدَّقون نفلاً وفرضاً[2]، ذاك بالنفس وهذا بالمال.

وقيل: ومما رزقناهم من القرآن يقرؤون[3]، وهو أوفق لما قبله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هؤلاء قوم كانوا يجتمعون العشاءَ والمغرب مع النبي ﷺ، فأثنى الله عليهم بذلك[4].

---

(١) «المضاجع» من (أ).

(٢) بعدها في (ر): «لأن».

(٣) في (ر) و(ف): «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ من القرآن».

(٤) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٦) عن ابن عباس قال: أنزلت في صلاة العشاء الآخرة، كان أصحاب رسول الله ﷺ لا ينامون حتَّى يصلوها.

ورواه عنه مرفوعاً بلفظ: «هم الذي لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم».

وقال أنس: كان أصحاب النبيِّ ﷺ يعملون من النهار فإذا جنَّهم الليل قاموا(١) بين المغرب والعشاء حتى صلَّوا العشاء الآخرة، فأَحيوا ما بينهما بالصلاة(٢).

* * *

(١٧) ـ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾: أخفَوا أعمالهم فأخفَى الله جزاءهم، يقول: لا يعلم أحد كُنْهَ ما يعطي الله هؤلاء المؤمنين في الجنة من الثواب الذي تَقَرُّ به أعينهم مما أخفاه الله عنهم.

وقيل: هو وعد الرؤية، فإن عين المؤمن لا تَقَرُّ إلا برؤية الله.

---

(١) في (أ) و(ف): «اضجعوا». وانظر التعليق الآتي.

(٢) رواه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦١٠)، ولفظ الطبري: (عن أنس رضي الله عنه: أن هذه الآية نزلت في رجال من أصحاب النبيّ ﷺ، كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.
لكن ذكر الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٣٧) عن أنس روايتين فقال: روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ، لكن اختلفت عنه الروايات:
ذكر في بعضها: أنها نزلت في نفر من عمال أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يعملون النهار، فإذا جن عليهم الليل اضطجعوا بين المغرب والعشاء فناموا، فلما نزل هذا اجتنبوا عن ذلك.
وذكر عنه: أنهم كانوا يصلون بين المغرب والعشاء؛ فنزلت الآية فيهم.
فإن كان هذا فنزول الآية لذلك يخرج مخرج المدح لهم والثناء الحسن، وإن كان الأول فهو على النهي والتوبيخ لذلك.
قلت: وقد صح عن النبيِّ عليه السلام تفسيرها بقيام العبد من الليل. رواه الترمذي (٢٦١٦) وصححه، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦١٤)، من حديث معاذ رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: جزاءً لهم من الله تعالى على هذه الأعمال.

وروت أسماءُ بنت يزيدَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى منادٍ: سيَعلم أهل الجمع مَن أولى بالكرم، أين الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ الآية؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب.

ثم ينادي منادٍ: سيَعلم أهل الجمع مَن أولى بالكرم، أين الحمَّادون لله في السرَّاء والضرَّاء؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب.

ثم ينادي منادٍ: سيَعلم أهل الجمع مَن أولى بالكرم، أين الذين لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب.

ثم يحاسب[1] مَن سواهم من الناس»[2].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: أعددتُ

---

(١) في (ف): «ثم ينادي مناد للحساب فيحاسب».

(٢) رواه هناد في «الزهد» (١٧٦)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢٣٠٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٢)، من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء به، وعبد الرحمن بن إسحاق هو الواسطي، وهو ضعيف كما في «التقريب».

ورواه عبد بن حميد في «مسنده» (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر به. وأبان متروك كما في «التقريب».

وله شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٠٨) من طريق عبد الله بن عطاء عن عقبة وصححه، لكن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة كما ذكر المزي في «تهذيب الكمال» (١٥/ ٣١٢).

وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣ ـ زوائد نعيم)، والحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١١٢٢)، وقال الحافظ في «المطالب العالية» (٤٥٥٧): هذا موقوف إسناده حسن.

لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[١].

***

(١٨) ـ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾: ذكر وعيدَ الكافرين ووعد المؤمنين، ثم عجَّب عباده ممن سوَّى بين الفريقين، فقال: ﴿أَفَمَن﴾ وهو استفهام بمعنى النفي، يقول: أفمَن كان متقادمَ الإيمان كمَن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله يَهتكُ[٢] الحرمةَ فيما بينه وبين الله؛ أي: إن هذا لا يكون.

وقال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل: يستويان؛ لأن (مَن) جنسٌ يصلح[٣] للجمع.

والآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان بينهما تنازعٌ في شيء، فقال الوليد لعلي رضي الله عنه: إلى كم تهدِّدني؟! فوالله إني لأحدُّ منك سناناً، وأشجعُ منك جَناناً، وأبسطُ منك لساناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي رضي الله عنه: اسكت يا فاسق، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لعليٍّ رضي الله عنه[٤]، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ في الوليد.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) في (أ): «متهتك»، وفي (ف): «مهتك».

(٣) في (أ): «فصلح».

(٤) » رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وكذا أورده في تفاسيرهم السمرقندي والثعلبي والواحدي والبغوي وابن عطية وابن الجوزي، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٢٥) عن عطاء بن يسار مرسلاً. =

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾: هو تفصيل قوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾، فإن المؤمنين في جنات المأوى ناعمون.

﴿نُزُلًۢا ﴾؛ أي: رزقاً وعطاءً لهم بأعمالهم الصالحة.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾: أي: إذا رفعهم لهب النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى مواضعهم فيها بضرب الزبانيةِ إياهم بمقامع الحديد، قاله الحسن(١).

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾: أي: وتقول لهم خزنة النار: قاسُوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، والتذكير راجعٌ إلى العذاب، وإن جعل راجعاً إلى النار فلأن تأنيثها ليس بلفظيٍّ ولا حقيقيٍّ، فيجوز التذكير فيه للَفْظه.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم ﴾: أي: هؤلاء الفساق ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾؛ أي: العذاب في الدنيا من القتل والسبي، وقيل: هو يوم بدر.

= لكن نقل ابن عطية عن الزجاج [في «معاني القرآن» (٤/ ٢٠٨)] وغيره أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط، قال: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر.

(١) ذكره عن الحسنِ: يحيى بنُ سلام في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٥٠). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٨) عن أبي ظبيان.

وقيل: هو مصائب الدنيا وشدائدُها في النفوس والأموال والقَحْط.

وقيل: هو عذاب القبر.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: أي: قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب الآخرة؛ أي: يجمع الله لهم العذابين، ونظيره: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال الحسن: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: البلايا ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: لا[١] العذابِ المستأصِل[٢]، يعني: لا يكون ذلك لهذه الأمة، فعلى قوله العذابان جميعاً في الدنيا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: ليرجعوا إذا انتبهوا بالعذاب الأدنى، وهذا إذا حمل الأدنى على ما دون القتل، فإن حُمل على القتل فمعنى قوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لعل الآخرين يعتبرون بهم فيرجعون.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: أي: وُعِظ بها ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ﴾ فتولى عنها فلم يقبلها، فلا أحق بالعذاب في الدنيا والآخرة من هذا.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾: أي: إنَّا من هؤلاء الفسَّاق المشركين منتقِمون تمييزاً بين المحسن والمسيء.

---

(١) «لا» من (أ).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٠٧) بلفظ: (عقوبات الدنيا)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٢٩) بلفظ: (مصيبات الدنيا)، ولم أجد باقي الخبر عن الحسن، بل روى عنه قَتادة: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم القيامة. رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٣٣).

وقال القشيري: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؛ أي: أفمَن كان في حلةِ الوصال يجرُّ أذيالها كمَن هو في مَذلَّة[١] الفراق يعاني وَبالها.

أفمَن كان في رَوح إقبالنا عليه كمَن هو في محنةِ إعراضنا عنه.

أفمَن بقي معنا كمَن بقي عنا.

أفمَن هو في ضياء العرفان ونهار الإحسان[٢] كمَن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان والهجران.

أفمَن أُيِّد بنور البرهان وأُطلع على[٣] شموس العرفان كمَن رُبط بالخذلان ووُسم بالحرمان؛ لا يستويان ولا يلتقيان[٤].

وقيل: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: الخذلان في الذلة، و﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾: الهجران عن الوُصلة.

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ لقوم محنُ الدنيا، و﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ عقوبةُ العُقبى.

ولقوم ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: فترةٌ تتداخلُهم في عبادتهم، و﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ قسوةٌ تصيبهم في قلوبهم.

ولقوم ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: وقفةٌ في سلوكهم تمسُّهم[٥]، و﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ حَجْبةٌ عن مُشاهدتهم [تنالهم]، قال قائلهم:

---

(١) في (أ): «ملة».

(٢) في (ر) و(ف): «وبهاء الإحسان». وعبارة «اللطائف»: «في نهار العرفان وضياء الإحسان».

(٣) في «لطائف الإشارات»: «وطلعت عليه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات»: (٣/ ١٤٤).

(٥) في مطبوع «اللطائف»: «تنبيهم».

أدَّبْتَنـي بانصـرافِ الطَّـرْفِ يـا ثِقَتـي فانظُـرْ إلـيَّ فقـد أحسَـنْتَ تأديبـي(١)

* * *

(٢٣) - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: أي: التوراةَ؛ أي كما أعطيتُك القرآن.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: أي: في شكٍّ من أنك ستلقاه يوم القيامة، وتكونان(٢) مع سائر الأنبياء في المراتب العالية التي أُعدَّت لكم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: فلا تكن في شكٍّ في أنك لقيتَه في ليلةِ المعراج(٣)، وأكرمك الله بالاجتماع معه، وإراءةِ مشاهد ملكوت السماوات، فثِق بكرامتك على الله وامضِ لِمَا أنت عليه من الدعاء إلى دِين الله صابراً عليه.

وقيل: معناه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فلقيه مِن قومه الأذى فصبر عليه ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ في أنْ تلقى ما لقي هو، واصبر كما صبر هو تُحمد العاقبة كما حُمدها هو.

وقال الزجاج: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن﴾ لقاء موسى الكتابَ(٤).

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات»: (٣/ ١٤٥).

(٢) بعدها في (ف): «يوم القيامة».

(٣) قطعة من حديث رواه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٣٦)، من طريق قتادة عن ابن عباس في قصة الإسراء.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٩)، وزاد: (ويكون الهاء للكتاب، ويكون في لقائه ذكرُ مُوسى، ويجوز أن يكون الهاء لموسى، والكتاب محذوف، لأنْ ذكر الكتاب قد جرى كما =

وقيل: هذا يتَّصل بكلام متقدِّم، وتقديره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا المعترض يتصل بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

وقال عطاء: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن﴾ لقاء موسى الجبل دكًّا عند سؤاله الرؤية[1].

وقال الشيخ أبو القاسم بن حبيب: روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ لنا غداً ورؤيته لنا»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: قيل: أي: وجعلنا موسى هادياً. وقيل: الكتابَ هادياً دالًّا إلى الحق.

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾: قادةً يُقتدَى بهم.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي: يدلُّون الناس على الطريق المستقيم بأمرنا إياهم به، وهم أنبياء بني إسرائيل، وغيرُ الأنبياء أيضاً.

﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿لِمَا صَبَرُواْ﴾ بكسر اللام والتخفيف؛ أي: لصبرهم[3]، وقرأ الباقون: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ بفتح اللام وتشديد الميم[4]، يعني: إذ صبروا وحين صبروا.

= جرى ذكر موسى). قال: (وهذا والله أعلم أشبه بالتفسير).

(١) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٤٤٨) دون عزو.

(٢) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات»: (٣/ ١٤٦) من كلامه هو، ولم أجده مسنداً.

(٣) في (ف): «لتصبرهم».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٧).

وقيل: على الجوع والصوم؛ كما قال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الإنسان: ١٢].

وقيل: أي: على تحمُّل[١] البلايا وأذى الأعداء.

وقيل: على طاعة الله.

وقيل: أي: عن محارم الله.

وفيه دليل على أن الصبر ثمرتُه إمامةُ الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾: عطفٌ على ﴿صَبَرُواْ﴾[٢].

والآيات: التوراة.

وقيل: المعجزات التي كانت لموسى عليه السلام.

* * *

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يَقطع الحكم بين هؤلاء المذكورين ـ وهم المؤمنون والكفار وبنو إسرائيل وغيرهم ـ في الآخرة وهو قوله:

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من أمور الدنيا والدِّين، فيميِّز بينهم في الثواب والعقاب، فيَتبيَّن إحسان المحسنين وإساءةُ المسيئين، وحقُّ المحقِّ وباطل المُبْطِل.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فعند ذلك

---

(١) في (أ): «تجرع».

(٢) في (أ): «على ما صبروا».

يتبيَّن المردود من المقبول، والمهجورُ من الموصول، والذَّميم من الرضيِّ[١]، والعدوُّ من الولي، فكم من بَهجةٍ دامت[٢] هنالك، وكم من مُهجةٍ ذابت عند ذلك[٣].

* * *

(٢٦) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾: أي: أولم يتبين لهم إهلاكُنا القرونَ من قبلهم فيتَّعظوا أو يرتدِعوا عن الشرك.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾: أي: يمشي هؤلاء في مساكن المهلَكين في أسفارهم، وهي بلاد قوم صالح وشعيب ولوط؛ كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي: مَن فعَل فعلَهم جُزي جزاءهم ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ما يوعظون به فيتعظوا به.

* * *

(٢٧) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾: أي: أولم يرَ هؤلاء المكذِّبون بالبعث ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ وهو المطر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؛ أي: اليابسةِ التي لا نبات فيها، انقطع ذلك لانقطاع الأمطار، وهو من قولهم: سيف جُراز؛ أي: قطَّاع.

---

(١) في (ف): «والدميم من الوضي».

(٢) في (أ): «بهجة دامت» بدل من «مهجة هامت».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات»: (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

وقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾: أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾؛ أي: مواشيهم من الحشيش ونحوه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الأطعمة والفواكه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا بأعينهم فيستدلُّوا به على أن مَن قدر على إحياء الأرض بعد موتها فهو قادرٌ على إحيائهم[1] بعد موتهم؛ أي: أبصَروا ذلك فهلَّا استدلُّوا.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: ويقول هؤلاء المنكِرون للبعث: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ أي: الحكم والقضاء والفصل بيننا وبينكم على ما تذكرونه، والفتح: الحُكم، والفتَّاح: الحاكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه كائن فبيِّنوا لنا وقته.

* * *

(٢٩) ـ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾: لأن إيمانهم إيمانُ اضطرارٍ، وقد قال الله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: لا[2] يمهَلون بتأخير العذاب عنهم.

وقيل: هو فتح مكة، وكان موعوداً للنبي ﷺ وأصحابه، فكانوا يذكرون ذلك للكفار، فقالوا: متى هذا الفتح؟ فقال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وكان القائلون هذا قوماً من جَذِيمة، فلما فتحت

---

(١) في (ف) و(أ): «إحياء الناس».

(٢) «لا» ليست في (أ) و(ف).

مكة هربوا، فلحقهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، فأظهروا الإسلام فلم يقبله خالد منهم وقتلهم، فكان ذلك قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ ذكره الكلبي رحمه الله وغيره[١].

وقالوا: هذا غير صحيح؛ لأن أكثر أهل مكة آمنوا يومئذ فنفعهم إيمانهم.

وذُكرت هذه الحادثة من وجه آخر قال الحسن: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة تحصَّن بنو جَذِيمة على[٢] أعلى جبل، فأرسل إليهم خالد بن الوليد يستنزلهم، فقالوا: قد أسلمنا، قال: فانزلوا إن أسلمتم، فنزلوا فوضع فيهم السيف فقتلهم[٣]، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال ﷺ: «اللهم إني أبرأُ إليك مما صنَع خالد»[٤]، ووداهم من غنائم خيبر.

وقال محمد بن إسحاق: كان بين خالد رضي الله عنه وبني جَذيمة إحنةٌ في الجاهلية، وذلك أن بني جذيمة قتلوا عوفاً أبا عبد الرحمن بن عوف وقتلوا الفاكهَ عمَّ خالد بن الوليد.

وقال السدي: يعني: يوم بدر؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يُوْعدونهم[٥].

---

(١) ذكره عن الكلبي: أبو الليث في «تفسيره» (٣/ ٣٨).

(٢) في (أ): «إلى».

(٣) «فقتلهم» ليس من (ف).

(٤) لم أجده عن الحسن، هذا مع أنه مردود أيضاً؛ لأن فيه أن خالداً رضي الله عنه قتلهم بعد أن أسلموا وأعلنوا إسلامهم وعلم منهم هو ذلك، وصواب القصة ما رواه البخاري (٤٣٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (بَعَث النَّبيُّ ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى بني جَذِيمةَ، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحْسِنوا أنْ يَقولوا: أسلَمْنا، فجعلوا يقولون: صَبَأنا صَبَأنا، فجَعَل خالدٌ يَقتلُ منهم ويأسِرُ...) الحديث.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٥)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣١٠).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: يكون لنا يوم نغنم(١) فيه ونستريح، فردَّ عليهم المشركون فقالوا: متى هذا الفتح؟ يعني(٢): اليوم الذي تقولون(٣).

***

(٣٠) ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: أي: عن قتالهم، وكان هذا قبل فرض القتال.

﴿وَانْتَظِرْ﴾: هذا الفتح يومَ القيامة، أو يوم بدر، أو يوم فتح مكة، فإنه كائن لا محالة.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: أي: ماكثون إلى أن يكون ذلك، جعَلهم منتظِرين له وإن لم يقصدوا ذلك لأنه كان يأتيهم لا محالة، فكان كقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

وقيل: إنهم منتظِرون نزولَ الموت بهم، وكانوا موقنين به.

وقيل: كان بعضهم شاكًّا فيه فكانوا ينتظرونه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: ٥٥].

---

(١) في (أ): «ننتقم»، وفي (ف): «ننقم».

(٢) في (ر): «متى هذا الوعد أي»، وفي (ف): «متى هذا الوعد يعني».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٦٤٤) عن قتادة. وروى الحاكم في «المستدرك» (٣٥٥٣) وصححه، والبيهقيّ في «الدَّلَائِل» (٢/ ٣٢) عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: يوم بدر فتح للنَّبي ﷺ فلم ﴿يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ بعد الموت.

وقيل: معناه: فأعرِضْ عن مكافأتهم على ذلك فإنَّا نكافئهم على ذلك، فانتظِرْ هلاكهم إنهم منتظِرون هلاكَكَ.

وروى مكحول رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فهما القرينان[١] يأتيان يوم القيامة لصاحبهما[٢] الذي كان لا يدَعُهما كإنسانين من الناس يهديانه السبيل، ويكفَّان عنه الوعث[٣]، ويسهِّلان له الطريق حتى يقف عند الله، قال: فيقول لهما: جزاكما الله من صاحبين وقرينين خيراً قد أحسنتُما، فيقولان له: هل تدري مَن نحن؟ نحن اللَّذان كنتَ لا تَدَعُنا في قراءتك ليلاً، فلا نَدَعُك اليومَ حتى نشفعَ لك عند الله تبارك وتعالى»[٤].

الحمد لله المعطي الوهَّاب، غافرِ الثواب مُجزل الثوب، قابلِ التوب شديدِ العقاب، والصلاة والسلام على خيرِ خلقك سيدِ البشر، والشفيعِ يوم المحشر، محمدٍ النبيِّ العربي المقدَّم على ذوي الألباب[٥].

***

---

(١) في (ف): «القرينتان».

(٢) في (أ): «يوم القيامة بصاحبهما» وفي (ف): «يأتيان يوم القيامة بصاحبهما»، بدل: «يأتيان يوم القيامة لصاحبهما».

(٣) في (ر): «الرعب». والوعث: الطريق العسر.

(٤) لم أقف عليه، وإسناده ضعيف لإرساله.

(٥) في (أ): «اللهم نجنا من الظالمين اللهم ارزقني حوائجي وحوائج المحتاجين يا رب العالمين» بدل: «الحمد لله المعطي الوهاب...».

سُورَةُ الأَحْزَابِ

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهو حسبي وكفى

بسم الله الذي أعدَّ للكافرين عذاباً أليماً، الرحمنِ الذي وعد المؤمنين أجراً كريماً، الرحيمِ الذي قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة الأحزاب وعلَّمها ملكَ يمينه وأهلَه أُعطي الأمان من عذاب القبر»[(١)].

وسورة الأحزاب مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية، وألف ومئتان وسبع وثمانون كلمة، وخمسة آلاف وستُّ مئة وسبعةٌ وأربعون حرفاً[(٢)].

وانتظام أول[(٣)] هذه السورة بآخر سورة السجدة: أنه أمر رسوله ﷺ بالإعراض عن الكافرين، ونهاه هاهنا عن طاعة الكافرين والمنافقين.

وانتظام السورتين: أن تلك السورة في محاجَّةِ المشركين والصبر على أذى المؤذين، فقد قال: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. وهذه السورة في تعداد

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٤٢)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٠٨)، وفيه: (وكلمها ألف ومئتان وثمانون كلمة وحروفها خمسة آلاف وسبع مئة وستَّة وتسعون حرفاً).

(٣) «أول» ليس من (ف).

ضروب أذًى ناله من الكافرين والمنافقين وبعضِ المؤمنين في طعنهم عليه في زيدٍ وتزوُّجِ امرأته، والاستكثارِ من النساء، والتوسُّع في المناكح، واعتراضِ نسائه عليه في طلب الزينة، ودخولِ بعض المؤمنين بيوتَه وانتظارِهم طعامَه، وتعرُّضِ بعض المنافقين بعضَ نسائه، وإيذائهم المؤمنين، وختم بذكر إيذاء قوم موسى عليه السلام، وكرَّر في هذه السورة لفظة الأذى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٥٨] ﴿أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

* * *

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: روي في نزول هذا: أن أبا سفيان بن حرب وعكرمةَ بن أبي جهل وأبا الأعورِ السُّلميَّ[١] ـ واسمه عمرو بن سفيان ـ قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبيٍّ رأسِ المنافقين[٢] ـ وكان رسول الله ﷺ أعطاهم الأمان على أن يكلِّموه ـ ومعهم طُعْمة[٣] بن أُبيرقٍ وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ، فأتوا النبيَّ ﷺ وقالوا له: ارفض ذكر آلهتنا اللاتِ والعزى ومناة وقل: إن لهم شفاعة ومنفعة لمن عبدها وندعُك وإلهك، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله: ائذن

---

(١) وقد أسلم هؤلاء الثلاثة، إلا أن الأخير اختلف في صحبته. انظر: «الإصابة» (٤/ ٥٢٩).

(٢) بعدها في (أ): «وجد بن قيس».

(٣) في (ر) و(ف): «طعيمة».

لي يا رسول الله في قتلهم، فقال: «قد أعطيتُهم الأمان فأَخْرِجهم من المدينة»، فقال لهم عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة[2]، يعني: هؤلاء الستةَ نفر المسمَّين.

وقال الضحاك: إنهم حملوا النبيَّ ﷺ على أن ينقض عهداً[3] كان بينه وبين قوم من العرب، فنهاه الله تعالى عن ذلك[4].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: دم على تقواك ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يدعونك إليه.

وقال ابن كيسان: الخطاب له والمراد به جميع المؤمنين، فإنه ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ على الجمع.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾؛ أي: بما يؤذيك من قولهم ﴿حَكِيمًا﴾ في أن لا يعاجلَهم بالعقوبة على فعلهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يا أيها المرقَّى إلى أعلى الرُّتَب، الملقَّى بأسنى القُرَب، يا أيها المخبِرُ عنا المأمونُ على أسرارنا، المبلِّغُ

---

(١) ذكره دون سند مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٥٠٠)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥١). وقال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٣٢): هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٣) في (ر) و(ف): «العهد الذي».

(٤) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٥٦).

خطابنا إلى أحبابنا ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أن تلاحظ غيرَنا معنا أو تساكن شيئاً من دوننا.

والتقوى رقيب على قلوب أوليائه تمنعهم في أنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم أن ينظروا إلى غيره.

التقوى لجام يكبحك(١) عما لا يجوز، وزمامٌ يقودك إلى ما يجب(٢)، وسوطٌ يسوقك إلى ما أُمرت به، ومِشْخَصٌ(٣) من الله يحملك على القيام بحقه، وحرزٌ يعصمك من وصول أعدائك إليك، وعوذةٌ تشفيك من داء الخطأ(٤).

* * *

(٢ ـ ٣) ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: من أوامره ونواهيه.

وقيل: واتَّبع أحكام الله التي نوحيها إليك دون أحكام الجاهلية في الظهار وفي التبنِّي، ولا تخالف ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: أي: عالماً، هذا خطابٌ له ولأمته.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي: اعتمِدْ عليه، وفوِّضْ أمرَكَ إليه مما(٥) تخافه من ضرر أذى الكفار.

---

(١) في (ف): «يمنعك».

(٢) في (أ) و(ر): «تحب»، ومثله في مطبوع «اللطائف»، والمثبت من (ف) وهو الأنسب بسياق الكلام.

(٣) في (ف): «ومركب»، وفي «اللطائف»: (شاخص).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٥) في (ف): «فيما».

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾: أي: وحسبك الله قائماً بأمورك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ كنْ لنا لا لك، وقُم بنا لا بك.

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ التوكُّل تحقُّقٌ ثم تخلُّقٌ ثم توثُّقٌ ثم تملُّقٌ، تحقُّقٌ في العقيدة، وتخلُّقٌ بإقامة الشريعة، وتوثُّقٌ بالمقسوم من القضية، وتملُّقٌ بين يديه بحسن العبودية(١).

* * *

(٤) ـ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾: يذكُر ما كان المنافقون يقولونه، يقول: لم يجعل الله لرجل ﴿فِي جَوۡفِهِۦ ﴾؛ أي: في بطنه قلبين، إنما جعل له قلباً واحداً.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَلۡبَيۡنِ ﴾ كلمةُ ﴿مِّن﴾ زيدت للتأكيد؛ كما في قوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

وقيل: هو في أبي معمر جميل بن معمر بن أُسَيدٍ الفِهْريِّ، وكان حافظاً لِمَا يسمع، وأهدى الناسِ للطريق، وسمَّته العرب ذا قلبين، وكان هو يقول: إن لي قلبين أحدهما أعقلُ من الآخر، وكان يوم بدر انهزم وإحدى نعليه في رجليه والأخرى في يديه، وكان يعدو في الرمضاء وتحترق رجله ويقول: أين نعلي أين نعلي؟ ولا يعقل

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٥٠).

أنها في يده، فأنزل الله هذه الآية في شأنه تكذيباً لهم في تسميته بذلك(١).

وروي أنه تلقاه أبو سفيان بن حرب فقال: ما فعَل الناس؟ فقال: انهزموا، فقال: ما بال نعلك في يدك؟ قال: ما شعرتُ إلا أنهما جميعاً(٢) في رجلي، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان ما نسي نعله في يده(٣).

وقيل: كان بعض المنافقين يزعم أن النبي ﷺ له قلبان، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما(٤).

وعنه في رواية أنه قال: كان رجل من قريش يسمَّى ذا قلبين لدهائه، فنهاهم الله تعالى عن هذه التسمية(٥)، كما نهاهم الله تعالى أن يسمُّوا الزوجة أمًّا في الظهار،

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٤)، و«تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٥١). وروى نحوه مختصراً بإبهام اسم الرجل الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧ ـ ٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وعكرمة.

(٢) «جميعاً» ليست في (أ).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٤)، و«تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٤٩)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٥١). وعزاه الماوردي مع ما قبله للسدي.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤١٠)، والترمذي (٣١٩٩) وحسنه، وابن خزيمة في «صحيحه» (٨٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٥٥)، عن قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه قال: قلنا لابن عباس: أرأيت قول الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ما عنى بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: إن له قلبين، قلباً معكم، وقلباً معهم، فأنزل الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، قال الحاكم: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، فتعقبه الذهبي بقوله: (قابوس ضعيف).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧).

وأن يسمُّوا المدَّعى[١] ابناً، فانتظمت الآية هذه الثلاثة: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وهو قول مجاهد وقتادة[٢].

وقال الحسن هذا تكذيبٌ لرجل كان يقول: إن لي قلبين: قلبٌ يأمرني بكذا وقلبٌ ينهاني عنه[٣].

وقيل: كان المنافقون مذبذبين، إذا لقوا المؤمنين قالوا: إنَّا معكم، وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا: إنَّا معكم، فعوتب واحد منهم على ذلك فقال: لي قلبان؛ قلبٌ مع هؤلاء وقلبٌ مع هؤلاء، فردَّ الله ذلك.

وقيل ـ وهو الأوجه والأوفق للنظم، ويتصل بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ـ: إن معناه: أن طاعة الكافرين والمنافقين لا تجامع الإيمان بالله في قلب؛ كما تقول العرب: لا يجتمع سيفان في غِمْدٍ[٤]، ومجازه: أن الاعتقاد من أعمالِ[٥] القلب، فإذا كان قلبان لا يجتمعان في جوفٍ[٦]، فكذا اعتقادان متنافيان لا يجتمعان في قلب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الحكمة فيما لم يَجعل لواحدٍ قلبين وجعَل له سمعين وبصرين: أن الإدراك بالسمع والبصر يكون بالمشاهدة، فيخرج ذلك مخرجَ

---

(١) في (ف): «الدعي».

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨)، وعن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣١١).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣١٢)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧).

(٤) بعدها في (أ): «واحد».

(٥) في (ر): «عمل».

(٦) بعدها في (ر): «واحد».

المعاوَنة، وما يُدرك بالقلب يُدرك بالاجتهاد، وقد يختلف القلبان فيما يجتهدان في شيء فيناقضُ أحدهما صاحبه، أو[1] يَجوز أن يرى أحدهما خلافَ ما يراه الآخر، ولا كذلك السمعان والبصران[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾: قرأ ابن كثير ونافع: ﴿اللَّاء﴾ بهمزة ليس بعدها ياء، وقرأ أبو عمرو كذلك إلا أنه ليَّن الهمزة، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بهمزة بعدها ياء[3]، وهي لغاتٌ وهي لجمع التي.

﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تَظَّهَّرون﴾ بفتح التاء وتشديد الظاء بغير ألف.

وقرأ عاصم: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ بضم التاء من المظاهرة.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَظَاهَرُون﴾ بالألف وفتحِ التاء وتخفيف الظاء.

وقرأ ابن عامر بتشديد الظاء مع الألف[4]، وأصله: تتظاهرون، فأُدغمت التاء في الظاء، ومَن خفَّف فقد حذف إحدى التاءين.

وهذه الكلمة بوجوهها اسم لقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهرِ أمي، وكان ذلك طلاقاً في الجاهلية، فأبطل الشرعُ هذا الحُكم وجعله سبباً لحرمةٍ مؤقَّتة بالكفَّارة، وهي حرمةُ الفعل.

يقول: وما جعل الله نساءكم بهذا الكلام في حُكم أمهاتكم.

---

(١) في «التأويلات»: (إذ).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٥١).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: أي: ولم يجعلِ الله مَن تدَّعون بنوَّته فتسمُّونَه ابناً لكم ابناً[١].

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: أي: إن قولكم للزوجة: هي أم، وللدَّعيِّ: هو ابنٌ، هو قولٌ تقولونه بألسنتكم التي بأفواهكم، لا حقيقةَ له في اعتقاد القلوب عند الله تعالى، ولا حجةَ مع صاحبه، إنما هو كقول النائم الهاذي يوجد بالفم لا حقيقةَ له، فلا تصير المرأة بذلك أمًّا، ولا الدعيُّ ابناً.

نزلت في شأن زيد بن حارثة، كانوا يسمُّونه: زيد بن محمد؛ لأن النبيَّ ﷺ كان تبنَّاه[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾: ما يجب أن يقال وما له حقيقةٌ.

﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾: أي: يرشد إلى طريق الحق في هذا وفي كلِّ الأحكام، فاتَّبعوا ما شَرَعه في الإسلام، وكان في الجاهلية إذا أعجَبَ أحدَهم ولدُ غيره ضمَّه إلى نفسه وتبنَّاه، وجعَل له مثلَ نصيبِ أحد الأولاد، فبيَّن الله الحقَّ فيه وهدَى السبيل.

ولما نزلت هذه الآية قال زيد: أنا زيد بن حارثة[٣] بن فروة بن شراحيل[٤] من بني عبد ود، وكان بعد ذلك ينسب إلى أبيه.

***

(١) في (ف): «فتسمونه ابناً لكم ابناً لكم» وفي (ر): «فتسمون به أبناءكم ابناً لكم».

(٢) رواه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥)، عن ابن عمر رضي الله عنهما: ما كنَّا نَدْعُو زيدَ بن حارثةَ إلَّا زيدَ بنَ محمدٍ حتى نزَل في القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

(٣) إلى هنا ذكره ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٤٩).

(٤) في (ر) و(ف): «شرحبيل»، وهو خطأ، وكذا قوله في نسبه: «بن فروة» لم أقف عليه، فالذي في المصادر: (زيد بن حارثة بن شراحيل). انظر: «الإصابة» (٢/ ٤٩٤).

(٥) ـ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾: الذين ولدوهم: يا فلان بن فلان.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: أعدلُ وأقومُ.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: لم تعرفوا أنسابهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: فهم إخوانكم في الدين ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾؛ أي: أولياؤكم في الإسلام؛ كما قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقيل: هو مِن ولاء العتاقة.

أي: إذا لم يمكنكم النسبةُ إلى الأب لعدم معرفةِ الأب، فقولوا: يا أخي ويا مولاي، وفي ولاء العتاقة: يا مولى فلانٍ، أو أن تسمُّوه بأسامي المسلمين: يا عبد الله، يا عبيد الله، يا عبد الرحمن، ونحوه من أسماء أهل الإسلام وأسماءِ الموالي، أو تُعرِّفونه بما يُعرَف به من عبوديةِ الله أو الإسلام أو الصناعة.

و﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾: فنسبتُم واحداً إلى رجلٍ وعندكم أنه أبوه وكان ذلك خطأً.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: أي: ولكن فيما تعمَّدْتُم ذلك من النسبة إلى غيرِ الأب مع العلم بذلك.

وقيل: فيما أخطأتم به قبل بلوغ النهي، فنسبتُم إنساناً إلى مَن تبناه ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: فقلتُم[1] ذلك بعد سماع النهي.

---

(١) في (ف): «فعلتم».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: لا يؤاخذ[1] بالخطأ، ويقبلُ التوبة من المتعمِّد.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ـ وكان ممن شهد بدرًا ـ تبنَّى سالماً وأنكحه ابنةَ أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وهو مولى امرأةٍ من الأنصار، كما تبنى رسول الله ﷺ زيداً، وكان مَن تبنى رجلاً في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ الآية، فرُدُّوا إلى آبائهم، فمَن لم يُعلم له أبٌ كان أخاً في الدِّين[2].

* * *

(٦) ـ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾.

وقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: أحَقُّ بالمؤمنين بأنْ يَحكم عليهم من أنفسهم فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمَه.

وقيل: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من بعضهم لبعض؛ كما قال: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: فهذه رتبةُ النبي ﷺ، ومع هذا هو لا يرث أحداً من أمته إلا بقرابة، فكذلك أدعياؤكم لا يرثونكم لأنه لا قرابة بينكم.

وفي مصحف أبيٍّ: (النَّبيُّ أَوْلَى بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم وهو أبٌ لهم)[3].

---

(١) في (ر): «يؤاخذكم».

(٢) رواه البخاري (٥٠٨٨).

(٣) رويت عن أبي بن كعب رضي الله عنه في «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٢١١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في «المستدرك» (٣٥٥٦). وعن ابن مسعود أو أبيٍّ في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٥).

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾: أي: أن نساء النبيِّ كأمَّهات المؤمنين في وجوب تعظيمهنَّ وبِرِّهنَّ.

وقيل: في أن الله حرَّمهن عليهم كما حرَّم عليهم أمهاتهم.

وقيل: في إنهنَّ مشفقاتٌ عليهم مريداتٌ للخير لهم[1] كالأمهات.

ثم هذه الأمومة لا تُوجب ميراثاً، فأمومةُ التبنِّي من إيجاب ذلك أبعد.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: أي: ولاية الميراث تقع بالأرحام لا بالتبني.

وقال الفرَّاء: كان المسلمون متواخِينَ، وكان الرجل إذا مات عن أخيه الذي آخاه ورثه دون عصبته وقرابته، فأنزل الله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وليس يرثهم، فكيف يرث المؤاخي[2] أخاه، وأنزل: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[3].

ووجهٌ آخرُ: قال الحسن: لمَّا نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه، فأيما مؤمنٍ مات وترك عليه دَيناً فعليَّ أو ضيعةً فإليَّ، وإن ترك مالاً فلورثته»[4].

ووجه آخر: أن الله تعالى عاب عليهم التسمية بالأبوَّة بالتبنِّي، والتسمية بالأمومة

---

(١) في (أ): «بهم».

(٢) في (أ): «الموالي».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٥).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٦) أوله وهو قوله: «أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه» عن الحسن، وباقيه عن قتادة. ورواه بتمامه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣١٥) من حديث جابر رضي الله عنه. ورواه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون ذكر الآية.

في الظهار، ثم كانت هاتان التسميتان[١] صالحتين للنبيِّ ﷺ وأزواجه، فيقال للنبي: أبو المؤمنين، ولأزواجه: أمهات المؤمنين، فعرَّفنا الله بذلك خروجَ هذا من جملة ما عابه فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ هو أبٌ لهم وأزواجُه أمهاتهم، فلا بأس عليكم في هذه التسمية في هذا الموضع ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ يعني: لكن التوارث فيما أُنزلت في كتابي لا يقع إلا بالقرابة والرَّحِم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: أي: في حكم القرآن. وقيل: أي: في حكم الله الذي كتبه لهم.

﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: أي: بعضُهم أحقُّ بميراث بعضٍ من الذين تواخَوا على الإيمان والهجرة، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة.

وقيل: كانت المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، والمؤمنون هم الأنصار، والمهاجرون هم الذين هاجروا إليهم.

وقيل: كانت مؤاخاتان إحداهما بين المهاجرين؛ آخى فيها النبي ﷺ بين حمزة وزيد، وبين أبي بكر وعمر، وبين نفسه وعليٍّ، والأخرى بين المهاجرين والأنصار: بين أبي بكر وخارجةَ، وبين عمر وعاصمٍ، وبين عِتْبانَ وعليٍّ، وبين سهلِ بن حنيفٍ وعبد الرحمن، وبين سعد بن الربيع وعثمان، وبين أوس بن ثابت وبين الزبير، رضوان الله عليهم أجمعين.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾: أي: إلا أن تُوصوا لمن أحبَبْتُم من هؤلاء بشيء، فيكون له ذلك بالوصية لا بالميراث.

وقيل: ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ بالصلة لهم، والمعونةِ بالبر والعقلِ عنهم ونحوِها، هذا وجه.

---

(١) في (ر): «المسألتان».

ووجه آخر قاله قتادة في هذه الآية، وفيه تقديمٌ وتأخير: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ بالميراث دون الكفار منهم، ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾؛ أي: قراباتكم من غير المؤمنين ﴿مَّعْرُوفًا﴾ بالوصية في الموت أو بالصلة في الحياة[1].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾: أي: التوارثُ بالأرحام في اللوح المحفوظ كان مسطوراً.

وقيل: أي: في القرآن، وهي آية المواريث.

* * *

(٧) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾: يعني: كان ذلك في الكتاب مسطوراً حين كتب الله تعالى ما هو كائن وحين أخذ مواثيق الأنبياء، وهو لتعظيم الأمر فيه، وتأكيدِ قطع الولاية بين المسلمين والكفار، وتعريفِ المؤمنين أن ذلك مما لا تختلف فيه شرائع الأنبياء في الجملة وإن كان في تفصيله اختلافٌ، وذلك أن الناس في أول الإسلام كانوا يتوارثون بالهجرة إذ هي من آكَدِ[2] أسباب الديانة،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٧ و١٩) عن قتادة قال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، والأعرابيّ المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله هذه الآية، فخلط المؤمنين بعضهم ببعض، فصارت المواريث بالملل. ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ قال: للقرابة من أهل الشرك وصية، ولا ميراث لهم.

(٢) في (ر): «من أكبر».

وبالمؤاخاة إذ هي اجتماعٌ على نصرة دين الله، ثم[1] في الآخِر توارثوا بالإيمان مع القرابة، وذلك اجتماعٌ في الدِّين بجمع الله تعالى فلم تَخْلُ هذه الشرائعُ كلُّها من تعليق التوارث بسبب ولاية الدين.

وقيل في نظمه وجهٌ آخر: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ... كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ومأخوذاً به المواثيقُ من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: قال سعيد بن جبير: عمَّ بأخذ الميثاق على الدِّين والشهادة، وخصَّ الخمسة المذكورين في الآية بتبليغ الرسالة والقيامِ بالحجة؛ لأن لهم الكتبَ والأمم وهم أولو العزم، وبدأ بذكر النبي ﷺ لأنه كان هو الأولَ في خطاب العهد، ولذلك قال النبي ﷺ: «أنا أولُ الأنبياء خَلْقاً وآخرُهم بعثاً إلى الخلق»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخذ ميثاقَ نوح على أن يبشِّر بإبراهيم، وأخذ ميثاق إبراهيم على أن يبشِّر بموسى، وأخذ ميثاق موسى على أن يبشر بعيسى، وأخذ ميثاق عيسى على أن يبشر بمحمد ﷺ.

ثم قولُه تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ إلى آخره: دليلٌ على أن الواو للجمع المطلَق لا للترتيب.

---

(١) «ثم» ليست في (أ) و(ف).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٤٩)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٣) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. ورواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٦٦٢) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وسعيد بن بشير قال عنه البخاري: يتكلمون في حفظه. وقال ابن معين: ليس بشيء. والحسن هو البصري ولم يسمع من أبي هريرة كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ٣٨). وانظر: «المقاصد الحسنة» (ص: ٨٣٧).

ثـم هـذا التفصيلُ بأسـماء هـؤلاء بعد الإجمـال؛ لِمَا مـرَّ أنهم أصحـابُ كتبٍ وشـرائعَ، وهـم المذكـورون فـي قولـه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآيـة [الشـورى: ١٣].

ثم قولُه: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ يحتمِل أن يكون هو الميثاقَ المذكورَ في أول الآية، وإنما أُعيد لِمَا أريد من تعريف تغليظه؛ أي: توثيقه وتأكيده، ويحتمِل أن يكون الأولُ ميثاقَ الإقرار والشهادة، والثاني ميثاقَ التبليغ والبشارة.

* * *

(٨) ـ ﴿لِّيَسْـَٔلَ الصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقوله تعالـى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ الصَّٰدِقِينَ﴾: أي: الأنبـياءَ، وهـم الصـادقـون ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾: عن دعائهم لأمتهم: ماذا أُجيبوا فيه، وهل أُطيعوا وأُنزلوا منزلة الآباء من الأمم؛ أي[١]: أممهم، حتى كأن الأنبياء أحبُّ إليهم من أنفسهم وأهاليهم وأولادهم.

وقد روي أن كلَّ نبي أبو أمته[٢]، وفي قصة لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أنه أراد به بنات أمته فكان كالأب لهم.

وقيل: معناه: ليسألهم هل بلَّغوا؟ هل قاموا بما أُمروا به؟ فيحاسَبون على ذلك ويثابون على تبليغهم، فإذا كان الأنبياء يحاسبون ويُسألون فكيف مَن سواهم؟

وقيل: إذا كان الصادق يُسأل عن صدقة فكيف الكاذب؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: أي: للكافرين من أمم هؤلاء؛ أي: مَن شَهد عليهم الأنبياء بالكفر.

---

(١) «الأمم أي» من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥)، عن مجاهد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: سؤالُ الصادقين سؤالُ تشريف لا سؤالُ تعنيف، والصدقُ أن لا يكون في أحوالك شَوبٌ، ولا في اعتقادك رَيب، ولا في أعمالك عَيب[١].

* * *

(٩) ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾: وهي قصةٌ تشتمِل على ذكر الكافرين والمنافقين الذين ذكرهم في أول هذه السورة، يقول: اذكروا أيها المؤمنون منَّةَ الله عليكم ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾؛ أي: حين جاءتكم جنود من المشركين أهلِ مكة وهوازن[٢] وغطفان في الأحابيش، وظاهَرهم على ذلك أهلُ الكتاب من بني قريظة، وذلك أن أبا سفيان بن حربٍ وعيينةَ بن حصنٍ ظاهَرَا يهودَ قريظة على النبي ﷺ، وسمع به النبيُّ ﷺ فحفر الخندق بإشارة سلمان.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾: أي: على هذه الجنود ﴿رِيحًا﴾ قطَّعت خيامهم وأكفأَتْ قُدورهم، فلم يمكِنْهم القَرارُ في مواضعهم[٣] ﴿وَجُنُودًا ﴾؛ أي: من الملائكة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾: قرأ أبو عمرٍو في روايةٍ بياء المغايبة[٤]؛ أي: لم يرها المشركون، وقرأ الباقون بتاء المخاطَب للمؤمنين.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٥٣).

(٢) في (ف): «وفزارة».

(٣) في (ف): «الفرار من موضعهم».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القرءات» (ص: ١١٩).

قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾: قرأ أبو عمرو وابن كثير بياء المغايبة(١)؛ أي: بما يعمله جنود المشركين من البغي والسعي في إطفاء نور الله تعالى وهو وعيد لهم.

وقيل: أي: بما يعمله(٢) جنود الله؛ أي: بعلمه فعلوا(٣) ما فعلوا وكان أرسلَهم لذلك.

وقرأ الباقون بتاء المخاطبة؛ أي: لم يَخْفَ عليَّ أيها المؤمنون ما عمِلْتُم من التحصُّن والثبات على معاونة النبيِّ ﷺ وهو وعدٌ لهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا كان يومُ الأحزاب انطلقت الجنوب إلى الشمال فقالت: انطلقي بنا ننصرِ اللهَ ورسوله، فقالت الشمال: إن الحُرَّة لا تسري بالليل، فأرسل الله عليهم الصَّبا فذلك قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾(٤)، وهم ألفٌ من الملائكة كانوا يكبِّرون من ناحية العسكر، وكانت هذه الريح من كبار المعجزات؛ لأنه لم يكن بين العسكرين إلا قَدْرٌ يسيرٌ يرى بعضهم بعضاً، فأرسل الله الريح على المشركين وهي باردةٌ شغلَتْهم بأنفسهم وقلعت أخبِيَتهم ونالهم بسببها ما لم يتهيَّأ لهم القرارُ، وكان النبيُّ والمؤمنون في عافيةٍ من ذلك.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٧)، عن أبي عمرو وحده.

(٢) في (ف): «يعلمه».

(٣) «فعلوا» ليس من (أ).

(٤) رواه البزار (١٨١١ ـ كشف الأستار)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١١٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٤٨)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٣٦) من طريق عكرمة عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٦٦): (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٥) من قول عكرمة، وكذا ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٩٠) عن عكرمة لكن بلفظ: (إن محوة لا تسري...) ومحوة هي ريح الشمال، سميت بذلك لأنها تمحو السحاب وتذهب بها. انظر: «اللسان» (مادة: محا).

(١٠) - ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: قيل: هو وصف لهم بالكثرة والتوجُّهِ إليهم من كلِّ جهةٍ، وذلك أهولُ ما يكون.

وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: ما يلي مكة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: ما[1] يلي المدينة.

وقيل: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: من فوق الوادي من قِبَلِ المشرق وعليهم عوفُ بن مالكٍ النصْريُّ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: ما[2] يلي المدينة، يعني: أبا سفيان بنَ حرب وعيينةَ بن حِصنٍ على أهل مكةَ، ويزيدَ بن حبيش[3] على قريش، ومن قِبَلِ الخندق طليحةُ بن خويلدٍ اليهودي[4] ثم الفقعسي ومعه يهود بني قريظة[5].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي: مالت عيونكم عن كلِّ شيء فلم تلتفت إلا إلى العدوِّ متحيِّرةً، قاله الفراء[6].

وقيل: عُدلت عن مقرِّها وشَخَصت طامحةً من شدة الفزع.

---

(١) في (ف): «مما» في الموضعين.

(٢) في (ف): «مما».

(٣) في (ف): «حابس». واسمه في المصادر عدا «تفسير مقاتل»: يزيد بن جحش، وعند مقاتل: (يزيد بن خليس).

(٤) كذا في النسخ، والذي في المصادر: (الأسدي). ولم أجد من ذكر فيه أنه يهودي، ولم يذكر ذلك ابن حجر في ترجمته في «الإصابة» (٣/ ٤٤٠)

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٦)، و«تفسير يحيى بن سلام» (٢/ ٧٠٤)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٩١).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٦).

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾: قيل: أي: كادت قلوبهم تبلغ الحلاقم.

وقيل: إن الرئة تنتفِخ عند الخوف فتدفع القلبَ حتى يكاد يبلغ الحنجرة.

وقيل: أي: صار بعضهم من الرعب يضطربُ فؤادُه فلم يستقرَّ مكانه، بل بلغ بحركته واضطرابه إلى الحلق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بالألف بالوقْف دون الوصل، وقرأ نافعٌ وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ وابنُ عامر بالألف في الوصل والوقف، وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير ألف في الحالين[١]، وفي المصحف بالألف في هذه الثلاث ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾[٢]، وهو الأولى[٣]؛ لموافقة المكتوب، ولمطابقة رؤوس الآي[٤]، وهو صحيح في اللغة مستعملٌ في الكلام، وزيادة الألف إشباع الفتحة.

ومعنى هذا الكلام: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ظُنوناً مختلفةً، يظنُّ المخلِص أن الله تعالى منجزٌ نبيَّه وعدَه في إعلائه وقهرِ أعدائه، ويظنُّ المرتاب أو غيرُ نافذ البصيرة غيرَ ذلك

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥١٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار» للداني (ص: ٣٩).

(٣) في (ر): «الأوفى».

(٤) في «تفسير القرطبي» (١٧/ ٩٣ ـ ٩٤): (قال ابن الأنباري: ولم يخالف المصحفَ من قرأ الظنون والسبيل والرسول بغير ألف في الحروف الثلاثة وخطُّهن في المصحف بألف؛ لأن الألف التي في ﴿أَطَعْنَا﴾ والداخلةَ في أول الرسول والظنون والسبيل كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كفت ألف أبي جاد من ألف هواز.

وفيه حجة أخرى: أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يلحق دعامة للحركة التي تسبق والنية فيه السقوط فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقف سقوطها..) إلى آخر ما قال.

لِمَا يرى من كثرة العدو وضِيق الأمر بالمسلمين، يقول: لو كان الله يريد أن ينصرهم لَمَا بلغ الأمر هذا المبلغَ، وهو قولُه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقيل: هذا خطاب للمؤمنين؛ أي: تظنُّون مرةً أن الله سيكفيكم ويقوِّيكم ويحميكم، وتظنُّون مرةً أنه يبتليكم ويخليكم، ويُخطر الشيطان مع ذلك قلوبَكم الخواطر.

***

(١١) ـ ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: أي: امتُحن المؤمنون فبان صبرُهم وثباتهم.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾: أي: حرِّكوا تحريكاً شديداً بليغاً بالفتنة والتمحيص.

قال محمد بن إسحاق: إن الحال لمَّا اشتدت وجاءت قريش مع قادتها حتى نزلت برومة، وغطفانُ مع قادتها ونزلت إلى جانب أحد، وكانوا عشرة آلاف والمسلمون ثلاثةَ آلاف، وبلغ رسولَ الله ﷺ أن حييَّ بن أخطبَ لم يزل يَفتِلُ من كعب بن الأشرف في الذِّروة والغارب حتى نقض العهد، وعظُم بذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف، وظنَّ المؤمنون الظنونَ ونجَم النفاق، حتى قال معتِّب بن قُشيرٍ: كأن محمداً يرى أن يأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدُنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط!

وأقام النبي ﷺ بضعاً وعشرين ليلة، فبينا الناس على ذلك من الخوف والبلاء، ولم يكن بين الناس قتال إلا الحصارُ والرميُ بالنبال، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينةَ بن حصن والحارثِ بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة على أن

يرجعا ومَن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وكتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، أمر تحبُّه فتصنعَه، أم شيءٌ أمرك الله تعالى به لا بد لنا من أن نعمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ فقال: «لا، بل لكم والله، ما أصنع ذلك إلا لأني رأيتُ العرب قد كالبَتْكم من كل جانب ورمتكم عن قوس واحد، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعرف الله ولا نعبده، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا بقِرًى أو بشِرًى، فحين[1] أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، فوالله لا نعطيهم إلا السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» وتناول صحيفة العهد ومحاها[2].

***

(١٢) ـ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: قيل: إن المنافقين معروفون وهم كفارٌ غير مؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم قوم لا نصرةَ لهم في الدِّين[3] كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبَه عليهم:

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾: أي: أن رسول الله ﷺ وعدَنا النُّصرة ولم تظهر أَمَارةُ ذلك بل يَظهر غيرُ ذلك، فليس ما وُعدنا إلا غروراً؛ أي: إلا شيئاً يخدعُنا به

---

(١) في (ر) و(ف): «فحيث».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢١٩) وما بعدها.

(٣) في (أ): «لا بصيرة لهم في الدنيا» وفي (ف): «لا بصيرة لهم في الدين».

لتَّبعه من غير أن يكون له حقيقةٌ، وافتتح بذكر الله لأن رسول الله ﷺ كان يَعِدُ ذلك عن الله تعالى، وكان وعدُه وعدَ الله.

ورُوي أن رسول الله ﷺ ضرب بالمعول في الخندق ضرباتٍ أضاءت له منها قصور الشام واليمن والعراق، فبشَّرهم بأنها ستُفتح عليهم وهم يومئذ[1] في جهدٍ شديد وخوفٍ عظيم، فقال معتِّب بن قُشيرٍ ـ وقيل: أوس بن قيظيٍّ ـ: يَعِدُنا محمد بهذا ونحن لا نستطيع أن نبرز للخلاء! فنزلت هذه الآية[2].

وقيل: ما كان قولَهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ لأن مَن أقرَّ بالله والرسل لا يتكلَّم بهذا، لكنْ لمَّا وعدهم محمد ﷺ ذلك قالوا: هذا غرور، فأخبر الله تعالى أنهم إنما وَصفوا بالغرور ما هو وعدُ الرسول، ووعدُه وعدُ[3] الله.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

---

(١) في (أ): «حينئذ».

(٢) ذكره ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٣٥). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩ ـ ٤٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤١٨ ـ ٤٢٠) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، وكثير متروك. وليس في خبر ابن إسحاق ذكر نزول الآية.
وقصة تبشير النبي ﷺ بمدائن كسرى وقيصر عند كسر الصخرة أخرجها أيضاً النسائي في «المجتبى» (٣١٧٦) من طريق أبي سكينة ـ رجل من المحررين ـ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ورواها الإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٠٧)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «بوعد».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾: أي: يا أهل المدينة ليس لكم موضعُ قيام.

وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم[1]؛ أي: موضع إقامة؛ أي: ضيَّق عليكم الأحزاب الموضعَ فارجعوا من العسكر[2] إلى المدينة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

أي: منكشفةُ الظهور. وقيل: أي: خالية. وقيل: أي: ضائعة.

وقيل: أي: ممكنةٌ للعدو، ونحتاج إلى أن نرجع فنحفظَها لقرب العدوِّ منها.

وقيل: خارجةٌ من عمران المدينة، فَبَعَثَ رسول الله ﷺ إليها فلم تكن كذلك، وذلك قوله:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أي: ما يريدون إلا هرباً من العسكر[3]؛ حذراً من الحرب، وإرادةً لكسر قلوب غيرهم.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾: أي: المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: من نواحيها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ﴾: أي: الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) في (أ): «المعسكر».

(٣) في (أ): «المعسكر».

﴿لَآتَوْهَا﴾: أي: لأعطَوها من أنفسهم وكفروا، وهذا على قراءة المد، وقرأ ابن كثير ونافع ﴿لَأَتَوْهَا﴾ بالقصر؛ أي: لجاؤوها وفعلوها، من قولك: أتيتُ أمر كذا، والباقون بالمد من الإيتاء[١]، وهو الإعطاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾: أي: ما تثاقلوا عن الإجابة إلا وقتاً قليلاً، وهذا وصفٌ لهم بضعف النية فيما يُظهرونه من الإسلام، وانحلالِ عقائدهم في الإيمان.

يقول: لو دخل الأحزاب الأبواب قبل أن يصلوا إلى البيوت ساعدوهم على إظهار الكفر.

وقيل: لو سئلوا إثارة الفتنة على المخلِصين لفعلوا وعاونوا عليها الكفار.

وقال الحسن رحمه الله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ أي: لو عادوا إلى الكفر لم يلبثوا بالمدينة إلا قليلاً حتى يعاجلهم الله تعالى بعذابه فيهلكوا[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو حارثة[٣].

وقال مقاتل: هم بنو سالم[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن اليهود قالت لعبد الله بن أبيٍّ وأصحابه: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه؟ فارجعوا إلى المدينة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾؛ أي: في الرجوع إلى المدينة وهم بنو حارثة[٥].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٩)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٠٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٤).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٨).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٩).

(١٥) ـ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾: أي: مسؤولاً عنه؛ أي: فنقضوا عهدهم والله يسألهم عن ذلك، وكان بنو حارثة عاهدوا الله بأحد أنْ لا يُولُّوا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم من أهل مكة.

وقال مقاتل رحمه الله: هم السبعون الذين عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة وقالوا له: اشترط لربك ولنفسك، قال: «اشترطتُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترطتُ لنفسي أن تمنعون مما تمنعون، منه أنفسكم وأموالكم وأولادكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، قالوا: قد فعلنا ذلك[1].

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد على ألا يَفِرُّوا بعد ما نزل في الفارِّين[2].

* * *

(١٦) ـ ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: أي: إن كان حضر أجلُكم فلن ينفعكم الفِرار، وإن كان لم يحضر وفَرَرْتُم لم

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٧٨). وهذا الكلام مردود لا يجوز اعتقاده، فكيف يظن بأهل بيعة العقبة وهم من خيرة الأنصار أن يكونوا هم المقصودن بهذه الآية، وقد تعقبه البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٣٣): وهذا القولُ ليس بمَرْضيٍّ، لأن الذين بايَعوا ليلةَ العَقَبة كانوا سبعين نفرًا، لم يكن فيهم شاكٌّ ولا مَن يقولُ مِثلَ هذا القول، وإنما الآيةُ في قومٍ عاهَدوا الله أنْ يقاتلوا ولا يَفِرُّوا، فنقضوا العهدَ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٤٦).

تمتَّعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو مدة أعماركم، وذلك قليلٌ لأنه ينقضي عن قريب؛ أي: فصبرُكم مع رسول الله ﷺ في مجاهدة الكفار خيرٌ لكم من الفرار على كل حال.

* * *

(١٧) ـ ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾: أي: يمنعكم مما يريد الله إنزالَه بكم.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾: أي: في أنفسكم من قتلٍ أو غيره من مكروه.

﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾: أي: إطالةَ عمرٍ في عافيةٍ وسلامة؛ أي: هل هذا كلُّه إلا من الله تعالى؟

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾: أي: ولا ينال هؤلاء القوم من[1] غير الله مَن يتولى حفظهم، ولا مَن ينصرهم على مَن يريد إيقاعَ مكروهٍ بهم.

وقيل: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾؛ أي: هزيمةً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾؛ أي: ظهوراً على الأعداء.

ثم الجمعُ بين الأمرين وأحدُهما مكروهٌ والآخرُ محبوب ـ والمذكور في صدر[2] الكلام هو العصمة ـ يُشْكل بظاهره، لكن تقديره في الثاني: ومَن يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة.

* * *

---

(١) «من» من (ر).

(٢) في (ر) و(ف): «صدور».

(١٨) ـ ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: أي: المثبِّطين المثقِّلين الناسَ عن شهود الحرب، وأصل التعويق: المنعُ، وقد عاقَه يَعُوقُه؛ أي: منعه، والتفعيل للتكرير والتكثيرِ، وهم طائفة من المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: أي: طائفةٍ أخرى منهم.

وقيل: هؤلاء اليهود يقولون لإخوانهم؛ أي: للَّذين يؤاخونهم على الكفر.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ أي: أقبِلوا إلينا وصيروا في جملتنا، ودَعُوا عسكرَ محمد ـ ﷺ ـ ولا تشهدوا معه القتال.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾: الحربَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقولون لإخوانهم: إن أصحاب محمد لا يحضرون الحرب، إلا طائفةٌ قليلة منهم لا يقاومون الأحزاب، فهم مغلوبون فلا تكونوا معهم، وهذا قول قتادة[1].

وقيل: أي: ولا يأتي هؤلاء القائلون لإخوانهم هذا الحربَ إلا قليلاً؛ أي: لهم الوصفان جميعاً: هم مثبِّطون لغيرهم ومتخلِّفون في أكثر الأحوال بأنفسهم.

وقيل: أي: يحضرون ساعةً رياءً وسمعة، يقفون قليلاً مقدارَ ما يُرى شهودُهم ثم ينصرفون؛ كالذين لا يَأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم كُسَالَى يراؤون الناس.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٠).

(١٩) ـ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: جمعُ شحيح وهو البخيل، ونصبه على الحال ويتصل بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بخلاءَ عليكم بالظفَر والغنيمة والخير ومعونةِ الضعفاء.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: أي: كدوران عينِ الذي يزول عقله عند ظهور سكرات الموت.

يقول: إذا كانت الغنيمة فهم أشحُّ الناس، وإذا جاء خوف القتل فهم أجبنُ الناس، ويُدهشون من الفزع، ويقلِّبون أعينَهم يميناً وشمالاً، وينظرون إليك يلوذون بك أحداقُهم تضطرب في رؤوسهم كما يكون ممن حضره الموت.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾: قال الفرَّاء: أي: عصَوكم وآذوكم بالكلام[1].

وقال قطرب: سَلَقَتِ المرأة وصَلَقَت؛ أي: صَخِبَت[2]، وأصله: رفع الصوت؛ قال النبي ﷺ: «ليس منَّا مَن حلق أو سلق»[3]؛ أي: حلَق شعره عند المصيبة أو رفعَ صوته بالنياحة.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٩)، و«البسيط» (١٨/ ٢٠٨). وليس في «معاني القرآن»: «عصوكم».

(٢) كذا وقعت العبارة في النسخ، وفي «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية عن قطرب: (سلقْتُ المرءَ وصلقْتُ؛ أي: صحْتُ به، وأصلُه...). ويغلب على الظن أنه منقول عن المؤلف فإن هذا التفسير من مصادر ابن كمال في «تفسيره».

(٣) روى نحوه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: أي: ذَرِبةٍ بالقول بعد أن كانت حَصِرةً بالخوف.

وقيل: أي: يطعنون فيكم ويغمزونكم بالمعايب كذباً وزوراً.

وقيل: أي: يُكْثِرون القولَ عليكم في الغنيمة[1]: أعطُونا أعطُونا، إلحاحاً منهم وتوهُّماً أنكم تستأثرون به.

وقيل: أي: أثنَوا عليكم نِفاقاً برفع الصوت بعدما كانوا يثبِّطونهم في حال الحرب.

وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾:

قيل: أي: بخلاءَ عليكم بالغنيمة، والأولُ بالمعونة؛ لئلا يتكرَّر.

وقيل: أي: أَشِحَّةً بكلام الخير؛ أي: يُسيؤون القولَ فيكم ولا يُحْسنون.

وقيل: الأول على الخصوص فإنه قال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وهذا على العموم؛ أي: في حقِّ كلِّ الناس؛ لشَرَههم وسوءِ طباعهم وخُبث اعتقادهم.

وقيل: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾؛ أي: بالطاعات والخيرات.

وقيل: الخير: المال؛ أي: أشحةً بأموالهم فلا ينفقونها في سبيل الله ولا يُؤْثِرون ولا يواسُون.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: أي: في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: أبطل بإضمارهم الكفرَ ما أظهروه من الأعمال.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: أي: إحباطُ أعمالهم.

* * *

---

(١) في (أ): «القسمة».

(٢٠) ـ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ ﴾: أي: يظنُّون أن الأحزاب وهم قريشٌ وغطفانُ ومَن معهم ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: لم ينصرفوا مع أنهم انصرفوا، وهو بيان جبن هؤلاء المنافقين.

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾: أي: ولو رجع الأحزاب إلى المدينة بعد أن انصرفوا إلى مواضعهم تمنَّى هؤلاء المنافقون ـ لجُبنهم ـ لو كانوا في البوادي مع الأعراب وهم سكان البدو؛ ليأمنوا على أنفسهم.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: أي: يودُّون لو أنهم في البدو ويسألون هناك عن أخباركم مَن أتاهم من المدينة؛ أي: تمنَّوا أن يكونوا ببُعدٍ منكم لا يعلمون بحالكم إلا بالسؤال عنها من القادمين من جهتكم جُبناً منهم.

وقيل: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ ليس بمبنيٍّ على الأول، ومعناه: أن مَن كان منهم في أطراف المدينة لم يحضروا الخندق يسألون الناس(١) عن أنبائكم متوقِّعين خبر غلبةِ المشركين عليكم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾: أي: لو كان هؤلاء السائلون في عسكركم ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعةً لا نفعَ لكم فيه.

* * *

(٢١) ـ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

---

(١) «الناس» ليست في (أ).

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾: قرأ عاصم: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الألف والباقون بكسرها[1]، وهما لغتان في القدوة، وتذكيرُ ﴿كَانَ﴾ لتقدُّم الفعل؛ أي: لقد كان لكم قدوةٌ برسول الله حين خرج لحرب هؤلاء وبذَل نفسه لنصر دين الله، مع ما قاساه من البلايا من البرد والجوع وحفر الخندق وغيرِ ذلك، فكان ينبغي لهؤلاء أن لا يخالِفوه ولا يتخلَّفوا عنه.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾: أي: يأمل ثوابَ الله ويخافُ عقاب الله، والرجاء اسم لهما جميعاً.

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾: بالتعظيم له في كل الأحوال، فهذا هو الذي يرغب في اتِّباع رسول الله ﷺ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: أي: أخبرَ الله أنه يكون بلاءٌ وشدة في آيات ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ ﴾ [البقرة: ٢١٤] ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢] الآيات ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، ونحوها.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾: ظهر صدقُهما.

﴿وَمَا زَادَهُمْ ﴾ ما رأوا ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ وتصديقاً[2] ﴿وَتَسْلِيمًا ﴾ وتفويضاً، وقالوا: ظهر صدق وعد الله في إصابة البلاء، فكذلك يظهر صدق وعده في النصر والفرج.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٨).

(٢) «وتصديقاً» ليست في (أ).

(٢٣) ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن جماعة من الصحابة لمَّا سمعوا رسول الله ﷺ يصف شهداء بدر ودرجاتهم في الجنة وثوابَهم عند الله تعالى، قالوا: لئن أرانا الله مثلَ ذلك اليوم فعلنا وفعلنا، فلما ابتُلوا بيوم أحد صاروا فرقاً، فمنهم مَن استُشهد مثلَ حمزةَ ومصعبِ بن عميرٍ ودونهما، ومنهم مَن جُرح، ومنهم مَن انهزم، فوصف الله الذين ثبتوا في الحرب فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: أي: نذره.

وقال ابن عباس ومقاتل: أي: أجَله[2].

وقال الضحاك: يعني: الموت[3].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يعني الوفاء بالعهد ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنسُ بن النضر عن قتال بدر، فقال: غبتُ عن أولِ مشهدٍ شهِده رسول الله ﷺ، ولئن شهدتُ مشهداً مع رسول الله ليَرينَّ الله ما أصنع، وهاب أن يقول غير ذلك، فلما كان يوم أحد وقتل من

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، وقد ذكر نحو هذا الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٤ ـ ٦٥) مقدماً به لحديث أنس رضي الله عنه في قصة عمه أنس بن النضر وسيأتي.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٤). ورواه عن ابن عباس الطستي في «مسائله» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨)، ومن طريق الطستي رواه السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٨٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٤)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ١٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المسلمين مَن قتل وهرب مَن هرب قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني: المنهزمين، وانغمس في العدو وجعل يضرب بسيفه حتى قُتل، قال أنس: فنظرنا فإذا عليه فيما يُقبل من جسده[١] بضعٌ وثمانون جراحةً من ضربٍ بالسيف وطعنٍ بالرمح ورمي بالسهم، فلم يعرفه أحد حتى عرفته أختُه من بنانه، وفيه أنزل الله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾[٢]، يعني: النذر[٣].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قيل: هو طلحة بن عبيد الله، فإنه قد بذل نفسه وأصابته الجراح في يده، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «طلحة ممن قضى نحبه»[٤]، وإنما قال ذلك لأنه كان بذل نفسه.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: ما نقضوا العهد.

***

(٢٤) ـ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: هم الذين صدَقوا ما عاهدوا الله عليه وهو متصلٌ بما قبله، قالوا: هذا ما وعدَنا الله ورسوله أنه يمتحنُنا بالشدائد

---

(١) «فيما يقبل من جسده» ليس في (ف).

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٥ ـ ٦٦)، وجاء آخر الرواية عند البخاري بلفظ: (قال أنسٌ: كنَّا نُرى ـ أو نَظنُّ ـ أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخِر الآيةِ). ونحوه في بعض روايات الطبري.

(٣) في (ر): «يعني أنس بن النضر» وليست في (ف).

(٤) رواه الترمذي (٣٢٠٢) من حديث معاوية رضي الله عنه. ورواه بنحوه الترمذي أيضاً (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢) وحسنه من حديث طلحة رضي الله عنه.

من الكفار ويتعبَّدنا بمجاهدتهم؛ ليتميَّز بذلك الصادقُ من الكاذب، فيجزيَ الله الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾: وهو إذا مات المنافق على نفاقه ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: يقبلَ توبةَ مَن تاب منهم وأخلص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب وإليه أناب.

***

(٢٥) ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾: أي مع غيظهم لم يَشْفوه؛ أي: صرفهم عن المدينة وكفَّهم عن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾: أي: ظَفَراً.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾: أي: لم يُحْوِجهم في ردِّهم عنهم إلى قتال، بل دفعهم عنهم بالريح فلم يستطع أحد منهم أن يُلجم دابته، وجالت خيلهم في عسكرهم وتقطَّعت أطنابهم فانهزموا سريعاً عاجلاً[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾: قادراً منيعاً.

***

(٢٦) ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: عاونوا المشركين

(١) «عاجلًا» من (ف).

وهم يهود بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: حصونهم، جمع صِيْصِيَةٍ، والصِّيصِيَةُ قرنُ البقرة وشوكةُ الديك وشوكةُ الحائك؛ قال الشاعر:

كوقعِ الصَّياصي في النسيجِ الممدَّد[1]

وكانوا ذمةً لرسول الله ﷺ، فنقضوا العهد باستدعاء أبي سفيان، وجاؤوا لمحاربة المسلمين، فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمر قريش ودخل الحجرة ووضع السلاح سمع وَجْبةً على باب الحجرة، فنظر فإذا هو بجبريل عليه السلام على فرسٍ أبلقَ وعلى ثيابه أثرُ النَّقْع، فقال: يا رسول الله، وضعتَ السلاح ونحن ما وضعنا أسلحتنا بعدُ، فقالت عائشة رضي الله عنها: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل، فقلت: يا رسول الله! هذا دحيةُ الكلبي؟ فقال: «هذا جبريل»، فقال: إن الله يأمرك ألا تصلِّي العصر إلا ببني قريظةَ، فنادى رسول الله ﷺ بذلك في المسلمين، فخرجوا إليهم[2] ولحق بهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم أحداً وعشرين يوماً، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن تُقتل مقاتلتُهم وتُسبى ذراريهم ونساؤهم وتغنم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ بحكم الله تعالى فيهم» وفعل ذلك، ومَنَّ الله على المسلمين بذلك فقال: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾[3].

---

(١) عجز بيت لدريد بن الصمة، وهو في «ديوانه» (ص: ٤٨)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٣٦)، وصدره في الديوان:

فجئت إليه والرماح تنوشه

وفي «المجاز»:

فما راعني إلا الرماح تنوشه

(٢) في (أ): «إليه» وليست في (ر).

(٣) تنظر القصة بنحو هذا السياق في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣)، و«تفسير الطبري» =

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: أي: ألقى فيها الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم البالغون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم الصبيان والنساء.

* * *

(٢٧) - ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: أي: جعلها لكم بعدهم.

﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾: أي: لم تصيروا إليها بعدُ قاصدين قتال أهلها واستيلاءكم على أموالهم فيها، وهذا وعدٌ لهم بإحرازِ أرض لم يصلوا إليها بعد.

قيل: هي أرض فارس والروم، وهذا قول الحسن.

وقال قتادة: هي مكة.

= (١٩/ ٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٥).

وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٤٩٩٢) عن عائشة: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب، دخل المغتسل ليغتسل، فجاء جبريل عليه السلام، فقال: أوقد وضعتم السلاح، ما وضعنا أسلحتنا بعد، انهد إلى بني قريظة.

وقول عائشة رضي الله عنها: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه جبريل، فقلت: يا رسول الله! هذا دحيةُ الكلبي؟ فقال: «هذا جبريل»، رواه يونس بن بكير كما في «سيرة ابن إسحاق» (٤٦٦)، ومن طريقه أبو جعفر الرزاز كما في «مجموع مصنفاته» (١٥٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١١).

وقوله: «فنادى رسول الله ﷺ بذلك في المسلمين»، هو قول النبي ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» رواه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ونزول قريظة على حكم سعد رضي الله عنه وما جاء بعده رواه البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال ابن زيد ويزيد بن رومان: هي خيبر[١].

وقيل: هي فدكُ وخيبرُ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾: أي: لم يزل الله قادراً على استئصال الكفار ـ وإن كان لا يعاجل بالعقوبة ـ وعلى كل شيء.

وكان حرب الأحزاب ـ ويسمى: حربَ الخندق ـ بعد حرب أحدٍ بسنةٍ في السنةِ الخامسة من الهجرة، واستجاش أبو سفيان سبعةَ جيوش، وقد كان بايَع مجوسَ فارس ونصارى الروم، وكان الأحزاب تحالفوا أن يستأصلوا المدينة وأهلها ويهدموا البنيان بحيث لا يبقى بها أثر، وكان في صميم الشتاء وشدةِ البرد، وأهلُ المدينة في عزةٍ من الطعام وقلةٍ من اللباس وضعفٍ من البدن، وكانوا يحفرون الخندق وهم شادُّون الأحجار على أوساطهم، والنبيُّ ﷺ شادٌّ حجراً على حجر[٢] على بطنه، وفي اليوم الأول قُتل عمرو بن عبدِ ودٍّ من أكابر المشركين، وفي اليوم الثاني شَغلوا النبيَّ ﷺ عن الصلاة الوسطى، وفاتته أربعُ صلوات وقضاهن من الليل، وفيه دعي رسول الله ﷺ إلى طعام قليل وهو صاعٌ من شعيرٍ وشاةٌ، فجمع كل أصحابه وأتاهم فكفاهم كلَّهم ذلك الطعامُ وفَضَل عنهم[٣].

* * *

(٢٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

---

(١) روى هذه الأخبار الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٢ ـ ٨٣)، وعن قتادة والحسن عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٣٢) و(٢٣٣٣).

(٢) «على حجر» ليست في (أ).

(٣) رواه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية: روي أن النبي ﷺ قسم غنائم بني قريظة بين أصحابه وعائشةُ رضي الله عنها تنظر[١]، وكان للنبي الخُمسُ من كلِّ الغنيمة، فقالت عائشة رضي الله عنها في نفسها: اليومَ يومُ خماري ومِقْنَعتي، وصرف النبيُّ الخمسَ أيضاً إلى الناس فلم يحصل لعائشةَ شيء، فجادلت رسول الله ﷺ في ذلك وأبو بكر الصدِّيقُ حاضر، فرفع يده إليها ليلطمها فمنعه رسول الله ﷺ فقال: «دَعْها فإنها صغيرة[٢]» ثم وضَع يده على كتفها وقال: «اخرُج يا شيطان منها»، وقيل: قال: «اخرُجْ يا خبيثُ من هذه الطاهرة» فقامت وقالت: والذي بعثك بالحق لقد خرج، ونزلت هذه الآية في عتابهنَّ[٣]، وفيها تخييرُهن وهو انتظامٌ حسَن.

وقيل: انتظامها بما قبلها: أنه نوعُ أذًى كان منهنَّ في حقِّ النبي، والأولُ كان نوعَ أذًى في حقه من الكفار والمنافقين.

وقال عكرمة: نزلت الآية في غيرة غارتها عائشة رضي الله عنها[٤].

وقيل: إن بعض نسائه استزادَتْه في النفقة[٥].

وروي أنه أُمر أولاً باعتزالهنَّ، فآلى ألا يدخل عليهن شهراً، ثم لمَّا مضى شهرٌ

---

(١) في (ر): «تنتظر».

(٢) في (أ): «صبية».

(٣) لم أقف عليه بهذا السياق، والذي في الصحيح أنها نزلت في سؤال زوجات النبي ﷺ منه النفقة، وسيأتي.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨٦).

(٥) رواه مطولًا البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مطولًا أيضاً مسلم (١٤٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

أنزل الله هذه الآية وأمره بتخيير نسائه، فبدأ بعائشة رضي الله عنها وقال لها: «إني مُلْقٍ إليك أمراً فلا عليك أن تجيبيني حتى تستأمري أبويك» ـ قالت عائشة: وكان[1] النبي ﷺ يعلم أن أبوي لا يأمراني بفراقه ـ ثم تلا عليها الآيتين، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! أفي اللهِ ورسوله أستأمِرُ أبويَّ؟ فإني اخترتُ الله ورسوله والدارَ الآخرة، ولكنْ لا تخبر بقولي سائر نسائك، فكان رسول الله ﷺ يدخل على نسائه ويتلو عليهن الآيتين ويخبرهن بصنيعِ عائشة، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة[2].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: إن كنتن تُرِدْن نكاحَ مَن يمتِّعُكُنَّ بدنياه وزينتِها من الأموال حتى تتوسَّعْنَ في النفقة والكسوة حتى تنفردَ كلُّ واحدةٍ منكن بزوجٍ لا يتزوَّج معها غيرَها فتزولَ الغيرة عنها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ أي: فجئن[3] ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾؛ أي: أُعطِكُنَّ المتعةَ بالمعروف ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: أطلقكن طلاقاً حسناً لا ضرارَ فيه في وقت السُّنَّة.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: يعني رضا الله ورضا رسوله ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛

---

(١) في (أ): «وظني».

(٢) هذه قطعة من حديثي ابن عباس وجابر المتقدمين، وليس في حديث ابن عباس قول عائشة: «ولكنْ لا تخبر بقولي سائر نسائك»، أما حديث جابر فلفظه: وأسألُك أنْ لا تخبرَ امرأةً مِن نسائكَ بالذي قلتُ، قال: «لا تسألُني امرأةٌ منهنَّ إلا أخبرْتُها، إن الله لم يبعثني مُعنِّتًا، ولا مُتعنِّتًا، ولكنْ بعَثني معلِّمًا مُيَسِّرًا».

(٣) «أي فجئن» ليس في (أ).

أي: ثواب الآخرة دون زينةِ الدنيا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: تنلنَ بالدوام على نكاحي رضا اللهِ ورضاي وثوابَ الآخرة دون زينة الدنيا[1]، فإذا أحسَنْتُنَّ العمل فاثْبُتْنَ على نكاحي أَثْبُتْ عليه.

* * *

(٣٠) ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾: أي: زناً ظاهرٍ ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾: قرأ ابن كثير: ﴿نُضعِّف﴾ بضم النون وتشديد العين ﴿العذابَ﴾ بالنصب، وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح العين على ما لم يسمَّ فاعله[2].

وحكى أبو عمرو قراءة أبي عمرو[3]: (نضاعِفْ) بالنون والألف خبراً من الله تعالى من نفسه بخطاب الملوك.

والتضعيف والمضاعفة واحد؛ كقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ ﴿ولا تُصاعِرْ﴾ [لقمان: ١٨].

و﴿ضِعْفَيْنِ﴾ عند أبي عبيدة: ثلاثةُ أمثال؛ لأن ضِعْفَ الشيء مثلُه، فضِعْفاه مِثْلاه، فيكون مع الأصل ثلاثةَ أمثال[4].

---

(١) «دون زينة الدنيا» من (ف).

(٢) وقرأ ابن عامر مثل قراءة ابن كثير، وقرأ باقي السبعة: ﴿يُضَٰعَفْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) قوله: «وحكى أبو عمرو قراءة أبي عمرو» كذا في النسخ، ولعل الصواب: (وروى خارجة عن أبي عمرو)، كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٨٢). وهي خلاف المشهور عنه، الذي هو (يُضعَّف) بضم الياء وفتح العين المشددة كما تقدم.

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

وقال القتبي وأبو عمرو والزجَّاج وجماعةٌ: هما مثلان، بدليل أنه قال في الثواب: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ فكذلك العذاب، ومعناه: نضاعف لها العذاب فنجعل ذلك ضعفين؛ أي: مثلين كل واحد منهما ضعفُ الآخر؛ لأن ضعف الشيء مثله[1].

وهذا لشرفهن وقَدْرهن بصحبة النبيِّ ﷺ، فتَفْحُش جنايتُهنَّ وتُغلَّظ عقوبتُهن، وكذلك طاعتُهن وثوابهن.

وقيل: هذا العذاب المضعَّف في الآخرة كالثواب المضاعف.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: أي: وكان تضعيف العذاب لهن على الله هيناً غيرَ متعذِّر.

* * *

(٣١) ـ ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي: ومَن يدم منكنَّ على طاعة الله وطاعة رسوله، والقنوت: الدوام على العمل لله تعالى.

﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾: قرأ حمزة والكسائي بياء التذكير ردًّا على (مَن)، والباقون بتاء التأنيث[2]؛ لأنه فعلُ المرأة.

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: قرأ حمزة والكسائي بياء المغايبة؛ أي: يؤتها الله، والباقون

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٢٦). أما أبو عمرو فذكر قوله الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩١) بتفصيل، وذلك أنه جعل (يُضعَّف) بمنزلة المثلين، و(يضاعَف) ثلاثة أمثال، ولذلك اختار في القراءة: (يُضعَّف).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

بالنون[1] خبراً من الله تعالى عن نفسه بخطاب الملوك جميعا.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: أي: وهيَّأنا لها في الجنة رزقاً حسناً خطيراً.

* * *

(٣٢) ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: بل لكُنَّ فضيلةٌ على كلِّ النساء بأنَّكن زوجات رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ومشاهِداتٌ أفعالَ النبيِّ ﷺ وأقوالَه وأحواله بالليل والنهار.

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾: هذه الفضيلةُ لكنَّ إذا اتقيتنَّ المعاصيَ ومخالفةَ الله ورسوله والرغبةَ في الدنيا وزينتها.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾: فلا تَلِنَّ بالكلام إن كلَّمْتُن الرجال من وراء حجابٍ كما يكلِّم الإنسان مَن يخضع له بالطاعة وينقادُ له فيما يريد.

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: جوابُ النهي بالفاء فنُصب؛ أي: فيطمع فيكنَّ مَن ﴿فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: نفاق، وقيل: فجور.

والمرض المطلق ضَعْفٌ في البدن، وهذا ضعفٌ في الدِّيانة أو الاعتقاد أو الصلاح.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: يرضاه الشرع بأنْ يكون كلاماً يُعرف أنه كلامُ العفائف الصالحات الصائنات.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: قرأ نافع وعاصم بفتح القاف، وأصله: واقْرَرْنَ، من باب عَلِم من القرار، وهو مستعمل من باب ضرب وعلم جميعاً.

قال الزجَّاج: حُذفت إحدى الراءين ونُقلت فتحتُها إلى القاف فتحرَّكت فسقطت الألف المجتلَبة لزوال الضرورة والحاجة إليها(١)، وهذا الحذف كالحذف في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ [الواقعة: ٦٥].

وقرأ الباقون: ﴿وقِرْنَ﴾ بكسر القاف من الوَقار(٢)، وهو السكون والطمأنينة؛ أي: الْزَمْنَ بيوتَكُنَّ فذلك أَسترُ لكنَّ وأحرى أنْ لا يراكُنَّ أجنبيٌّ يكلِّمكنَّ.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: قال قتادة: وهو التبختُر إذا خرجت من بيتها(٣).

وقال مجاهد: هو التبخترُ في بيتها لمن دخله من الرجال(٤).

فأُمرن بالتَّستُّر والعفاف(٥) في الحالين.

وقيل: هو التزيُّن والتكشُّف، وأصل الكلمة: السعةُ والظهور، ومنه: البُرج، وهو القصر، والبَرَج في العين وهو سَعَة الحدقة.

والجاهلية الأولى: المتقدِّمة على الإسلام.

وقيل: إن الله تعالى كان أعلمَ نبيَّه انفتاحَ بلدان الأمم على أمته واتِّساعَ أصحابه

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٢٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢١)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩٧).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٤٠) بلفظ: (كانت المرأةُ تتمشَّى بَيْنَ الرِّجالِ فذلك تبرُّجُ الجاهليَّة).

(٥) في (ف): «فأمرت بالستر والتعفف».

في المال، فنهى نساءه إذا أَدركن ذلك أن يتبرَّجن، فيكونَ ذلك منهن جاهليةً ـ وهي حالةُ فسقٍ ـ كالجاهلية قبل الإسلام وهي حالة كفرٍ[(١)].

وقيل: الجاهلية الأولى زمانُ إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس من الدروع درعَ اللؤلؤ غيرَ مخيطِ الجانبين، وتلبس الثياب الرِّقاق التي لا تواري بدنها.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فإنها مواساةُ أهل الجنة ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كلِّ أمرٍ ونهي.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: أي: إنما يريد الله بتنبيهِكم يا أهلَ بيت محمد على مراشدكم بهذه الأوامر أن يُذهب عنكم نجاسةَ الآثام ويطهِّرَكم عنها فتطهَّروا بها.

وقيل: أهل البيت: الحسن والحسين وعليٌّ وفاطمةُ رضي الله عنهم.

قال أنس رضي الله عنه كان النبي ﷺ يمر ببيت فاطمة وقت الفجر فيقول: «الصلاة [يا أهل البيت] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[(٢)].

قالت أم سلمة رضي الله عنها: إن هذه نزلت على النبيِّ وهو في بيتها، فدعا الحسنَ والحسين وعليًّا وفاطمةَ فجلَّلهم بالكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهلُ بيتي فأَذْهِبْ عنهم الرجس وطهِّرْهم تطهيراً»[(٣)].

---

(١) في (أ): «الكفر».

(٢) رواه الترمذي (٣٢٠٦) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٤٧٤٨) وصححه. وما بين معكوفتين منهما.

(٣) رواه الترمذي (٣٨٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٥٨) وصححه. وصححه الترمذي أيضاً كما في «تحفة الاشراف» (١٣/ ١٢). وفي الباب من حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم (٢٤٢٤).

وقال ابن عباس وعكرمة: هم أزواج النبي ﷺ على الخصوص[١]؛ لأن ما قبلها وما بعدها فيهن.

وقال الحسين بن الفضل: وهو الصحيح.

وبه قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أن هذه الآية في أهل بيت النبيِّ ﷺ من الأزواج وغيرهنَّ، ففي حديث أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، وأنا من أهل البيت؟ قال: «نعم»[٢] والخطاب بالكاف والميم هاهنا لشموله على الذكران والإناث[٣].

***

(٣٤) - ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٧ ـ ١٠٨) عن عكرمة، ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥٠)، من طريق عكرمة عن ابن عباس، قالا: (نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة). ورواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس دون لفظ: (خاصة).

(٢) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٩١٢) بلفظ: (قال: بلى إن شاء الله). قال البغوي: هذا حديث صحيح الإسناد.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٥٥٠) وفيه أنه ﷺ قال: «بلى» وأنه أدخلها الكساء بعدما قضى دعاءه لهم، وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف. وقد جاء في روايات أخرى كثيرة أن النبي ﷺ قال لها: «إنك على خير»، ولم يقل: بلى. وللآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (٢١/ ٢٩٨ ـ ٣١٢) بحث طويل ومناقشات مفيدة وجمع للروايات وجمع بينها، وقد وفقنا الله في تحقيقه لتخريجها وتفصيلها تراجع فيه ثمة.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).

قيل: هو ذكر النعمة للشكر عليها.

وقيل: هو التلاوة والذكر باللسان.

وقيل: هو الحفظ بالقلب. والصيغة صالحة للكل.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بيانِ معاني القرآن.

وقيل: الحكمةُ: سنةُ الرسول وهي كلامه[1].

والحكمة من الإحكام وهو الإتقان، وسنةُ الرسول أيضاً محكمةٌ واجبة الحفظ كالكتاب[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾: قيل: اللطيف: العالم بغوامض الأشياء، الخبير: العالم بحقائقها؛ أي: هو عالمٌ بأفعالكنَّ وأقوالكنَّ وأحوالكنَّ، ومُجازٍ لكُنَّ عليها، فاحذَرْنَ مخالفةَ أمره ونهيه ومعصيةَ رسوله.

وقيل: ﴿لَطِيفًا﴾؛ أي: بارًّا بكنَّ ﴿خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً بمواضع الاختيار لكُنَّ، فاشكُرْن إنعامه عليكنَّ.

* * *

(٣٥) - ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) في (أ): «وهو كلامه»، وفي (ف): «وكلامه».

(٢) في (ر): «بالكتاب».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية: قال قتادة: لمَّا ذكر الله تعالى أزواج النبي ﷺ دخل نساءٌ من المسلمات عليهن فقلن: ذُكِرْتُنَّ ولم نُذكر، ولو كان فينا خيرٌ لذُكرنا، فنزلت هذه الآية[1].

وقالت أم سلمة: يا رسول الله! ما للنساء لا يُذكرن مع الرجال؟ فأنزل الله هذه الآية، ذكره مجاهد[2].

وذكر مقاتل هذا عن أم سلمة ونسيبة[3] بنت كعب، قال: قالتا: يا رسول الله، ما لنا لا نذكر بخير في القرآن؟ فنزلت[4].

وقال عكرمة: أتت أم عمارة النبيَّ ﷺ فقالت: ليس فينا معشر النساء خير؟ قال: «ولم؟»، قالت: لأن الله تعالى لا يذكرنا بخير في القرآن، فنزلت[5].

وقال مقاتل بن حيان: رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفرِ بن أبي طالب، فدخلت على نساء رسول الله ﷺ قالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبةٍ وخَسار، قال:

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٤٣) والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٠) عن مجاهد قال: قالت أم سلمة... فذكره. وهذا مرسل، لكن الحديث روي من طرق أخرى بأسانيد متصلة صحيحة، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٥٧٥) و(٢٦٦٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٤٠) و(١١٣٤١).

(٣) في (أ): «وآيسة»، وفي (ر) و(ف): «وأنيسة». والمثبت من «تفسير مقاتل»، وانظر: «الإصابة» (٨/ ٢٦٥). ونسيبة بنت كعب تكنى بأم عمارة، وسيأتي ذكرها بكنيتها في الخبر الآتي.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٩).

(٥) رواه الترمذي (٣٢١١) وحسنه.

«وممَّ ذلك؟» قالت: لأنهن لا يُذكرن بخير كما تُذكر الرجال، فنزلت[١]:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾: أي: الخاضعين لله بالطاعة والخاضعات.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي: المصدِّقين لله ورسوله والمصدِّقات.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: أي: المطيعين لله والمطيعات.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾: أي: في العهود والأقوال والمعاملات.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾: أي: على الطاعة، وعن المعصية، وفي البلية.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: والخشوع: سكونُ الظاهر، وخوفُ الباطن، والتذلُّل لله.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾: فرضاً ونفلاً.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾: فرضاً ونفلاً أيضاً.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾: أي: فروجهنَّ، واختصر لدلالة صدر الكلام عليه، ومعناه: الحافظين عن الحرام[٢].

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾: أي: الله كثيراً، وهو بالألسنة والقلوب.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم، هو جواب الابتداء، وعظمُ الأجر بكثرته ودوامه.

* * *

---

(١) ذكره عن مقاتلٍ الثعلبيُّ في «تفسيره» (٨/ ٤٥)، ولم أجده مسنداً.

(٢) بعدها في (ر): «فروجهن».

(٣٦) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾: وانتظامُها بما قبلها: أنه قال: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ومدَح بعد ذلك المطيعين والمطيعات لله ورسوله، وبيَّن في هذه الآية وجوبَ طاعة اللهِ ورسوله، ووعيدَ مَن عصَى اللهَ ورسوله.

ووجه آخرُ: أن الآيات المتقدمةَ في ذكر نساء النبي ﷺ وسائرِ النساء، وهذه الآية في ذكر زينب وزوجِها زيد، ثم صارت لرسول الله ﷺ.

ووجه آخر: أنه قال: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ والآيات: القرآن، والحكمة: السنَّة، وفي هذه الآية وعيدٌ لمن خالف الكتاب والسنة.

وقيل: نزلت الآية في زيدٍ وزينبَ، خطب النبيُّ ﷺ زينب بنتَ جحش بن رئاب بن يَعمر بن صبرةَ بن مُرةَ بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خُزيمة، وهي بنت عمةِ رسول الله ﷺ، فإن أمها أميمةُ بنت عبد المطلب عمةُ رسول الله ﷺ، لمولاه زيد بن حارثةَ بن شَراحيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن يزيد[١] بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عمران[٢] بن عبد ودٍّ بن كِنانةَ بن عوف بن مالك بن[٣] زيد اللات بن رُفيدةَ بن ثور بن كلب بن وَبَرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف[٤] بن قضاعة، فأبت لمكان أنها قرشيةٌ وبنتُ عمة رسول الله ﷺ وهو مولًى، فأمرها النبي

---

(١) في (أ): «زيد».

(٢) في (ر): «بن عمران بن النعمان».

(٣) «مالك بن» ليس من (أ).

(٤) في (أ) و(ف): «الحارث». والمثبت من (ر) والمصادر.

ﷺ بذلك بأمر الله، فالآية تدل عليه، فكأنها تلكَّأت، ولعل زيداً امتنع أيضاً لإبائها، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١]، فبيَّن أنه لا اختيار لهما في أن يفعلا أو لا يفعلا مع أن الله ورسوله أمراهما بذلك، وما بعد الآية يدل على أن الآية في هذين.

وقد قيل: إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، عرضت نفسها على رسول الله ﷺ لينكحها فزوَّجها زيد بن حارثة فكرهاه، فنزلت[٢].

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بياء التذكير؛ لتقدُّم الفعل، وللحائل بين الفعل والاسم، والباقون بتاء التأنيث على لفظ الخيرة[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾؛ أي: أَمَر الله ورسوله أمراً؛ كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختيار بين الفعل والترك، ودلَّ ذلك على أن الأمر للوجوب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾: فإن كان عصيانَ ردٍّ وامتناع عن القبول فهو ضلال وكفر، وإن كان عصيان فعلٍ مع قبول الأمر والنهي واعتقادِ الوجوب فهو ضلال وخطأ كما في قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

* * *

---

(١) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٩)، والدارقطني في «سننه» (٣/ ٣٠١)، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٧): رواه الطبراني وفيه حفص بن سليمان وهو متروك وفيه توثيق لين. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٢ و١١٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسنادين ضعيفين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٤) عن ابن زيد. وقوله: «فكرهاه» الضمير يعود على أم كلثوم وأخيها كما جاء في هذا الخبر.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

(٣٧) ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: أي: اذكر يا محمد إذ كنت ﴿تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ﴾ أنت ﴿عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق، وهو زيد، وكان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه، وكان هو من بني كلب وأغار على بني كلب قوم من العرب فسبَوه وباعُوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام وهو شريك خديجة في التجارة فأهداه لها، فوهبته للنبي ﷺ، وخفي حاله على أبيه سنين، ثم أُخبروا أنه عند النبي ﷺ، فجاء أبوه وعمه وطلبا من النبي ﷺ أن يبيعه من أبيه بثمن عظيم، فقال النبي ﷺ: «إن اختار أن يكون معكم دفعته إليكم»، فخيَّره فاختار المقام مع رسول الله ﷺ، فتركاه وذهبا، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنَّاه، وكان من حُكم العرب أن مَن تبنى ولداً كان كولده من صُلبه في التوريث وفي حرمةِ نكاح امرأته على الأب المتبنِّي.

وكان النبي ﷺ أبطل هذا الحكم، وأراد الله أن يقرِّر هذا الحكم بقول النبي ﷺ وفِعْلِه عندهم؛ ليكون ذلك أنجعَ في قلوبهم وأقطعَ لعادتهم، وكان الله تعالى أخبر رسوله بذلك وأسرَّ ذلك، بأن أمره[1] أن يخطبها لزيد ويزوِّجَ بينهما، ثم بعد مدةٍ يتفرقان ويتزوَّجُها رسول الله ﷺ، فيتحقَّقُ عندهم تقريرُ هذا الحكم، وكان يخفيه رسول الله ﷺ في نفسه إلى أن يُظهره في وقته.

ولمَّا وقع هذا النكاح ومضت مدةٌ وقعت بينهما خشونةٌ، فجاء زيد يشكوها

(١) في (ف): «وأسر ذلك بأمره» وفي (ر): «وأسر بذلك بأن أمره».

لرسول الله ﷺ ويذكر ترفُّعها عليه وامتناعَها من مساعدته وسوءَ خلقها معه، فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ أي: جامِلْها، وبالخلق الحسن عامِلْها، ولا تطلِّقها ـ وكذا يجب على المتوسِّط بين الزوجين أن يدعوَهما إلى حسن المعاشرة ـ ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾؛ أي: يا زيد اتَّق الله وراعِ حقوق النكاح ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ يا محمد ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ أي: مُظْهِره؛ أي: ما أَعلمك الله أنك تتزوَّجها إذا طلقها زوجها برضاه واختياره وانقضت عدتُها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾؛ أي: تكره قالةَ الناس أنه تزوج امرأة ابنه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ فتفعلَ ما أباحه لك وأَذِنَ لك فيه.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾: أي: حاجة وهي كنايةٌ عن تمام الانتفاع بها على قَدْر رغبته فيها ثم مفارقتِها عند كراهة صحبتها.

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾: أي: جعلناها زوجة لك، قال أنس: فكانت زينبُ تفخر على نساء النبي ﷺ فتقول: زوَّجكن أهلوكنَّ وزوَّجني الله تعالى[1].

قال: وأرسل رسول الله ﷺ إليها يخطبها، فقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها فنزل القرآن ودخل عليها رسول الله ﷺ من غير إذن[2].

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾: أي: ضِيقٌ ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾؛ أي: في نكاح زوجات الذين تبنَّوهم[3] ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾؛ أي: استوفوا منهن حاجتَهم وفارقوهن وانقضت عِدَّتُهن ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: وكان ما أمر الله به مما يجب أن يفعل.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٠)، وزاد: (من فوق سبع سماوات).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٨).

(٣) في (ف): «يتبنونهم».

(٣٨) ـ ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾: أي: لا إثم ولا ضيق على رسول الله ﷺ في النكاح الذي أحلَّه الله له وأمره به، وهو نكاح زينب، وهو كقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢].

وقيل: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾؛ أي: قدَّر له من عدد النساء، والفَرْض: التقدير.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾: أي: هو كما سنَّ[1] الله في الأنبياء[2] الذين مضَوا من قَبله في زوال الحرج عنهم وعن أممهم فيما أباحه لهم، وأنهم لا ينبغي لهم أن يستَحْيوا من الناس فيما أباح الله لهم من الملاذِّ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾: أي: وكان ما أمر الله به قضاءً مقدَّراً لا بد من كونه.

وقيل: أي: موضوعاً على الحكمة الـمُحكَمة[3]؛ كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]؛ أي: على قدَرٍ مقدَّرٍ لا ينحطُّ عنه ولا يتجاوزُه.

ومعنى دخول (كان) عليه: أنه تقادَم ولم يزل كذلك لا يتغيَّر ولا يتبدل.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: صفةُ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾،

---

(١) في (ف): «بين».

(٢) في (ر): «للأنبياء»، وفي (ف): «والأنبياء».

(٣) «المحكمة» من (أ).

ومعناه: الذين كانوا يبلِّغون رسالات الله(١)؛ كقوله ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: ما كانوا يتلونه.

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾: أي: في أمر الدِّين(٢) ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: سوى الله، فكن أنت يا محمد كذلك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: أي: حافظاً لأعمال خلقه، محاسباً لهم عليها ومجازياً بها، فهو الأحقُّ بأنْ يُخشى دون خلقه، وقد تكلم الناس في الآية بوجوهٍ وهذا أقومُها وأسلمها.

* * *

(٤٠) ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: أي: أباً بالنسب لأحد من الرجال البالغين.

وقيل: أباً لرجلٍ لم يلده، وأما أبوَّةُ الشفقة ومراعاةِ الحرمة فثابتةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾: يعمل بأمره.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: قرأ عاصم: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح التاء وهو آلةُ الختم، وقرأ الباقون بالكسر(٣) وهو فاعل الختم.

---

(١) «رسالات الله» من (ر).

(٢) في (ر) و(ف): «الله».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٩).

أي: هو آخِر النبيين، وشريعتُه ناسخةٌ لشرائع المرسلين، فتمسَّكوا بها ولا تعترِضوا عليه في شيء منها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾: من مصالح العباد وكلِّ شيء.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: شكراً له على النعم التي مرت وغيرها، والكثير: الذي لا ينقطع، قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ثم فسَّرها: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقيل: الكثير: ما كان عن إخلاص فيُقبَل ويَكثُر ثوابه، فأما ما لا إخلاصَ فيه فقد قال الله تعالى في حقه: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال أهل التأويل: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ حال وفي كل وقت ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ باللسان.

ويحتمل أن يكون تأويله: اذكروا نِعَم الله لتشكروا له، واذكروا أوامره ليُؤتمرَ بها والنواهي ليُنتهَى[١] عنها، ووعيدَه ليُخاف، وعِدَاته ليُرغبَ فيها، واذكروا عظمته وجلاله وكبرياءه ليُهاب[٢].

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾: أي: ونزِّهوه، وقيل: صلُّوا له بالغداة والعشيِّ.

قال عبد الله: هي الصلوات الخمس[٣].

---

(١) في (ر): «أوامره لتأتمروا بها ونواهيه لتنتهوا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٣٩٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٦٣) عن الكلبي.

﴿بُكْرَةً﴾ يعني: الفجرَ والظهرَ والعصر ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ أي: المغرب والعشاء.

* * *

(٤٣) ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾: أي: يرحمكم ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾؛ أي: ويأمر ملائكتَه بالاستغفار لكم والدعاء.

وقيل: الصلاة: الثناء الجميل؛ أي: أن الله يثني عليكم الذكرَ الجميل في عباده بذكره إياكم؛ كما قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: أي: ليديمكم خارجين ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: من الضلالات ﴿إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: الهدى.

وقيل: أي: من الجهالات إلى العلم.

وقيل: أي: من الشكوك إلى اليقين.

وقيل: أي: من البدع إلى السُّنَّة.

وقال أبو عبيدة: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يبارك عليكم(١).

وقال الفراء: هو الذي يغفر لكم وتستغفر لكم ملائكتُه(٢).

وقيل: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: ليهديَكم إلى الجنة وينجيَكم من النار، قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٥).

قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: يرحمهم فلا يعذِّبهم إذا أطاعوه وأطاعوا رسوله.

* * *

(٤٤ ـ ٤٥) ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: أي: يوم يرونه ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي: يسلِّم بعضهم على بعضٍ، ويقول: أمنٌ لنا ولكم من عذاب الله أبداً.

وقيل: يحيِّيهم الله بسلامه.

وقيل: هو سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم من كل باب.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾: أي: ثواباً خطيراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: تنتظم بقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته إرسالُ محمد ﷺ رحمة للعالمين ﴿شَٰهِدًا﴾؛ أي: على الأمة؛ كما قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]؛ أي: على الأمة[1]، وقال: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ بوحدانيتنا ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أهلَ طاعتنا ﴿وَنَذِيرًا﴾: ومخوِّفاً أهل مخالَفتنا.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

---

(١) «أي على الأمة» ليس في (أ).

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾: كما قال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: بأمره.

وقيل: بعلمه؛ أي: وهو[١] يعلم ما يكون منك وما يكون ممن أُرسلتَ إليه.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: أي: مصباحاً مضيئاً من ظُلَم الضلالة إلى نور الهداية، وهو كما قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾.

وقيل: أي: شمساً مضيئة؛ كما قال: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] سماه شمساً في هذه الآية، وبدراً في قوله: ﴿طه﴾، ونجماً في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾؛ أي: نزل من السماء في ليلة المعراج.

فأما معنى تشبيهه بالمصباح على قولِ مَن فسَّره به: فإن المصباح الواحد يُشعَل منه مصابيحُ كثيرةٌ والأول بحاله لم يَنتقِص منه شيء، فكذلك ظهرت فوائدُ علومِ علماء أمته في أمته وهو بحاله.

ولأن ضوء المصباح إذا جاء ذهبت الظلمة، وإذا جاءت متابعة المصطفى ذهبت البدعة[٢].

ولأن المفقودات[٣] توجد بضوء المصباح، وكذلك الضالُّون يهتدون بالمصطفى.

ولأن المصباح يُحرق الأقرب ويضيء للأبعد، فكذلك المصطفى كان ينذر عشيرته الأقربين ويبشر الأنصار والمهاجرين.

---

(١) «وهو» ليست في (أ).

(٢) في (ف) و(أ): «النكرة».

(٣) في (ر) و(ف): «المقصودات».

ولأن المصباح يُرى به وجوه الأحباء، فكذا بمتابعة المصطفى يُوصَل إلى صحبة الأنبياء والشهداء والصدِّيقين والصُّلحاء.

ولأن المصباح تمامه بأربعة أشياء: الـمِسْرجةُ والفتيلةُ والدُّهن والنار، وكذا تمام أمر المصطفى كان بالخلفاء الراشدين الأربعة.

ولأن المصباح يضيء من كلِّ جهاته، وكان للنبي ﷺ رفيقاً نافعاً في كلِّ مقاماته.

وأما وجه تشبيهه بالشمس على قولِ مَن فسره بها: فلأن الشمس تضيء من المشرق إلى المغرب[١]، والنبيُّ ﷺ أضاء من الثرى إلى الثريا[٢].

ولأن الشمس لا ثانيَ لها ولا نظير والنجمُ له نظير، وكذلك النبي ﷺ لم يكن له نظير.

ولأن الشمس تنكسفُ ثم تنجلي، وكذلك النبي ﷺ كان يُمتحَن ثم يعتلي.

ولأن الشمس تغرُب ثم تطلع، والنبي ﷺ هاجر من مكة إلى المدينة ثم عاد إلى مكة.

ولأن الشمس تضيء لمن لا سراج له، وتُدفئ مَن لا ثوب له، وتُنضِج لمن لا نار له، وكذلك النبي ﷺ يشفع لمن لا طاعة له، ويرفع لمن لا عبادة له، وينفع مَن لا خدمة له.

* * *

(٤٧ ـ ٤٨) ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

---

(١) في (أ): «الشرق إلى الغرب».

(٢) في (أ): «من الثريا إلى الثرى».

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾: أي: ثواباً يُفْضل به عليهم عظيماً، وهو الملكُ الكبير والنعيم الكثير.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾: قد مر هذا في أول هذه السورة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾؛ أي: لا تؤذِهم مكافأةً لهم.

وقيل: أي: اجعل إيذاءهم إياك في جانبٍ كأنه لم يكن، ولا تفكر فيه فنحن مكافئون كافُون.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾: كافياً وناصراً وحافظاً ودافعاً.

* * *

(٤٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾: قيل: أي: قبل أن تجامعوهن، ويحتمِل المسَّ بشهوة أيضاً.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾:

قيل: أي: تعدُّونها؛ يقال: عدَّ واعتَدَّ؛ كما يقال: صَبَر واصْطَبر.

وقيل: أي: تستوفونها؛ يقال: عدَدْتُه له فاعتَدَّ؛ كما يقال: وزَنْتُه له فاتَّزن، وكِلْتُه له فاكتال.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: المتعةُ الواجبة إن كان المهرُ غيرَ مسمًّى، فإنْ سُمي فالواجب نصفُ المسمَّى والمتعة مستحبة.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾: أي: لا تمسكوهن ضراراً، وهو في قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وهو أن يتركها حتى تنقضيَ عِدَّتُها.

وقيل: هو أن يرجعها[1] إلى بيتها من غيرِ منعِ حقٍّ أو أذًى، والآيةُ في النكاح والطلاق فتتصل بالآيات التي في المنكوحات.

* * *

(٥٠) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾: أي: زوجاتك ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ﴾؛ أي: قبلت؛ كما هو في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿أُجُورَهُنَّ﴾: أي: مهورَهن وهذا بيانُ إحلال النساء اللاتي كنَّ عنده.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: أي: وأحللنا لك ما ملكْتَه مِلْكَ يمين؛ قيل: هي ماريةُ القِبْطيةُ أمُّ إبراهيم.

﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: أي: أَغْنمكَ من غنائم المشركين، أُحل لك أن تضمَّها إلى نفسك بالـمِلك دون النكاح.

وقيل: أي: صفيةُ بنتُ حيي، وجُوَيرِيَة بنت الحارث هما ممَّا أفاءَ اللهُ عليه أعتقهما وتزوجهما.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾: من بنات العباس وغيرهن من أولاد عبد المطلب ﴿وَبَنَاتِ

---

(١) في (أ): «يراجعها».

عَمَّـٰتِكَ﴾ من ولد بنات عبد المطلب ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ من أولاد عبد منافِ بن زهرة.

وأَفرد العمَّ والخال للتخفيف والمراد بهما الجمع، وجمع العمَّات والخالات للتحقيق، وجمَعهما بزيادة ألف فلم يثقِّل.

ومعناه: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ في المستأنَف مَن تتزوَّج بهنَّ من هؤلاء.

﴿الَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: و(مع) ليس لِقران الفعل بل لوجودهما في الأصل؛ كما في قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [النمل: ٤٤].

وفيه: أنه لا يحلُّ له غيرُ المهاجِرة منهن، ورُوي عن أم هانئ رضي الله عنها بنت أبي طالب قالت: نزلت فيَّ هذه الآية، أراد النبيُّ أن يتزوَّجني فنُهي عني لأني لم أهاجر(١).

أي: وأحلَلْنا لك تزوُّجَ بَنَاتِ عَمِّكَ وَبنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ من مكة إلى المدينة، فإن لم تهاجر لم يحلَّ لك نكاحها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَـةً﴾: أي: مصدِّقةً بتوحيد الله، وهي أمُّ شَرِيكٍ بنتُ جابر العامريِّ، وكانت تسمى: أمَّ المساكين.

وقيل: هي زينب بنت خُزيمة.

وفقهاء الكوفة يجيزون النكاح بلفظ الهبة، ويجعلون خصوصية النبيِّ عليه

---

(١) رواه الترمذي (٣٢١٤)، وقال: حديث حسن، لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ٥٨٨): وهو ضعيف جداً ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج في مواضعه بها.

السلام في ترك المهر لا في تعيُّن اللفظ، ويستدلُّون لجواز الهبة بقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ لولا أن الهبة نكاح لقيل: إن أراد النبي أن يتَّهبها[1].

والشافعي رحمه الله يرى به اللفظَ والمعنى مما خُصَّ به النبيُّ ﷺ إن رغب النبي عليه السلام أن يستنكحها؛ أي: يتزوجها؛ يقال: نَكَح واستَنْكَح؛ كما يقال: عَجِل واستعجل[2].

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾: أي: ملَّكت نفسها رسولَ الله ﷺ بالنكاح بلفظ الهبة من غيرِ مهرٍ.

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾: أي: أحبَّ أن ينكحها؛ كما يقال: نَكِرَ واستَنْكر، وعَجِب واستَعْجب، وعَجِل واستعجل.

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: رجوعٌ إلى المخاطبة بعد المغايبة، وهي تلوين الكلام[3]، ومعناه: أنها خالصة[4] للنبي ﷺ من غير مهر، وغيرُ النبيِّ ليس له ذلك، بل يجب المهر وإن لم يسمِّه أو نفاه.

وقيل: قوله: ﴿خَالِصَةً﴾ يرجع إلى كلِّ منكوحةٍ له، ومعناه: أنها تخلُص له في الدنيا والآخرة فلا تحلُّ لأحدٍ بعده امرأةٌ من نسائه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الواهبةُ نفسَها له ميمونةُ بنتُ الحارث[5].

---

(١) في (ف): «يمهرها».

(٢) من قوله: «﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾: أي: مصدِّقةً...» إلى هنا ليس في (أ).

(٣) في (أ): «وهو تلوين»، وليس فيها: «الكلام».

(٤) في (ر) و(ف): «خلصت».

(٥) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٢٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥).

وقال عليُّ بن الحسين: هي امرأة من بني أَسْدٍ يقال لها: أم شريك[١].

وقال الشعبي: هي امرأة من الأنصار[٢].

وقيل: هي زينب بنت خزيمة من الأنصار[٣].

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾؛ أي: أحللنا لك هؤلاء الأصنافَ بلا عددٍ تخصيصاً لك، وفي حق الأمة هو مقصور على الأربع[٤].

ومعنى ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ على الجمع؛ أي: خلوصاً لك على المصدر؛ كما في قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي: كذب.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾: أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ الواهبةَ من غير مهر.

وقيل: أي: قدَّرنا عليهم الأربع، ووسَّعنا عليك في الزيادة على ذلك.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٥٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧١٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٦). وفي المصادر أنها من الأَزْد، ولا خلاف لأن الأزد تقال بالزاي والسين. انظر: «القاموس» (مادة: أسد).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧١٧٤)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٦).

(٣) قوله: «وقيل هي زينب بنت خزيمة من الأنصار» ليس في (أ)، وفي (ف) بدلًا منه: «وهي زينب بنت خزيمة». والمثبت من (ر)، وهذا القول ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٥٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٢)، عن الشعبي. وقولهم فيه: (من الأنصار) تعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٢٢٣) بقوله: (وأمَّا حكايةُ الماوَرديِّ عن الشَّعبي أنَّ زينبَ بنتَ خُزيمةَ أمَّ المساكينِ أنصاريةٌ، فليس بجيدٍ؛ فإنها هلاليةٌ بلا خلافٍ).

قلت: وقد ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٤) عن الشعبي فقال: (الهلالية) على الصواب.

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٤).

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: فإنه لا يكون إلا بعِوَضٍ، وأطلقنا لك الاصطفاء من الغنيمة ما شئت.

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: أي: ضِيقٌ، فيكون ما تتوسَّع به من الملاذِّ المباحة عوناً لك على القيام بما أُمرتَ به.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: بعباده.

* * *

(٥١) - ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾: أي: أبحتُ لك أن تؤخِّرَ من نسائك[1] مَن تشاء عن نفسك فلا تَقْسِمَ لها.

﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: أي: تضمُّ إلى فراشك مَن تشاء منهن.

﴿ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾: أي: ومَن دعوتَ إلى فراشك وطلبتَ صُحبتَها ممن عزلْتَ عن نفسك بالإرجاء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾[2]: فلا ضِيقَ عليك في ذلك؛ أي: ليس إذا عزلتها لم يجز لك ردها إلى نفسك.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ذلك الإعادة[3] ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾؛ أي: يرضينَ كلُّهنَّ بما آتيتهن، رفْعُه بفعلِ الرضا؛ أي: هذا أقربُ

---

(١) في (ف): «أبحت لك أن ترجي من نسائك أي: تؤخر».

(٢) «فلا جناح عليك» من (أ).

(٣) «أي ذلك الإعادة» من (ر).

إلى أن يعود سرورُهن[١] وانتفاءُ الحزن عنهن ورضاهن إذا علمن أنك فعلتَ ذلك كلَّه بأمر الله، وأن لهنَّ الثوابَ إذا رضينَ بذلك، وأن لكلٍّ واحدة منهن الرجاءَ في الابتغاء بعد العزل.

وعن معاذةَ العدويَّةِ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستأذنُنا في نوبةِ إحدانا بعد ما أُنزلت ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية، قالت معاذة: فما كنتِ تقولين لرسول الله ﷺ إذا استأذن؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ لم أُوثر على نفسي أحداً[٢].

قالوا: وكان هذا تفضُّلاً منه ومراعاةً لقلوبهن، حتى كان يطاف به محمولاً في مرض موته إلى أن استحلَّهن فرضِينَ بأنْ يكون في بيت عائشة رضي الله عنها.

وعن أبي رَزِينٍ قال: المرجَآت ميمونةُ وسودةُ وصفيةُ وجُويرية وأمُّ حَبيبة، وكانت عائشةُ وحفصةُ وزينبُ وأمُّ سلمة رضي الله عنهم سواءً في القَسْم كان يسوِّي بينهن[٣].

وقيل: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ هذا التخيير فيمَن كانت تَعْرِض نفسها على رسول الله ﷺ هبةً، وكان له أن يقبل مَن يشاء ويردَّ مَن يشاء، وهذا على قبول النكاح ابتداءً وردِّه.

وقيل: هذا التخيير كان في تزوُّجِ مَن يشاء من هذه الأصناف وفي ترك تزوُّجها.

---

(١) في (ر) و(ف): «تعود بسرورهن».

(٢) رواه البخاري (٤٧٨٩)، ومسلم (١٤٧٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٤٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

وقال الحسن: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها معه ولا أن يُعرِّض لها، فقال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: تدَعُها بعد خطبتها ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فتتزوَّجُها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ذلك في القَسْم(١).

وقيل: أي: تطلِّق مَن تشاء منهن وتستبدل بها مَن تشاء ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ هو الرجعة فيمَن طلَّق.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾؛ أي: قصَرْنا الحِلَّ على هؤلاء وحرَّمنا عليك نكاحَ الغرائب فذلك أَدْنى أنْ تَقَرَّ أعينُ هؤلاء.

قال محمد بن علي الباقر: لما تزوَّج النبي ﷺ الكِنْدية أسماءَ بنتَ النعمان بن شرحبيل الجَونية، وكانت من أحسن النساء، قالت نساء النبي ﷺ: إنْ تزوَّج علينا الغرائبَ فما له فينا حاجةٌ، فحبَس الله نبيَّه على أزواجه اللاتي عنده وأحلَّ له من بنات العم والعمة والخال والخالة ما شاء الله، فقال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ يقول: من اللاتي أَحَل له ومن اللاتي عنده ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ من اللاتي عنده ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ يعني: نساؤه اللاتي عنده إذا علمن أنه لا ينكح عليهن غريبةً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾: أيها العِبَاد من الرجال والنساء؛ من محبة البعض لبعض ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمصالح عباده ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة على مخالفته.

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٤٠ ـ ١٤١)، بلفظ: كان نبي الله ﷺ إذا خطب امرأة فليس يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَخطُبَها حتى يتزوَّجها رسولُ الله ﷺ أو يَدَعها، ففي ذلك أنزلت: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآيَةَ.

(٥٢) ـ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: إن الله تعالى لمَّا أمر رسوله بتخيير نسائه، فخيَّرهن فاخترنه، شكر الله تعالى لهن ذلك فعظَّم حقَّهن بأنْ جعلهنَّ أمهاتِ المؤمنين، ومنع رسوله من أن يتزوج عليهن غيرهنَّ أو يتبدل بهنَّ سواهنَّ وإن وقع بقلبه حُسنُ غيرهن، وقصَره عليهن، وصرَف توسِعتَه في الملاذِّ[1] بعدهنَّ إلى مِلكِ اليمين فقط.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾: أي: حافظاً لا يغيب عنه علمُ شيء؛ أي: فانْتَهِ يا محمد إلى ما حدَّدْتُه إليك في نسائك ومِلك يمينك.

***

(٥٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾: قيل: أي: وقته، وقيل: أي: نضجه وبلوغه.

والأناء: الوقت، وجمعه: الآناء؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠]؛ أي: ساعاته، وقد أنى يأني أناءً؛ أي: حان؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) في (أ): «البلاد».

﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]؛ أي: قد انتهى حره.

قال أنس رضي الله عنه: أنا أعلم الناسِ بهذه الآية، لمَّا زُفَّت زينب إلى رسول الله ﷺ كانت مع رسول الله[1] في البيت، وصنع طعاماً فجاء القوم فكانوا في البيت، وجعل رسول الله ﷺ يخرج والقوم مكانهم، ثم يرجع وهم قعود، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾[2]؛ أي: مَنازلَه التي فيها نساؤه ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ أي: إلا أن تُدْعَوا إلى طعام يريد أن يطعمَكُموه رسولُ الله ﷺ لوليمةٍ أو نحوها ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ أي: فتدخلونه غيرَ منتظِرين إدراكه؛ قال تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]؛ أي: انتظرونا.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾: أي: تفرَّقوا.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: عطف على قوله: ﴿نَٰظِرِينَ﴾؛ أي: غيرَ مشتغِلين بعد الفراغ من الطعام بالحديث تستأنسون به.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾: أي: يَشُقُّ عليه بتضييقكم المنزلَ عليه وعلى أهله، ومَنْعِكم إياه عن أهله ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾؛ أي: يترك إعلامكم بذلك وأمرَكم بالانتشار.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: أي: لا يترك بيانَ الحق.

وقال الحسن رحمه الله: حسبك من الثقلاء أن الله لم يتجوَّز في أمرهم فقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[3].

---

(١) في (ف): «كانت معه».

(٢) روى نحوه البخاري (٤٧٩٢)، ومسلم (١٤٢٨).

(٣) لم أجده عن الحسن، لكن رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٥٩) عن ابن عائشة، وابن عائشة: هو =

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾: أي: سألتُم أزواج النبيِّ، ولم يسبق ذكرهنَّ صريحاً، لكنْ ثبت ذلك دلالةَ قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ لأن فيها نساءه.

﴿مَتَـٰعًا﴾: أي: شيئاً من الأمتعة بالاستعارة ونحوها.

وقيل: أي: سألتم منهنَّ شيئاً تنتفعون به في الدِّين من رواية الحديث ونحوِه.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: أي: بينكم وبينهن ستراً.

وقيل: هذا في حق(١) كل النساء.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: أي: أبعد من خواطر الشيطان وعوارض الفتن التي تدعو إليها الطباع من ميل النساء إلى الرجال والرجال إلى النساء.

قال عمر رضي الله عنه: وافقني ربي في ثلاثٍ؛ قلت: يا رسول الله، لو اتَّخذتَ مِنْ مَقَامِ إبراهيم مُصلًّى، فأنزل الله آية المقام، وقلتُ: يا رسول الله، إنه ليَدخلُ عليك البرُّ والفاجر فلو أمرتَ أمهات المؤمنين أن يحتجِبْن، فأنزل الله آية الحجاب، وبلغني أن النبي ﷺ عاتب أزواجَه فأتيتُهنَّ فوعظتُهن حتى انتهيتُ إلى امرأة منهن، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يَعِظ أزواجه حتى تعظَهنَّ؟! فخرجتُ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية(٢).

= عبيد الله بن محمد بن حفص القرشي التيمي، أبو عبد الرحمن البصري، من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، توفي سنة (٢٢٨هـ). وقد وهم الزمخشري فجعله عن عائشة رضي الله عنها وتابعه النسفي أبو البركات وأبو حيان والآلوسي وغيرهم.

(١) «حق» ليس من (أ).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٣)، وفيه بدل «فأتيتهن فوعظتهن»: (فدخلْتُ عليهن، قلتُ: إن انْتَهَيْتُنَّ أو لَيُبدِّلنَّ اللهُ رسولَه ﷺ خيرًا منكنَّ).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾: أي: بما مر، وقيل: بأيِّ أذًى كان.

﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾: أي: لا يجوز بعد وفاته، ولا يجوز بعد فراقه في حياته بطلاقٍ أو نحوه، كما قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ [الأعراف: ١٥٠] وكان لا يجوز ذلك لأن نساءه أمهات المؤمنين.

و﴿كَانَ﴾ زائدة عند أبي عبيدة وجماعة[1].

وقيل: أي: كان ذلك في حكم الله الذي لا يتغيَّر ولا يتبدل.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾: أي: عظيم الإثم، وقيل: أي: منكراً في العقل والشرع.

* * *

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾: أي من أذى الرسول ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم من ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال بعضهم: لئن مات رسول الله ﷺ لأتزوَّجنَّ بعائشة، فأنزل الله هذه الآية[2].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٠).

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٣). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٧٢) عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾: لمَّا أمرهن بالاحتجاب استثنى مَن يجوز لهن أن لا يحتجبن منهم من آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن لأنهن محارم لهن.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾: هن نساء المؤمنات.

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: هن إماؤهن، ولا يدخل في ذلك عبيدُهن عند عامة العلماء، وهم كالأجانب.

ودخل في هذا الاستثناء سائرُ المحارم[1] المذكورين في الآية في سورة النور.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾: خطاب لنساء النبي ﷺ وأمرٌ لهن بالتقوى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾: أي: شاهداً عليه عالماً به مُجازياً على وَفْقه.

* * *

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾: وهذا تعريف للمؤمنين منزلةَ النبي ﷺ، والصلاة من الله تعالى: الرحمة والمغفرة والرضوان، ومن الملائكة: الدعاء له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾: أي: قولوا: صلى الله على محمد، أو: اللهمَّ صلِّ على محمد ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾: أي: حيُّوه تحيةً؛ أي: قولوا اللهم سلِّم على محمد.

---

(١) في (ر) و(ف): «المحرمات».

وقيل: أي: انقادوا لأمره وحكمه انقياداً؛ كما قال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

وعن كعب بن عُجرةَ قال: لما نزلت هذه الآية قمنا إليه فقلنا: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

وعن الحسن رحمه الله قال: لما نزلت هذه الآية قالت الصحابة: فما لَنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب: ٤٣](٢).

ثم بيَّن تشريفَه من وجه آخر ـ وهو وعيد مَن آذاه ـ فقال:

***

(٥٧) ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: وذكرُ اللهِ للافتتاح به والتيمُّنِ كما في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ولأن عصيان الرسول عصيانُ الله، فكان إيذاؤه كذلك إيذاءه.

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾: أي: أبعدهم الله عن رحمته وطردهم في الدارين؛ لأن إيذاءه كفر ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ في الآخرة مُذلًّا مخزياً.

***

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).

(٢) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٢٩٢) نقلًا عن بعض التفاسير.

(٥٨) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾: وهم رجال أمته ونساؤهم ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾: فعلوا ما يستحقُّون به الإيذاء بالحد والتعزير والإسماع ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا ﴾؛ أي: كذباً مفترًى[1] وهذا في الإيذاء بالقول ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ظاهراً مظهِراً من نفسه أنه إثم.

جعل إيذاء المؤمنين والمؤمنات معصيةً، وإيذاءَ الله والرسول كفراً.

وقيل: إيذاء الله هو تصوير التماثيل الحيوانية، فإنه مضاهاةُ الله في الخلق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال فنحاص بن عازورا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] و: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقالت المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه[2].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ ﴾ يعني: حين شُجَّ في وجهه وكُسرت رَباعِيَتُه، وحين قيل: إنه ساحر، وكاهن، ومعلِّم، ومجنون.

وقيل: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾: يُلحدون في أسمائه ﴿وَرَسُولَهُۥ ﴾: يبتدعون في شريعته.

وقال النبيُّ ﷺ: «يقول الله تعالى: شتَمني ابن آدم ولم يَنْبغ له أن يَشتمني، وآذاني ولم يَنْبغِ له أن يؤذيَني، أمَّا شتمُه إيايَ فقوله: إني اتخذتُ ولداً، وأنا الله

---

(١) في (أ): «كبيراً»، وفي (ف): «محيرا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٥).

الأحـدُ الصمد، وأما إيـذاؤه فقولـه: إن الله لا يُعيدني بعـد أن أبداني[١]»[٢].

وقال مقاتل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن ناساً من المنافقين كانوا يؤذونه ويُسمعونه[٣].

وقال الضحاك والسدِّي: نزلت في الزناة الذين كانوا يَتْبعون النساء للزنية[٤] وهن كارهاتٌ فيتأذَّين منهم[٥].

ويدل على هذا ما بعده وهو قوله:

* * *

(٥٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) في (ف) و(أ): «براني».

(٢) رواه بنحوه البخاري (٣١٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٠٦).

(٤) في (ر) و(ف): «لريبة».

(٥) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٢)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦). ولفظه عندهم: (... يتبعون النساء إذا تبرّزن بالليل لقضاء حوائجهنّ، فيرون المرأة فيدنون منها فيغمزونها، فإن سكتت اتّبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلّا الإماء، ولم يكن يومئذ تعرف الحرّة من الأمة لأنّ زيّهن كان واحداً، إنّما يخرجن في درع واحد وخمار الحرّة والأمة، فشكون ذلك إلى أزواجهنّ فذكروا ذلك لرسول الله صلّى الله عليه. فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، ثمّ نهى الحرائر أن يتشبهنّ بالإماء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية). وبهذا اللفظ يظهر ارتباط الآية مع ما بعدها، وهو ما سيشير إليه المؤلف بقوله: «ويدل على هذا...».

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قيل: أي: زوجات المؤمنين، وقيل: أي: الحرائر.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾: أي: يغطِّين رؤوسَهن ووجوهَهن[1] في بروزهن من البيوت في حوائجهن وإلى متبرَّزاتهن قبل اتخاذ الكُنُف في البيوت ليلاً ونهاراً بملاحفهنَّ وأردِيَتهنَّ، بخلاف الأمة التي تخرج مكشوفة الرأس.

وقال الخليل: الجلبابُ ثوب أوسعُ من الخمار دون الرداء تغطي به المرأة رأسها وصدرها[2].

وقال قطرب: الجلباب: الملحفة.

وقال ابن سيرين عن أبي عبيدة: إدناء الجلباب: أن تَردَّ المرأة رداءها على رأسها، ثم تضعَه على حاجبها، ثم تُديرَه فتضعَه على طرفِ أذنها، ثم تديرَه من الجانب الآخر على خدِّها حتى تضعَه على طرف أنفها، وتكشف إحدى عينيها وتغطي الأخرى[3].

قال ابن سيرين: حدثتني أختي أنها رأت امرأة من المهاجرات أو الأنصاريات قد تنقَّبت هكذا.

وقالت صفيةُ بنتُ شيبةَ: قالت أمُّ سلمة: لمَّا نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسيةٍ سودٍ كنَّ يلبسنَ بها[4].

---

(١) «ووجوههن» ليست في (أ).

(٢) انظر: «العين» (٦/ ١٣٢).

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٨١).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٧٧)، وأبو داود (٤١٠١).

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾: أي: يريهنَّ أنهنَّ حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾؛ أي: لا يؤذيهنَّ أهل الريبة توهُّماً منهم أنهن إماءٌ، فإنهم كانوا يَتْبعون الإماءَ وكان زيُّ الأمة والحرة في الأصل واحداً وهو قميص وخمار، وربما آذى الرجل منهم الحرة بالرفث من الكلام، فأمر الله بهذا ليزول ذلك عنهنَّ، وكنَّ عاجزاتٍ عن الزَّجر والإماءُ كنَّ يزجرن بالكلام.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بالعفاف فإنه غايةُ التستُّر[1] ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: فلا يُتعرَّض لهن حين علم أنهن عفائف.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ﴿غَفُورًا﴾ لِمَا سلف قبل هذا من تركِ إدناءِ الجلابيب ﴿رَّحِيمًا﴾ لا يؤاخذُهم بما ارتكبوه على جهلٍ، و﴿رَّحِيمًا﴾ بدلالتهم على ما يزول به الأذى عنهم.

***

(٦٠) ـ ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: لئن لم يكفَّ عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات هؤلاء ثلاثةُ الأصناف:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وهم الذين يُضمرون الكفر اعتقاداً ويظهرون الإيمان قولاً.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شكٌّ فلا يعتقدون أحد الدِّينين.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المسلمون الذين يحرِّكون القلوب بإيقاع الأخبار الكاذبة.

---

(١) في (ر): «الستر».

وقيل: كان من المنافقين التضريب[١]، ومن ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الميلُ إلى الزنا، واتِّباعُ النساء والإماء بالليل، والتعرُّضُ لهن بكلام الرَّفث ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾: المخبرون بأن فلاناً يتبع فلانةَ وفلانة تطاوع فلاناً، وهو إذاعة الفاحشة.

وقيل: كان من الطبقة الثالثة الإخبارُ بأحوال المشركين؛ أنهم اجتمعوا ولهم[٢] عَددٌ وعُدَّة ليَحْزُنوا بذلك المسلمين.

وقيل كان من المنافقين إيقاع الشكوك والشبه في قلوب الضَّعَفة من[٣] المسلمين.

وقيل: الثلاثة صنفٌ واحد وهم المنافقون، وهذه صفاتهم، والواو لتغايُرِ الصفات لا لتغايُر الذوات؛ كما مر في قوله: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢][٤]، وأنشد الفراء:

فإن رُشيداً وابنَ مروان لم يكنْ ليَفعلَ حتى يُصْدِرَ الأمرَ مَصْدَرا[٥]

وقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: أي: لنسلِّطنَّك عليهم ولنأمرنَّك بقتالهم، يعني: إن لم يكفُّوا عن إيذاء المؤمنين، وخرجوا إلى المكاشفة والتصريح بما هم عليه في معاملة المؤمنين من التضريب وإيقاع الشُّبه والسعي في إشاعة الفاحشة فيهم وإيهان[٦] أمورهم.

---

(١) التضريب: الإغراء، والمراد هنا: إيقاع الفتن والسعي بين الناس بالنميمة.

(٢) في (ر) و(ف): «وبهم».

(٣) «من» ليس من (ف).

(٤) روى هذا القول ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٧٧) عن عبيد بن حنين.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٢)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ١١٠)، وفيه: فرُشيد هو ابن مروان، نُسقَ عليه لما فيه من زيادة المدح.

(٦) في (ر): «وتشتيت».

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: في المدينة إلا زماناً قليلاً، بل يُضطرُّون إلى الجلاء عنها إلى أرض أخرى.

وقيل: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: أذلَّاء مقهورين مقموعين، فإن القِلة توضعُ مكان الذِّلة، ويكون نعتاً لهم على هذا القول(١).

* * *

(٦١) ـ ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾.

وعلى هذا قوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ﴾ يكون نعتاً لهم أيضاً على الحال كالأول؛ أي: مشتومين مُبْعدين عنكم وعن مجالسكم ومساجدكم.

وإذا حُمل الأول على قلة الزمان فقوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ﴾ يكون نصباً(٢) على الذم؛ كما في قوله ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾.

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾: أي: وُجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾: هذا حكمُهم إذا ظهر(٣) حالهم.

وقد حقَّق معنى قوله: ﴿ مَّلْعُونِينَ﴾ ـ أي: مشتومين مطرودين ـ لمَّا نزلت سورة براءة، حتى قال النبي ﷺ: «قم يا فلان فاخرج من المسجد فإنك منافق، وقم يا فلان..»(٤)، على ما ذكرنا في تلك السورة(٥).

---

(١) أي: حالًا لهم، والمؤلف قد يعبر عن الحال بالنعت.

(٢) في (ر): «نعتاً».

(٣) في (أ): «أظهروا».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً فقال: «قم يا فلان فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم.. الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

(٦٢) ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾: أي: سنَّ الله هذا سنةً في المنافقين الذين كانوا في سائر الأمم؛ أنهم كانوا إذا كاشفوا[1] سلَّطتُ عليهم أنبيائي فأَجْلَوهم وأَسَروهم وقتلوهم.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾: أي: لطريقة الله التي أجراها لهم تغييراً، بل هي تجري مجرًى واحداً في الأمم كلها.

***

(٦٣) ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: لما قال في وعيد المؤذين: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ قالوا: متى الآخرة؟ وكان ذلك كالإنكار منهم كما قال: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: ٥١]، فأجاب الكفارَ عن هذا السؤال بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: هو الذي يعلمُها لا أنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾: أي: وما يُعْلِمُك لعل ما يُنتظر منها قريبٌ، وليس قوله: ﴿قَرِيبًا ﴾ صفةً للساعة فلم يؤنِّثها، لكنه صفةٌ للزمان؛ أي: زماناً قريباً؛ أي[2]: في زمان قريب.

***

---

(١) في هامش (ف): «أي: أظهروا النفاق».

(٢) «زماناً قريباً أي» من (أ).

(٦٤ ـ ٦٦) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: أي: أبعدهم عن رحمته في هذا اليوم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾؛ أي: هيأ لهم ناراً موقودةً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾؛ أي: في هذه النار ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾: مَن يلي دفعَها عنهم ويمنعُهم من العذاب بها.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾: أي: تُصرَّف حالاً بعد حال، ولوناً بعد لون، بما يمسُّهم من لفحها واشتعالها فيها، فتسودُّ تارةً[1] وتخضرُّ أخرى.

ويجوز أن يكون في معنى قوله: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨].

ويجوز أن يكون هذا في معنى ما قال النبيُّ ﷺ: «فينظر عن يمينه[2] فلا يرى إلا النار، وينظر إلى يساره فلا يرى إلا النار، وينظر فوقه فلا يرى إلا النار، وينظر تحته فلا يرى إلا النار»[3].

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾: الألف في آخره إشباعُ الفتحة لتتساوى الفواصل، وهذا إخبارٌ أنهم إنما وقعوا في ذلك لكفرهم بالله ورسوله.

* * *

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «مرة».

(٢) في (أ): «أيمن منه» بدل: «عن يمينه».

(٣) رواه بنحوه البخاري (١٤١٣) و(٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾: وهذا إشباعٌ أيضاً للفتحة بالألف.

والسادة: جمع السيد، وهو الذي يملك تدبير السواد الأعظم، والكبراء: الرؤساء العظماء، ويجوز أن يكون الكبراء علماءَهم كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، ويكون في معنى قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾: أي: عذابَ الضلال والإضلال.

﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾: قرأ عاصم وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان[1]: ﴿كَبِيرًا﴾ بالباء من الكِبَر وهو العِظَم، وقرأ الباقون بالثاء من الكثرة[2]، وهما قريبان لأن ما كثُر عظم.

واختار أبو حاتم الكثير لأنهم يُلعنون مرةً بعد مرةٍ، وتلعنُهم الملائكة فيَشْتمونهم على ضلالتهم وإضلالهم ﴿لعناً كثيراً﴾؛ أي: متتابعاً متصلاً.

* * *

(٦٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾: أي: لا تؤذوا النبيَّ

---

(١) «وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان» ليس في (أ). وانظر التعليق الآتي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٩). والداني نسب الباء لعاصم وحده والثاء لباقي السبعة، وهذا هو المشهور في القراءة، وقال ابن مجاهد: قرأ عاصم وابن عامر: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالباء، كذلك في كتابي عن أحمد بن يوسف التغلبي عن ابن ذكوان، ورأيت في كتاب موسى بن موسى عن ابن ذكوان عن ابن عامر بالثاء، وقال هشام بن عمار عن ابن عامر: ﴿كثيرا﴾ بالثاء.

ﷺ ولا المؤمنين، ولا تكونوا في ذلك كالذين آذوا موسى فقالوا فيه ما لم يكن فيه.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾: أي: أظهر براءته.

معناه ـ والله أعلم ـ : أيها المؤمنون لا تؤذوا نبيّكم محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى فقالوا فيه ما ليس فيه.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾: أي: ذا جاهٍ ومنزلة.

قيل: كان رُمي بقتلِ هارون، فأحيى الله هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ثم مات.

وقيل: لا تكونوا في أذى محمدٍ واتهامكم إياه بالغدر بكعب بن الأشرف كالذين أذوا موسى باتهامهم إياه في قتل أخيه هارون، فإن الله يبرئه بإظهار ما أحدث كما برأ موسى بإراءته إياهم هارون صحيحاً.

وقيل: (بَرَّأَهُ اللهُ) معناه: أن موسى عليه السلام كان لا يدخل عيون بني إسرائيل معهم، فقالوا: لا يمنع نبيَّنا موسى ـ عليه السلام ـ أن يدخل معنا في هذه العيون إلا أنه آدَرُ أو بَرِصٌ، فأراد الله تعالى أن يبرِّئ نبيَّه عن مقالتهم، فوضع موسى ثيابه على صخرة يوماً ودخل العين، فأوحى الله تعالى إلى الصخرة: أن امضي بثيابه حتى توسَّطي بها محلةَ بني إسرائيل، فمضت واتَّبعها موسى عليه السلام حيث مشت، قال لها: ردِّي عليَّ ثيابي، قالت: أنا مأمورة يا رسول الله، حتى توسَّطت بثيابه محلَّتهم، فرأوا أحسن الناس خلقاً وطولاً ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ ورجعوا عن مقالتهم[1].

وقيل: رموه بالبَرَص، وقيل: بالأُدْرةِ، وكان البرص عندهم فظيعاً.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كان موسى رجلاً حَييًّا ستِّيراً لا يكاد يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل،

---

(١) لم أجدها بهذا السياق، وستأتي الرواية من الصحيح بهذه القصة.

فقالوا: ما يتستَّر هذا التسترُّ إلا من عيبٍ بجلده؛ إما برصٌ وإما أدرةٌ وإما آفةٌ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرِّئه مما قالوا، وإن موسى عليه السلام خلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجرُ ثوبي حجرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن الرجال خلقاً، وبرَّأه[1] الله مما كانوا يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لنُدَباً من أثرِ ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ الآية»[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا وَحشٌ من القول وتأويلٌ بعيد[3]، والأشبهُ أن يقال: إن كلَّ قوم نسبوا رسولهم إلى الجنون مرةً وإلى السحر مرةً والكذبِ أخرى ونحوِ ذلك، على علم منهم أنه رسول الله، وكانوا يتأذَّون به جدًّا، ولذلك قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] فكذا في حق رسولنا ﷺ[4].

وقيل: كان موسى إذا تقدَّم القومَ في المسير قالوا: يتكبَّر علينا، فإذا توسَّطهم قالوا: يخاف على نفسه فيتحصَّن بنا، وإذا تأخر عنهم قالوا: يسوقنا كما يسوق الراعي الغنم، وإذا مشى على جانب منهم قالوا: يأنف من صحبتنا، فكانوا يؤذونه بكل حال.

---

(١) في (ف): «وأبرأه».

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٣) حاشا أن يكون هذا وحشاً من القول، فإن هذا تفسير من لا ينطق عن الهوى بالأسانيد المتفق عليها! وقد أبعد الإمام أبو منصور وأوحش في هذا القول.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤١٨ ـ ٤١٩).

(٧٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أمر رسوله بتقواه في أول السورة وأمر أمته بها في آخرها.

وقيل: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في إيذاء الله ورسوله والمؤمنين.

﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾: صواباً، فاذكروا المؤمنين والمؤمنات بالجميل.

وقيل: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الشرك، وقيل: في المعاصي.

﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما قولوا: لا إله إلا الله[1].

وقال ابن حبيب: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ يسدُّ عنكم باب النيران، ويفتح لكم أبواب الجنان.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ يعني: في شأن زيد وزينب، قولوا في رسول الله ﷺ ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أي: جميلاً، ولا تنسبوه إلى ما لا يحمل[2].

وقيل: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾: هو الصلاة على النبي ﷺ.

وقيل: القول السديد: البريء من الكذب والتمويه واللغو.

* * *

(٧١) ـ ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٦) عن عكرمة قوله.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٧).

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾: قيل[١]: أي: يوفِّقْكم لصالح الأعمال.

وقيل: أي: يثيبكم[٢] عليها ثواباً جزيلاً لا فساد فيه ولا ضرر ولا أذى.

وقيل: أي: يرفع التقصير والزلل والخطأ عن طاعتكم.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾: أي: يمحُها ويكفِّرْها.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾: أي: نجا من كلِّ ما يخاف، ووصل إلى كلِّ ما يرجو.

* * *

(٧٢) ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾: ضمَّن هذه السورة ما ضمَّنها من الأمر والنهي، ثم ختم السورة بتعريفِ أمر الفرائض والأمانات ليكونوا على علم فيَستفرِغوا مجهودهم في القيام بها ويخافوا تضييعها.

واختلف في تأويل الأمانة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأمانة: الطاعة لله[٣].

وقال سعيد بن المسيب: الأمانة: الفرائض[٤].

---

(١) «قيل» من (أ).

(٢) كذا في النسخ، والجادة: (يثبكم) بالجزم.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٨).

(٤) لم أجده عن سعيد بن المسيب، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٧) عن سعيد بن جبير وابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد: الأمانة: الدِّين والفرائض والحدود[(١)].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أولُ ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجُه وقال: هذه أمانة استودعتُكَها، فالفرج أمانةٌ، والأذن أمانةٌ، والعين أمانةٌ، واليد أمانةٌ، والرِّجل أمانةٌ، ولا إيمان لمن لا أمانةَ له[(٢)].

وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة أشياء: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة[(٣)].

وقيل: هي العقد الذي يجب الوفاء به، قال تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والروايات الظاهرات فيه منها ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال: قال الله تعالى للسماوات والأرض[(٤)] والجبال: إن أحسنتُنَّ جُوزِيتُنَّ وإن أسأتُنَّ عوقِبْتُنَّ[(٥)].

والأمانة: هي الأعمال التي أُمر بها المسلمون أن يعملوها ولا يتركوها، وعلى كلِّ مسلم أن لا يغشَّ مسلماً ولا معاهداً.

وقال الضحاك: قال الله تعالى لآدم: يا آدم[(٦)] عَرَضْتُ الأمانةَ على السَّماواتِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٢٧٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٣٨٦) عن زيد بن أسلم مرفوعا مرسلًا. ورواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧٤٢) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (أ): «والأراضين».

(٥) ذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧٤٢) عن الكلبي، وأبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) «يا آدم» زيادة من (أ).

والأرضِ والجبالِ فلم تُطِقْها، فهل أنت قابلُها بما فيها؟ قال: يا رب! وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُوزيتَ وإن أسأتَ عذِّبتَ، قال: قد حملتُها بما فيها، فلم يلبث في الجنة بعد ما حملها إلا قَدْرَ ما بين الصلاة الأولى والعصر حتى خرج منها(١).

وقال الحسن ومقاتل بن حيان رحمهما الله: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع الإنس والجن والسماوات والأرض، فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة وقال لهن: تحمَّلن هذه الأمانةَ ولكنَّ عليَّ الفضلُ والكرامة والثواب في الجنة، قلن: لا نستطيع ذلك، فعرض على الأرضين فقلن كذلك، ثم عرض على الجبال فقلن كذلك، ثم عرض على آدم وقال: ولك عندي الكرامة والفضل إن أحسنتَ وأطعتَ ورعيتَ الأمانة، وإن عصيتَ ولم تَرْعَ الأمانة فإني أعذِّبك، قال: رضيتُ، فحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ظلوماً بحقِّها جهولاً بأخذها(٣).

وقال الضحاك ﴿جَهُولًا﴾ غرًّا بأمر الله تعالى(٤).

وقال الكلبي: ﴿ظَلُومًا﴾ حين خالف أمر ربه ﴿جَهُولًا﴾ لا يدري ما العقابُ في تركها.

وقال الحسين بن الفضل: ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ عند الملائكة لا عند الله.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٩).

(٢) رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٥١٨)، وذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٠٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩٨ و٢٠٥) بلفظ: غرًّا بأمر الله.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٠٥) بلفظ: ظلومًا لنفسه جهولًا فيما احتمل فيما بينه وبين ربه. وانظر التعليق السابق.

وقيل: ﴿ظَلُومًا﴾ نفسَه بمطاوعته حواءَ ﴿جَهُولًا﴾ بتفريق الله بينه وبينها.

وقال الحسين بن الفضل: كانت الأمانة على السماوات والأرض والجبال عَرْضاً، وكانت على آدم فرضاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: أي: خلقنا السماوات والأرض والجبال خلقةً لا تحتمِل حملَ ما ذكر من الأمانة ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ إباءَ خِلْقةٍ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: خلقناه خِلقةً تحتمِل ذلك.

وقال بعضهم: هو على حقيقة العرض، إلا أنه على التخيير بين أن تَقبل وتفيَ بذلك فيكونَ لها الثواب، ولا تفيَ فيكونَ لها العقاب في الآخرة، وبين ألا تقبل فتكون كسائر الموات تَفْنَى بفناء الدنيا لا ثواب لها في الآخرة ولا عقاب، ولا يجوز أن يعرضَ عليهن ما ذُكر عرضَ لزوم وهن يأبَيْنَ ذلك، وقد وصفهن الله بالطاعة له والخضوع في آيات؛ منها قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فكان له الثواب إن قام بها وعليه العقاب إن لم يقم بها.

قال[1]: وقال بعضهم: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى﴾ أهل السماوات وأهل الأرض وأهل الجبال فلم يحملوها، إلا الإنسان منهم فإنه حملها، وكان عرضُ الأمانة على هذه الأماكن وفيها الملائكة يعبدون الله تعالى.

ومعنى عرضها عليهم: تعريفه إياهم أن في أداء الأمانة ثواباً وفي تضييعها عقاباً، فقالوا: إن كان هذا عرض تخيير فقد تركنا الثواب مخافة العقاب نطيعك ولا نعصيك طرفة عين وكان هذا إباء امتناع للخوف لا إباء رد ولذلك قرنه بالإشفاق وهو الخوف.

(١) «قال» ليست في (أ).

قال: وقال بعضهم: ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾؛ أي: يحتملنَ وزرها بالخيانة فيها، يعني: أطعنا الله وحفظنا الأمانة وما خانوها، وهو كقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢][(١)]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: خانها ولم يحفظها الإنسان وهو الكافر على هذا القول ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ هو صفة الكافر أيضاً.

وأما مَن حمل الأولَ على أنهن لم يقبلنها وقبلها الإنسان فالإنسانُ اسم جنس لآدم وأولاده[(٢)] هم قبلوا، وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ هو صفة بعضهم وهو الكافر، فإن الإنسان اسم جنس فيقع على الجميع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ وهذا للجمع، حتى صح الاستثناء منه بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكذلك هاهنا يرجع قوله: ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلى الكافر، ولا يجوز أن يُجعل هذا صفةً لآدم عليه السلام فإنه لا يجوز أن يسمَّى ظالماً جاهلاً فكيف يسمى ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وهو أبلغ، فأما في حق الكافر فيصح هذا لأن الله تعالى سماهم ظالمين بقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وجاهلين بقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، فيجوز وصفهم بالظلوم والجهول لأنهم ثابتون على الظلم والجهل دائمون عليهما.

* * *

(٧٣) ـ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(٢) في (ف): «لآدم وحواء ولأولادهما»، وفي (ر): «لآدم ولأولادهم».

وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهذا دليل على[١] هذا القول؛ لأنه ذكر الصنفين جميعاً فدل أن الاسم كان لهما[٢].

ومعنى هذه الآية: أن الله ألزم الأمانةَ الإنسَ فلم[٣] يقبلها المنافقون والمنافقات والكفار فيعذبهم الله، وقبلها المؤمنون ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٤] ويغفر لهم ما سلف منهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: يغفر ذنوب التائبين، ويرحم عباده المؤمنين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) «على» ليست في (أ).

(٢) في (أ): «لهم جميعاً».

(٣) في (أ): «فما».

(٤) قوله: «﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾» وقع بدلًا منه في (أ): «فيتوب الله عليهم».

سُورَةُ سَبَإٍ

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي جعَل خَلْقَ السماوات والأرض آيةً لكلِّ عبد منيب، الرحمنِ الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من عدوٍّ أو حبيب، الرحيم الذي هو السميع القريب.

وروى أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة سبأ لم يبق نبي مرسل إلا كان له رفيقاً مصافحاً»(1).

وسورة سبأ مكيةٌ، وهي خمسون آيةً وخمس آيات، وقيل: وأربع آيات.

وكلماتُها ثماني مئة وثلاثٌ وثمانون، وحروفُها ثلاثةُ آلاف وخمسُ مئة وخمسةَ عشر.

وانتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أن تلك السورة في مدح الله وهذه في حمد الله.

وانتظام السورتين: أن تلك مدنية في بيان المعاملة، وهذه مكية في بيان العقيدة، وبهما تعبَّد الله عباده، واشتملت السورتان على مدح الموافقين وثوابهم وذمِّ المخالفين وعقابهم.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٦٩)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٤٣)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١) ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: يجوز فيه ثلاثة أوجه:

الأمر بالحمد على إضمار قل أو قولوا.

وحمد الله في نفسه تعليماً لعباده.

والإخبار أن استحقاق الحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾: أي: هو المحمود في الآخرة، وهو المستحِقُّ للحمد فيها كما هو مستحِقُّه في الدنيا؛ إذ هو المالك في الآخرة قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لا ملك إلا له ولا مالك إلا هو، وهو المنعِم على المطيعين بالجنة وما فيها من النعيم المقيم والأجر العظيم، وهم يحمدونه فيها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقيل: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: في إنشاء الآخرة؛ لأن خلق الدنيا صار حكمةً لخلق الآخرة، ولولاها لكان خلق الدنيا للفناء وهو عبث.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: المحكِم لأفعاله، المصيبُ في أفعاله وأقواله ﴿الْخَبِيرُ﴾: العالم بالأشياء على حقائقها.

* * *

(٢) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾: ما يدخل فيها في جوفها من جمادٍ ونامٍ وحيوان.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: ما يكون على ظهرها من هذا، فيعلم أعيانها ومقاديرها وأحوالها ومدةَ بقائها ووقت فنائها.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ﴾: من مطر وملَكٍ وغيرِ ذلك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: أي: يصعد إليها من الملائكة الحفظة وما يكتبون.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾: لا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، ويغفر لهم بالتوبة، وهو المستحِقُّ للحمد بذلك.

* * *

(٣) - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: أي: وقال المنكِرون للبعث، الواصفون اللهَ تعالى بضدِّ ما مر ذكرُه من القدرة والحكمة والعلم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ وإنكارهم لذلك: إما أن يكون لأنه ليس في قدرة الله تعالى عندهم وقد بيَّن قدرته بخلق السماوات والأرض، أو لأنه ليس بحكمةٍ، وإقامةُ القيامة لمجازاةِ المطيع والعاصي حكمةٌ، أو لأنه لا يعلم بأعمال العباد ليجازيَهم على وَفق عملهم، وقد بيَّن أنه حكيمٌ عليمٌ، فبطل قولهم بما تقدم من عدم إتيانِ الساعة[1].

ثم زاد في البيان فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ نفى قولهم وأقسم على كونها، وأكد باللام والنون.

---

(١) «من عدم إتيان الساعة» ليس في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الميم نعتاً لـ﴿ربي﴾ والباقون بالرفع على معنى: هو عَالِمُ الغَيْبِ[١].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي: لا يَبعد ولا يغيب، وقرأ الكسائي: ﴿لَا يَعْزِبُ﴾ بكسر الزاي والباقون بضمها[٢]، وهما لغتان.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: أي: علمُ مقدارِ نملةٍ صغيرة.

وقيل: ما يتراءى من شعاع الشمس إذا وقعت في كوَّة.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾: أي: من مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ من ذلك ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ وما يرجع منه إلى أعمال العباد، فهو في كتاب الحفظة[٣].

* * *

(٤ ـ ٥) ـ ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يتصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ... لِّيَجْزِىَ﴾[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٧٩). وفي قوله: «والباقون بالرفع» نظر، فالذي قرأ بالرفع كما ذكر ابن مجاهد والداني هما نافع وابن عامر، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿علَّامِ الغيب﴾ بالكسر ووزن فعَّال، ففي السبعة ثلاث قراءات: ﴿عالمِ﴾ بالكسر، و﴿عالمُ﴾ بالرفع، و﴿علَّامِ﴾ بالكسر.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٣) في (ف): «الحفظ».

(٤) «﴿لِّيَجْزِىَ﴾» ليس في (أ) و(ف).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾: أي: حسن خطير في الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾[1]: أي: في إبطال آياتنا بالافتراء عليها مسابقينَ مقدِّرين أنهم يفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ بخلافِ جزاء الأوَّلينَ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿معجِّزين﴾ بالتشديد[2]؛ أي: مثبِّطين الناسَ عن تأمُّلها.

والرجز: العذاب المؤذي المؤلم.

وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ويعقوبُ: ﴿أَلِيمٞ﴾ رفعاً نعتاً لقوله: ﴿عَذَابٞ﴾ والباقون بالخفض بهما لقوله: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾[3].

قال مقاتل: قال أبو سفيان بن حرب وحلَف باللات والعزَّى: إن البعث غير كائن، فأمر الله رسوله أن يحلف ردًّا عليه بقوله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾[4].

* * *

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: ﴿وَيَرَى﴾ بقلبه وهو العلمُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾

---

(١) في (ف): «معجزين».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٣).

وهم أصحاب رسول الله، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعول ثان بقوله: ﴿وَيَرَى﴾؛ أي: هؤلاء يرون القرآن حقًّا ويعلمونه صدقاً، وأنه يهدي إلى طريق الحق وهو طريق الله تعالى ودينُ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المستحِقِّ للحمد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي: وقال هؤلاء المنكرون للساعة لإخوانهم الموافقين لهم على الإنكار: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون النبيَّ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: يخبركم أنكم بعد أن تَبْلوا في قبوركم وتتقطَّعَ أجسادكم فيها أو تأكلكم السباع، والـمَزْق: الخرق، والتمزيق: التكثير والتكرير منه، ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعودون خلقاً جديداً أحياءً كما كنتم قبل البِلَى والتقطُّع، وهذه لفظةُ تعجيب بصيغة الاستفهام؛ كقولك: هل رأيت مثل هذا؟!

* * *

(٨) ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: ألف استفهام دخلت على الألف المجتلَبة فأسقطَتْها للاستغناء عنها ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ أي: جنون، وهذا قولهم أيضاً، يقولون: لا ندري أنَّ ما يخبر به ويضيفه الله تعالى أهو على جهة الافتراء على الله تعالى فهو أمر فظيع، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري؟!

فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾: أي ليس هو مفترياً على الله تعالى ولا به جنون، ولكن المنكرون للبعث ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في الآخرة إذا صاروا إليها ﴿و﴾ في ﴿الضلالِ البعيد﴾ عن الحق في الدنيا.

وقيل: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: في العناء والأذى؛ لِمَا يجتهدون فيه من إضلالِ الناس وصدِّهم عن الحق مع بطلان سعيهم؛ قال عَبيدُ بن الأبرص:

والمرءُ ما عاش في تكذيبٍ طولَ الحياة له تعذيبُ(١)

وحكى أبو معاذ عن بعضهم: ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: الشقاءِ الطويل.

❊ ❊ ❊

(٩) ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: كيف هو محيط بهم، ومن كل جهة رَموا بأبصارهم إليهما رأوهما، وهم محصورون بينهما، فيستدلوا بذلك على أنهم في سلطان الله تعالى تجري عليهم أحكامه.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: لا يمتنعون عن شيء من ذلك، فيحذروا الافتراء على رسولي، ويتركوا الإشراك بي والتعجيزَ لي عن إعادتهم بعد موتهم، ويستدلوا بقدرتي على خلقهما على قدرتي على بعثهم بعد موتهم، وهو كقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] إلى قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾: أي: راجعٍ إلى الله مقبلٍ عليه متدبرٍ في آياته، فهو المنتفع(٢) بها.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص: ٣٨٤)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢٦١)

(٢) في (أ): «المتسع».

(١٠) ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: ثم بيَّن قصة أبٍ وابنٍ كانا منيبين إلى الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، وبه وقع الانتظام بين هذه الآية والتي قبلها[١]، وفي إثبات رسالتهما إثباتُ رسالة محمد عليه السلام، وصدقُ ما أخبر به من البعث وغيره.

ومعنى الآية[٢]: ولقد أعطينا داود النبيَّ منا أمراً فضَّلناه به على غيره من أهل عصره، وهو ما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾؛ أي: قلنا: يا جبال رجِّعي معه ما يأتي به من ذكرِ الله وتسبيحه.

وقيل: أي: سبِّحي معه، وكانت تسبِّح معه.

وقيل: التأويب سيرُ النهار كلِّه، وكانت الجبال تسير معه بالنهار حيث سار هو عند بعضهم.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: قال قتادة: وكانت الطير تسبِّح معه إذا سبَّح.

وقرأ نافع وعاصم في رواية: (وَالطَّيْرُ) بالرفع[٣] عطفاً على قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾، وهو كقول الشاعر:

يــا طلحــةُ الكامــلُ وابــنُ الكامــلِ[٤]

---

(١) «وبه وقع الانتظام بين هذه الآية والتي قبلها» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف) و(أ): «قال» بدل: «ومعنى الآية».

(٣) رويت من طريق عبد الوارث عن أبي عمرو، ومن طريق نصر عن عاصم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٢).

(٤) الرجز دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٥).

بالرفع للظاهر، وإن كان لا ينادَى وحده بالرفع.

ووجه آخر: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أنت (وَالطَّيْرُ) رفعاً[1] عطفاً على (أنت).

ووجه آخر: والطَّيرُ كذلك، أو: والطَّيرُ مثلُك.

وقرأ الباقون بالنصب لوجوهٍ:

أحدها: أن الثانيَ معرفةٌ والأولَ نكرةٌ، واستعمالُ العرب فيهما كذلك، قال الشاعر:

أَلَا يَـــا زيـــدُ والضحـــاكَ سِـــيرَا فقد جاوَزْتُمـــا خَمَـــرَ الطريـــقِ[2]

والخَمَر: ما واراك من شجر وغيره.

وكذلك يفعلون في المضاف والمفرد؛ قال ذو الرُّمَّة[3]:

ألا يـا اسـلمي يـا هنـدُ هندَ بنـي بـدرِ وإن كـان حيَّـانا عِـدًى آخـرَ الدهر

وقال آخر:

يـــا زيـــدُ زيـــدَ اليَعْمـــلاتِ الذُّبَّلِ تـــطاوَلَ الليـــلُ عليهـــا فانـــزِلِ[4]

---

(١) «رفعا» ليست في (أ).

(٢) البيت دون نسبة في «الجُمل» للخليل (ص: ١١٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٢٢١)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٥٣). وقال الفراء: وقد يجوز نصب (الضحاك) ورفعه.

(٣) كذا قال، وهو في المصادر منسوب للأخطل. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٠)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٩٤)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٠٣)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٤١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١١٥).

(٤) نسب لبعض ولد جرير في «الكتاب» (٢/ ٢٠٥). و«المفصل» للزمخشري (ص: ٦٦ ـ ٦٧)، ولعمر بن لجأ في «الكامل» للمبرد (٣/ ١٦٠)، ولعبد الله بن رواحة في «شرح أبيات سيبويه» =

والثاني: ما قال الكسائي: تقديره: وسخرنا الطير.

والثالث: ما قال الفراء: وآتيناه الطير[1]، وحقيقتُه: أن المنادى منصوبٌ لأنه مفعولٌ بالنداء، والمفردُ المعرفةُ مضمومٌ بناءً لا إعراباً ولذلك لا ينوَّن، فأما المنادى المضافُ والمفردُ النكرةُ فمنصوبان لِمَا قلنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي: جعلناه ليِّناً في يده.

قال قتادة: كان الحديد في يده مثلَ الشمع يصرِّفه كيف يشاء من غير نارٍ ولا مطرقةٍ، وكان يتَّخذ منه الدروعَ، وهو أولُ مَن عمِلها وكانت قبله صفائحَ[2].

* * *

(١١) ـ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: أمرناه أن اعمل سابغات؛ أي: دروعاً تامةً تعمُّ الإنسان ما دون رأسه بالتغطية حتى تقرب من الأرض.

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: أي: في النَّظم والوصل والنَّسج؛ أي: اجعل المسامير على قَدْر الحَلَق لا تغلِّظها فتَخرق ولا تدقِّقها فتَقْلَق[3].

= للسيرافي (٢/ ٤٢)، و«أساس البلاغة» (مادة: عمل).

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٥). ونص كلامه: (الطَّيْرَ) منصوبة على جهتين: إحداهما: أن تنصبها بالفعل بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ وسخَّرنا له الطير، فيكون مثل قولك: أطعمته طعامًا وماءً، تريدُ: وسقيته ماءً. والوجهُ الآخر بالنداء، لأنك إذَا قلت: يا عَمْرو والصَلْت أقبِلا، نصبتَ الصلت لأنه إنما يدعى بـ: يا أيّها، فإذا فقدتَها كان كالمعدولِ عن جهته فنُصب.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٨٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٣).

(٣) في (ف): «فتخرق ولا تدقها فتغلق»، وفي (ر): «فتحرق ولا تدققها فتغلق». والمثبت من (أ)، ومعناه: اجعلها على مقدار معين دقة وغيرها مناسبة للثقب الذي هيىء لها في الحلقة، فإنها إن =

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾: أي: أنت وأهلك عملاً يوافق أمر الله ويكون طاعةً له، وهو في معنى ما ذكر بعده: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾.

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: أراه وأعلمه وأَقدِر على المجازاة به، وهذا ترغيب وترهيب.

وقال الإمام القشيري: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ هو ما ذُكر بعده من مساعدةِ الجبال والطير إياه تنفيساً له على حزنه وبكائه.

وقيل: هو توفيق الرجوع له إلى الله تعالى بالاعتذار.

وقيل: هو شهود موضع ضرورته وأنه لا يُصلح أمرَه غيرُه.

وقيل: هو طِيبُ صوته عند قراءته الزبور.

وقيل: هو حلاوة صوته في المناجاة.

وقيل: هو حسن خلقه مع الذين اتَّبعوه.

وقيل هو توفيقه للحكم بين[1] أمته بالعدل.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾: قرأ عاصم في رواية أبي بكرٍ[2] بالرفع

= كانت دقيقة اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها، وإن كانت غليظة خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه فلا تمسك أيضاً. انظر: «روح المعاني» (٢٢/ ٣٦).

(١) في (ر) و(ف): «بين الناس من».

(٢) في (ر): «قرأ عاصم غير حفص».

على الابتداء، والباقون بالنصب على تقدير: وسَخَّرْنا له الرِّيحَ[١].

وقيل: هو على ظاهر قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ... وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ والتسخير تذليل[٢] وتليين، وذلك قوله: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وكذلك قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أي: كانت تغدو به مسيرة شهر وتَروح به مسيرة شهر آخر.

قال الحسن: كان يغدو فيَقيل بإصطَخْر ويروح فيَبيت بكابُلَ[٣].

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾: أي: أذَبْنا له عينَ النحاس فأجريناها له حتى سالتْ بإسالتنا كما ألنَّا لداود الحديد دلالةً على نبوَّته.

وقال ابن عباس وقتادة وأهل اللغة: ﴿الْقِطْرِ﴾ النحاس[٤].

وقال قطرب: الصُّفر.

وقال مجاهد: سالت من صنعاء ثلاث ليالٍ بأيامها[٥]، وكذلك قال عكرمة[٦].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٠).

(٢) في (أ): «والتسخير بدليل» وفي (ر): «والتخير تذليل».

(٣) في (ر): «ببابل»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر. انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢٤٠٠)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٢٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٧٣)، و«البسيط» (١٨/ ٣٣٠)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٣٨٩). ورواه الإمام أحمد في «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٧) بلفظ: (فيقيل بقلعة خراسان).

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وعن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٠١).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٣٣١).

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٣٧)، وبنحوه رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨).

وقيل: كان النحاس يجري له في الشهر ثلاثة أيام، وكلُّ ما هو في أيدي الناس فإنما هو مما كان يجري في أيامه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: بحضرته وبمرأى عينه باستعماله.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: أي: بأمر الله.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قال السدي: كان مع سليمان ملَك بيده سوطٌ من نارٍ، فمَن استعصى عليه من الجنِّ ضربه بذلك السوطِ من حيث لا يراه الجن[1].

وقيل: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة؛ لأنهم مكلَّفون كبني آدم.

* * *

(١٣) ـ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: قال ابن كيسان: أي: المجالسِ الشريفةِ والمنازل الرفيعة.

وقال الأخفش: المحاريب: صدور المجالس.

وقال أبو عبيدة: المحاريب: أشرف موضع في البناء[2].

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٧٢)، وفيه: (من حيث لا يراه الجني).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٤)، ولفظه: ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾ واحدها محراب، وهو مقدم كل مسجد ومصلًّى وبيتٍ، قال وضّاح اليمن:

ربّة محراب إذا جئتها ... لم ألقها أو أرتقي سلّما

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يصنعون تماثيل الأنبياء والصالحين ليُقتدَى بهم(١).

وقال أبو العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً، وإنما حرم على هذه الأمة(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: أي: صِحافٍ كبيرةٍ كالحياضِ، والواحدة: جابيَة، ومعناه: جامعةٌ للماء، وحذفت الياء من (الجوابي) تخفيفاً.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، لكن ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم دون عزو، منهم الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٥٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٩)، وتاج القراء الكرماني في «تفسيره» (٢/ ٩٢٨)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٩١)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٧٢).
وهو قول مردود لا دليل عليه من الشرع، بل هو مخالف لشرعنا، ومع هذا فلا خبر فيه يعتمد عليه، ثم كيف يرضى شرع نبي من أنبياء الله بصنع تماثيل للأنبياء والصالحين لأجل الاقتداء، مع أن هذا هو نفسه سبب ضلال كثير من الناس والأمم كما سيأتي في تفسير سورة نوح، وقد رام بعض المفسرين تبرير ذلك فلم يأت بشيء، قال الزمخشري: (فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير؟ قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع، لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب). وكأنه غفل عما جاء في أصنام قوم نوح من أن أصنامهم هي في الأصل لرجال صالحين، صنعوها لهم بعد موتهم بوسوسة الشيطان ليذكروهم بها، فلما طال العهد بهم عبدوها من دون الله، وهو ما رواه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثانُ التي كانت في قومِ نوحٍ في العرب بعدُ، أما وَدٌّ كانت لكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُوَاعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ، ثُم لبني غُطَيْفٍ بالجَوف، عند سبإٍ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرَ لآلِ ذي الكَلاعِ، أسماءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عُبِدَت.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٧٢).

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: أي: ثابتات غيرِ زائلاتٍ عن أمكنتها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان يقعد على كلِّ جفنةٍ ألفُ رجل[١].

وقيل: كان يسعُ في كلِّ قِدْرٍ[٢] ألفُ شاة ونحوها، وكانت تُتَّخذ من الجبال لا تحرَّك عن موضعها.

قال وهب رحمه الله: كانت أعمال الجن هذه بأرض اليمن.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾: أي: وقلنا لهم: اعْمَلُوا لله على الخلوص شكرَ النعمة عليكم.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مَن يشكر على الأحوال كلها.

وقال السدي: أي: قليل مَن يشكر على الشكر.

وقال بسام بن عبد الله[٣]: قليل مَن يرى عجزَه عن الشكر[٤].

وقيل: وقليل مَن يشكر لي بلسانه فيحمدني، وبقلبه فيرى نعمة الله عليه، وببدنه فيُتعبه في طاعة ربه.

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، لكن ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم دون عزو، منهم مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٥٢٧)، وأبو الليث في «تفسيره» (٣/ ٧٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٧٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٩١).

(٢) في (أ): «قدرة».

(٣) وهو بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة،وغيرهم، وعنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم، من رجال «التهذيب».

(٤) ذكر هذه الأقوال الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٧٣) لكن الأخير فيه دون عزو.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الشكور مَن زاد شكرُه على شكر أمثاله، فالشاكر مَن يشكر على الرخاء والشكور مَن يشكر على البلاء، والشاكر مَن يشكر على العطاء والشكور مَن يشكر على المنع.

و[يقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾]: قليلٌ من عبادي من يأخذ النعمة مني فلا يحملُها على الأسباب فيشكرَ للوسائط ولا يشكرَ لي، والأكثرون يأخذون النعمة من الله ثم يتقلدون المنة(١) من غير الله، فيشكرون لغير الله تعالى(٢).

* * *

(١٤) ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾: أي: ما دلَّ الجن، وقيل: ما دل آلَ داود. وقد سبق ذكر الكلِّ.

ودابة الأرض: هي الأَرَضة التي تكون في الخشب فتأكلُه.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾: أي: عصاه، من قولك: نسأتُ البعير وغيرَه: إذا زجَرْتَه ليزداد في سيره.

ويقال: نسأ؛ أي: ساق.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾: أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾؛ أي: علمت، وقيل: أي: ظهر حال الجن للإنس.

---

(١) في (أ): «النعمة».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٧٩)، وما بين معكوفتين منه.

﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ﴾: أي: الجن ﴿يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾: ما غاب عن حواسِّهم ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾: في استسخار سليمان في هذه الأعمال.

قال مقاتل رحمه الله: كان داود عليه السلام أسَّس بناءَ مسجد بيت المقدس موضعَ فسطاط موسى، [فمات قبل أن يُبنى، فبناه سليمان بالصخر والقار]، وكانت بقيت لهم سنَةٌ حتى يَفرغوا من بنائه، وخاف سليمانُ الموت فقال لأهله: لا تخبروا الشياطين والجنَّ بموتي حتى يفرغوا من بناء المسجد، ودعا ربه فقال: اللهم أَعْمِ على الشياطين والجن موتي حتى تعلم الناسُ أن الجن والشياطين لا يعلمون الغيب[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الشياطين والجنُّ تدَّعي علمَ الغيب وما يكون في غد، فابتُلوا بموت سليمان[٢].

وقال الواقدي: كان ملَك الموت صديقاً لسليمان، فسأله سليمان عن آيةِ موته، فقال: إن آية موتك أن تخرج من الأرض شجرةٌ يقال لها: الخرُّوبة، فإذا وجدتَها فقد حضر أجلُك[٣]، فبينما سليمان في منزله ذات يوم طلعت شجرةٌ، فقال لها سليمان: ما اسمك؟ قالت: الخرُّوبة، فولج سليمان مسجدَه واتَّكأ على عصاه وقبضه الله تعالى، فكان كذلك سنةً جرداءَ[٤].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٨)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣) عن قتادة.

(٣) في (أ): «موتك».

(٤) روي نحوه عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً؛ فقد رواه البزار (٢٣٥٥ ـ كشف الأستار)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٠)، والضياء في «المختارة» (٣٠٨)، عن ابن عباس مرفوعاً. قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم (هو ابن طهمان)، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً.

وروى الموقوف على ابن عباسٍ الحسينُ المروزي في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (١٠٧٢)، =

وقال مجاهد: لما رأى الشجرة تحنَّط وتكفَّن وصعد كرسيَّه واتكأ على عصاه[١].

وقال الضحاك: مكث كذلك سنةً والشياطين والجنُّ يَدْأَبون في العمل، ويدخل كلَّ يوم رئيسهم عليه فيخرج ويقول لأصحابه: جِدُّوا فإنه قائم يصلي، فيجتهدون في العمل، إلى أن فرغوا، فلما فرغوا أتت الأَرَضة فأكلت من عصاه ما وَلِي الأرض فانكسرت العصا فخر سليمان، فحينئذ أيقنوا بموته.

وقيل: كان قائماً في محرابه، فجاء ملك الموت ليقبض روحه فقال: أمهلني حتى أوصيَ إلى[٢] أهلي، فقال: لا زمان، فقال: اتركني حتى أجلسَ، قال كذلك، قال: فكيف تقبضني؟ قال: اتَّكِئْ على مِنسأتك، فاتكأ عليها فقبضه، فبقي كذلك حولاً، ثم أكلت الأرضة أسفل عصاه فانكسرت، فخر سليمان فظهر ذلك لهم.

***

(١٥) ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾: قرأ أبو عمرو وابن كثير في رواية البزِّي[٣] بالفتح

= ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٠٧)، والبزار (٢٣٥٦ ـ كشف الأستار)، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: الأقرب أن يكون موقوفاً.

(١) ذكره تاج القراء الكرماني في «تفسيره» (٢/ ٩٢٩).

(٢) «إلى» ليست في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «قرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية البزِّي»، وقوله: «في رواية البزي» ليس في (أ). والصواب المثبت.

غيرَ منوَّن[١] لأنها اسم قبيلة أو أرض، والباقون بالخفض منوَّناً[٢] لأنه اسم أبٍ[٣].

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: قرأ الكسائي وخلف بكسر الكاف موحَّداً، وقرأ حمزة وحفصٌ بفتحها موحَّداً، وقرأ الباقون: ﴿مساكنهم﴾ على الجمع[٤].

فقوله: ﴿مسكنهم﴾؛ أي: أرضهم وبلدهم، و﴿مساكنهم﴾؛ أي: منازلهم.

ذكر قصةَ سبأ لمشركي العرب ـ وكانت معروفةً لهم ـ يحذِّرهم أن ينزل بهم بشركهم وكفرهم ما نزل بأولئك على كثرتهم وقوتهم من جهةِ أضعفِ خلق الله.

ووجه الانتظام: أن الأولى في مدح الشكور والثانيةَ في بيان جزاء الكفور.

يقول: لقد كان لأولادِ سبأٍ في ديارهم، وهو سبأُ بن يَشجُبَ بن يَعْرُبَ بن قحطان، وأولاد سبأٍ سبعةٌ: حِمْيَرٌ وكَهْلانُ وعمرٌو والأشعرُ وأنمارٌ ومرٌّ وعاملةُ، هم بنو سبأ، وكثُر نسلُهم حتى إن خزاعةَ والأوسَ والخزرجَ وغسانَ من جملةِ مَن تمزَّقوا في البلاد لمَّا جرى على بلاد سبأ ما جرى[٥].

﴿ءَايَةٌ﴾: أي: علامةٌ تدل على أن لهم إلهاً خلقهم وأنعم عليهم؛ لأن ما أعطاهم من أنواع الشجر وألوان الثمر خارجٌ عن وسع البشر.

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: هي ترجمةُ قوله ﴿ءَايَةٌ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت سبأُ على ثلاثِ فراسخَ من صنعاء،

---

(١) في (ف) و(أ): «مجرى».

(٢) في (ف) و(أ): «مجرى».

(٣) وقرأ قنبل: ﴿لِسَبأْ﴾ بإسكانها على نية الوقف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٣٥٠).

(٥) في (أ): «بدى».

وكانت أخصبَ البلاد وأطيبَها وأكثرَها ثمراً، حتى كانت المرأة تضع على رأسها مِكْتَلاً فتطوف فيما [١] بين الأشجار وقد امتلأ المكتلُ من ألوان الثمار من غير أن تمسَّ بيدها شيئاً[٢].

وكانت مياههم تخرج من جبلٍ، فبنوا فيه سدًّا بالصخر والقار، وجعلوا له ثلاثةَ أبواب: أعلى وأوسطُ وأسفلُ، وكانوا يسرِّحون المياه إلى أشجارهم وكرومهم منها، وكان عن يمين الوادي ويساره بساتينُ وكرومٌ وأنهار، وكان بين اليمين واليسار مسنَّاةٌ، وهي موضعٌ رفيعٌ فيما بين النهرين، فأرسل الله إليهم ثلاثة عشر من الرسل عليهم السلام، فكذَّبوهم وكفروا بهم وبطروا النعمة، وقالوا للرسل: ما لله علينا من نعمة.

وقال الضحاك: كان ذلك في الفترة بين عيسى ونبيِّنا صلوات الله عليهما[٣]، وكانت الفترة ستَّ مئة سنة، ويقال: خمسَ مئة وخمسين سنة[٤].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن سبأ فقال: «كان سبأٌ رجلاً وُلد له عشرةٌ من الأولاد، تيامَنَ منهم أربعة وتشاءم ستة، فأما الذين تيامنوا

---

(١) في (ف): «ما».

(٢) لم أقف عليه عن ابن عباس، وقصة المرأة التي يمتلئ مكتلها من الفواكه رواها عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٤٧) عن قتادة. ورواها ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٨) عن السدي.

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٧٦).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥) عن الضحاك قال: كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما أربع مئة سنة وبضعًا وثلاثين سنة. وعن قتادة: ست مئة، وفي رواية: خمس مئة وستون، وعن معمر: خمس مئة وأربعون.

فقُضاعةُ والأَزْدُ وخزاعةُ وعاملة، وأما الذين تشاءموا فكلبٌ ولخمٌ وجُذامٌ وغسانُ وطَسْمٌ ووَبَار»(١).

وعن ابن عباس: «والأوس والخزرج» بدل: «طَسْم ووَبَار»(٢).

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: بساتينُ من جانبٍ وبساتين(٣) من جانب.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قيل: عن يمين السائر بينهما وعن شماله.

وقيل: عن يمين الوادي وعن يساره.

وقيل: عن يمين مساكنهم وعن يسارها.

وقيل: كانت بين جبلين.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾: أي: قلنا لهم ذلك، وهو أمرُ إباحةٍ ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: وهو أمر إيجاب.

وقيل: كان هذا على ألسنة رسلهم.

وقيل: هو إخبارٌ عن إباحةٍ وإلزام(٤) من غير كلام؛ كما في قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنْ

---

(١) لم أقف عليه عن أنس رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٣٢٢٢) وحسنه من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٨٥) وصححه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفي الحديثين: (تيامن ستة وتشاءم أربعة)، وفيهما خلاف رواية المؤلف في بعض الأسماء أيضا، حيث جاء فيهما أن الذين تيامنوا: مَذْحِجٌ وكِنْدَةُ والأَزْدُ والأَشعَرِيُّونَ وأَنْمَارٌ وحِمْيَرٌ، والذين تشاءموا: لَخْمٌ وجُذَامٌ وعَامِلَةُ وغَسَّانُ.

(٢) قوله: «وعن ابن عباس والأوس والخزرج بدل طسم ووبار» ليس في (ف). ولم أجده هكذا عن ابن عباس، وانظر التعليق السابق.

(٣) في (ر): «بستانين... وبستانين».

(٤) في (ر) و(ف): «وإكرام».

بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ الآية [فصلت: ١١].

﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾: أي: لكم بلدةٌ طيِّبةُ الماء والهواء والتربة[١] مستلَذَّةٌ مُخْرِجةٌ للنبات والثمرات، وربٌّ غفورٌ لعباده إذا تابوا وأنابوا إليه وشكروا له، فآمِنوا به[٢] واشكروا له وأطيعوه يغفر لكم.

* * *

(١٦) - ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾: أي: فتولَّوا عن الواجب عليهم من الشكر وكفروا.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾: السيل: الماءُ الجاري الكثير الذي لا يضبط دفعُه لعِظَمه.

و﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ قيل: هو السِّكْر[٣].

وقيل: هو المطر الشديد.

وقيل: هو اسم وادٍ.

وقيل: هو الجُرَذُ الذي هو نقب السِّكْر.

وقيل: كانت أسنانها من الحديد.

---

(١) في (أ) و(ف): «والبرية».

(٢) في (أ): «واشكروا له بلدة فآمنوا به»، بدل: «وشكروا له فآمنوا به»، وليست في (ف).

(٣) السكر بفتح السين وكسرها وسكون الكاف: السد على الماء. انظر: «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي» (٧/ ١٩٧).

قيل: أرسل الله عليه سيلاً فقلعه وهدمه وخرَّبه.

وقيل: كان الماء يُحبس هناك مما يأتي[1] من أمطار السنة، وكان واديهم ينصبُّ إليه الماء من سائر الأودية، وكانوا يحبسون الماء في السد ويُجْرُون إليها بقَدْر الحاجة، فبعث الله جُرذاً فخرقت السدَّ، فسال الماء المجتمِع فلم يُمْكِن ردُّه، وكبس الجنات حمأةً وتراباً وطيناً حتى علت الأشجار.

وقيل غيرُ ذلك.

وقيل: سال الماء متباعداً عنهم وغاض[2] في الأرض، فجفت جنانُهم لفوات الماء.

وقوله ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾: تثنيةُ (ذات) لأنه نعت ﴿جَنَّتَيْنِ﴾، والأكُل: الثمر وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب[3]: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ مضافاً، وقرأ الباقون منوناً[4]، و﴿خَمْطٍ﴾ بدلاً عنه وترجمةً له.

وقيل: الخمط: كلُّ نبتٍ مرٍّ لا يمكن أكلُه؛ قاله الزجاج[5].

وقال أبو عبيدةَ: هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ[6].

---

(١) في (أ): «يلي».

(٢) في (أ): «وغاص».

(٣) «وسهل ويعقوب» ليس من (أ) و(ف).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، عن أبي عمرو، و«النشر» (٢/ ٣٥٠) عنه وعن يعقوب.

(٥) انظر: «معاني القرآن» (٤/ ٢٤٩).

(٦) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٤٧).

وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: هو الأراك[١].

وقيل: البرير[٢].

وقال الحسن: الأثل: الخشب[٣]. وقيل: السَّمُر[٤]. وقيل: الطَّرْفاء[٥].

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: قيل: السِّدر: شجر النَّبق[٦].

وقال محمد ابن إسحاق: صارت عامةُ أشجارهم الدَّوم وهو المُقْلُ[٧].

ثم قوله: ﴿مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هو نعتُ السِّدر، والسِّدر كان في الجِنان الأُوَل ويُرْغَب فيه، وبقي شيء منه في الجنان المبدَلة يتذاكرون به ما كان ويتحسَّرون عليه.

وقيل: هو نعت الأُكُل؛ أي: بدِّلت لهم جنانٌ لا خُضرةَ لها ولا نَضرة إلا شيءٌ

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٢) البرير: ثمر الأراك أو أول ما يظهر منه، أو إذا اسود وبلغ فأكله الناس والدواب، وفيه حرارة على اللسان. انظر: «معجم متن اللغة» (مادة: برر).

(٣) ذكره ابن فورك في «تفسيره» (٢/ ١٣٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٨٤).

(٤) السمر من شجرة الطلح: شجر صغير الورق قصير الشوك، له برمة صفراء وخشبه جيد للسقوف. انظر: «معجم متن اللغة» (مادة: سمر).

(٥) الطرفاء بالمد: شجر لا ثمر له وهو نوع من الأثل بالمثلثة. انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ١٩٨).

(٦) النبق بفتح النون وكسر الباء: حَمْل السدر وثمرُه، وتسكن باؤه تخفيفاً، يعني: أنه لطيب ثمره جعله الله قليلا فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لا نقمة وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة ليكون حسرة عليهم، ولذا قيل: المراد بالسدر نوع منه لا ثمر له يسمى الضال وهو أنسب. انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ١٩٨).

(٧) الدَّوْمُ: ضِخامُ الشَّجرِ ما كان، وقيل: هو شجرٌ يُشبِهُ النَّخل، إلاَّ أنه يُثْمِرُ المُقْلَ، وله لِيفٌ وخُوْصٌ. انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: دوم).

قليلٌ لا يُعْبأ به ولا يُكتفى به من الخمط والأثل والسِّدر جميعاً، فكان نعتاً للأُكُل وهو من هذه الأشياء الثلاثة.

* * *

(١٧) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾: أي: ما فعلنا بهم من إهلاك جناتهم ومساكنهم جزاءُ كفرهم في الدنيا.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(١): قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصم في رواية حفص: ﴿نُجَٰزِىٓ﴾ بالنون ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ نصباً إخباراً من الله تعالى عن نفسه بخطابِ الملوك جمعاً، وهو متعدٍّ ناصبٌ للمفعول، وقرأ الباقون: ﴿يُجازَى﴾ بالياء والضم على ما لم يسمَّ فاعله و﴿الكفورُ﴾ رفعاً لأنه اسمٌ لِمَا لم يسمَّ فاعله(٢).

وهو استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا تكون إزالة النعم إلا جزاءَ الكفور، وهذا في الدنيا والآخرة على اعتبارهما، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الآية [القلم: ٣٣].

* * *

(١٨) ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾:

---

(١) في (ف): «وهل يجازى..».

(٢) » انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٨١).

قال مجاهد وقتادة: القرى التي باركنا فيها الشام[١].

وقال الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: بيت المقدس[٢].

وقال قتادة: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾؛ أي: متواصلةً[٣]، وهي أن تَظهر الثانية من الأولى لقربها منها.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾: قيل: أي: للمَقيل والمبيت، بين كلِّ قريتين ثلاثةُ فراسخَ، وقيل: أربعة فراسخ، وقيل: سوَّينا مسيرةَ ما بين كلِّ قريتين فكانت لا تتفاوت.

﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾: أي: قال لهم رسولهم ذلك، أو معناه: كانوا يسيرون كذلك؛ كما مر في قوله: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ [سبأ: ١٥].

﴿آمِنِينَ﴾: أي: من الجوع والعطش وتعرُّض الناس.

* * *

(١٩) - ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[٤]: قرأ عاصم وحمزة والكسائي ونافعٌ: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب ﴿بَاعِدْ﴾ بالألف مكسورةَ العين مجزومةَ الدال على الدعاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر: ﴿بَعِّدْ﴾ بغير ألفٍ مجزوماً أيضاً[٥]، وهما لغتان كقوله: ﴿لا تُصَاعِرْ﴾ و﴿لا تُصَعِّرْ﴾.

---

(١) رواه عن مجاهد عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤١٠)، وعنهما الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٦١).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤١٥) و(٢٤١٧)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٦٢).

(٤) في (ف): «بعِّد» بدل: «باعد».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١). وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: ﴿بَاعِدْ﴾ كعاصم ومن معه.

أي: بَطِروا وأساؤوا السيرةَ، وجهلوا قَدْر النعمة والعافية(١)، وسألوا الله تعالى أن يبعِّد أسفارهم.

روي أنهم قالوا: ليت أن أسفارنا تباعَدَت، فكنَّا نركب البحار ونحملُ معنا الأزواد ونقطع المفاوِز متنزِّهين، ولزيادة الأموال بالتجارة متكسِّبين، وهذا كجهل قوم موسى في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وسؤالِهم ما سألوا.

وإلى هاهنا على قول بعضهم بيانُ أولِ أحوالهم: أنه كان لهم جنتان، وكانت منازلهم إلى الشام في الأسفار متقاربةً متيسِّرةً، فملُّو ذلك وسألوا تباعُدَ الأسفار، فبدَّلهم الله بجنتَيهم جنَّتين، وأيبس بلادهم وغوَّر مياههم وأهلك أموالَهم، وفرَّقهم في البلاد، وبعَّد أسفارهم، وذلك قوله:

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: بخَسوها حظوظَها من النعمة والعافية والدَّعَة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّث الناس بعدهم بما جرى عليهم فيتمثَّلون به، فيقولون: تفرَّقوا أيدي سَبَا، و: أيادي سَبَا(٢)، قال الشاعر:

مـــن صـــادرٍ ووارِدٍ أيـــدي سَـــبَا(٣)

---

(١) في (ر): «وجهلوا قدر العافية»، وفي (ف): «وجهلوا قدر العاقبة».

(٢) أي: تفرقوا مذاهب سبأ وطرقها؛ أي: تفرقاً لا اجتماع بعده. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤١٠)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٢٧٥).

(٣) الرجز لدكين الراجز كما في «الفاخر» للمفضل بن سلمة (ص: ٢٢)، وللعجاج كما في «المقصور والممدود» للقالي (ص: ٢٧٤)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٥٨)، و«الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥١)، و«البسيط» للواحدي (١٨/ ٣٥٢)، و«المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٩٠). والرواية في بعض المصادر: (من صادر أو وارد...)، وفي الذي قبله اختلاف بين المصادر، وهو عند الفراء وبعضهم:

عينًـا تـرى النّـاس إليهـا نَيْسَـبَا

وقال كثيِّر عزَّةَ:

أيادي سبا يا عَزُّ ما كنتُ بعدكم ... فلم يَحْلُ للعينين بعدَكِ منظرُ[١]

وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أي: فرَّقناهم في البلاد كلَّ مفرَّقٍ.

قال الشعبي: أمَّا غسانُ فلحقوا بالشام، وأمَّا الأنمار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعةُ فلحقوا بتِهامةَ، وأما الأَزْد فلحقوا بعُمَان[٢].

وقيل: كان أولُ حالهم ما ذكر في الآية الأولى، وزال ذلك بسيلِ العَرِم وبدَّل الله تعالى جنتيهم بما بدَّل، فقالوا لنبيهم أو لأنبيائهم: سلُوا الله تعالى حتى يُهيئَ لنا أسبابَنا فنشكرَ له ولا نكفرَه، فجعل الله بينهم وبين الشام قرًى ظاهرةً سهُل عليهم الامتيار، وقرُبت عليهم الأسفار، فلم يشكروا وسألوا تبعيدَ الأسفار[٣].

وقرأ سهل ويعقوب[٤]: ﴿رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ برفع قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء و﴿بَاعَدَ﴾ على الفعل الماضي[٥]؛ أي: شكَوا الله، وسمَّوا هذه أسفاراً بعيدة، وعادوا إلى الكفران، فعوقبوا بالتمزيق[٦] في البلدان، وجُعلوا أحاديث.

---

(١) انظر: «المقصور والممدود» للقالي (ص: ٢٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥١)، و«البسيط» للواحدي (١٨/ ٣٥٢)، و«المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٩٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٦٧).

(٣) ولا حاجة لمثل هذا التأويل المخالف لظاهر الآية، مع عدم الداعي للصرف عن الظاهر، بل الذي في الآية من اجتماع النعم كلها أولاً ثم زوالها بعد كفرهم جملةً أعظم في الاعتبار وأوقع في النفوس، فسبحان الله كيف يذهب مثل هذا على البعض حتى يتحولوا إلى أمثال هذه التأويلات البعيدة عن روح النص القرآني، وكيف يُذهبون دون قصد بمثل هذه الأقوال جماله وروعته.

(٤) «سهل ويعقوب» ليس في (أ) و(ف).

(٥) انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٠) عن يعقوب.

(٦) في (أ): «بالتفريق».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي: لكلِّ مؤمنٍ مستكملٍ خصالِ الإيمان، فإن الشكر والصبر حاصِلُها[١]؛ أي: هو المنتفِع بهذه الآيات بالتأمُّل فيها وإن كانت الآيات للكلِّ على العموم.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: قرأ عاصم وحمزةُ والكسائي وخلف: ﴿صَدَّقَ﴾ مشدَّداً[٢]؛ أي: حقَّق على هؤلاء العصاة الذين أنكروا البعث وأعرضوا عن شكر الله تعالى وكفروا به إبليسُ ما ظنَّه فيهم حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وأشباه ذلك.

ولم يقل ذلك عن ثقةٍ بأنه سيكون كذلك، فإنه لم يُخبر به، ولا كان عالماً بالغيب، لكن استدلالاً بإستزلاله آدمَ وحواء، وقال: تنفُذُ في أولادهما حيلتي كما نفذت فيهما، وحقَّق ذلك الظنَّ بجهده في الإغواء[٣] والتزيين.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: إن جُعل ﴿مِّنَ﴾ للتميز فمعناه: فاتَّبعوه في الكفر إلا المؤمنين، وإنْ جعل من للتبعيض فمعناه: فاتبعوه في المعاصي إلا فريقاً من جملة المؤمنين لم يتابعوه في معصيته، وهم المخلصون المطيعون.

وقرأ الباقون: ﴿صَدَقَ﴾ بالتخفيف؛ أي: صدَق إبليس في ظنه وخرج كما ظن.

---

(١) في (ر): «حاصله»، وفي (ف): «حاصلهما».

(٢) وقرأ باقي العشرة بتخفيف الدال كما سيأتي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١)، و«النشر» (٢/ ٣٥٠).

(٣) في (ر): «الإغراء».

(٢١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: أي: ولايةِ جبرٍ على فعل.

وقيل: أي: حجةٍ على ما يدعوهم إليه.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكنْ؛ أي: ولكنَّا ابتلينا المكلَّفين بوساوسه ليُعلم المؤمن المخلص من الشاكِّ في البعث، وهو استثناء منقطع.

وقيل: هو على حقيقة الاستثناء، وهذا سلطان التخلية؛ أي: وما كان له عليهم من سلطان بالتخلية منَّا إلا لنعلم المؤمنَ من الكافر؛ أي: إلا لتصِحَّ(١) المحنة؛ لأنها تصحُّ إذا كان للممتحَن داعٍ يدعوه إلى الباطل وجاذبٌ يجذبه إلى الحق، فيجاهدُ بعقله هواه، فيظهرُ حينئذ طاعةُ المطيع ومعصيةُ العاصي.

ثم قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: إلا لنُظهِرَ المعلوم بوجوده، أو لنعلمه موجوداً حالَ وجوده كما علِمناه قبل وجوده أنه يوجد، أو لنعامل معاملةَ مَن يختبِر للظهور، أو ليعلم أولياؤنا ذلك، وقد كشفنا ذلك كله في نظائره فيما مر.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: عالمٌ به يحفظه على صاحبه ليجازيَه جزاء عمله(٢).

وقيل: أي: رقيب.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ر): «لتفضح».

(٢) في (ر): «مثله».

(٢٢) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: قل يا محمد للمشركين: ادعوا هؤلاء الذين اتَّخذتُموهم من دون الله أولياءَ ليُظهروا شيئاً من آثار القدرة كما أظهرتُ، وهذا توبيخٌ لهم وتقريع.

و﴿زَعَمْتُم﴾ بمعنى: ظَنَنْتُم هاهنا؛ كما قال الشاعر:

زعَمَتْني شيخاً ولستُ بشيخٍ إنما الشيخُ مَن يَدِبُّ دَبيبا[1]

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: الأصنام ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: أي: نصيبٍ، وقيل: أي: شركةٍ مع الله تعالى.

﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم﴾: وما لله من الأصنام ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: مُعينٍ على خلقِ شيء.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾: أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهو لا يأذنُ في الشفاعة إلا للمؤمنين، ويكون ﴿لَهُۥ﴾ على هذا التأويل للمشفوع له.

ويجوز أن يكون للشافع؛ أي: لا يَشفع إلا مَن أذن الله له به، والله لا يأذن بالشفاعة للأصنام.

---

(١) البيت دون نسبة في «العين» (١/ ٣٦٦)، و«التذييل والتكميل» لأبي حيان (٦/ ٢٤)، و«مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٧٧٥).

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وخلف والأعمش والبرجمي[(١)]: ﴿أُذِنَ له﴾ بالضم على ما لم يسمَّ فاعله، والباقون على الفعل الظاهر مضافاً إلى الله تعالى[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: أُزيل الفزع عنها، وقد فَزِعَ؛ أي: خاف، وأفزعه غيرُه؛ أي: أخافه، وفزَّعه؛ أي: أزال خوفه؛ كقولك: قَذِيَتْ عينه؛ أي: وقع فيها القَذَى، وأقذاها غيرُه؛ أي: أوقَعَ فيها القَذَى، وقذَّاها: أزال عنها القذى، وقريب منه: مَرِض بنفسه، وأَمْرَضه غيرُه: جعله مريضاً، ومرَّضه: إذا قام عليه وداواه وعالجه.

وهذا وصف الملائكة، وتقديره: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ أي: إلا للَّذين أذن الله لهم من الأنبياء والملائكة ـ و(مَن) للجنس فصلح للجمع ـ ففزِعوا حين وردَ عليهم كلام الله تعالى بالإذن لهم بالشفاعة، وهم الملائكة، وهذا الفزع من هيبة ما يَقترن به من الأمر الهائل، أو لِمَا يخافون من وقوع التقصير منهم في شفاعة الذين يَشفَعون لهم بأنْ كان على الإجمال دون التعيين فتَشتبِهُ أحوال المشفوع لهم.

حتى إذا كُشف عنها الفزع ﴿قَالُوا۟﴾ للملائكة الذين فوقهم، وهم المبلِّغون ذلك إليهم:

﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: أي: أمر به، وهو كلام الخاضع المتذلِّل.

﴿قَالُوا۟﴾: أي: أولئك الملائكة: ﴿ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قال اللهُ الحقَّ؛ أي: أَمَر أمراً حقًّا.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: أي: المتقدِّس بالجلال، المتفرِّد بالكمال، فلا يأمر إلا بالحق.

---

(١) «وخلف والأعمش والبرجمي» من (ر).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٨١)، وقراءة خلف من العشرة في «النشر» (٢/ ٣٥٠).

يعني: هم مع منزلتهم هذه يفزعون ويُشفقون من[١] شفاعة مَن لهم يشفعون، وهم بأمر الله يعملون، فكيف يشفعون للكفار؟

وقيل: هذه الشفاعة قولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

قيل[٢]: هو في الآخرة.

وقيل: هو في نزول الوحي المطلق، وتقديره: ولا تنفع الشفاعة في الآخرة عند الله إلا لمن أذن له في الشفاعة من الملائكة الذين يفزعون لِمَا يَرِدُ عليهم من كلام الله تعالى ووحيه بأقضيته، حتى إذا أزال الله عنهم الفزع ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾؛ أي: الشفاعة لهؤلاء لا للأصنام والشياطين والجن.

وقيل: قولهم ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ هذا الإجمال في وحي لم يؤذن للأكابر بيانُه للأصاغر، فأما إذا كان أمراً يحقُّ إظهاره فسَّروه لهم، والروايات فيه كثيرة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا قضى الأمر من السماء ضَربت الملائكة بأجنحتها كضرب السلسلة على الصَّفوان، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ قال: فيسمعها مسترِقُو السَّمْع وهم كذلك، وربما أدرك الشهابُ الأولَ قبل أن يرمي إلى صاحبه، وربما لم يدركه حتى رمى بها إلى صاحبه، فيرمي بها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى تُلقى على فم ساحر أو كاذب فيكذب معها فيصدق، فيقال: ألم يخبرنا يوم كذا بكذا فوجدناه حقًّا، وهي الكلمة التي سُمعت في السماء»[٣].

---

(١) في (أ): «في»، وفي (ر): «على».

(٢) في (ر) و(ف): «وقيل».

(٣) رواه البخاري (٤٧٠١).

وقال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولولا عبدُ الله ما وجدنا أحداً يخبرنا به قال: إذا تكلم [الله] بالوحي سمع أهل السماوات صلصلةً كصلصلة السلسلة على الصفوان، فيرون أنه من أمر الله تعالى فيفزعون، فإذا سكن ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

وفي رواية عنه: «فيصعقون، ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام فيفزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربنا؟ فيقول: الحقَّ، فينادون: الحق الحق»[2].

وفي حديث شعبة: فيرون أنه الساعة[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسمع الملائكة الوحيَ في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ وهو قريبٌ من ستِّ مئة سنةٍ، فلما بعث الله جبريل إلى النبي ﷺ سمعتِ الملائكة الوحي فسقطوا مغشيًّا عليهم فظنُّوا أن القيامة قد قامت[4].

وقال السدي: سألت الملائكةُ جبريل: إلى مَن بُعث؟ قال: إلى محمد، قالوا: الله أكبر! قد قامت القيامة، لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً من أشراط الساعة، فلما علموا آية[5] الساعة سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الحق.

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥٤٩)، وما بين معكوفتين منه. وهو موقوف، وعلقه البخاري في (كتاب التوحيد) قبل الحديث رقم (٧٤٨١) عن مسروق عن ابن مسعود موقوفاً أيضاً.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح مرفوعاً.

(٣) رواه الدارمي في «الرد علة الجهمية» (٣٠٨) عن ابن مسعود موقوفاً.

وانظر الكلام في رفع هذا الحديث ووقفه في «فتح الباري» (١٣/ ٤٥٦).

(٤) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٣٣١) عن السدي، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٩٨) عن السدي ومقاتل والكلبي.

(٥) في (أ): «أنه».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام قال لرسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «كلُّ ذلك يأتيني الملك أحياناً في صورة الرجل، فيقول لي فأعي ما يقول لي، ويأتيني أحياناً في مثل صلصلة الجرس، فيَفْصِم عني وقد وَعَيْتُ ما قال، وهو أشدُّ عليَّ»[1].

* * *

(٢٤) - ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾: مَن يخلق لكم الأرزاقَ الكائنة في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأمطار وما يَصلح بالشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الماء والنبات، ولا يقدرون أن يضيفوا شيئاً من ذلك إلى آلهتهم، فيسكتون لانقطاع الحجة.

﴿قُلْ﴾ أنت: ﴿ٱللَّهُ﴾ يفعل[2] ذلك ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: فإنا لعلى هدًى بالإيمان بالله تعالى والإخلاصِ له، وأنتم في ضلالٍ مبين بإشراككم به غيرَه.

والجمع بين الكلامين تعريضٌ بتضليلهم وتخلُّصٌ[3] إلى المقصود بكلام هو في غاية الحسن والإنصاف؛ كالرجل يريد تكذيبَ صاحبه فيقول: أحدنا كاذبٌ، فيكون هذا ألطفَ من أنْ يقول: أنت كاذب، وأوامرُ الله تعالى في دعاء الكفار إلى الإسلام مبنيةٌ على الأرفق والأقرب إلى ما يُرجَى به ميلهم إلى الإسلام، ألا تراه

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٢) في (ف): «يقول».

(٣) في (ر): «وتخليص»، وفي (أ) تحتمل اللفظين.

قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ونحو هذا الكلام قول حسان رضي الله عنه:

أتهجوهُ ولستَ له بندٍّ فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ[١]

وقيل: هو من التقسيم الذي هو من أقسام البلاغة، هما مبتدآن لهما خبران، فيتصل كلُّ خبر بمبتدئه، وتقديره: وإنَّا لعلى هدى وإياكم لفي ضلال مُبين، وهو كقوله: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي: الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله، وهو كقول أمرئ القيس:

كأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[٢]

أي: الرَّطب كالعُنَّاب واليابسُ كالحشف البالي.

***

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: أي: إنما أدعوكم لنَفْعِكم ودفعِ الضرِّ عنكم، لا لنفعنا ودفع الضر عن أنفسنا، فإنكم لا تؤاخَذون بإجرامنا ونحن لا نؤاخَذ بإجرامكم.

﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾: أي: في القيامة ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: يقضي فيجزي كلَّ فريق على وَفْقِ عمله إنْ خيراً فخير وإن شرًّا فشر.

﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾: أي: القاضي العدلُ ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأعمال العباد وبوجوه القضاء.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص: ٩).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص: ١٣٩). العناب: ثمر، والحشف: اليابس الفاسد من التمر.

(٢٧) ـ ﴿ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾: أي: قل يا محمد للمشركين: ﴿أَرُونِيَ﴾؛ أي: عرِّفوني ﴿الذين ألحقتُم به﴾؛ أي: بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ أي: في العبادة، هل لها شركٌ في السماوات والأرض؛ أي: شركةٌ[1] مع الله في الخلق فتستحقَّ العبادة.

وقيل: ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ أي: في الخَلْق، فيَستقيمَ وصفُها بكونها شريكاً لله[2] أو معبوداً معه؛ أي: وهذا لا يكون.

فإذا عجزوا عن ذلك فقل أنت: ﴿كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: أي: لا معبودَ إلا الله، وهو الله المعبود المستحِقُّ للعبادة، العزيزُ الذي لا يُرام، والحكيم الذي له تنفيذُ الأحكام، ومنه الإتقان والإحكام، وإراءة الآيات والأعلام.

* * *

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾: ذكَر إنكارهم رسالتَه في أول هذه السورة، وقال هاهنا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾ وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديره: وما أرسلناك إلا مبشِّراً[3] ونذيراً للناس كافةً؛ أي: جميعاً، وكفُّ الثوبَ: جمَع ما تفرَّق من أطرافه.

---

(١) في (أ): «أو شركة»، وفي (ر): «أي لشركة»، وسقطت من (ف).

(٢) في (ف) و(أ): «بكونه شريكاً لله»، وفي (ر): «بكونها شركاء مع الله».

(٣) في (ف): «بشيراً».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وهم المشركون؛ لأنهم أكثر من المؤمنين، ولا يعملون بعلمهم، ولا يتأمَّلون في الآيات ليعلموا.

وقوله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: وهو شاملٌ لِمَا يقع به التبشيرُ والإنذار ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك.

* * *

(٣٠) ـ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي: هذا مؤقَّتٌ عند الله بيوم لا يتقدَّمونه بساعةٍ ولا يتأخرون عنه، وهو يوم القيامة.

وقيل: هو يوم الموت، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]؛ أي: بالموت يأتيكم ما توعدون به قبل قيام الساعة.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: لن نصدِّقَ به؛ أي[1]: بنزول القرآن على محمد ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: التوراةِ والإنجيل، جحَدوا التوراة والإنجيلَ حين احتج عليهم بقول علماء أهل الكتاب وإخبارهم[2] عن ذكر النبيِّ فيهما، فجحدوا الكتب كلَّها أصلاً سفهاً منهم.

---

(١) «به أي» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «وأحبارهم».

وقيل: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: هو قيام الساعة.

ثم بيَّن حالهم ذلك اليومَ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: محبوسون في موضع الحساب والسؤال ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: يتراجعون الكلام بينهم باللوم واللعن والبراءةِ من بعضهم عن بعضٍ.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: يقول الأتْباع للسادة الذين من صفتهم استضعافُ مَن دونَهم وجرُّهم إلى مرادهم:

﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾: أي: لو لم يكن تسلُّطكم علينا وقهرُكم إيانا واستتباعُكم لنا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بمحمد متابِعين له.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾: استفهام بمعنى الإنكار، ومعناه: ما منعناكم عن اتِّباع الهدى بعد إذ جاءكم[1]، وما كان لنا ولايةُ القهر لو آمنتم أن نمنعكم[2] ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ ثابتين على الكفر باختياركم.

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) «بعد إذ جاءكم» ليس في (أ).

(٢) «أن نمنعكم» ليس في (أ) و(ف).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: أي: بل كان سببُ كفرنا مكرَكم بنا في الليل والنهار على الدوام، كنتُم تخادعوننا عن الهدى، وتمكرون بنا أبداً، وأضاف المكر إلى الليل والنهار لوقوعه منهم فيهما، وهو كقول الشاعر:

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غيلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المطيِّ بنائمِ[1]

وقيل: كان الليل والنهار يمكران بطولِ السلامة فيهما.

والأصح الأول، ويدل عليه ما بعده: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾: أي: أشباهاً من الأصنام، فنعبدَها دونه.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: أي: أضمروها في قلوبهم واستشعروها في قلوبهم.

وقيل: أخفوها؛ أي: السادة عن الأتباع.

وقيل: أي: أظهروها بقولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧] ونحوِ ذلك، والكلمة من الأضداد؛ قاله القتبيُّ[2] وقطرب، وأنشد للفرزدق:

فلما رأى الحجَّاجَ جرَّد سيفَه ... أَسَرَّ الحروريُّ الذي كان أَضمَرا[3]

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: لمَّا رأوا العذاب ولمَّا جعلنا؛ أي: ندموا حين رأوا الأغلال جُعلت في أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويحتمل

---

(١) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (٢/ ٩٩٣). قال أبو عبيدة في «شرح النقائض» (٣/ ٨٧٦): أم غيلان يعني ابنته، يقول لابنته: لا تلومينا في السرى في ليلتنا ونهارنا، ما المطي بنائم ليله كلّه في طلب العلا.

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٥٧).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٠)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٤٦)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٠١)، وفيه: قال شمر: لم أجد هذا البيت للفرزدق.

أن يكون عطفاً على قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ... وَجَعَلْنَا﴾؛ أي: وجعلنا الأغلال في أعناق المستضعَفين والمستكبرين جميعاً فهم كفار.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: استفهام بمعنى النفي للتقرير؛ أي: لا نجزيهم إلا بأعمالهم.

وأضمر في آخر هذه الآيات جوابَ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ رأيت منظراً هائلاً، ونحو ذلك كما عُرف[1].

نزلت ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وما بعدها في الأسود بن عبد يغوثَ الزهريِّ وأصرم وبَعْكك أخوين من بني حارث بن عبد مناف.

***

(٣٤) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: أي: وما بعثنا قبلك في بلدةٍ من رسولٍ ينذر الناس عاقبةَ الشرك والكفرِ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾؛ أي[2]: منعَّموها، وهم أصحاب الأموال والأعوان مستكبِرين ممتنعين عن زوال رئاستهم.

﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: أي: جاحدون.

وعمَّ قوله: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ لأنه عمَّ جميع أهل القرى؛ أي: كان جوابُ مترفي كلِّ قوم لرسولهم كذلك، واللفظ واحد[3] في ﴿قَرْيَةٍ﴾ وكذلك ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ ولكن معناه الجمعُ، فصح قوله: ﴿أُرْسِلْتُم﴾؛ أي: وكذلك قال أهل مكة لك يا محمد، وفيه تسليةٌ له.

---

(١) في (ر): «عرفت»، وفي (ف): «عرف مرات».

(٢) «مترفوها أي» من (أ).

(٣) في (ف): «وحد».

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾: أي: من الأنبياء، فنحن أكرمُ على الله وأولى بالحق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: ولا يعذِّبنا الله على تكذيب الرسل لأنه فضَّلنا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: أي: يوسِّع على مَن يشاء ويضيِّق على مَن يشاء، لا تفضيلاً لمن يوسِّع عليه لكنْ لِمَا يرى من الحكمة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يقفون على[1] مواضع الحكمة.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾: أي: قربةً، وقيل: أي: درجةً ومنزلة.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أي: لكنْ مَن آمَن وعمل صالحاً فأولئك لهم الزُّلفى.

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾: أي: الأضعاف، والضعفُ هو المثل إلى ما زاد عليه، وهو جنس يصلح للجمع، ويدلُّ عليه قوله: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) في (أ): «لا يفقهون على» وفي (ف): «لا يفقهون».

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾: أي: بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾؛ أي: في غرفِ[1] منازل الجنة ﴿آمِنُونَ﴾ من كلِّ مَخوف.

و﴿إِلَّا﴾ على هذا القول استثناءٌ منقطع بمعنى: لكن.

وقيل: هو استثناء متصل، ومعناه: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في أمواله وأولاده، فأنفق مالَه في نصرة دين الله وإقامةِ حدود الله، واستَظهر بأولاده على طاعة الله ومتابعةِ رسل الله ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ فيضاعف خيرُهم بأموالهم وأولادهم.

وقيل: ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ هو دوام النعيم[2] في الجنة بالتضاعُف وقتاً بعد وقتٍ بلا انقطاع.

***

(٣٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾[3]: أي: في إبطالها وفي صرف الناس عنها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: ظانِّين أنهم يفوتوننا.

﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: أي: في النار، بخلاف الفريق الأول أنهم في غرفات الجنة آمنون.

***

(٣٩) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

---

(١) في (ف): «غرفات».

(٢) في (ف): «النعمة».

(٣) في (ف): «معجزين».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: أي: فلا تتَّكلوا على ما أعطاكم من أسباب العزِّ والتوسُّع في الدنيا، ولا تمتنِعوا بها عن طاعة الله[1]، بل أنفقوا في طلب مرضاته.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾: يعطي خلَفَه في الدنيا مع ما يُثيب عليه في الآخرة.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: أي: المعطِين؛ لأنه قادر على مواصلةِ رزقه وزيادةِ ما شاء لمن شاء فيه بغيرِ حساب، وليس إعطاءُ العباد كذلك، ولأنه يعطي مِلكَ نفسه، ولأنه يوجِد المعدوم، وغيرُه يعطي رزقَ الله تعالى، ويحوِّل من موضعٍ إلى موضع.

ولا رازق في الحقيقة إلا الله تعالى، ولا خالق أيضاً غيرُه، لكن معنى ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ هذا، و﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ أي: أحسن المصوِّرين والمقدِّرين.

وقيل[2]: معنى تكرار هذه الآية: أن الأولى خطاب للكافرين وهذه خطاب للمؤمنين.

ثم قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: في وجوه الخير، وذلك وإنْ لم يُذكر فالإنفاق المثمِر هذا، والذي لا يثمر هذا[3] كلا إنفاقٍ؛ كالعلم الذي لا ينفع يسمَّى جهلاً، وكذلك وصَف الكفار بأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ وأنهم لا يعقلون؛ لعدم انتفاعهم بهذه الآلات.

* * *

(١) في (ف): «عن الطاعة لله».

(٢) «قيل» ليست في (أ).

(٣) «هذا» مكررة في (أ).

(٤٠) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي: الذين سبق ذكرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سبأ: ٣١] و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾[1] [سبأ: ٣٢].

وقيل: يوم يحشر العابدين والمعبودين جميعاً؛ أي: يجمعهم للحساب والعرض.

﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾[2] بحضرتهم ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أهؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم في الدنيا.

* * *

(٤١) ـ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: ننزِّهكَ تنزيهاً أن يكون معك إلهٌ.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: أنت إلـهُنا وحافظُنا ومتولِّي أمورِنا ومصالحنا، وأنت الذي نتولَّاك ونلتمسُ قُربك بإخلاص العبادة لك.

﴿مِن دُونِهِم﴾؛ أي: من دون هؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم يتولَّوننا ونتولَّاهم، بل أنت وليُّنا وحدك وهم ليسوا لنا بأولياء ولا نحن لهم أولياء.

﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾: أي: بل كانوا يتولَّون الجنَّ ويظنُّون أنهم يتولَّوننا، ويعبدونهم ويتوهَّمون أنهم يعبدوننا.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾: أي: كلُّهم؛ كقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٣]

---

(١) في (ر) و(ف): «وقال الذين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا».

(٢) في (ف) و(أ): «ثم نقول».

فهو كقوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وكقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ أي: لا يؤمنون أصلاً.

وهذا توفيقٌ للكلام بمنزلة قولك: اقبَلْ وَعْظي لعلك تُفْلحُ، ولا تريد به الشكَّ لكنه توفيق للكلام.

قيل: كان بنو مليحٍ من العرب يعبدون الملائكة ويقولون: هم بنات الله من مصاهرة الجن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

وقيل: معناه: بل كانوا يطيعون الشياطين في عبادتهم إيانا.

* * *

(٤٢) ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: أي: يقال لهم: اليومَ لا تجدون عند هؤلاء الذين كنتُم تعبدونهم من دون الله ضرًّا ولا نفعاً مما كنتُم ترجون من شفاعتهم لكم.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: لهؤلاء الكفار ولسائرهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ويقولون مستهزئين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [سبأ: ٣٩].

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وإذا تقرأ على هؤلاء ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: آيات

القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحاتٍ دالَّاتٍ على إعجاز القرآن ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون محمداً ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾؛ أي: يصرِفكم عن دينِ آبائكم.

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾: أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب ﴿مُّفْتَرًى﴾؛ أي: مختلَقٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ﴾: أي: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: تخييلٌ ظاهر؛ تحيَّروا: فمرة قالوا: هو كذب، ومرة قالوا: هو سحر.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿سِحْرٌ﴾ من قولِ الأتباع، وقوله: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ من قول السادة.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾: أي: وما أعطينا هؤلاء المشركين كتباً يتدارسونها[1] فيدَّعون أنهم وجدوا فيها شاهداً لقولهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾: أي: ولم نُرسل إليهم قبلك رسولاً يا محمدُ يخبرهم عن الله بإبطالِ أمرك[2]، فليست عندهم حجةٌ على ما يقولونه في القرآن وفيك، وهو كقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤].

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

---

(١) في (أ): «يدرسونها».

(٢) في (ف) و(أ): «أمر محمد».

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: أي: وقد كذَّب الذين كذَّبوا قَبْلَهم من الأمم والرسل فأهلكناهم.

﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾: أي: إن هؤلاء المشركين لم يبلغوا في القوة والأموال[1] والأولاد عُشر ما بلغه أولئك، فإذا لم يمتنع أولئك من عذابي فكيف يمتنع هؤلاء.

والمعشار: العشر، وكذلك المرباع: الرُّبع، ولا يُتكلم بمثله إلا في هذين؛ قاله قطرب.

﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾: قيل: النكير جزاءُ المنكَر.

وقيل: هو الإنكار؛ أي: التغيير؛ أي: فانظر كيف كان تغييري أحوالَهم عن المحبوب إلى المكروه، وتقديره: نكيري، حُذفت الياء تخفيفاً واكتُفيَ بكسرة الراء؛ لاتِّفاق الفواصل.

* * *

(٤٦) - ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾: ثم إن الله تعالى بعد أن حاجَّهم فيما وصَفوا به الكتاب والرسول، وعَظَهم ودعاهم إلى النظر ومخالفةِ سُبُل[2] الأمم الخالية في التقليد.

وبيَّن وجه النظر على أبلغ وجه وأَبْيَنِه فقال: قل يا محمدُ لمشركي مكة: إنما

---

(١) في (ر): «والمال».

(٢) في (ر): «سبيل».

أذكِّركم بكلمة واحدةٍ أو خَصلةٍ واحدةٍ أو موعظةٍ واحدةٍ، وأكتفي بها منكم، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ وهي قيامُ القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لوجه الله والْتماسِ التقرُّب إلى الله تعالى، لا لحميَّة وعصبية بل لطلب الحق ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: مجتمعين ووحداناً؛ لأن ما يراد تعرُّفه بالنظر[1] لا يخلو من أن يكون مما يدركه الناظرُ وحده إذا أمعن[2] نظره لوضوح وجهه، أو يكون مما لا تتجلَّى الشبهة فيه عنه بانفراده لغموضه حتى يستعين بغيره، فالأحوطُ هو النظر في الأمر بالوجهين.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾: أي: تستعملوا فكركم بالتدبُّر في أمر محمدٍ: هل في شيء من أحواله من مَنشئه إلى وقتِ إخباره بنزول الوحي عليه اشتباهٌ[3] في أمره أو اختلالٌ في حاله يوجب له وصمَه، أو يوجِّه[4] عليه ظنَّه بما لا يجوز معه في العقل أن يكون رسولاً؟

وهل جرَّبتم عليه كذباً، أو رأيتم في عقله ضعفاً، أو شاهدتُموه يختلف إلى مَن يدَّعي سحراً أو يكون عنده أقاصيصُ الأولين فيأخذُها منه تعلُّماً؟

أو هل يقدر أحدٌ منكم على معارضته في صورة[5] فتجوِّزوا بذلك أن يكون هذا الكتاب مِن عنده؟

فإذا لم يكن كذلك فاعلموا أنه ليس به جنونٌ، وأنه نذير لكم بين يدي عذابٍ

---

(١) في (أ): «بقربه بالنظر» وفي (ر) (ف): «تعرفه للنظر».

(٢) في (أ): «أنعم».

(٣) في (أ) و(ف): «انتشار».

(٤) في (ر): «يوجب»، وفي (ف): «يوجبه».

(٥) في (أ): «سورة».

شديد: أمام عذابٍ قد أعدَّه الله تعالى لمكذِّبي رسوله وجاحدي كتابه ومشركي غيرِه به، واحذروا أيضاً أن ينالكم هذا العذاب الشديد، فقد اشتملت هذه الآية مع قلَّة حروفها على إثبات النظر ووجوهه.

ثم قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ثُم تَتَفكَّروا أيُّ شيء بصاحبكم من الجنون؟ أي: من آثار الجنون، فيتصل الكلام.

والثاني: أن يتم الكلام بقوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾؛ أي: في الأمور التي عدَّدنا، ثم يكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ ابتداءً، ويكون ﴿ما﴾ للنفي؛ أي: ليس به جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: ما هو إلا مخوِّف لكم أمام عذاب شديد.

* * *

(٤٧) ـ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾: أي: كلُّ ما طلبتُ منكم على ما أدعوكم إليه من الإيمان من جُعلٍ فهو لكم؛ أي: فقد جعلتُه لكم لا حاجةَ لي إليه، ولا أطلب منكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ما أبتغي عليه إلا الثوابَ من الله تعالى، وقد وعده لي وعداً مؤكَّداً لا خُلف فيه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: شاهدٌ عليَّ وعليكم، مشاهِدٌ لأفعالي وأفعالِكم، فيجزي كلًّا على وَفْق عمله، وهذا تأكيدٌ أنه لم يسألهم شيئاً، وهو كقولك لمن نصحت له فلم يقبل: ما أعطيتني على نصيحتي لك فخذه مني؛ أي: لم تعطني شيئاً ولم أسأله منك.

وللآية وجهٌ آخر: قال الكلبي: لما قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

﴿ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال: لا تؤذوا محمداً في أقاربه، فلما ذكر رسول الله ﷺ آلهتَهم بعد ذلك قالوا: ما أنصفَنا محمدٌ ـ ﷺ ـ ينهانا أن لا نؤذيَ أقاربه ففعلنا، وهو يذكر آلهتنا! فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي: إن شئتم فآذوهم، فردَّ عليهم أجرهم الذي كان سألهم من[1] أن لا يُؤذوا أقاربه.

وفيها وجه آخر: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ وهو الكفُّ عن أذى أقاربي ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي: فذلك الأجر لكم؛ لأنكم إذا فعلتُموه كان ثوابه من عند الله لكم.

* * *

(٤٨) ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: يُلقي الحقَّ إليَّ وإلى عباده المؤمنين على وجهٍ لا يقع عليه اعتراضٌ متوجِّهٌ، بل يَبطُل به الباطلُ.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: أي: هو علّام الغيوب، لا تخفَى عليه حقائق الأشياء، ولا يذهب عليه[2] الصواب في الحجج.

* * *

(٤٩) ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: الدِّين الحقُّ؛ لوضوح آياته ودلالاته ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: ولا يَثبُت للباطل ـ أي: الشركِ ـ أثرٌ بدءاً ولا عوداً.

وقال أبو عبيدة: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يأتي بالحق[3].

---

(١) «من» من (أ) و(ف).

(٢) في (أ): «عنه».

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٥٠).

وقال نِفطويه: أي: يلقي الحقَّ في قلبِ مَن يشاءُ وعلى لسانه.

وقيل: هو ما قال في آية أخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقيل في قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾: أي: القرآن.

قال الضحاك: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾: أي: القرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه[1].

وقال الحسن: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ لأهله خيراً في الدنيا ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ عليهم خيراً[2] في الآخرة، والباطل ما عُبد من دون الله[3].

***

(٥٠) - ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾: أي: إن تركتُ الحقَّ الذي أتيتُ به واتَّبعتكم فقد ضلَلْتُ وألحقتُ الضررَ بنفسي.

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾: ثبتُّ على حقي ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ تبيان[4] جاءني من ربي ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم يجازيني ويجازيكم.

---

(١) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٠٧) عن قتادة.

(٢) في (أ): «جزاء».

(٣) ذكره ابن فورك في «تفسيره» (٢/ ١٥٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٩٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٩٢)، ولفظه في «الكشاف»: لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده؛ أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

(٤) في (ر) و(ف): «فيه بيان»، بدل: «تبيان».

(٥١) ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾: قيل: يتصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: هو يوم بدر حين أخذتهم سيوف الملائكة[١].

وقال الحسن رحمه الله: وهو حين يخرجون من قبورهم[٢].

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾؛ أي: هابوا[٣]، وقيل: أي: خافوا خوفاً شديداً.

وقيل: الفزع: انزعاج النفس بتوقُّع المكروه.

﴿فَلَا فَوْتَ ﴾ قال الضحاك: أي: لا مهرب[٤].

وقيل: فلم يفوتوا ما نزل من العذاب بهم.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾: أي: من قُرْب فلم يفوتوا، وهو تمثيل لسرعة الأخذ.

وقيل: هو تأكيدُ ﴿فَلَا فَوْتَ ﴾.

ومَن حمَله على يوم بدر قال: أخذوا في الدنيا قبل أن يصيروا إلى الآخرة، وهو المكان القريب.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٠٩) عن ابن عباس والضحاك وابن زيد، وخبر ابن عباس والضحاك بلفظ: (عذاب الدنيا)، وليس فيه تعيين يوم بدر، لكنه عام فيشمله.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣١٢).

(٣) في (ر) و(ف): «غابوا»، ولم أجد هذا المعنى فيه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣١٤).

وقال الحسن: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ يوم القيامة ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: من بطن الأرض إلى ظهرها[(١)].

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: يجوز أن يكون راجعاً إلى قوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾، ويجوز أن يكون إلى الوحي فقد قال: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ﴾، ويجوز أن يكون إلى الرب فقد قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[(٢)].

فإن كان هذا عند الموت فهو كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

وإن كان في القيامة فكلُّ الكفار يؤمنون[(٣)] ويتبرَّؤون عن الكفر حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾: أي: كيف ومن أين لهم تناوُل الإيمان من مكان بعيد؟ وهو تمثيل ومعناه: ليس هذا وقتَ نفعِ الإيمان ولا مكانَ قبول الإيمان، كان ذلك في الدنيا وقبل معاينة هذه الأحوال.

وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائي وخلف[(٤)]، وعاصم في رواية أبي بكر والشموني والبرجمي[(٥)]:......................................

---

(١) ذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧٧١)، وابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ٢١).

(٢) في (ف): «﴿إِنَّ رَبِّي﴾»، وهي أيضاً مما تقدم.

(٣) بعدها في (ر): «به».

(٤) «وخلف» ليست في (أ) و(ف).

(٥) قوله: «والشموني والبرجمي» ليس في (أ).

والشموني هو محمد بن حبيب، قرأ على أبي يُوسف الأعشى، وقرأ أبو يوسف على أبي بكر، =

﴿التناؤش﴾ مهموزاً ممدوداً[١].

قال الزجاج: هو من النَّأْش، وهو الحركة في إبطاء[٢]؛ أي: من أين لهم أن يتحرَّكوا فيما لا حيلة فيه.

وقرأ الباقون: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بغير همزٍ، وهو التناول، والنَّوش كذلك؛ قال الشاعر:

وَهْيَ تَنُوشُ الحوضَ نَوْشاً مِن عَلَا ... نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوازَ الفَلَا[٣]

وقال ثعلب: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بغير همز: التناول من قُرْبٍ، وبالهمز: التناول من بُعْدٍ.

وقيل في الآية: وكيف لهم تناولُ ما في الدنيا من الآخرة وهي بعيدة عن الدنيا؟

= انظر: «النشر» (١/ ١٣٥).

والبرجمي: عبد الحميد بن صالح بن عجلان التيمي، أبو صالح الكوفي، أخذ القراءة عرضًا عن أبي بكر بن عياش ثم عن أبي يوسف الأعشى بحضرة أبي بكر. انظر: «طبقات القراء» لابن الجزري (١/ ٣٦٠).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٨١) عن حمزة والكسائي وأبي عمرو وأبي بكر. وقراءة خلف في «النشر» (٢/ ٣٥١).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٥٩).

(٣) الرجز لغيلان بن حريث كما في «مجاز القرآن» (٢/ ١٥٠)، و«شرح أبيات سيبويه» للسيرافي (٢/ ٢٤٧)، و«اللسان» (مادة: نوش). ودون نسبة في «الكتاب» (٣/ ٤٥٣)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٥)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٣٠٧). قال في «اللسان»: الضمير في قوله: (فهي) للإبل، و(تنوش الحوض): تتناول ملأه، وقوله: (من علا)؛ أي: من فوق، يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق، وذلك النوش الذي تناله هو الذي يعينها على قطع الفلوات، والأجواز: جمع جوز، وهو الوسط؛ أي: تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر.

(٥٣) ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبلِ حالة اليأس[1]، أو قبلَ يوم القيامة.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾: أي: يرمون بالظن المغيَّب عنهم ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: يظنون أن إيمانهم في الآخرة أو حالةَ اليأس نافعٌ لهم؛ جهلاً منهم في الآخرة وحالةِ اليأس كما كانوا جاهلين في الدنيا وفي غير حالة اليأس فعمَّهم الجهل في الحالين.

وقيل: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو ابتداء كلام في وصفهم في الدنيا، ومعناه: يرمون بالظن فيقولون: لا بعث ولا جزاء، وهو رجمٌ بالظنِّ من مكان بعيد، وهو أضعف ما يكون من الظنِّ لبُعد المكان عن الظانِّ.

وقيل: هذا البعد عن القلب، وقيل: عن العقل.

وقيل: هذا الظن البعيد منهم كان في القرآن وفي الرسول، فكانوا يصفون كلَّ واحد منهما بصفات مختلفة.

وقيل: المكان البعيد تمثيل؛ كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقيل: هو الوصف منهم في الدنيا، لكنه متصل بالأول بإضمار: كانوا؛ أي: لا ينفعهم الإيمان لأنهم كفروا به من قبل وكانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد في الدنيا.

وقيل: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يرمون بالآخرة ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: يبعدون أمرها فلا يعتقدون كونَها، كما قال تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وهذا معنى قول الضحاك.

---

(١) في (ر) و(ف): «البأس» وكذا في المواضع الآتية كلها.

وقيل: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يرمون آجالهم ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: يقدِّرونها بطولٍ فيسوِّفون بالتوبة، وهذا معنى قول عكرمة.

* * *

(٥٤) - ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: أي: من الانتفاع بالإيمان والتوبة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: بالذين سابقوهم[1] على الكفر من الماضين، كان لا يقبل إيمانهم عند البأس، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

وقيل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ حينئذ ﴿وَبَيْنَ مَا﴾ كانوا[2] ﴿يَشْتَهُونَ﴾ وهو الأموال والأولاد والأسباب التي كانوا يتنعَّمون بها ويتعزَّزون[3] في الدنيا بها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾: أي: في شك من القرآن والرسول والإيمان والبعث، وكلُّ ذلك سبق ذكره.

وقوله تعالى: ﴿مُّرِيبٍ﴾؛ أي: مشكِّكٍ[4]، وهو مبالغةٌ كقولهم: عَجَبٌ عجيب، وشتاءٌ شاتٍ، وليلةٌ ليلاء.

---

(١) في (ر): «شايعوهم».

(٢) «كانوا» ليست في (ف).

(٣) في (أ): «ويتغررون».

(٤) في (ف): «مشك».

وقيل: المريب: الآتي بالمكروه، وقال الهذلي الشاعر:

كنتُ إذا أتوتُه من غيبِ ... كأنني أَرِيبه بريبِ[١]

أي: هؤلاء الكفار الذين في عصرك والكفار الماضون من قَبلك كانوا كذلك فعذِّبوا لذلك.

قال[٢] ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ في السفياني الذي يظهر في آخر الزمان يقصد الكعبة في ثمانين ألفاً ليخربها، فيُخسف بهم في البيداء[٣].

وقوله: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: خُسِف بهم من تحت أرجلهم[٤].

وقال مقاتل: يَبعث ثلاثين ألفاً إلى مكة عليهم رجلٌ يقال له: بحير بن بجيلة، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم فلا يُفلت منهم إلا رجلٌ من جهينةَ يقال له: ناجية، مقلوبٌ وجهُه إلى قفاه [يمشي قهقرَى على عقيبة حتى ينتهيَ إلى السفيانيِّ الخبيث، وإنما يملك تسعة أشهر، وأكثرُ أتباعه كلبٌ][٥] يخبر الناس بما أصابهم[٦].

---

(١) الرجز لخالد بن زهير الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٦٥)، و«الإتباع» لأبي علي القالي (ص: ٧١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨٤).

(٢) في (ر) و(ف): «وقد وردت أحاديث في هذه الآية أنها في السفياني وقال».

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٩٢ - ٥٩٣) بلفظ: نزلت في خسف البيداء، وذلك أنّ ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم. وليس فيه ذكر السفياني، وانظر التعليق الآتي.

(٤) رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِي الله عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: هو جيش السفياني، قال: من أين أُخذ؟ قال: من تحت أقدامهم. انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٧١٢).

(٥) ما بين معكوفتين ليس (أ)، ووقع مكانه في «تفسير مقاتل»: (يمشي القهقرى).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٣٩).

وقال مقاتل بن سليمان: يخرج السفياني من الوادي اليابس في أخواله من بني كلب، فيخطبون على منابر الشام، فإذا بلغوا عينَ التمر محا الله الإيمان من قلوبهم، فيخرجون حتى ينتهوا إلى ميل الذهب، فيقاتلون قتالاً شديداً، فيَقتل السفيانيُّ سبعين ألفَ رجل عليهم السيوفُ المحلَّاة والمناطق المفضَّضة(١)، ثم يدخل الكوفة فتصير أهلها ثلاثَ فرقٍ: فرقةٌ تلحق بهم وهم شرارُ خلق الله تعالى، وفرقةٌ تقاتله وهم عند الله شهداء، وفرقة ثالثةٌ تلحق بالأعراب وهم العصاة، ثم يغلب الكوفة فيفتضُّ أصحابه ثلاثين ألف عذراءَ، فإذا أصبحوا كشفوا شعورهن وأقاموهن على السوق يبيعوهن، فعند ذلك كم من لاطمةٍ خدَّها وكاشفةٍ وجهَها وناتفةٍ(٢) شعرها بدجلة أو شاطئ الفرات، فيبلغ الخبر أهل البصرة فيركبون إليهم في البر والبحر فيستنقِذون أولئك النساء من أيديهم، فيصير أصحاب السفياني ثلاثَ فرقٍ: فرقةٌ تسير نحو الرِّي، وفرقةٌ تبقى بالكوفة، وفرقةٌ تأتي المدينةَ وعليهم رجل من بني زهرةَ، فيحاصرون أهل المدينة فيقتتلون جميعاً، فيُقتل بالمدينة مقتلةٌ عظيمةٌ، حتى يبلغ الدمُ الرأسَ المقطوع، ويُقتل رجل من أهل بيتِ رسول الله ﷺ وامرأة(٣)، واسم الرجل محمدٌ واسم المرأة فاطمة، يصلبونهما عاريين، فعند ذلك يشتدُّ غضب الله عليهم، فيبلغ الخبرُ وليَّ الله، فيخرج من قرية من قرى جُرَش في ثلاثين رجلاً، فيبلغ المؤمنين خروجُه، فيأتونه من الأرض ويحنُّون إليه كما تَحِنُّ الناقة إلى فصيلها، فيجيء فيدخل مكة، فتقام الصلاة فيقال: تقدم يا ولي الله، فيقول: لا أفعل، ثم يصلي

---

(١) في (أ): «المفضفضة».

(٢) «وجهها وناتفة» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «وامرأته».

بهم رجل، ثم يتداكُّون[1] عليه بالبيعة تداكَّ الإبل الهيم[2] يوم ورودها حياضَها فيبايعونه، فإذا فرغ من بيعة الناس بعث خيلاً إلى المدينة عليهم رجلٌ من أهل بيته، فيقاتل الزهريَّ فيُقتل من كِلَا الفريقين مقتلةٌ عظيمة، فيرزق الله وليَّه الظَّفَر، فيُقتل الزهريُّ ويُقتل أصحابه، فالخائب يومئذ مَن خاب من غنيمةِ كلبٍ ولو بعقالٍ، فإذا بلغ الخبر السفياني خرج من الكوفة في سبعين ألفاً، حتى إذا بلغوا البيداء عسكر بها وهو يريد قتالَ وليِّ الله وخرابَ بيت الله، فبينما هم كذلك بالبيداء إذ نَفَر فرس لرجل من العسكر، فخرج الرجل لطلبه[3]، وبعث الله جبريل فضرب الأرض برجله ضربةً فخسف الله عز وجل الأرض بالسفياني وأصحابه، ورجع الرجل يقود فرسه فيستقبلُه جبريل فيقول: ما هذه الضجة في العسكر، فيضربه جبريل صلوات الله عليه بجناحه فيتحول وجهه مكان القفاء فيمشي قهقرى، فهذه الآية نزلت فيهم[4].

***

(١) في (ف): «يتدالون».

(٢) في (أ): «الصيم»، وفي (ر): «بهم».

(٣) في (ر) و(ف): «فخرج الطلب في أثره».

(٤) انظر: «عقد الدرر في أخبار المنتظر» ليوسف بن يحيى المقدسي الشافعي (ص: ١٤٧ ـ ١٤٩)، وعزاه للنقاش في «تفسيره»، وهو كلام مجموع من أخبار عديدة، لكن لم يثبت منها شيء.

سُورَةُ فَاطِرٍ

سورة فاطر(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الذي يزيدُ في الخلق ما يشاء، الرحمنِ الذي يخشاه من عباده العلماء، الرحيمِ الذي بحكمته تستمسك الأرض والسماء.

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة الملائكة دَعَتْه يوم القيامة ثمانيةُ أبوابِ الجنة أن ادخل من أيِّ الأبواب شئتَ»(2).

وهذه السورة مكيةٌ، وهي ستٌّ وأربعون آية، وقيل: خمس وأربعون، والخلاف في سبع الآيات: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿أَن تَزُولَا﴾ ﴿لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وكلماتها سبعُ مئة وخمس وسبعون، وحروفها ثلاثة آلاف ومئة وخمس وأربعون(3).

وانتظام أول السورة بآخر تلك السورة: أنه ذكر في آخر تلك السورة أن الكفار في شكٍّ مريبٍ لتركهم التأمُّل في تلك الآيات، وذكر في أول هذه السورة

---

(1) في (ر) و(ق): «سورة الملائكة».

(2) رواه الثعلبي في «تفسيره» (8/ 97)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (3/ 948)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: 296).

(3) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: 210)، وفيه: كلمها سبع مئة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً.

من الآيات ما لا يبقَى معه ريب عند التأمل فيه، وهو خلق الأرض والسماوات.

وانتظام السورتين: أنهما مكيتان، وهما في محاجَّة المشركين، ومدحِ الموافقين، وذمِّ المنافقين المخالفين.

* * *

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالقِهما من غير شيءٍ ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى النبيين ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ يطيرون بها ينزلون من السماء إلى الأرض، ويعرجون منها إلى السماء في يوم وأقلَّ منه، ومسيرةُ ما بينهما ألفُ سنة نزولاً وعروجاً، ولولا ما قوَّاهم بذلك لَمَا أَمْكنهم ذلك.

﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: من الملائكة مَن له جناحان كما للطيور التي في الهواء، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنحة، ومنهم من له أربعةُ أجنحة.

﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: أي: ويزيد بعضَهم على أربعةٍ[١]، فقد روي أن جبريل صلواتُ الله عليه له ستُّ مئة جناح[٢]، لو نشر جناحاً له لسدَّ ما بين الخافقين، ولبعض الملائكة أكثرُ من ذلك، وهذا عامٌّ يتناول زيادةَ كلِّ شيء في كلِّ شيء، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا أساس لحديث إرسال الرسل وبعثِ الخلق يوم القيامة.

---

(١) في (ر) و(ف): «على بعض».

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن النبي ﷺ رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال في الآية: «هي[(١)] الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن»[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في أجنحة الملائكة[(٣)].

وقال ابن كيسان: في الجسم والعرض والطول؛ كما قال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، يعني: طالوت.

وعن قتادة أنه قال: الملاحة في العينين[(٤)].

وقيل: الكياسة في الطبيعة.

وقيل: الفصاحة في المنطق.

وقيل: الفهم عن الله تعالى.

وقيل: السخاء.

وقيل: الرضا بالتقدير.

وقيل: علو الهمة.

وقيل: التواضع في الشرف.

وقيل: القناعة في الفقر.

---

(١) في (ر): «إنه».

(٢) ذكره تاج القراء الكرماني في «تفسيره» (٢/ ٩٤٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٩٦).
وأورده الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ١٣٨) ولم يذكر له تخريجاً.

(٣) رواه ابن أبي حاتِم عن السدي. انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٤).

(٤) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (١١٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٩٨).

وقيل: الظَّرف في الشمائل.

وقيل: المحبة في القلوب.

وقيل: خفَّة الروح.

وقيل: سلامة الصدر من الشر.

وقال الإمام القشيري: التعطُّف[1] على الخلق.

وقيل: الشوق إلى الحق.

وقيل: تحرُّر القلب عن رقِّ الحدثان.

وقيل: ألا يطلب لنفسه منزلةً في الدارين[2].

* * *

(٢) ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾: قيل: هي النبوة؛ كما قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾؛ أي: لا يتهيأ لأحدٍ ردُّها ولا[3] معارضتُها.

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾: أي: يقطعْ في زمان الفترة ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: لا يمكن أحداً فتحُ هذا الباب.

وقال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ بالتأنيث لسبق ذكر الرحمة، وقال: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾

---

(١) في (ر): «العطف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٩١).

(٣) «لا» ليست في (أ).

بالتذكير لسبق ذكر قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾، ويجوز في العربية التأنيثُ فيهما لذكر الرحمة[١]، ويجوز تذكيرهما لذكر ﴿وَمَا﴾ فيهما.

وقيل: الآية عامة لكلِّ نعمة، ويدل عليه ما بعده: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

والرحمة في القرآن جاءت للمطر: قال تعالى: ﴿نُشراً بين يَدَي رحمته﴾ [الأعراف: ٥٧].

وللرزق: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨].

ولأشياء: قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ثم قال: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨] وعلى هذا آيات.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: في مُلكه وجلاله ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

* * *

(٣) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: قيل: هو خطاب للمشركين ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تذكَّروا.

وقيل: أي: احفظوا ما مَنَّ الله به عليكم من أنواع النِّعم.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾: قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر: ﴿غيرِ الله﴾ بالخفض على ظاهرِ قوله: ﴿مِنْ خَالِقٍ﴾، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ بالرفع[٢] لوجهين: هل غيرُ الله

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «فيهما».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٢)، و«النشر» (٢/ ٣٥١).

من خالق، و: هل خالقٌ غيرُ الله، فإن ﴿مِنْ﴾ زائدة مؤكِّدة، فإذا حُذفت رفع ﴿خَٰلِقٍ﴾، وهو استفهام بمعنى النفي.

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: بالمطر والنبات وغير ذلك.

وإذا لم يكن خالقٌ ولا رازقٌ غيرُه فلا إلهَ غيرُه، ولذلك قال بعده: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: أي: كيف تُصْرفون ومن أين تُصرَفون عن هذا الحق إلى غيره، والأفكُ بالفتح: الصرفُ، والإفك بالكسر: الكذب، وهو الكلام المصروف عن الصواب، وخرج الكلام على ما لم يسمَّ فاعله على مذهب العرب في قولهم للرجل: أين يُذهبُ بك؟ أي: أين تذهب؟ فكذا هذا معناه: فكيف ومن أين تنصرفون من الحق إلى الباطل؟ وهو استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن ذكر النعمةَ فهو صاحب عبادة ونائل زيادة، ومَن ذكر المنعِم فهو صاحب إرادةٍ ونائلُ زيادة، وفرقٌ بين زيادةٍ وزيادة، هذا زيادته عطاؤه وهذا زيادته لقاؤه.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ مَن عرف أنه لا رازق غيرُ الله لم يُعلِّق قلبه بأحدٍ في طلبِ شيء، ولا يتذلَّل للارتفاق لمخلوق، وكما لا يرى رزقَه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضًا، فيتخلَّص من ظلمات تدبيره واحتياله وتَوهُّمِ شيء من أشكاله وأمثاله[1].

* * *

(٤) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد فلا يَضِيقنَّ صدرُك فلستَ بأولِ مَن كذِّب

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢).

مِن الرسل ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كذَّبهم أممهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: وإلى حُكم الله تصيرُ الأمور في عواقبها، فيجعل العاقبةَ المحمودة للأنبياء والمرسَلين[1] والمؤمنين والعاقبةَ المذمومةَ للمكذِّبين، وهذا وعد ووعيد.

* * *

(٥) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: وهو عام للمكلَّفين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: بالثواب والعقاب[2] جميعاً؛ لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والوعدُ يقع على العذاب قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: ٧٢].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: لا تغترُّوا بهذه الحياةِ الخاليةِ فإنها زائلةٌ، وأنتم مبعوثون للعرض والحساب والجزاء.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: قيل: الدنيا.

وقيل: الشيطان بما يمنِّيكم على الله من المغفرة مع الإصرار، وبما يزيِّن لكم من الـمُقام على الكفران[3].

* * *

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ قديم من وقتِ أبيكم آدمَ عليه السلام وأمِّكم حواءَ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولا تتابعوه[4] ولا تطيعوه فتَهلِكوا.

---

(١) «والمرسلين» ليست في (أ).

(٢) في (ف): «والعذاب».

(٣) في (ف): «الكفر».

(٤) في (أ): «تبايعوه».

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ﴾ إلى طاعته(١) ﴿حِزْبَهُۥ﴾؛ أي: طائفته ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: ليسوقهم إلى نار جهنم ليكونوا من أصحابها؛ أي: أهلِها الذين لا يفارقونها.

وخصَّ حزبه بالذكر وإن كان يدعو كلَّ الناس؛ لأنهم هم الذين أجابوه.

وقيل: ﴿يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ على الخصوص دون الذين عَلِم أن الله أخلصهم ومنه خلَّصهم.

وقيل: ﴿يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ الذين أجابوه إلى(٢) الدوام عليه فيخلَّدون في النار.

* * *

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: هم الذين أطاعوا الشيطان ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: وهم الذين عادَوه، وهذا هو تحقيق قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هو وعدُ الكافرين بالعقاب ووعدُ المؤمنين بالثواب

* * *

(٨) ـ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: أي: الكفرُ والمعصية ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ زَيَّنت له ذلك نفسُه باتِّباع الشهوات وتركِ النظر في الحجة، والشيطانُ بالوسوسة واتِّباع الشبهة، أو الله تعالى بالتخليق والمشيئة وتحقيقِ الابتلاء والمحنة، وأضمر هاهنا: كمَن قبِّح له فانتهى عنه؛ أي: ليسا بسواء، استفهام بمعنى النفي.

---

(١) «إلى طاعته» ليس في (أ).

(٢) في (ف): «على».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: مَن علم منه اختيارَ الضلال أضلَّه الله، ومَن علم منه اختيارَ الإيمان(١) هَدَاه.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾: أي: لا تُهلك نفسَك تأسُّفاً عليهم وتحسُّراً، وهو كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقد بينا وجوه ذلك في تلك الآية.

وقيل: الإضمار هاهنا ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ ذهبتْ نفسُك حسرةً عليه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ثم هذا الموصوف قيل: هو إبليس ـ لعنه الله ـ زُيِّن له سوء عمله ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار.

وقيل: مَن زُيِّن له سوءُ عمله هو الكافر، ووحَّد لفظُ (مَن) ومعناه الجمعُ وهم الكفار، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يرجعُ إليهم

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾: وعدٌ ووعيدٌ وتسليةٌ للنبي عليه السلام.

وقال القشيري: الذي يُؤْثِر على ربه شيئاً من المخلوقات فقد زُيِّن له سوء عمله، والذي يكتفي يوم القيامة بنجاته ورفعِ درجاته فقد زيِّن له سوء عمله؛ لأنه غفل عن حلاوة مناجاته(٢).

❊ ❊ ❊

(٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

---

(١) في (أ): «الاهتداء».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٩٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: تجمعُه بإثارته من مواضعه.

﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾؛ أي: تسوقه الرياح بأمرنا وتقديرنا.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أي: بالسحاب، هذا ظاهره، ومعناه: بالمطر الذي في السحاب، و(تثير) مستقبَل و(سقناه) و(أحيينا) ماضيان، والأول إضافةٌ إلى الريح، وهذا إلى نفسه، وهذا من تلوين الكلام ومن أقسام البلاغة والبيان.

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾: أي: البعثُ بعد الموت.

* * *

(١٠) - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾: يتصل بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ والتغرُّر[1] بالمال والسلطان والشرف في الدنيا.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: هو العزيز بذاته والمعزُّ مَن يشاء مِن خلقه، وإنما يعزُّ المؤمنين والمطيعين بالإيمان والطاعةِ، لا الكفارَ المترفين بالمال والسلطنة، فقد قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ولا تُعارض هذه الآيةُ تلك الآيةَ؛ لأن عز الرسول والمؤمنين بإعزاز الله، فله العزةُ جميعاً على الحقيقة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأصنام؛ كما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: بتوحيد الله يُنال العز؛

---

(١) في (ف): «والتعزز».

كما قال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤](١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: هو كلُّ قولٍ مَرْضيٍّ عند الله لا خَبثَ فيه.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: هو كلُّ فعلٍ حسنٍ لا فسادَ فيه.

وذكر في الأول الصعود إليه وفي الثاني الرفع إليه، وتقديره: والعمل الصالح يرفعُه الله إليه، ولا يُتوهَّم منهما المكانُ تعالى الله عن ذلك، لكن المراد قبولُهما، ووجهُ ذلك: أن أعمال العباد تكتبها الحفَظة ويرفعونها في السماء إلى حيث أمر الله تعالى، فتوضع للحفظ ثم يجاء بها يومَ القيامة للقراءة والحساب بها والجزاءِ عليها، وذلك قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

وتقدير الآية: إلى السماء يصعد كتاب الكَلِم الطيب، والعملُ الصالح يرفعُ الله كتابَه إلى السماء، فذكر أحدهما وصعودَه والآخرَ ورفعَه ومعناهما واحد.

وقيل: تقديره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ أيضاً، فالصعود لهما جميعاً، ثم قال: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: الله تعالى هو الذي يرفع ذلك، ولم يقل: يرفعُهما؛ لوجهين:

أحدهما: أن معناه: يرفع ذلك أو يرفع المذكور؛ كما قال: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] على الإفراد مع تقدم ذكر الاثنين.

والثاني: أن الكناية قد ترجعُ إلى أحد المذكورَين لفظاً ومعناه رجوعُها إليهما كما في آيات: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢] ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤٧٣).

وقيل: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: يرفع الكلِمَ الطيِّب، يريد به: أن اعتبار الكلام الحسن بالفعل[١] الحسن، ولا ينفع قولٌ بغيرِ عملٍ؛ قاله المبرد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ أي: الوعدُ الحسن ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: إنجازُ ذلك الوعد وتحقيقه.

وقيل: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: الكلام الطيب هو الذي يرفع العمل الصالح، والكلم الطيب هو كلمة التوحيد، وبها قبول الأعمال ورفعها[٢]، حكاه أبو معاذ عن بعض أهل العلم.

وقيل: العمل الصالح يرفعه الله على الكلام الطيب؛ أي: العمل أفضل من الكلام.

وقيل: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الهاء ترجع إلى قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: مَن أراد العزَّ فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: قيل: يعني: والمتعزِّزون بالدنيا؛ أي: الذين يمكرون بالضَّعَفة بإدخال الشُّبَه عليهم وهي السيئات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: يَهلك احتيالُهم ويَبطل، والبوار: الهلاك.

وقال أبو العالية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هم الذين مكروا بالنبي عليه السلام في دار الندوة ليقتلوه أو يُثْبتوه أو يُخرجوه[٣] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قيل: هو قتلُهم ببدر.

***

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «بالعمل».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٤٧٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٠٢)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٠٨)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٤١٥).

(١١) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾: أي: قدَّر كونكم في الابتداء من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾[1] وهو معنى قولِ مَن قال: خلق آدم الذي أنتم متفرِّعون عنه وهو أصلُكم ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ ذكراناً وإناثاً للتناسل والبقاء في الدنيا إلى حينه.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾: ثم إذا وقع التناسل فما يكون من حملٍ على أيِّ وصفٍ كان، والوضع في أيِّ وقتٍ كان، فذلك بعلمه وتقديره وتدبيره، ولا يخرج شيء من ذلك عن حكمه، ولا يَعْزُب عن علمه.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾: أي: هو يعلم أعمار الخلق ومقاديرها طالت أو قصُرت، وهي عنده في كتابٍ في اللوح المحفوظ كتبه لمن أراد تعريفَه من الملائكة وغيرهم.

والمعمَّر: مَن أطيل عمرُه، وناقص العمر: مَن لم يَطُل عمره، فيُشْكِل قوله: ﴿مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ مضافاً إلى المعمَّر، ولا يجتمع طول العمر ونقصانه في شخص واحد، لكن له معنيان:

أحدهما: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾ إلا يكتب في اللوح المحفوظ بيانُ عمره أنه[2] إلى كذا ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾: لا يمضي شيء منه فينقص مما قدِّر له إلا ذلك محفوظ عند الله كم مضى وكم بقي، وكم مضى ظاهر للناس وكم بقي باطن لا

---

(١) بعدها في (ر) و(ف): «الأبوين».

(٢) في (ف): «في اللوح بيان عمر عبد أنه».

تعلمه الخلق، فأخبر أنه يعلم كلَّ ذلك كما قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ وهو باطن ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ وهو ظاهر، والله تعالى يعلم كلَّ ذلك.

والثاني ـ وهو قول الفراء وغيره ـ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾؛ أي: من عمرٍ آخَرَ، وهو كقولك: عندي درهمٌ ونصفه، أو: لك عندي ثوب ونصفه، فيكون النصف من درهمٍ آخر وثوبٍ آخر، لكنْ لمَّا كان لو أَظهر فقال: لك عندي ثوب ونصف ثوب، ودرهم ونصف درهم، صلح ذلك، جاز أن يقال: نصفه، فكذا هاهنا(1).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي: كتابة ذلك في الكتاب يسيرٌ على الله تعالى، لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها(2) لكثرتها وطولها(3) كما يتعذر على العباد كتابة مثلها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقيل: أي: حفظُ ذلك على الله بدون الكتابة يسير، وهذا كلُّه بيان قدرته واستشهاد به على قدرته على بعث الخلق بعد موتهم(4).

* * *

(١٢) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٨).

(٢) «شيء منها» ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (أ): «وكمونها».

(٤) قوله: «بعد موتهم» ليس في (أ)، وقوله: «على بعث الخلق بعد موتهم» ليس في (ف).

قال الخليل رحمه الله: البحر سمي به لاستبحاره؛ أي: انبساطه وسعته، وشقُّ الأذن سمي بحراً لأنه يوسِّعها، وتبحَّر فلان في العلم؛ أي: توسَّع فيه[1].

والفرات: المتناهي في العذوبة.

والملح: الماء الذي فيه ملوحةٌ، ولا يقال: مالح، والأُجاج: أشدُّ المياه ملوحة، وهو الذي لشدة ملوحته يلتهِب، ويقال: أجَّجتُ النار؛ أي: ألهبتُها، والأجَّة: شدةُ الحر.

وقيل: الفرات: البارد، والأُجاج: الحار، وسائغ شرابه؛ أي: سهلٌ انحدارُه إلى الجوف، لا يتكرَّهه الشارب، نفى[2] الاستواءَ بين البحرين بتفاوت الوصفين.

وفيه نفيُ الاستواء بين الصالح والطالح، ووجوب التفرقة بينهما، وإذا لم تقع التفرقة بينهما في الدنيا فمِن ضرورته البعثُ والقيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾: أي: من كلِّ واحد من هذين البحرين ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾؛ أي: السمك، والطريُّ: الغضُّ.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: أي: تغوصون على الدرِّ والمرجان، وتتخذون من ذلك حليةَ النسوان، إذا ضم ذلك إلى سائر الألوان، ويباع ذلك بأنفس الأثمان.

وفيه بيان النعمة والقدرة وإبطال الطبيعة، وهو كقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقولُه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] يدل أيضاً على استخراجها[3] منهما.

---

(١) انظر: «العين» (٣/ ٢١٩).

(٢) في (أ) و(ف): «ففي».

(٣) في (ر) و(ف): «استخراجهما».

وقيل: بل يستخرج من الملح، وأضيف إليهما لأنه منهما، وهو كقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل أتوا من الإنس، فأضيف إليهما لأن الإنس منهما، فكذلك الملح منهما.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾: أي: السفن ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في كلِّ واحدٍ منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾: جمع ماخرة.

قال أبو عبيدة: مخرتِ السفينةُ الماءَ؛ أي: شقته(١).

وقال الفراء: مَخْرُها: خَرْقُها الماء(٢). وصرفُه من باب صنع ودخل جميعاً.

وقال الكسائي: مخرتُ السفينة: إذا استقبلتُ بها الريحَ، والفرس يستمخِرُ الريحَ ويَمتخرها؛ أي: يستقبلها استرواحاً.

وقال مقاتل: ﴿مَوَاخِرَ﴾: مقبلةً ومُدبرةً، ترى سفينتين إحداهما مقبلةٌ والأخرى مدبرةٌ تجريان بمجرَى ريحٍ واحدة(٣).

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لتشكروا هذه النعمة.

* * *

(١٣) - ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٥٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٦٨).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٥٤).

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾: أي: يُدخل، فيأخذ من هذا ويزيد في الآخر ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ كذلك.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾: أي: ذلَّلهما في المسير بالطلوع والغروب لا يمتنعان عما سخَّرهما له، وعلَّق بهما معايش العباد ومصالحهم كما علَّق ذلك بتفاوت الليل والنهار في الفصول.

﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾: أي: كلٌّ من الشمس والقمر يجري إلى وقتٍ قد جعله الله له، فالقمر يقطع السماء في كلِّ شهرٍ مرةً والشمس في كلِّ سنةٍ مرةً.

وقيل: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي﴾؛ أي: الليل والنهار والشمس والقمر على العادة في الدنيا إلى أن يجيء الأجل المسمى عند الله تعالى في نقض هذه العادة بانقضاء الدنيا فخُسف القمر ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وانفطرت السماء وانشقت، و﴿ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، و﴿ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾: لا يخرج شيء من السماوات والأرض ومَن فيهما عن مِلكه ومُلكه، فإياه فاعبدوا دون الأصنام.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾: أي: تَدْعونهم آلهة، وقيل: أي: تعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ وهي القشرة التي على النَّواة، وإذا لم يملكوا هذا القَدْر على حقارته وصغره فما فوقه أبعد.

* * *

(١٤) - ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ بحوائجكم أو تنادونهم ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوۡ

سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾؛ أي: ما أَمْكنهم إعانتُكم؛ لأنهم لا يقدرون على كشف الكروب.

وقيل: لو كانوا سامعين ما تابعوكم على الكفر.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: أي: يتبرؤون منكم ويجحدون أنكم عبدتُموهم، فإن كان هذا في الأصنام فجحودهم يوم القيامة بأنْ يُنطقهم الله تعالى يومئذ، فيجحدون أن يكونوا أهلاً للعبادة، وأن تكون عبادة المشركين في الحقيقة لها، أو يجحدون أن تكون تلك العبادة حقًّا. وإنما ذكر أفعالهم بالواو والنون لأنه وصفهم بصفات العقلاء، فصار كما في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وإن كان هذا في الملائكة والأنبياء فمعنى قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾ لغيبتهم عنكم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم يملكون ذلك ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يقولون: ﴿مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] بل كانوا يعبدون الجن، أو يجحدون أن يكونوا أمروهم بذلك، أو أن يكون ذلك حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: أي: لا يخبرُك عن الغيوب مثلُ مَن يعلم حقيقتَها وهو الله تعالى؛ أي: وقد أخبرتك بما يكون من أحوال هؤلاء يوم القيامة فتيقَّنْه.

* * *

(١٥) ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: المحتاجون إليه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾؛ أي: المستغني عنكم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المستحِقُّ للحمد، ما أمركم أو نهاكم لحاجته إليكم بل لحاجتُكم إليه، ونفعُ ذلك لكم وضررُه عائد إليكم.

ووجه آخر: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى الأصنام، فإياه فاعبدوا.

ووجه آخر: لا ترجوا الخلائق ولا تَسلوهم فكلُّهم محتاجون، بل اللهَ فارجوا وإياه فاسألوا.

* * *

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: كلَّكم شريفكم ووضيعَكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ووحَّد ﴿جَدِيدٍ﴾ لأن لفظ الخلق واحد وأصله مصدر، ومعناه: بخلائق.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: أي: بعسيرٍ، وهو إذهابكم.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: ولا تحمل نفسٌ حاملة حملَ نفسٍ أخرى يوم القيامة، فلا تغترُّوا بقول كبرائكم المتعزِّزين[1] بالدنيا، القائلين لكم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، فلا تُجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: أي: نفسٌ مثقلةٌ بالذنوب ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليُحمل من ذنوبها شيء ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ والكناية ترجع إلى ﴿حِمْلِهَا﴾.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: أي ولو كان مدعوُّها قريباً لها؛ من أبٍ أو أمٍّ أو أخٍ أو أختٍ أو نحوِ ذلك، وكل امرئ منهم له شأنٌ يغنيه.

---

(١) في (ر): «المتغررين».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: إن إنذارك إنما يقبلُه وينتفع به مَن يخشى الله في حالة الغيب، فأما مَن لم يخشَه فلا ينتفِع بإنذارك، فكأنه لم يسمع إنذارك وكأنك لم تنذره وهو كقوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وكقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقال ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ذكره بلفظ الماضي وذكر ﴿يَخْشَوْنَ﴾ بصيغة المستقبل لأن الخشية صفةٌ لازمةٌ دائمةٌ والصلاةَ مؤقتةٌ لها أوقاتٌ مخصوصة تنقضي بانقضائها وتنتهي بانتهائها.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: أي: تطهَّر من الآثام ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فنَفْعُ ذلك له.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: مرجع الكلِّ من الخاشعين المصلِّين المتزكِّين وغيرهم.

وقال بعض أهل المعرفة في قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]: ذكر الفقر في آية والغنى في آية، والمؤمن فقير خِلقةً وغني خِلعةً[(١)].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن افتقر إلى شيء استغنَى بوجوده، فالمفتقِرُ إلى الله مستغنٍ بالله، والمستغني بالله مفتقرٌ إلى الله.

ومن آداب الفقير الصادق: إظهارُ التشكُّر عند كمال التكسُّر[(٢)].

وقال: إن الحق لم يسمِّ عباده فقراءَ إزراءً[(٣)] بهم فإن كرمه يتقدَّس عن ذلك، ولا

---

(١) في (ف): «فالمؤمن فقير خلقة وغني خلقة»، وفي (ر): «فالمؤمن فقير بخلقه وغني خلقة».

(٢) في (أ): «إظهار التكسر عند كمال التكسر»، وفي (ر) و(ف): «إظهار التكسر عند كمال التكثر». والمثبت من «اللطائف».

(٣) في (ر): «ازدراء».

وصَف نفسه غنيًّا افتخاراً به فإن جلاله يتعالى عن ذلك، لكن أراد به تقويةَ رجائنا في كرمه وجوده بإعطائنا.

وقال: إذا لم تدَّع ما هو صفتُه من استحقاق الغنى، أولاك ما يُغنيك وأعطاك فوقَ ما يكفيك(١).

* * *

(١٩ ـ ٢١) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: مَثَلٌ للضالِّ والمهتدي ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾: مَثَلٌ للضلالة(٢) والهدى ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: مَثَلٌ لجزاء المهتدي وجزاء الضال.

وقيل: ﴿ٱلظِّلُّ﴾: الجنة؛ قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] و﴿ٱلْحَرُورُ﴾: النار، وأصل الحرور: السَّموم، وهي الريح الحارَّة في الشمس، والظلُّ للراحة والحرورُ للتعب والشدة.

وقال الفراء: ﴿ٱلْحَرُورُ﴾ يكون بالليل والنهار، والسَّموم لا يكون إلا في النهار(٣).

وفي «ديوان الأدب»: الحرور: شدة الحر بالنهار، ويقال: بل هي بالليل، والسموم شدة الحر بالليل، ويقال: بل هي بالنهار(٤). كذا قال على الشك فيهما.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) في (أ): «للضلالات».

(٣) ذكره عن الفراء ابن فورك في «تفسيره» (٢/ ١٦٧)، ولم أجده في «معاني القرآن» للفراء.

(٤) انظر: «ديوان الأدب» (٣/ ٦٩ و٧١).

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: قيل: هي مَثَلُ المؤمنين والكفار، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أي: كافراً فهديناه.

ويقال: هو مَثَل العلماء والجهَّال.

وأما تكرارُ (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فقد قال الأخفش: هي زائدة، تقديرها: ولا الظلماتُ والنور، وكذا ما بعده.

وقال غيره: هي مقدَّرة، ومعناها: ولا الظلمات تساوي النور، ولا النورُ يساوي الظلمات، وكذا ما بعده.

والأصل إثباتُها في كلِّ موضع، فأما الأول ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فـ(لا) بينهما مقدَّرةٌ على هذا، وتقديرها: وما يستوي الأعمى ولا البصير؛ أي: لا يساوي الأعمى البصيرَ ولا البصيرُ الأعمى[1]، والآية تقريرٌ لِمَا قبلها فإنها في بيان الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾: يقول: إنك يا محمد قد أنذرت الكفار وما أنت بقادرٍ على أن تُسمع الموتى في القبور؛ أي تُدخل الإيمان في قلوب الكفار، بل ذلك من مقدور الله تعالى، ولو شاء الله لهداهم أجمعين ليس إليك إلا الإنذار وقد أنذرت.

* * *

(٢٤) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

---

(١) في (ف): «وتقديرها: وما يستوي الأعمى والبصير ولا البصير والأعمى».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: بالدِّين الذي يحقُّ اعتقاده ﴿بَشِيرٗا﴾ بالجنة لمن آمن ﴿وَنَذِيرٗا﴾ بالنار لمن كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾: أي: وما[1] من أمةٍ قبلَ أمتك ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾: مضى فيها رسول، ما أخلينا أمةً عن رسول.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: أهلُ عصرك ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحجج، وقيل: أي: بالمعجزات.

وقيل: أي: بالشرائع التي بانت صحتُها وحسنُها في العقول

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: أي: الأخبارِ عن الكتب المتقدمة المنزَلة على الأنبياء قبلهم

﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾: أي: الكتاب المنزل عليه المنوِّر الموضِّح لِمَا يحتاجون إليه.

* * *

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: استأصلتُ الذين كذبوهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: تغييري عليهم.

---

(١) «وما» ليست في (أ).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: وهذا من محاجَّة المشركين أيضاً، يقول: ألم تشاهد يا محمدُ عجائب صنع الله تعالى فيما خلَق، وهذا خطاب له ولأمته معنًى، من ذلك أنه أنزل من السماء مطراً.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾: رجوعٌ من المغايبة إلى الإخبار عن نفسه، وهو من تلوين الكلام.

وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾: نصب لأنه نعتُ ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ وهي منصوبة لأنها مفعولٌ بها، ولم يقل: مختلفةً؛ لأنه في معنى تقديم الفعل على الاسم؛ لأن تقديره: اختلف ألوانها.

ثم اختلافُ ألوانها[1] مع اتِّفاق الماء والتربة دليلٌ على أن الفاعل بها ذلك هو الله القادر الذي لا يُعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ﴾: أي: طرائق، جمع جُدَّة؛ أي: طريقةٍ؛ كالمدَّة والمُدَد.

وقوله تعالى: ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾: وتذكيرُ المختلف لِمَا مرَّ أنه مقدَّم على الاسم، ورفعُ هذه الكلمات بالابتداء والخبر، دون العطف على الأول بإيقاع الفعل عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: جمع غِرْبيبٍ، وهو الذي لونُه لونُ الغراب، ولذلك قال بعدها: ﴿سُودٌ﴾ لأن الأول دلالةٌ على السواد والثاني إفصاحٌ وتفسير، وهي من صفات الجُدَد، وبيانِ اختلاف ألوانها بالبياض والحمرة والسواد.

***

---

(١) في (ف): «طعمها».

(٢٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾: وهو ابتداءٌ أيضاً، و﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ على التذكير في قوله: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ وفي قوله: ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ لِمَا أن كلمة (مِن) للتبعيض، ويقتضي أن يكون تقديره: ما يختلف ألوانه، فانصرف إلى البعض أو إلى كلمة (ما) وهو واحد في اللفظ، وقال: ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ولم يقل: لونه؛ للمعنى وهو جمع.

يقول: ومختلفٌ كذلك ألوانُ الناس والدوابِّ، وهو جمع دابة، وهي في الأصل اسمٌ لكلِّ ما يدبُّ على الأرض، وعند الإطلاق يقع[1] على الخيل والبغال والحمير عند ذكر الركوب، قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، وقد تقع على الإبل خاصةً على كثرة أصنافها وأجناسها وأنواعها[2]، ولا يجوز أن يكون كونُها بأنفسها واختلافُها بذواتها، بل بصانعٍ قديرٍ عالم مريدٍ خلَقَها كذلك، ومَن قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى، ولا يكون من الحكمة أن يتركهم سدًى، بل ينهاهم ويأمرهم، وإذا خالفوه أو وافقوه فلا بدَّ من أن يجازيَهم على ذلك، وإذا لم يجازهم به في دار الدنيا فلا بد من دارٍ أخرى يجازيهِم بها فيها.

فمَن كان عالماً بهذا كلِّه خشي الله تعالى، وهو معنى قوله بعده:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾: وهؤلاء المشركون لا يخشون لجهلهم بالله؛ قال النبي ﷺ: «أنا أعلمُكم بالله وأخشاكم لله»[3].

---

(١) قوله: «وعند الإطلاق يقع» كذا في (ر) و(ف)، ولعل الصواب: (عند الإطلاق ويقع).

(٢) من قوله: «وعند الإطلاق...» إلى هنا ليس في (أ).

(٣) » رواه البخاري (٢٠)، ومسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ولفظ البخاري: «إن =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: منيع لا يُعترَض عليه فيما يفعل بأهل المخالفة[١] ﴿غَفُورٌ﴾: لا يعاجل بالعقوبة، ويغفر ذنوب أهل التوبة.

* * *

(٢٩) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: أي: القرآنَ، وهم العلماء الذين يخشون الله، ويقرؤون كتاب الله، ويتَّعظون بمواعظه، ويَثِقون بوعده ووعيده.

وقيل: هو التوراة والإنجيل، وهو مدحُ مَن أسلم من أهل الكتاب.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: عطَف الماضي على المستقبل وهو سائغ، ولعل معناه: قد أطاعوا الله في الماضي ويطيعونه في المستقبل أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: يجوز أن يكون في حقِّ الإنفاق خاصةً، وقد قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ويجوز أن يكون في حق الصلاة أيضاً كذلك، وحاصله: أن الفرائض يُجهر بها والنوافلَ يُخفى بها[٢] فيهما جميعاً[٣].

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾: هي للحال؛ أي: راجين بها متاجرةَ الله تعالى تجارةً لن تكسدَ، وليسوا قاطعين القول بما يعملون من الطاعات أنهم يثابون عليها؛

= أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»، وهو عند مسلم بلفظ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

(١) في (أ): «بالمخالفة» بدل: «بأهل المخالفة».

(٢) «والنوافل يخفي بها» ليس في (أ).

(٣) «فيهما جميعاً» ليس في (ف).

لأنهم يخشون ردَّها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وهذا يبطل قول المعتزلة خذلهم الله: إنه يجب على الله أن يقبلها ويثيبَ عليها.

ومعنى ﴿لَّن تَبُورَ﴾: أنهم يربحون فيها؛ لأن السلعة إذا كسَدت على صاحبها لم يَنتفعْ بها.

* * *

(٣٠) ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾: أي: يتلون ويتصدَّقون ويصلُّون وينفقون ليتمِّم الله لهم(١) ما وعدهم من الثواب على الطاعات ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على الموعود، فقد قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ للذنوب الكثيرة ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات اليسيرة، يرضاها ويقبلها ويُثني عليها ويحب صاحبها، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

* * *

(٣١) ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: القرآن الذي يتلوه هؤلاء ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: موافقاً لِمَا قبله من التوراة والإنجيل وسائرِ الكتب في التوحيد والعبادة والإخبار عن الأمور الكائنة، ونُصب على القطع لأنه نكرةٌ نعت به المعرفة.

(١) في (أ): «ليتم الله» بدل: «ليتمم الله لهم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ﴾: يعلم ما يُضمرون ﴿بَصِيرٌ﴾: يرى ما يُظهرون.

وإذا حُمل قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ على التوراة والإنجيل، فقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ على الماضي؛ أي: وقد صلَّوا وزكَّوا قبل مجيء محمدٍ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ هو ما قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]؛ ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾؛ أي: لِمَا كان منهم قبل الإيمان بمحمدٍ ﴿شَكُورٌ﴾ لإيمانهم به ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن لا يخالفُ ذلك بل يوافقُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ لعلمه بهم وبمصالحهم أنزل عليكم وعليهم الكتبَ لبيان مصالح الدِّين والدنيا.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ثم نخبركم أنَّا أعطينا الكتاب؛ أي: هذا الكتاب وهو القرآن.

وقال الإمام القشيري: سماه ميراثاً لأنه بغيرِ كسبٍ، والإرثُ يُستحقُّ بنسَب وسبب، والنسب هاهنا هو الإيمان والسبب الطاعة، ففي الأول[1] يُبدأ بصاحب الفرض وقد يقل نصيبه، فكذا هاهنا بدأ بالظالم ونصيبُه أقلُّ من نصيب الآخرين[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾: أي: هذه الأمةَ الذين اخترناهم ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: وهم من خواصِّنا وهم ثلاثُ طبقات:

---

(١) في (أ): «الإرث».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٠٤)، والكلام فيه بنحوه.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾: وهو الذي يقترف الذنوب غيرَ مستحلٍّ لها ولا جاحدٍ تحريمها.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾: هو الذي لم يبلغ النهايةَ من الطاعات مستكثِراً منها، بل يسلك القصد في أعماله، فأتى بالفرائض دون النوافل، وبقليل من النوافل؛ كالمقتصد في النفقة الذي لا يُسرف ولا يقتِّر، أو خلَط عملاً صالحاً وآخَر سيئاً.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: أي: مُبادِرٌ إلى كلِّها مستكثِرٌ منها مستفرِغٌ وُسْعَه في مواصلتها ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بتيسير الله ذلك عليه لا باستبداده.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كأنه قال: يا ظالم ارفع رأسك فإنك وإن ظلمتَ فما ظلمتَ إلا نفسك، ويا سابق اخفِضْ رأسك فإنك وإن سَبقْتَ فما سَبقْتَ إلا بتوفيقي.

وقد كثُرت الأقاويلُ فيها مما[1] رُوي في الحديث ونُقل عن الصحابة والتابعين ومَن بعدهم:

قال عمر رضي الله عنه: سابقُنا سابقٌ، ومقتصدُنا ناجٍ، وظالِمُنا مغفور له[2].

---

(١) في (أ): «مما».

(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً، فالمرفوع رواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٠٥)، من طريق الفضل بن عميرة، عن ميمون بن سياه، عن أبي عثمان النهدي عن عمر رضي الله عنه. والفضل بن عميرة ضعيف، وقال العقيلي: لا يتابع عليه.

ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (٦١) من طريق ميمون بن سياه عن عمر رضي الله عنه. وهذا منقطع كما ذكر البيهقي.

والموقوف رواه سعيد بن منصور في «سننه» عقب الخبر (٢٣٠٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» =

وقال عثمان رضي الله عنه سابقنا أهل الجهاد منا، ومقتصدُنا أهلُ حضرنا، وظالمنا أهل بَدْونا[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: السابق بالخيرات من مضى على عهد رسول الله ﷺ من أصحابه فيشهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، والمقتصِدُ مَن اتَّبع أثره من أصحابه، والظالم لنفسه مِثْلي ومِثْلُك ومَن اتَّبعنا[٢].

وقال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنِب للصغائر والكبائر.

وقال السدي: السابق هو السابق إلى الإسلام والهجرة، والمقتصد هو السابق إلى الهجرة، والظالم: الذي أسلم بعد الهجرة قبل فتح مكة.

وقال عكرمة: السابق أصحاب رسول الله ﷺ، والمقتصد مَن يليهم من التابعين، والظالم قوم يكونون في آخر الزمان.

وقال عطاء رحمه الله: السابق أصحاب رسول الله ﷺ، والمقتصد التابعون، والظالم مَن يجيء بعد التابعين.

= عقب الخبر (٦٢). وإسناده غير قوي كما قال البيهقي، وانظر: «الكاف الشاف» (ص: ١٣٩).

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠٨)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٠). وإسناده غير قوي كما قال البيهقي.

(٢) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٤٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٩٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلتَ بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي.

وقولها رضي الله عنها: (مثلي ومثلك...) هو من باب التواضع وهضم النفس كما هو دأب الصالحين من المؤمنين.

وقال مقاتل بن حيان رحمه الله: الظالم يعذَّب بذنبه ثم يخرج من النار، والمقتصد ينجو بالشفاعة، والسابق ينجو برحمة الله.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: الظالم آكل الحرام، والمقتصد آكل الشبهة، والسابق آكل الحلال.

وقال الحسن رحمه الله: الظالم مَن رجحت سيئاته على حسناته، والمقتصِد مَن استوت حسناته وسيئاته، والسابق مَن رجحت حسناته على سيئاته(١).

وقيل: الظالم الجاهل، والمقتصد المتعلِّم، والسابق العالم.

وقيل: الظالم طالبُ الدنيا، والمقتصد طالب العُقبى، والسابق طالب المولى.

وقيل: الظالم الذي يسعى للمعاش، والمقتصد الذي يسعى للمعاش والمعاد، والسابق الذي يسعى للمعاد.

وقيل: الظالم الذي ظاهرُه خيرٌ من باطنه والمقتصد الذي ظاهره مثلُ باطنه، والسابق الذي باطنه خيرٌ من ظاهره.

وقيل: الظالم الذي يَجمع الحرام، والمقتصد مَن يجمع الحلال، والسابق الذي لا يجمع شيئاً.

وقيل: الظالم الذي يرائي في كل الأعمال، والمقتصد الذي يرائي في بعضها ويخلِص في بعضها، والسابق الذي يخلِص في كلِّها.

وقيل: الظالم الذي إذا أُنعم عليه بخل به، والمقتصِد الذي إذا أُنعم عليه جاد به، والسابق الذي إذا مُنع شكَر عليه.

---

(١) ذكره السلمي في «تفسيره» (٢/ ١٦١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٠٩)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٢٤).

وقيل: الظالم المصِرُّ، والمقتصد التائب، والسابق المتَّقي.

وقيل: الظالم الذي يعبد الله ليَخلص من النار، والمقتصِد الذي يعبد الله ليدخل الجنة، والسابق الذي يعبد الله لأنه عبدُه.

وقيل: الظالم الذي يعظُ بقوله، والمقتصِد الذي يعظُ بفعله، والسابق الذي يعظُ بسرِّه.

وقيل: الظالم الذي يجزع في البليَّة، والمقتصد الذي يَصبر فيها، والسابق الذي يتلذَّذ بها.

وقيل: الظالم الذي يفرح بوجود الدنيا، والمقتصِد الذي يتمنَّى زوالها عنه، والسابق الذي لا تخطر بباله الدنيا.

وقيل: الظالم الذي يعتمد على فعله، والمقتصِد الذي يعتمد على دينه[1]، والسابق الذي يعتمد على ربه.

وقيل: الظالم الذي هو في الطريق، والمقتصد الذي هو على الباب، والسابق الذي هو على البساط.

وقيل: الظالم الطالب، والمقتصد الواجد، والسابق المطلوب.

وقيل: الظالم الذي هو بلا ذِكرٍ، والمقتصد الذي هو مع الذِّكر، والسابق الذي مع المذكور.

وقيل: الظالم الذي يظلم نفسه، والمقتصد الذي وهب نفسه، والسابق الذي خرج عن نفسه.

---

(١) في (أ): «ذنبه».

وقيل: الظالم الذي ينظر إلى الطاعة[١]، والمقتصد الذي ينظر إلى التوفيق، والسابق الذي ينظر إلى الموفِّق.

وقيل: الظالم الذي يعاقَب، والمقتصِد الذي يعاتَب، والسابق الذي يُعتذَر منه.

وقيل: الظالم الضاحك، والمقتصد: المتبسِّم، والسابق الباكي.

وقيل: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

وقيل: الظالم الذي يَعْمُر البيت، والمقتصد الذي يَعْمُر القبر، والسابق الذي يَعْمُر القلب.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الظالم مَن جاد بنفسه، والمقتصد مَن جاد بقلبه[٢]، والسابق من جاد بروحه.

وقيل: الظالم مَن له علم اليقين، والمقتصدُ مَن له عين اليقين، والسابق مَن له حقُّ اليقين.

وقيل: الظالم طالب النجاة، والمقتصِد طالب الدرجات، والسابق طالب المناجاة[٣].

وقال أسامة بن زيد وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في هذه الآية أنه قال: «كلُّهم في الجنة»[٤].

---

(١) في (ف): «الظالم الذي يطلب التوفيق».

(٢) في «اللطائف»: (الظالم من جاد بماله، والمقتصد من لم يبخل بنفسه...).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات»: (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٤) حديث أسامة رضي الله عنه رواه الطبراني في «الكبير» (٤١٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦): فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ. =

وقدم رجل من الشام إلى المدينة فلقي أبا الدرداء، فقال له أبو الدرداء رضي الله عنه: ألَا أحدِّثك حديثاً أُتحفك به ما حدَّثتُ به غيرك منذ سمعتُه من رسول الله ﷺ، سمعتُه تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال: «يدخل السابق بالخيرات الجنةَ بغير حساب، ويحاسب المقتصد حساباً يسيراً، ويُحبس الظالم لنفسه في طول المحشر[1]، ثم يتلقَّاهم الله جميعاً برحمته، فعند ذلك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[2].

وروي عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل الكتاب أسلم فقال له ناس: ما حملك على الدخول في ديننا؟ فقال: رغبتي فيكم، وسأحدثكم أيها الأمة: إنكم تنزلون يوم القيامة على ثلاث فرق:

فأما فرقه: فيدخلون الجنة بغير حساب.

وأما فرقة فيحاسبون حساباً يسيراً.

وأما الثالثة فتقوم الملائكة فيقولون: ربنا هؤلاء أصحاب الدماء الحرام والأموال الحرام والفروج الحرام، غير أنَّا وجدناهم لا يشركون بك شيئاً، قال: فيقول: اجعلوا خطاياهم على أهل النار وأدخلوهم الجنة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾: أي: توفيقُ الله تعالى السابقَ إلى الخيرات بالسَّبق إفضالٌ من الله كبير.

= وحديث أبي سعيد رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٦). قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: في إسناده من لم يُسمَّ.

(١) في جميع النسخ: «الحبس»، والمثبت من المصادر.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٤٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٩٧) و(٢٧٥٠٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٥). وإسناده ضعيف، ينظر الكلام عليه في حاشية «المسند».

وقيل: إنزال الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقيل: هو اصطفاؤهم.

وقيل: هو إضافتهم إلى نفسه بقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي: بساتينُ إقامةٍ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: هذه الفرق الثلاث ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وفي ذلك اللذةُ والزينة، وقد بينَّا تفسيره والقراءةَ فيه في سورة الحج.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾:

قيل: هو حزنُ الحبس في موقف[1] الحساب على ما روينا.

وقيل: هو حزن الفزع الأكبر؛ كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقيل: هو حزن الموت، يقولون ذلك حين يذبح الموت.

وقيل: هو حزن الدنيا والاهتمامُ بالفوت[2] ونحو ذلك.

قال عطاءٌ الخراساني رحمه الله: هو حزنُ الحشر، وهو عام.

ويجوز أن يكون كلُّ ذلك مراداً[3].

---

(١) في (أ): «موضع».

(٢) في (ف): «للقوت».

(٣) في (أ): «ويجوز لأن يكون مراداً».

وقيل: هو حزن الأخذ بتقصير الطاعات، والعقوبةِ على ارتكاب[١] الجنايات، ويدلُّ عليه ما بعده: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفر الجنايات الكثيرة، وقيل: الطاعات اليسيرة.

* * *

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾: قيل: هو نعتُ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾.

وقيل: هو عطف على قوله: ﴿شَكُورٌ﴾.

وقيل: تقديره: هو ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾؛ أي: الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: هذا بفضله لا باستحقاقنا.

قوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا﴾: أي: في دار الإقامة ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب، من حدِّ علم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: أي: لا يصيبنا فيها إعياء، وصرفُه من بابِ دخل؛ أي: لا سعي عليهم في أسباب المعاش فلا تعبَ ولا إعياء، ولا تهتمُّ قلوبهم بعدم مراد فلا مشقَّة ولا عناء.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا أرادوا أن يروه لم يحتاجوا إلى قطع مسافةٍ، ولا إلى تحديقِ مقلةٍ نحو جهة[٢].

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «فعل».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: هو وعيدٌ المخالفين بعد وعد الموافقين.

﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾: أي: لا يموتون فيستريحوا، فيقولون(١): ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]؛ أي الموت، وقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥]؛ أي: أماته.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾: فيستريحوا بعض الراحة، ولا يعارضه قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ [الإسراء: ٩٧] لأن الآلام لا تنقطع وإن خبت أحياناً.

ثم تقسيم(٢) الفرق الثلاث على المؤمنين في الآية الأولى قولُ عامة المفسرين، وهو نظير قوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] وبعدها: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢] وبعدها: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦].

وبعضهم حملوها على غير هذا:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: هذه الثلاثة كما في سورة الواقعة ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] وفي آخر السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الواقعة: ٩٢](٣).

فعلى قوله الظالم نفسه هو الكافر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً في هذه الآية: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ هو الكافر(٤).

---

(١) «فيقولون» من (ف).

(٢) في (ر) و(ف): «تفسير».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٢) عن قتادة.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٢).

وعن الحسن: هو المنافق[١].

فعلى قول هؤلاء قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ لا يرجع إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ وإنما يرجع إلى قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: فمن عبادنا خلقه كافر وكذا وكذا، وقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يرجع إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ لا إلى عموم قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وإلى الظالم لنفسه والمقتصد والسابق، ويكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ بيانُ موضع الظالم لنفسه، ويستقيم أيضاً على نظمه وظاهره قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾: مبالغةٌ في الكافر، وهو الذي يجحد الله أو رسله أو كتبه أو البعث أو شيئاً مما أخبر به النبي ﷺ أنه كائن.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: أي: يستغيثون في النار بصوتٍ عال، والصراخ: الصوت العالي في الاستغاثة.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾: هذا بيان صراخهم، يقولون: ردَّنا إلى دار الامتحان نعملِ الطاعات غيرَ الذي كنا نعملُ من المعاصي.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: وهذا رد عليهم، ويضمر في أوله: فيقال لهم: أولم نجعلْ لكم من العمر في الدنيا ما يمكِن التذكُّر والاتِّعاظ فيه بالكتب ومقالات الرسل، وهذا استفهامٌ بمعنى التقريعِ والتوبيخ.

وتقدير قوله: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: مَن أراد أن يتذكر.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٢).

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: أي: الرسول المنذِر.

وقيل: هو إلزام الحجة عليهم بالعقل والسمع، فإن التذكُّر من باب العقل، والإنذارَ من باب السمع.

وقيل في قوله ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنه سبعون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أربعون سنة.

وقال الحسن رحمه الله: عشرون سنة(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثماني عشر سنة(٢).

وقيل: يوم واحد فما فوقه.

وقيل: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾؛ أي: الشيب(٣).

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾: وهذا يقوِّي قولَ مَن حمل قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ على الكافر؛ لأنه ختم وعيدَ الكفار بتسميتهم بهذا الاسم.

---

(١) لم أقف عليه عن الحسن، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٤١) دون عزو.
وذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٧٦)، والسمعاني في «تفسيره» (٤/ ٣٦١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٤١)، عن الحسن أنه البلوغ، زاد الماوردي وابن عطية: لأنه أول زمان التذكر.
وذكر النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٤٦١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١١٤)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٣٢)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٤٢٥)، عن الحسن قوله: (أربعون سنة).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١١٤) عن الكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٤٩٤) عن عطاء ووهب وأبي العالية وقتادة. أما ابن عباس فروى عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٥٥)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٨٥) قوله: (ستون سنة).

(٣) روي في «تفسير مجاهد» (ص: ٥٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: يعلم أنه لو ردَّكم إلى الدنيا لم تعملوا غيرَ الذي كنتم تعملون ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: خفيَّات القلوب، يعلم أنكم كاذبون في هذا الكلام.

وقيل: الآية مبتدأةٌ عامة شاملة للترغيب والترهيب.

* * *

(٣٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: كما أورثكم الكتاب أورثكم الأرضَ فجعلكم خلفاء لمن تقدَّمكم فيها، فجعل سلطانها لكم، أنعم عليكم بذلك لتشكروا له.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾: أي: فمَضرَّةُ كفرانه النعمة راجعةٌ إليه[1].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗا﴾: أي: بغضاً.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾: إلا هلاكاً، وقيل: إلا غبناً بذهاب رؤوس أموالهم[2].

* * *

(٤٠) ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

---

(١) بعدها في (ر): «أي إلى الكافر».

(٢) «بذهاب رؤوس أموالهم» ليس في (أ).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: وهذا من محاجة المشركين أيضاً، يقول: قل يا محمد للمشركين: أخبروني عن الأصنام التي جعلتُموها شركاء لي[١].

﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تدعونهم آلهة، وقيل: تعبدونهم.

وقيل: أي: تدعونهم في حوائجكم وتستغيثون بهم.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أعلِموني ـ وقيل: أشيروا إليَّ عِياناً ـ أيَّ شيءٍ خلقوه من الأرض[٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أم خلقوا شيئاً في السماوات فكان لهم فيها شركةٌ أو نصيب بذلك.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾: أي: نزلنا عليهم كتاباً فيه تصويب شركهم وأن الأصنام شفعاءُ لهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: حجةٍ وبصيرةٍ فلا يمكِنهم أن يَدَعوا شيئاً من ذلك، فإذاً لا حجة لهم عقلاً ولا سمعاً، فالعقل أن يخلقوا كخلقي، والسمع أن ينزل بذلك كتابي، فإذا عُدما لم يكن فعلهم إلا ضلالاً وجهالة.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾: أي: ما يَعِدُ، وهو وعدُ الشيطان للكافر كما قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] منَّاهم أن تشفعَ لهم أصنامهم وتقرِّبَهم إلى الله زلفى.

وقيل: هم المشركون يقول بعضهم لبعض: إن آلهتنا هذه تنفعنا عند الله.

* * *

---

(١) في (ف): «شركائي» وفي (ر): «شركاء في».

(٢) «أي: أعلموني، وقيل: أشيروا إلي عياناً أي شيء خلقوه من الأرض» من (ف).

(٤١) ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾: أي: فإن لم يكن لآلهتهم شركٌ في السماوات والأرض فيستحِقُّوا أن يُعبدوا فاعلموا أني أنا المستحِقُّ لها؛ لأني أنا خالقُهما وحافظهما، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] ولو لم أمسكهما لزالتا.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَزُولَا﴾؛ أي: من أن تزولا.

وقيل: أي: لئلا تزولا؛ كقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥]؛ أي: لئلا تميد بكم.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾: أي: ما أمسكهما أحدٌ من بعد إمساكه إياهما، وقيل: أي: بعد زوالهما. وقيل: أي: غيرُه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾: تعليل بمعنًى اقتضاه قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾؛ أي: ولو زالتا لردَّهما الله تعالى إلى مكانهما وأمسكهما كما كانتا لمصالح العباد؛ لأنه ﴿كَانَ حَلِيمًا﴾ قادراً لا يعاجل بالعقوبة ﴿غَفُورٗا﴾ ساتراً لذنوب العباد، ماحياً لها إذا تابوا.

ووجه آخر في تفسير تمام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولو لم يمسكهما[1] لزالتا لفظاعة مقالة المشركين في الله، وهو كما قال: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾[2] [مريم: ٨٨ ـ ٩٠]

---

(١) في (أ): «ولولا أمسكهما».

(٢) في (ف) و(أ) بدل ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: «ينفطرن»، وهي قراءة سبعية تقدمت في موضعها.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لا يعاجلُ الكفار بالعقوبة ويَستر عليهم في الدنيا.

* * *

(٤٢) - ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: أي: وحلف هؤلاء المشركون قبل أن يَبعث الله محمداً بالله أيماناً بالَغوا في تأكيدها على أنفسهم: لئن جاءهم رسول من الله ينذرهم كما جاء مَن قبلهم من الأمم ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ أي: أشدَّ اتِّباعاً له من أهل الكتاب لأنبيائهم، وذلك أن أهل الكتاب كانوا يُظهرون الفضل لأنفسهم على العرب بالكتاب والنبوة فيهم، فكان العرب يَسوؤهم ذلك لِمَا كانوا عليه من الأَنَفة والحميَّة، فكانوا يتمنون أن يكون منهم رسول.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: وهو محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: ما ازدادوا مع مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق، وهو كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورة لا تَزيد إيماناً ولا رجساً، لكن المراد هذا، والإضافةُ إلى النذير والسورة للتسبُّب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا بلغ قريشاً أن اليهود والنصارى كذَّبوا رسلهم وجحدوهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى، لئن جاءنا رسول لنكونَنَّ أهدى منهم(١).

---

(١) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٣٩)، وورد دون عزو في كثير من التفاسير. انظر: «تفسير =

ونظيرُه قولُه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

* * *

(٤٣) - ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا﴾: أي: نفروا عنه ليكون لهم الكبرياءُ والعلوُّ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: في بلادهم ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾؛ أي: وليخدعوا الضعفاء التابعين لهم بالاحتيال، ويصدُّوهم بذلك عن الإيمان ليكونوا أعواناً لهم كما كانوا يقولون: نحن أكثر أتباعاً وأعزُّ نفراً.

وإضافة المكر إلى السيِّئ إضافةُ الشيء إلى نفسه كإضافة الحق إلى اليقين ونحوِ ذلك، ووصفه بالسيئ لأنه كان للصدِّ عن الحق، وقد يكون المكرُ حسناً إذا كان احتيالاً للدعاء إلى الحق.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾: أي: لا ينزل إلا بهم(١).

وقال الزهري: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «لا تمكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣] ولا تنكُثْ ولا تُعِنْ ناكثاً فإن الله يقول: ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]»(٢).

= مقاتل» (٣/ ٥٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٧٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٤٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ١١٥)، و«تفسير البغوي» (٦/ ٤٢٦).

(١) «إلا بهم» ليس في (أ) و(ف).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٧٢٥).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: فما ينتظرون إلا طريقةَ الأولين أن ينزل بهم[1] ما نزل بالأولين حين كذَّبوا أنبياءهم ومكروا بهم، وهو كقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾: أي: إن الله تعالى لا يبدل هذه الطريقةَ في الكفار ولا يحوِّلها عنهم، أضاف السنَّة إليهم مرةً وإلى نفسه مرةً لأنها سنَّةُ الله فيهم، وهو كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤].

* * *

(٤٤) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: فيعرفوا كيف كان سنَّةُ الله فيهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: ليس من صفة الله العجزُ عن شيء من إنزال العذاب بالأعداء وغير ذلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾: عالماً بكل شيء قادراً على كل شيء.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾.

---

(١) في (ر): «عليهم».

ثم بيَّن أن تأخير العذاب عنهم[١] ليس للعجز بل لحكمة، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾: أي: يعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: من الكفر والمعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾؛ أي: ظهر الأرض، ولم يتقدم ذكرها لكنه معلوم المراد ﴿مِن دَابَّةٍ﴾؛ أي: حيوان يدبُّ على وجه الأرض؛ لأن الناس إذا خلت عنهم الأرض وكان سائر الحيوانات خلقت لهم أهلكوا أيضاً ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: معلومٍ عنده لكلِّ قوم.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾: وقتهم عذبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾: عالماً بهم وبوقت عذابهم.

* * *

---

(١) في (ف): «عليهم» وليست في (ر).

سُورَةُ يسٓ

سُورَةُ يسٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الذي أنزل الكتاب الحكيم، الرحمنِ الذي مَن خشيَه بالغيب فله مغفرةٌ وأجر كريم، الرحيمِ الذي لأوليائه في جنته ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

وهذه السورة مكية، وهي ثلاث وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية، والاختلاف في يس أنه آية عند الكوفيين.

وكلماتها سبع مئة وخمس وعشرون، وحروفها ألفان وسبع مئة وستة وسبعون[1].

روى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكلِّ شيء قلباً، وإنَّ يس قلبُ القرآن، ومَن قرأ يس يريد بها وجه الله غَفر الله له، وأُعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن ـ أُراه قال: ـ ثنتي عشرةَ مرةً، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملكُ الموت سورةُ يس نزل بعدد كلِّ حرف في سورة يس عشرةُ أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلُّون عليه ويستغفرون له ويشهدون غَسله ويتبعون جنازته ويشهدون دفنه، وأيُّما مسلم قرأ سورة يس وهو في سكرات الموت لم يَقبض ملكُ الموت روحَه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربةٍ من شراب الجنة، فيشربها وهو على

---

(١) في (أ): «وتسعون». وانظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢١١)، وفيه: كلمها سبع مئة وسبع وعشرون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وعشرون حرفاً.

فراشه، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريَّانُ، ويمكث في قبره وهو ريَّانُ، ويبعث يوم القيامة وهو ريَّانُ، ويحاسب وهو ريَّان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريَّان»(١).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ يس كان كمَن قرأ القرآن عشرَ مرات»(٢).

وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة لا يقرؤون من القرآن إلا يس وطه»(٣).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة يس في ليلةٍ ابتغاءَ وجه الله تعالى غَفر الله له تلك الليلة»(٤).

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١١٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٣٦). وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٥١): قال الوليُّ العراقيُّ: رواه الثَّعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب، وهو موضوع.
ورَوَى التِّرمذيّ (٢٨٨٧) الجملة الأولى منه عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حَيَّان عن قَتَادَة عن أنس، وقال: غريب، وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٢٤٦٦). وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (٢/ ٦٧): حديث منكر.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٨٦) (ط: دار التفسير)، وهو مرسل، ومع إرساله فيه المسيب بن شريك وهو متروك.

(٤) رواه الدارمي في «سننه» من طريق الحسن عن أبي هريرة به، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ٣٨). ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٥٧٤) من طريق الحسن عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ، ولم يصح للحسن سماع من جندب كما في «المراسيل» (ص: ٤٢)، وذكر الدارقطني في «العلل» (١٠/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩) الاختلاف على الحسن فيه ثم قال: وليس فيها شيء ثابت.

وعن النبي ﷺ: أنه قال لعلي[١] رضي الله عنه: «يا عليُّ، أكثر من قراءة يس فإن فيها خصالاً من البركات، ما قرأها جائع إلا أشبعه الله، وما قرأها خائف إلا أمَّنه الله، وما قرأها ملهوف ولا مكروب إلا فرَّج الله عنه، وما قرأها ظمآنُ إلا رَوِي، ولا عريانُ إلا كُسِيَ، ولا فقيرٌ إلا استغنى، ولا عَزَبٌ إلا تَزوَّج، ولا مسافرٌ إلا أُعِين على سفره، ولا مَدْيون إلا قضَى الله عنه دينه، ولا محبوسٌ إلا أُخرج، ولا قُرئت عند ميت قط[٢] إلا خفَّف الله عنه، ولا يجد تلك الساعة من كُرَب الموت، وما قرأها رجلٌ ضلت له ضالةٌ إلا ردها الله عليه ووجدها، ومَن قرأها صباحاً كان في أمان الله حتى يمسيَ، ومَن قرأها مساءً كان في أمانِ الله حتى يصبحَ»[٣].

وروي عن[٤] النبي ﷺ: «مَن قرأ يس أمام حاجته قُضيت له»[٥].

وانتظامُ أول هذه السورة بآخر سورة الملائكة بالكلمتين: أن آخر تلك السورة باسم من أسماء الله وأولَ هذه السورة كذلك، وبالآيتين: أنَّ ختم تلك بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ ومن كسبهم تكذيب الرسل، وفي أول هذه السورة بيان إرسال الرسول، وبالآيات: أن من أواخر تلك السورة ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وما بعده في تقدير ذلك، وفي أول هذه السورة بيان إرسال النذير.

---

(١) في (ر) و(ف): «وقال النبي ﷺ لعلي».

(٢) «قط» ليست في (أ).

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٤٦٩)، وفيه السري بن خالد، قال عنه الذهبي في ترجمته في «الميزان»: لا يعرف، قال الأزدي: لا يحتج به.

(٤) في (أ): «وقال» بدل: «وروي عن».

(٥) رواه المحاملي في «أماليه» من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، كما في «الإتقان» (٤/ ١٦٣). وكذا ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧١/ ٥٨). ولم أقف على إسناده.

وانتظام السورتين: أنهما في محاجَّة[١] المشركين المنكرين بعثَ الرسل في الدنيا وبعثَ الموتى في العُقبى، وفي ذمهم ووعيدهم، وفي مدح المؤمنين المقرِّين بذلك ومواعيدهم.

* * *

(١) - ﴿يسٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يسٓ﴾: قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى، وهذا قسمٌ به[٢].

وقيل: هو اسم القرآن.

وقيل: هو اسم هذه السورة.

وقال[٣] ابن عباس وابن مسعود وعكرمة والضحاك وجماعةٌ رضي الله عنهم: معناه: يا إنسان[٤].

وقال الهيثم بن عدي: هو يا إنسان بلغة طيء، وعن[٥] ابن عباس رضي الله عنهما: هو بالسُّريانية[٦].

وقيل: معناه: يا سيد المرسلين.

وقيل: (يا) يومُ الميثاق، وسين: سرُّ الله مع أحبابه[٧].

---

(١) في (أ): «أنهما لمحاجة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) في (أ): «وقال».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨) عن عكرمة، وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٤٧١) عن الحسن والضحاك، وسيأتي عن ابن عباس.

(٥) في (أ): «وقال».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٧) وهذا يندرج ضمن ما عُرف عن الصُّوفيَّةِ من التفسيرِ بالإشارات، وهي طريقةٌ ليستْ مقبولةً عند =

(٢) ـ ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾: قسمٌ بالقرآن المحكَم فلا يَلحقُه تغيير.

وقيل: أي: ذو الحكمة.

وقيل: أي: الحاكم بما فيه من الأحكام.

* * *

(٣ ـ ٤) ـ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: خطاب لنبينا محمد، وقسم على إرساله إلى الخلق.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾: له وجهان:

أحدهما: إنك ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

والثاني: أنه صفة لـ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؛ أي: أنت منهم.

ودليل الأول قوله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

ودليل الثاني قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

* * *

(٥ ـ ٦) ـ ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

= جمهورِ العلماء، ومَن سَكَتَ عنها فليس لأنه يعدُّها من التفسير، بل هي عندَه من بابِ الشيءِ بالشيءِ يُذْكر، وإلا فللتَّفسير ضوابطُه التي لا يجوز الحيدُ عنها، ولو فُتح هذا البابُ لساغ للباطنيَّة تسويغُ افتراءاتهم الباطلةِ في الآياتِ القرآنيَّة، وقد ذكرنا في هذه المسألة تحريراً حسناً في مقدمة تحقيقنا لـ«روح المعاني».

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تنزيلُ﴾ بالرفع؛ أي: هو ـ أو: هذا ـ تنزيل، أو[1] هو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: مُنزَّلُ الله العزيزِ المنيعِ المنتقِم من أهل معصيته الرحيمِ بأهل طاعته.

وقرأ الباقون بالنصب على المصدر[2]؛ أي: والقرآنِ المنزلِ تنزيلاً من العزيز الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾: أي: إنك لمرسلٌ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ أي: لتخوِّف من عذاب الله ﴿قَوْمًا﴾.

﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: له وجهان:

أحدهما: أن (ما) يكون اسماً؛ أي: لتنذرهم بالذي أَنذر الرسلُ المتقدِّمون آباءَ هؤلاء.

والثاني: أن (ما) للنفي؛ أي: قوماً لم ينذِر آباءَهم[3] أحدٌ من الرسل؛ أي: لم يأتهم رسل؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤].

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾: أي: عن التدبُّر في إنذار الرسل الماضين.

وعلى القول الثاني: أي: عن التدبر بالعقول فيما يَلزمُهم من توحيد الله، وفيما جاء به[4] رسولهم هذا.

وقيل: أي: غافلون عما أُعد لهم من العقاب؛ كالرجل يُعَدُّ له ما يكرهُه وهو لا يعلم به، فيقال له: إنك لغافلٌ عما يرادُ بك.

---

(١) في (أ) و(ف): «و».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٣)، وفيهما «أبو عمرو» بدل «ابن عامر».

(٣) في (أ): «ينذروهم» بدل: «ينذر آباءهم».

(٤) في (أ): «أجابهم» بدل: «جاء به».

وقيل: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾: أي: بما أُنذر آباؤهم، قاله الفراء، وهو كقوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣](١).

* * *

(٧) ـ ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾: أي: لقد تحقَّق قول الله على أكثر هؤلاء بموتهم على الكفر ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو في قومٍ علِم الله منهم اختيارَ الكفر والإصرارَ عليه، فشاء منهم ذلك وأخبر عنهم بذلك فهُم كذلك.

وقيل: حق القول عليهم هو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] في تلك الآية هو معلق بشرط الاتِّباع، وفي هذه الآية حقَّ القول بذلك(٢) وسقط الشرط؛ لعِلْم الله منهم بالاتِّباع دون الإقلاع، وهو كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦] وكقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [الأحقاف: ١٨].

* * *

(٨) ـ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾: الذَّقَن: مجتمع اللَّحْيين.

والمُقْمَح: الغاضُّ بصرَه بعد رفع رأسه، وقال مجاهد: هو الذي رفع رأسه وشَخَص ببصره(٣).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٢).

(٢) «بذلك» من (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٠٤)، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» =

والغل: ما يُشد به اليدُ إلى العنق للتعذيب والتشديد(١) من الحديد وغير الحديد.

وتقديرها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ فالأغلال مع الأيدي مجموعةٌ إلى الأذقان(٢)، وهو عبارةٌ عن منع التوفيق حتى صاروا متكبِّرين مستثقِلين الحقَّ؛ لأن المتكبِّر يوصف بانتصاب العنق، والمتواضعَ يوصفُ بضدِّه، قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، ويقول المستثقِل للآخر: ما أستطيعُ أن أنظر إليك، والذي جمعت يداه إلى عنقه إلى الذقن(٣) منتصبُ الرأس، فجُعل ذلك مثلاً للمتكبِّر(٤) عن الحق، والغاضُّ بصرَه مَثَلاً للمستثقِل للحق.

وقال عكرمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ يعني: بني المغيرة بن مخزوم أمسكنا أيديهم عن الإنفاق في الخير(٥).

وقال السدي: إن الآية نزلت في قومٍ من قريش اجتمعوا وكان النبيُّ جالساً عند البيت في نفر من أصحابه، فقالت قريش: انطلِقوا فنأخذَ محمداً وأصحابَه فنرتقيَ بهم فوق أبي قبيس، فأما محمد فنضربُ عنقه وأما أصحابه فأيُّما رجل افتدَتْه عشيرتُه بدِيَته فقد خلَّينا سبيله، وإلا ضربنا عنقه، فأقبلوا فجعل الله من بين أيديهم

= (٧/ ٤٤)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٥٥٩)، جميعهم بلفظ: رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم.

(١) في (ر): «والغل» بدل: «والتشديد».

(٢) في (ر): «إلى العنق».

(٣) في (أ): «والذي جعلت يداه إلى عنقه من الذقن».

(٤) في (ف): «للمتكبرين».

(٥) لم أجده هكذا، وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٠٦) عن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصره.

سدًّا وظلمة، ومِن خلفهم سدًّا وظلمة، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم بغير حديد فهم مقمحون(١).

وعن عكرمة قال: كان ناس من المشركين من قريش يقول بعضهم لبعض: لو قد رأيت محمداً لفعلت به كذا وكذا، ويقول بعضهم: لو قد رأيته لفعلت به كذا وكذا، فأتاهم النبي وهم في حلقة في المسجد فوقف عليهم فقرأ عليهم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ثم أخذ تراباً فجعل يذرِّيه على رؤوسهم وما يرفع إليه رجلٌ منهم طَرْفَه ولا يتكلَّم بكلمة، ثم جاوز النبيُّ فجعلوا ينفضون التراب عن رؤوسهم ولحاهم وهم يقولون: والله ما أبصرنا، والله ما سمعنا، والله ما عَقَلنا(٢).

وقيل: هذا شيءٌ يُفعل بهم في(٣) القيامة؛ كما قال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، وكذلك السدُّ من بين أيديهم ومن خلفهم، والإغشاء هو في معنى قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] واللفظ ماضٍ وهو في معنى المستقبل؛ لأنه كائن لا محالة فأُلحق بالموجود المتحقِّق.

* * *

(٩) ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: على التأويل

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٥٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥).

(٢) رواه بنحوه مختصراً ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥).

(٣) في (أ): «يوم».

الأول؛ أي: منعناهم الألطافَ فانسدَّت عليهم المسالك فلم يقدروا على النفوذ(١) منها.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: أي: أعميناهم وغطَّينا أبصارهم.

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: وهذا من أشدِّ ما يقع به المنعُ من النفوذ(٢)، وهو انسدادُ المسالك مع عدم البصر.

وقيل: هو مَثَلٌ(٣) لتحيُّرهم وتردُّدهم في ضلالتهم.

وقال الحسن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: البعثَ، فلا يُقرُّون به ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: الدنيا فلا يطيعون الله فيها.

وقال الضحاك على قلبِ هذا: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا لأنها حاضرتُهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الآخرة لأنها آتيةٌ مِن بعدُ(٤).

* * *

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هم قومٌ علِم الله منهم ذلك.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: إنما ينتفع بإنذارك مَن اتَّبع الذكر؛ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) في (ر) و(ف): «التعوذ».

(٢) في (ر) و(ف): «التعوذ».

(٣) في (ر) و(ف): «شك».

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤١٨).

وقيل: ﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾: انتفع[١] بذكرك ووعظِك ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ قيل: بالعذاب الغيبِ الذي أخبر به.

قال قتادة: يقول ﴿خَشِيَ﴾ عذابَ الله وناره[٢].

وقيل: ﴿خَشِيَ﴾ حين يغيب عن أبصار الناظرين.

وقيل: ﴿خَشِيَ﴾ بالقلب الذي هو غيبٌ عن الناس.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾: بأن الله تعالى يغفر له ما سلف في شركه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾: ثوابٍ خطير في الجنة.

***

(١٢) - ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾: في الآخرة بالبعث للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في الدنيا ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ من الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَآثَارَهُمْ﴾: ما خلَّفوه مما يضاف إليهم من الأموال والأولاد وسائر الآثار.

وقيل: ما سنُّوه من الخير والشر فاتَّبعهم على ذلك مَن بعدهم، لهم أجرُ ذلك ووزرُ ذلك.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾: أي: عدَدْناه وحفِظناه.

﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾: قال ابن عباس ومقاتل والضحاك وعكرمة والسدِّي: أي: في اللوح المحفوظ[٣].

---

(١) «انتفع» ليست في (أ).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٦٢) عن ابن عباس ومقاتل، وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٥)، =

والإمام: ما يؤتم به؛ أي: يُعمل به ويُتَّبع ولا يخالَف.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾؛ أي: من المقدَّم والآثار وغيرِ ذلك، و(كلَّ) نصب بفعلٍ مقدَّر دلَّ عليه المظهَر بعده.

وقيل: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾: خطاهم في الخير والشر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الأنصار منازلهم بعيدة عن المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ فقالوا: بل نمكث مكاننا(١).

وقال المغيرة بن شعبة والضحاك: نزلت الآية في بني عُذرة، وكانت منازلهم بعيدةً من المسجد، وكان يشقُّ عليهم حضورُهم الجماعات، فأنزل الله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ يعني: خطاهم إلى المسجد(٢).

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: نَهدي الكفار ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ في الشرك ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ ما عمِلوه في الإسلام.

* * *

(١٣) - ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: أمر نبيَّه ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن ينزل بهم في الدنيا ما نزل بكفار أهل تلك القرية، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤١٢) عن مجاهد وقتادة وابن زيد بلفظ: (أم الكتاب). وانظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٤٨) و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٢٢).

(١) رواه ابن ماجه (٧٨٥). وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند الترمذي (٣٥٠٦)، وقال: حديث حسن غريب. وآخر دون ذكر الآية من حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (٦٦٤) و(٦٦٥). وثالث دون ذكر الآية أيضاً من حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري (٦٥٦) و(١٨٨٧).

(٢) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٢٢).

﴿مَثَلًا﴾؛ أي: صِفْ لهم شَبَهاً يمتثِلونه في أمرك وأمرهم ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ترجمةٌ عن قوله: ﴿مَّثَلًا﴾، وهي أنطاكية.

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: رسل الله، وقيل: رسل المسيح.

* * *

(١٤) ـ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾: أي: أرسلنا في الابتداء رسولين.

وقال محمد بن إسحاق: أحدهما تاروص والآخر ماروص عليهما السلام(١).

وقال مقاتل بن سليمان: تومان ومالوص(٢).

وقال وهب: يحيى ويونس(٣).

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾: أي: أهلُ القرية جحدوهما.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾: أي: قوَّيناهما برسول ثالث صدَّقهما؛ كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقيل: تعزيزهما بالثالث كان بتلطُّفه الذي نبيِّن في القصة إن شاء الله.

﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾: أي: قال الثلاثة لأهل القرية: قد أُرسلنا الله إليكم فصدِّقونا.

وقال ابن عباس ومقاتل: وجَّه عيسى عليه السلام رسولين، فلما قرُبا من المدينة

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٢٥) عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «قومان ومالوص» وفي (ر): «قومان ومالوض». وفي «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٥) تومان ويونس. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٢٥) عن مقاتل، وفيه: تومان ومانوص.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٢٥).

رأيا شيخاً يرعَى غنيماتٍ له، فسلما عليه فقال الشيخ لهما: مَن أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله، فقال: أمعكما آيةٌ؟ قالا: نعم، نحن نشفي المرضى ونُبرئ الأكمه[١] والأبرص - فقال بعضهم: كان لهذا الشيخ ابنٌ صاحبُ فراشٍ منذ سنين، وقال بعضهم: كانت له بنت بهذه الصفة - فقال الشيخ لهما: إن لي عليلاً، قالا: ومَن هو منك؟ قال: هو ولدي، قالا: فانطَلِق بنا إلى منزلك فنطَّلعَ[٢] حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى وشفاه الله تعالى، وفشا الخبر في الناس وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يقال له: شلاحن[٣]، فانتهى الخبر إليه فقال لهما: مَن أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام، قال: وما آيتكما؟ قالا: نبرئ الأكمه والأبرص ونشفي المرضى، قال: وفيم جئتما؟ قالا: جئناك ندعوك من عبادةِ ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادةِ مَن يسمع ويبصر، قال شلاحن[٤]: ولنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتك، قال: قُوما حتى أنظرَ في أمركما، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق. وكان اسم الشيخ الذي ذهب بهما إلى منزله حبيباً النجار[٥].

قال مقاتل: لما أخذوا الرسولين وضربوهما بعث عيسى رسولاً ثالثاً[٦].

قال وهب ومحمد بن إسحاق: اسمه شمعون وكان من الحواريين.

---

(١) في (أ): «نشفي المريض والأكمه».

(٢) في (ف): «نتطلع».

(٣) في (أ): «شلاحان».

(٤) في (أ): «شلاحان».

(٥) في جميع النسخ: «حبيب النجار»، والصواب المثبت. وهذا الخبر ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١١)، ونسباه للعلماء بأخبار الأنبياء، وهو من الإسرائيليات.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٥).

وقال مقاتل: اسمه شمعان، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾[1].

وقال وهب: بعث عيسى صلوات الله عليه يحيى ويونس إلى أنطاكية، فأتياها فلم يصلا إلى ملكها، وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكابراه وذكَّراه اللهَ تعالى، فغضب الملك وأمر بهما فأُخذا وحُبسا وجُلد كلُّ واحد منهما كذا جلدةً، ثم بعث عيسى شمعون على إثرهما لينصرَهما فدخل شمعونُ البلد متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أَنِسوا به وأَنِس بهم، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه ورضي عِشْرته وأَنِس به وأكرمه، ثم قال[2] له ذات يوم: أيها الملك، بلغني أنك حبستَ رجلين في السجن وضربتَهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كلَّمْتَهما وسمعتَ قولهما، فقال الملك: حالَ الغضب بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نطَّلع ما عندهما، فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: مَن أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: الذي خلق كلَّ شيء وليس له شريك، قال لهما شمعون: فصِفَاه وأوجِزَا، فقالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون: وما آيتُكما؟ قالا: ما يتمناه الملك[3]، قال: فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموسِ العينين، موضعُ عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشقَّ موضع البصر، فأخذا بندقتين من طينٍ فوضعا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: أرأيت أن تسأل إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكونَ لك الشرف ولإلهك؟ فقال له الملك: ليس لي عنك سرٌّ إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلي كثيراً

---

(١) الذي في «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٧٥) هو عين ما نقله المؤلف عن وهب وابن إسحاق.

(٢) في (ف): «فقال»، وفي (ر): «قال».

(٣) في (أ) و(ف): «ما تتمناه».

ويتضرع حتى ظنُّوا أنه على ملتهم، فقال للملك: أهاهنا مثلُ هذا الغلام مطموسِ العينين، فأمر حتى أُحضر مثلُ ذلك الغلام مطموس العينين[1]، فصنعا به مثلَ ما صنعا بالأول، ففرح الملك بذلك ثم قال لصاحبيه: إني سائلُكما مسألة، قالا هات، قال: إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميتٍ آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كلِّ شيء، فقال الملك: إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابنٌ لدهقان[2] وأنا أخَّرتُه فلم أدفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً، فجاؤوا بالميت وقد تغيَّر واصفر وأَرْوَح، فجعلا يدعوان ربهما علانيةً وجعل شمعون يدعو ربه سرًّا يُعِينهما، فقام الميت وقال لهم: إني ميت[3] منذ سبعة أيام، ووجدتُ[4]مشركاً فأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمِنوا بالله، ثم قال: فُتحت أبواب السماء فنظرتُ فرأيتُ شابًّا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومَن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان، وأشار إلى صاحبيه، فتعجَّب الملك، فلما علم شمعون أن قوله قد أثر في الملك أخبر الملك بالحال ودعاه، فآمَن قوم وكان الملك فيمَن آمَن، وكفر آخرون[5]، فصاح فيهم جبريل عليه السلام صيحة فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

---

(١) «مطموس العينين» من (أ).

(٢) في (أ): «ابن الدهقان»، وفي «تفسير الثعلبي»: (ابنا لدهقان).

(٣) في (ف): «مت».

(٤) في (ر): «وقد مت»، والمثبت من باقي النسخ و«تفسير الثعلبي»، وليست الكلمة في «تفسير البغوي».

(٥) إلى هنا ذكره عن وهبٍ الثعلبيُّ في «تفسيره» (٨/ ١٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١١ ـ ١٢)، وهو مما أخذه وهب من أهل الكتاب. وزاد الثعلبي والبغوي بعده: وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم ويذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾.

(١٥) ـ ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾: قال أهل أنطاكية: ما أنتم أيها الثلاثة إلا آدميُّون مثلُنا فمن أين يجب علينا طاعتُكم، أو يجعلُكم الله رسلاً إلينا؟

﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ ﴾: أي: وحياً من السماء.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾: أي: ما أنتم إلا تكذبون في دعوى الإرسال والإنزال.

* * *

(١٦ ـ ١٧) ـ ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾.

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾: ويَشهد لنا على صدق دعوانا، والاستشهادُ بالله تأكيدٌ وتحقيقٌ وتقريرٌ في النفوس.

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾: أي: ليس عندنا من طاعته إلا أن نبلِّغ رسالته إليكم، ولا سلطان لنا على إجباركم على الإيمان، ولا أن نوقع في قلوبكم العلم بصدقنا.

* * *

(١٨) ـ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾: أي: تشاءمنا بكم؛ يعني[1]: سمعنا منكم ما هو من جهة الفأل نذيرٌ بمكروه يَلحقنا في أنفسنا أو في أهلينا أو أموالنا، أو غيرِ ذلك من أسبابنا وأمورنا، فكفُّوا عن هذا الكلام ولا تعاوِدونا به.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾: أي: لنقتلنكم بالحجارة.

---

(١) في (ر): «أي».

وقيل: لنشتمنَّكم، وحقيقته: لنرمينكم بالقول القبيح، والأولى: لنرمينكم بالحجارة.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: غليظٌ شديدٌ وجيع، فإن كان الأولُ قتلاً فهذا ما دون القتل.

وقيل: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنطردنَّكم ولنبعدنَّكم[1]؛ أي: ولنخرجنَّكم من قريتنا.

وقيل في قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: يحتمِل أن يكون هؤلاء سمعوا بما جرى على أممٍ قبلهم كذَّبوا رسلهم فأُهلكوا، فخافوا مثلَ ذلك، وهو معنى قول قتادة[2].

وقيل: بل أقحطوا فقالوا للرسل: أصابنا هذا من شؤمكم، كما في قصة موسى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

* * *

(١٩) - ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي: ما تطيَّرتم به من المكروه فذلك شيءٌ ألزمه الله تعالى أعناقَكم وكتبه عليكم، فهو جارٍ لكم وواقعٌ بكم[3] لا من جهتنا.

وقال أهل التفسير: الطائر هاهنا: هو العمل والحظُّ من الخير والشر.

وقيل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾؛ أي: إنما المكروه الواقع بكم بسوء أعمالكم لا مِن جهةِ غيركم.

---

(١) في (ر): «ولنعذبنكم».

(٢) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٨٠٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٧٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤١٦)، ولفظه: (قالوا: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم)، وفي رواية: (فهو بكم)، وفي أخرى: (فهو من قِبَلكم).

(٣) في (ف): «فيكم».

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾: أي: أئن ذكرتُم تطيَّرتُم؛ أي: أفيكون هذا دَأْبكم لا تتدبرون وعظاً ولا تتفكرون في تنبيه ولا تردُّون قولنا بحجة؛ أي: فليس هذا فعلَ العقلاء.

وقيل: معناه: أئن ذكرتم بالله تهدِّدوننا بالرجم والتعذيب.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أي: ليس لكم التطيُّر لعلمكم بأنَّا صادقون، ولأنكم قوم أسرفتُم على أنفسكم في ارتكاب المعاصي؛ أي: أكثرتم من ذلك وجاوزتُم الحد في قلة النظر لأنفسكم[1].

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾: ثبت أن تلك القرية كانت مدينةً متباينةَ الأطراف.

قوله: ﴿رَجُلٌ﴾: قيل: هو حبيبٌ النجار الذي ذكرنا أن الرسولين شفيَا ولده.

وقيل: كان رجلاً مجذوماً ينزل ناحية من المدينة.

وقيل: كان حرَّاثاً يعمل في حرثه[2] خارج المدينة.

قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي: يعدو.

وقيل: يقصد وجه الله بالذبِّ عن رسله، وهو من قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩].

وروي أن القوم عزموا على قتل هؤلاء الثلاثة[3] الرسل، فسعى هذا الرجل لذلك ليخلصهم، وكان يكتم إيمانه.

---

(١) في (أ): «في أنفسكم».

(٢) قوله: «في حرثه» ليس في (أ).

(٣) «الثلاثة» ليست في (أ) و(ف).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: باح بإسلامه ليشتغل القوم عن الرسل، و﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دلالةٌ وإظهار منه أنه لا مباينةَ بيننا ولا تهمةَ في إرادة السوء بكم.

﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ هؤلاء الذين أرسلهم الله.

* * *

(٢١) - ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾: أي: لا يقصدون بدعائكم استيكالكم[1].

﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: أي: على دينٍ حقٍّ يدعونكم إليه.

وقيل: خرج هذا الرجل بمالٍ يستطبُّ به من داءٍ كان به، فدعوا الله فشفاه الله تعالى، فأعطاهم ذلك المال فلم يقبلوه، فقال لذلك: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

* * *

(٢٢) - ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾: أي: وأيُّ شيء يمنعُني من أن أعبد الله الذي هو ابتدأ خلقي.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: أنتم للعرض والحساب والجزاء.

ولم يقل: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؛ ترقيقاً للكلام، وتلطُّفاً في الدعاء؛ لأنه إذا ذكره في حقِّ نفسه فقد ذكره[2] في حقِّهم، فحصل المقصود من غير تعنيفٍ وتشديد.

---

(١) في (ر): «أخذ الأجر منكم» بدل: «استيكالكم».

(٢) بعدها في (أ) و(ف): «بعد ذكره».

(٢٣ ـ ٢٥) ـ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾.

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾: أي: أصناماً ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أي: لا يخلصوني، دل أنهم كانوا عبدةَ أصنام.

﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾: أي: إن فعلتُ فعلكم كنتُ ضالًّا بيِّنَ الضلال مثلكم.

﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾: أي: فاشهدوا عليَّ بالإيمان أيتها الرسل.

وقيل: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾؛ أي: فأطيعون يا قوم.

* * *

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾: وهاهنا مضمر؛ أي: فقُتل فقيل له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، ودل ذلك على أن الجنة مخلوقةٌ، وعلى أن القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار[1].

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾: و(ما) مع الفعل مصدر؛ أي: بمغفرة الله لي، تمنى أن يعلمَ قومه بأنه غُفر له بإيمانه فيرغبوا في الإيمان.

وقيل: (ما) هو بمعنى: الذي؛ أي: بأيِّ شيء غفر لي، وهو الإيمان ليؤمنوا هم أيضاً، وهذه مرتبةُ أولياء الله، يريدون الخير بمن أراد بهم الشر، ويتمنون أن لا يكون لله عاص.

---

(١) في (أ) وهامش (ف): «النيران».

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بالجنة.

وقال الحسن: لمَّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه فهو في الجنة[١].

وقال غيره: قتلوه فلما دُفن نقله الله إلى الجنة.

قيل: لما قال هذا القول وثبوا عليه فقتلوه.

وقيل: رجموه بالحجارة كما قالوا لرسلهم: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾.

قال السدي: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهدِ قومي، حتى قطَّعوه وقتلوه[٢].

وقيل: توطَّؤوه بأقدامهم حتى تلف تحتها. وباشتغالهم بقتله تخلَّص الرسل.

***

(٢٨) ـ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾: أي: ولم ينزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماء لتعذيبهم كما يحتاج الملوك من البشر في الإيقاع بأعدائهم إلى ذلك.

قوله[٣]: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾؛ أي: وليس من صفاتي[٤] الحاجة إلى ذلك.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٣١) نقلًا عن القشيري، وتعقبه الآلوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ٢٢٨) بقوله: والجمهور على أنه قتل، وادعى ابن عطية [في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥١)] أنه تواترت الأخبار والروايات بذلك.

(٢) ذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (٨/ ١٢٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٥).

(٣) في (ر): «وقيل» وليست في (أ).

(٤) في (ر): «في صفاتنا».

وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ أي: والذي كنا منزلين على مَن قبلهم من الطوفان والقذف والصاعقة.

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: أي: ما كانت العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ من جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾؛ أي: ميتون، خمدت أرواحهم وسكنت أنفاسهم؛ كالنار إذا طَفِئت[1] من الإيقاد.

وقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾: أي: ندامةً تكون من العباد على أنفسهم إذا صاروا إلى دار الجزاء ورأوا ثواب أهل الطاعة، فيقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] والحسرة هي بلوغ النهاية في التلهُّف حتى يبقى القلب حسيراً لا موضع فيه لزيادة التلهُّف، كالبصير الحسير الذي لا قوة فيه للنظر، والبعيرِ الحسير الذي لا قوة له على المسير[2].

وقيل: هذا قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى.

وقيل: هو قول رسلهم حين رأوا ما نزل بهم.

وقيل: هو قول المعذَّبين حين رأوا نزول العذاب.

وقيل: هو ابتداء كلام من الله تعالى.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾: أي: ما يأتي العباد رسول ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: يسخرون.

---

(١) في (ف): «أطفئت».

(٢) في (ر) و(ف): «لا قوة فيه للمسير».

(٣١) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: أي: كفارُ قريش ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ على تكذيب الرسل فيعتبروا بهم.

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: قرأه العامة بفتح الألف لوقوع ﴿يَرَوْا﴾ عليها؛ أي: قد رأوا أن مَن هلك لا يرجع إلى الدنيا، بل هم قوم مُبقَّون في قبورهم إلى أن يُبعثوا فيحاسَبوا فيجازَوا بأعمالهم.

ومَن قرأ بالكسر[1] فعلى الابتداء؛ أي: حكمنا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وإنما يبعثون يوم القيامة، وكذلك حال هؤلاء.

ودلت الآية على بطلان قول القائلين بالتناسخ والقائلين بالرجعة، وبها استدل ابن عباس في ردِّ مَن قال بأن عليًّا مبعوث وإلينا مردود[2].

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾: قرئ ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد، وهو قراءة ابن عامر وحمزةَ وعاصمٍ، وله معنيان:

أحدهما: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾؛ أي: وما كلٌّ لمَّا جميع؛ أي: إلا جميع[3]؛ كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ أي: ما كلُّ نفس إلا عليها حافظ.

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٥).

(٣) في (ر): «إلا ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾» بدل: «لما جميع أي إلا جميع».

والثاني: أن ﴿إِن﴾ الخفيفة للتأكيد كالمشددة، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى (لممَّا)(١) حذفت الميم الأولى تخفيفاً؛ كما في قوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] على قولِ مَن قال: ﴿إِن﴾ كلمة تأكيد.

وقرئ بالتخفيف(٢)، وعلى هذا ﴿إِن﴾ للتأكيد و﴿لَـمَا﴾ اللام للتأكيد أيضاً في جواب ﴿إِن﴾، و(ما) صلة، وتقديره: وإنْ كلٌّ لجميعٌ لدينا محضَرون، يعني: في موقف حسابنا يوم القيامة محضَرون للعرض والجزاء.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾: أي: ومن العلامات الدالَّات

---

(١) في (أ): «لم ما»، وفي (ر): «لما»، والمثبت من (ف)، وعليه يكون أصلها: (لَمَنْ مَا) ثم انْقلبت النون ميماً فاجتمع ثلاث ميمات، فحذفت إحداها ـ وهي الوسطى ـ فبقيت (لَمَّا). هذا قول الفراء، ونقله الزجاج، والشرح الذي ذكرناه لفظه، لكنه تعقبه بقوله: (وهذا القول ليس بشيء؛ لأن (مَن) لا يجوز حذفها، لأنها اسم على حرفين).

وللفراء في المسألة قول آخر موافق لما جاء في النسخة (أ): (لم ما)، وبسطُ هذا القول: أن تُجعل (لَمَّا) بمنزلة (إلا) مع (إِنْ) خاصة، يعني أن (إن) و(لا) كلمتان أولاهما (إنْ) التي هي جحد بمنزلة (ما)، والثانية (لا) وهي أيضًا جحد، جمع بينهما فصارتا جميعًا حرفًا واحدًا، وخرجتا من حد الجحدِ إلى الاستثناء، فتكون (لمَّا) في مذهبها، كأنها (لَمْ) ضُمَّت إليها (ما) فصارتا جَميعًا استثناء وخرجتا من حد الجحد. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١)، وانظر أيضا «البسيط» للواحدي (١٨/ ٤٧٦)، وقد استعنا به لبسط قول الفراء وتوضيحه.

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٩).

على كمال قدرتنا على إحياء الموتى وغيرِ ذلك: أنَّا نحن[1] نحيي بالماء الذي ينزل من السماء الأرضَ التي قد ماتت فصارت لا نباتَ لها ولا حركة بها.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾: أي: أخرجنا منها أنواعَ الحب من الأطعمة كالحنطة والشعير والأقوات ﴿فَمِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الحَبِّ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ غذاءً لهم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: أي: في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وهما أعلى الثمار فخصَّهما بالذكر لذلك.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾: في الجنات عيونَ الماء؛ لتَحسُنَ مناظرُها وتبلغَ ثمارها.

***

(٣٥) ـ ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ﴾: ليكون لهم ثمارٌ يأكلونها.

وقوله تعالى: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾: من ثمرِ ما ذكرنا، ولم يؤنِّثها لذلك، وجمَع نعمة الثمار إلى نعمة الأطعمة.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: قيل: هو نفي، أي: ولم تعمله أيديهم، فإن الله أخرجها لهم، وهو كقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢].

وقيل: هو بمعنى (الذي)؛ أي: ومِن الذي عملَتْه أيديهم، وهي أصنافُ الأشربة والحلاوات؛ كما قال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ويدخل فيها العصير والخل والرُّبُّ وغيرها.

---

(١) «نحن» من (أ).

وقيل: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما غرسوه من الجنان ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ لم يَغْرسوه.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: كلمة استبطاءٍ وحثٍّ على الشكر.

* * *

(٣٦) - ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾: أي: تنزيهاً لله تعالى عمَّا لا يليق به من قول الكفار.

وقيل: أي: عجباً من الكفار مما يشركون مع ظهور هذه الآثار، قال الشاعر:

أقول لمَّا جاءني فخرُه سبحانَ من علقمةَ الفاخرِ(١)

أي: عجباً منه.

﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: الأصنافَ والأنواع من كلِّ شيء.

﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾: أي: تُخرج من الحب والنخل والأعناب.

﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي: ومن البشر.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: من أصناف خلقه في البَرِّ والبحر وقُعور الأرض وفي السماوات، وفي ذلك تعريفٌ أنه إذا كان خالقَ الأصناف كلِّها من غير أن يَشْرَكه فيه غيره، وجب تنزيهه عن الشركاء الذين لا يخلقون كخَلْقه، وفيه بيانُ وجوب النظر في علم الأصول، والاستدلالِ بدلائل(٢) العقول.

(١) البيت للأعشى، وهو في «ديوانه» (ص: ٩٤)، و«الكتاب» (١/ ٣٢٤)، وعلقمة هو ابن علاثة، والبيت في هجائه.

(٢) في (أ): «بدليل».

(٣٧) ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾: أي: ومن علامات قدرتنا وعِلمنا ورحمتنا ما ترونه من مجيء الليل والنهار خلفةً، نسلخ من الليل النهار؛ أي: نزيل منه الضوء الذي يكون بالنهار.

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: أي: داخلون في الظلمة بمجيء الليل.

ودلَّ هذا أن الليل كان قبل النهار، وأن الظلمة كالأصل والنورَ دخيلٌ عليه، فإذا سُلخ منه ـ أي: نُزع النور من الظلمة ـ خلصت الظلمةُ فكان الليلُ، وإذا أُلبست الظلمةُ النورَ كان النهار، قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ أي: يُلبسه، فإذا وُصف بالإلباس جاز أن يوصف بالسلخ الذي هو ضدُّه، فيقول[1]: فهذا شيء ترونه متَّسِقاً لا يتغير، فدل ذلك على علمِ فاعله وحكمتِه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: أي: إلى مستقرٍّ لها، كما يقال: جرى فلان لغايةِ كذا، وإلى غاية كذا، وله ثلاثة أوجه:

أحدها: استقرارها: قطعُ حركاتها بانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا.

والثاني: قول قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: لوقتٍ واحدٍ لها لا تَعْدُوه[2].

والثالث: تجري إلى أبعد منازلها في الغروب ثم ترجع، فمستقرُّها بلوغُها الموضعَ الذي لا تتجاوزه؛ كالإنسان يقطع مسافةً لا يسكن فيها حتى يبلغَ أقصى مقصوده، فيستقر هناك ـ على معنى أنه لا يجاوزه ـ ثم يرجع.

---

(١) «فيقول» ليست في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٣٥).

وقال الحسن: إن للشمس في السنة ثلاثَ مئة وستين مطلِعاً، تنزِل في كلِّ يوم في مطلعٍ منها ثم لا تنزله إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل فهي مستقرُّها[١].

وقيل: مستقرُّها: هو الوقت الذي يَحبس الله فيه الشمسَ عن الطلوع.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾: أي: مَن تأمَّل أحوال مجيء الليل والنهار ومجاريَ الشمس علم بما يجد[٢] من دلائل الحدوث وآثار التدبير أنها مقدَّرة مدبَّرة لمدبِّرٍ عالمٍ عزيز لا يغالَب ولا يُمنع مما يريد إمضاءَه في خليقته.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾: قرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو: ﴿والقمرُ﴾[٣] بالرفع على الابتداء، والباقون بالنصب[٤] بإضمارِ فعلٍ مقدَّم مقدَّر دلَّ عليه الـمُظهَر المؤخَّر، وهو قوله: ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾.

يقول: وفي القمر دلالةُ ذلك أيضاً؛ لأنه في مسيره لازم لطريقةٍ واحدة لا تختلف، بل ينزل كلَّ ليلةٍ منزلاً معروفاً فيقطع الفَلَك في ثمانٍ وعشرين ليلةً، ثم يستسِرُّ ثم يَطلع هلالاً، ومنازلُه ثمانية وعشرون نجماً.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾: العرجون: العِذْقُ الذي فيه الشماريخ، فإذا تقادم

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٥)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ر) و(ف): «علم ما يجب».

(٣) في (ر): «وسهل ويعقوب عن ورش» بدل: «والقمر».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

عهدُه حتى يبسَ تقوَّس؛ أي: يَدِقُّ[١] القمر في ليلة ثمانٍ وعشرين حتى يصير كالعرجون المتقادم في الدقة والتقوُّس.

* * *

(٤٠) ـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: قيل: أي: خلَقهما الله تعالى على صفةٍ يستحيل إدراك الشمس القمرَ واجتماعُهما ما بقيت الدنيا، فإذا انقضى[٢] العالم وقامت القيامة جمع الشمس والقمر.

وقيل: أي: لا يصلُح أن تدركَ الشمس القمرَ[٣] فيغلبَ ضوؤها ضوءَه، فتذهبَ آية الليل وتصيرَ الأوقات كلُّها نهاراً.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: أي: ولا يصلح أن يكون الليل غالباً للنهار فتكونَ الأوقاتُ كلُّها ليلاً، بل يتعاقبان لمصالح أهل الدنيا.

﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: أي: كلُّ واحد من الشمس والقمر والنجوم التي هي مثلُهما[٤] يَجرون في الفَلَك بسرعةٍ، وكلُّ واحدٍ مسخَّرٌ مقصورٌ على ما لا يتعدَّاه.

وقيل: أي: القمر أسرعُ سيراً وقطعاً للفَلَك من الشمس، وهو يسبق الشمس، والشمس لا تدركه فيَبطُلَ سلطانُه، والليلُ لا يسبق النهارَ فيجيءَ في غير الوقت المقدَّر له.

---

(١) في (أ): «أي تقوس».

(٢) في (ف): «انتقض».

(٣) «وقيل: أي لا يصلح أن تدرك الشمس القمر» ليس من (ف).

(٤) في (ر) و(ف): «منازلهما».

وقال الحسن: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ ليلةَ الهلال؛ أي[1]: لا ينبغي لها أن تبقى حتى يطلع القمر والشمسُ طالعةٌ، لكن إذا وجبت الشمس ظهر القمر.

وقوله تعالى ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: جَمع بالواو والنون لأنه وصَفها بصفات العقلاء.

وقالوا: وصفُ الله تعالى هذه الطوالعَ بالسباحة والسبق والإدراك توسُّعٌ؛ إذ لا اختيار لها في أفعالها لكنها مسخَّرةٌ يُفعل ذلك بها جبراً، وهو كقولهم: تحرَّك الحائط، ونحوه.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وسهل ويعقوب[2]: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ جمعاً والباقون ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على الوحدة[3]؛ أي: ومن علامات قدرتنا ودلائل وحدانيتنا أنَّا حملنا ذرية هؤلاء المشركين من أهل مكة في سفينة نوح المملوءةِ من الناس ومما يحتاجون إليه، والفُلك مذكَّر هاهنا، وهو واحد، والذرية: الأولاد، وتقديره: ذريةَ أصلهم؛ أي: آدم، وهو كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ أي: خلق أصلكم وهو آدم.

وقيل: أراد بالذرية الأسلافَ؛ لأنه من الذَّرْء وهو الخلقُ، فيَصلح[4] الاسمُ للأصل والنسل لأن بعضهم خُلق من بعضٍ.

---

(١) في (أ): «و».

(٢) في (أ): «وابن عامر» بدل من «وأبو جعفر وابن عامر وسهل ويعقوب».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٠ ـ ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤)، و«النشر» (٢/ ٢٧٣).

(٤) في (أ): «فيصحح».

وقيل: أي: حملنا ذرية هؤلاء مع نوح في السفينة؛ لأن ذرية آدم كلَّهم كانوا في أصلاب أولئك وكانوا محمولين كلُّهم، يعرِّفهم المنَّةَ بأنْ سلَّم آباءهم وسلَّمهم وأخرجهم للحال وجعلهم ولاة بيته.

وقيل: معناه: وحملنا ذرية هؤلاء وهم الصبيانُ والنسوان ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: في السفينة التي تكون في هذا[1] الزمان، وهم بأنفسهم عَجَزةٌ عن قطع المسافات.

* * *

(٤٢) - ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾: أي: مثلِ الفلك المشحون وهو سفينةُ نوح.

﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾: من السفن في كلِّ زمان، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية[2]، وعنه في رواية: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ هي الأنعام هذه في البر[3]، وتلك في البحر للحمل والنقل من مكان إلى مكان، وهو كقوله ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

* * *

(٤٣) - ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾: في البحر مع السفينة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا مُغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: يَخلصون[4].

---

(١) في (ر): «في آخر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٤٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٤٦).

(٤) في (ر) و(ف): «لا يخلصون».

وقيل: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي: لا يجدون في البحر صريخاً، وإن وجدوا لا يقدر على إنقاذهم.

وقيل: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يحفظُهم أن يغرقوا ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: ليس لهم مَن يخلِّصهم بعد أن غرقوا.

* * *

(٤٤ ـ ٤٥) ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾: إلا أن نرحمَهم نحن فنخلِّصَهم.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾: ونمتِّعَهم بالبقاء إلى انقضاء أعمارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: وجوابه محذوف، وهو: أعرَضوا.

قال الكلبي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من الآخرة فاعمَلوا لها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الدنيا اتَّقوها فلا تغترُّوا بها.

وقيل: اتَّقوا ما تقدم من معاصيكم وما تأخَّر مما أنتم تعملونه من بعدُ.

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾: ما سلف قبلكم من عقوبات الله للأمم الخالية أن ينزل بكم مثلُها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من العذاب في الآخرة بعد هلاككم[1].

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: اتَّقوا الكفر بآيات الله التي نزلت فيكم[2]، وبآياته التي نزلت بعد خلقكم، وآمِنوا بها جميعاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لتُرحموا، وجوابه ما قلنا.

---

(١) في (ف): «ضلالكم».

(٢) في (ف): «قبلكم».

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: وهذا يدل على أن المضمَر: أعرضوا.

وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾، ﴿مِّنْ﴾ للتأكيد، ومعناه: وما تأتيهم آيةٌ.

قال مقاتل: هي انشقاق القمر بمكة نصفين[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: قال مقاتل بن سليمان: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للمشركين: أعطونا ما زعمتُم من أموالكم أنها لله مما ذرأ من الحرث والأنعام، فسألوهم نصيب الله من أموالهم فحرموهم فقالوا:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾: أي: أنُعطي مَن لو يشاء الله أعطاه[2]؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: ما أنتم؛ قيل: هو قول الكفار للمؤمنين؛ أي: إنكم لتقولون: إن الله قادرٌ على أن يوسّع على عباده[3] ثم تتركون مسألته وتسألوننا.

وقيل: هو خطاب للكفار: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في التكلُّم بهذا على وجه الاستهزاء بالمؤمنين، وفي التعلُّق بهذا في ترك الإنفاق على المحتاجين، فإنهم كانوا يقولون: إنكم قلتُم ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وإذا كان الله يرزقنا فهو قادر على أن

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٤٩) تفسير الآية الرابعة من سورة الأنعام.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٥٨١).

(٣) في (ر): «عبده»، وفي (ف): «عبيده».

يرزقكم، فما معنى التماسِكم الرزقَ منا؟ وهذا جهل منهم؛ لأن الله تعالى إذا رزق عبداً شيئاً وملَّكه إياه لم ينقطع عنه ملكُه، وأوجب فيه حقوقاً أمره بأدائها، فليس للعبد أن يمتنع عنها؛ كالمالك منا إذا أعطى عبده مالاً ثم أمره أن ينفق منه في كذا، فليس له أن يقول: أنت أعطيتَني هذا فأعطِ فلاناً أيضاً من عندك ولا تأمرني به فيما هو مالي، ومن الجهل أيضاً أن يقول العبد: لا أعطي مَن لم يعطه الله.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو شاء الله لجعلكم أغنياءَ لا فقيرَ فيكم، ولو شاء الله لجعلكم فقراءَ لا غني فيكم، ولكن ابتلى بعضَكم ببعضٍ لينظر كيف عطفُ الغني وكيف صبرُ الفقير»[1].

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: يتصل بقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: الساعةَ، قالوا: متى الساعةُ التي تَعِدوننا بها، فقد أتت على آبائنا الدهور الكثيرة فلم تأت؟ فأُجيبوا عن ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أي: ترسَل عليهم فتهلكُهم وهي النفخة الأولى.

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: الواو للحال؛ أي: في حال اختصامهم.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: ﴿يَخَصِّمُونَ﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد[3]، إلا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٧١) ـ ت محمد عوامة ـ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا.

(٢) في (ف): «قرأ ابن كثير ونافع في راويةِ ورش وسهل ويعقوب غير ورش والشموني عن أبي بكر».

(٣) وهي قراءة ورش عن نافع وهشام عن ابن عامر.

أن أبا عمرو يختلس حركة الخاء، وأصله: يختَصِمون، بفتح التاء وتسكين الخاء، فأدغمت التاء في الصاد ونُقلت فتحة[1] التاء إلى الخاء.

وقرأ نافع: ﴿يَخْصِّمون﴾ بفتح الياء وتسكين الخاء وتشديد الصاد[2]، وجمع بين الساكنين ضرورة الإدغام.

وقرأ ابن عامر[3] وعاصم والكسائي: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد تحريكاً للساكن إلى الكسرة؛ لأنها حركة ضرورية.

وقرأ حمزة: ﴿يَخْصِمون﴾ بفتح الياء وتسكين الخاء على أصل الفعل الثلاثي؛ لعدم تاء الافتعال صورةً[4].

* * *

(٥٠) ـ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

يقول: تأتيهم الساعة وهم يتخاصمون في أمور دنياهم وأسباب معايشهم في الأسواق وغيرها ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾: وهم بحضرتهم ﴿يَرْجِعُونَ ﴾ يتمكَّنون من الرجوع إليهم وهم على غيبةٍ منهم؛ أي: لا يُمْهَلون بل يُهلَكون للحال.

وقيل: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ هو من رَجْع الكلام؛ أي: لا يمكنهم أن يراجعوهم الكلام.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تقوم الساعة والرجل

---

(١) في (أ): «حركة».

(٢) وهي قراءة قالون عن نافع.

(٣) في رواية ابن ذكوان عنه.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤١)، و«التيسير» (ص: ١٨٤).

يَلِيطُ حوضَه ليسقيَ ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة، والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجلُ يَخْفِض ميزانه فيرفعُه فما يرفعه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أُكلته إلى فيه فما يصل إلى فيه حتى تقوم الساعة»[١].

وهذه[٢] نفخة الصعق، ثم بعدها نفخة البعث، وهو[٣] قوله تعالى:

* * *

(٥١) ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: أي: نفَخ إسرافيل في القرن للبعث.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القبور، والواحد: جَدَث.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: أي: إلى موضع حساب الله يسرعون، والنَّسَلان: العَدْو، هو من باب دخَل وضرب، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

* * *

(٥٢) ـ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾: أي: مَن أيقظَنا من موضع رُقادنا؛ أي: من نومنا، والفعل من باب دخل.

روي أنهم يخفف عنهم فيما بين النفختين فيستريحون استراحةَ النائم، ثم يبعثون فيقولون هذا القول.

---

(١) » رواه البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤).

(٢) في (ف): «وهي» وفي (ر): «وهو وهذا».

(٣) «هو» زيادة من (أ).

وقيل: إذا رأوا أهوال يوم القيامة هان عليهم ما كان عليهم[١] من عذاب القبر، حتى كان ذلك كالنوم في جنب ما صاروا إليه.

قوله تعالى ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: قال عبد الرحمن بن زيد: ثم يرون اليقين الذي لا يمكن دفعُه، فيقولون معترفين شاهدين على أنفسهم بالكذب في الدنيا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وهو البعث للحساب والجزاء ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ في الإخبار عنه[٢].

وقيل: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قولُ الملائكة لهم حين قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وفيه توبيخهم[٣].

وقيل: هو قول المؤمنين لهم.

ثم قوله: ﴿هَٰذَا﴾ عند بعضهم يوصل بقوله: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؛ أي: من هذا المرقد، وجوابهم: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وعند بعضهم يبتدأ من قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

* * *

(٥٣ ـ ٥٤) ـ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿إِن كَانَتۡ﴾: أي ما كانت إعادتهم[٤]، وقيل: أي: النفخة.

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أي: إلا نفخةً واحدةً في الصُّور.

---

(١) في (أ): «كانوا فيه» بدل: «كان عليهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٥٨).

(٣) في (أ): «توبيخ».

(٤) في (أ): «إعلامهم».

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾: أي: مجتمعون لدينا قد أُحضروا موقفَ الحساب بسرعة لم يتخلَّف منهم أحد.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾: أي: لا يُنقَص من ثواب طاعته ولا يُحمل عليه معصيةُ غيره.

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ.

* * *

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾: أي: الذين وعدهم الله الجنة على الإيمان والطاعة.

﴿فِي شُغُلٍ﴾: أي: مما فيه أهلُ النار من العذاب، و﴿فِي شُغُلٍ﴾ مما هم فيه من التقلُّب في النعيم وأنواع الملاذِّ؛ من افتضاض الأبكار، والتلذُّذ بالأحاديث الطيبة، والتعلُّلِ بالفواكه الشهية في الأماكن البهية، ومن زيارة الملائكة مع الكرامات، ومن ملاقاةِ الأحبَّة والقرابات.

وقيل: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عن ذكر أهل النار، ولو خطر ذلك ببالهم وفيها أحدٌ من أقاربهم أو معارفهم[1] تنغَّص عليهم ما هم فيه.

وقوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾: قال الحسن رحمه الله: ناعمون[2].

---

(١) «أو معارفهم» ليس في (أ).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٠٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٣٢) عن السدي، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٥) عن قتادة. وذكره عن الحسن يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧١٤) بلفظ: (مسرورون)، وانظر التعليق الآتي.

وقيل: معجَبون[١].

وقيل: فرحون، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وقيل: ذوو فاكهة؛ كما يقال: لابنٌ وغاسلٌ وتامر، قال الشاعر:

وغـرَرْتَـنـي وزعـمـتَ أنْ ... نَـكَ لابـنٌ في الصيـف تامِـرْ[3]

وقيل: الفاكه: المازح، من الفُكاهة، والفَكِه: الطيِّب النَّفْس.

وقيل: هما واحد كالحادر والحَذِر.

ومَن كان في الدنيا في شغلٍ كان في تعبٍ، فقال: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ ليُعلَم أنه ليس بشغلٍ فيه تعبٌ.

***

(٥٦) ـ ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: قيل: نساؤهم اللاتي كن لهم في الدنيا.

وقيل: هنَّ الحور العين.

وقيل: يجوز أن يكون الكلُّ مراداً.

وقوله تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: جمع ظُلَّةٍ.

وقيل: الظلال: الستار عن وهج الشمس لا حرَّ فيها ولا برد.

وقيل: أي: هم خالون بهن لا يقع عليهن أبصار غيرهم، والجمع بينهم وبينهن إتمام لسرورهم.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٢) عن الحسن وقتادة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٣).

(٣) البيت للحطيئة، وهو في «ديوانه» (ص: ٧٦).

وقال مجاهد وعكرمة رحمهم الله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾؛ أي: أخلَّاؤهم، فهو كقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾: جمع أريكة.

وقال عكرمة وقتادة: هي الحجال على السرر[١].

وقيل: هي الفُرُش.

وقيل: هي الوسائد، ومَن حمل الأزواج على الأخلَّاء فهو كقوله: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

* * *

(٥٧ ـ ٥٨) ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: أي: ما يتمنَّون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: إذا خلا في نفسه فتفكَّر شيئاً وُضع بين يديه من غير أن ينطق بلسانه[٢].

﴿سَلَـٰمٌ﴾: أي: ولهم سلام؛ أي: تحية.

﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾: أي: خطاباً من الله تعالى بغير واسطة.

وقيل: تبليغاً من الله على ألسُنِ الملائكة؛ كما قال: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٦) عن عكرمة وقتادة وابن عباس ومجاهد، وعن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٣)، ووقع بعدها في (أ): «متقابلين» وليست في المصادر. والحجال جمع الحجلة: وهي ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. انظر: «المعجم الوسيط» (مادة: حجل).

(٢) في (ف): «به لسانه».

كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

وهو بشارةٌ بدوام السلامة لهم.

وقيل: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ أي: خالص لهم ما يتمنونه ﴿قَوۡلٗا﴾؛ أي: حقًّا وصدقاً[1] ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

قيل: تقييده باسم الرحيم دليل على أن العاصيَ ينال ذلك أيضاً.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ﴾ قيل: لو علموا عمَّن شغلوا لَمَا تهنَّوا بما فيه شغلوا.

وقيل: شغلهم تأهُّبهم لرؤية مولاهم.

وقيل: هذا خطاب من الله لمن بقي من العُصاة في العَرَصات، يقول الله لهم: إن أصحاب الجنة اليوم لا يتفرغون لكم لأشغالهم، ولا أهلَ النار لأهوالهم، فليس لكم اليوم إلا نحن[2].

* * *

(٥٩ ـ ٦٠) ـ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أي: يقال لهم: تميَّزوا عن أهل الجنة، فإنهم يُجزون على ضدِّ ما تجزون[3].

---

(١) في (ر): «أي وعداً صدقاً».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٢١).

(٣) في (ر) و(ف): «يجزون على صدقاتهم»، والمثبت من (أ) وهامش (ف).

وقيل: هو إخبار عن تمييزهم من أهل الجنة؛ كما قال: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، وقال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: أي: يقال لهؤلاء المشركين عند إدخالهم النار توبيخاً لهم: ألم أُوْصِ إليكم ألم آمركم على ألسنة رسلي يا أولاد آدم ألَّا تطيعوا الشيطان ولا تعظِّموا أمره ولا تتذلَّلوا له بالانقياد لِمَا يوسوس إليكم من اتِّباع الشهوات وترك الديانات ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد أبان لكم عداوته.

* * *

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾: فإني خالقكم ورازقكم.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: فإنه طريقٌ سويٌّ مَن سلكه استقام به إلى رضواني والوصول إلى جِناني.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾: أي: خلقاً كثيراً.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بضم الجيم والباء خفيفة اللام، وقرأ نافع وعاصم بكسر الباء والجيم مشددة اللام، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة اللام[1].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٤). ووقع في (ف): «قرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة اللام وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بضم الجيم والباء خفيفة اللام وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر وسهل بكسر الجيم والباء مشددة اللام».

وقوله تعالى: ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ﴾؛ أي: أغوى، وقيل: أهلك.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾: أنه فعَل بهم ذلك فتحذَروا مثلَه.

* * *

(٦٣ ـ ٦٥) ـ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها على شرككم ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: ادخلوها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: إذا قيل لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] جحدوا وقالوا: ما عبدناه، فيَختم الله على أفواههم؛ أي: يفعل بأفواههم ما لا يمكِنهم معه أن يتكلَّموا بألسنتهم، وابن عباس فسَّره بالإخراس، وبعضهم حمله على قول النبيِّ: «إنكم تُدْعون يوم القيامة مفدَّمةً أفواهكم بالفِدام حتى إنَّ أول ما يُبين عن أحدكم لفخذُه ويدُه»(١).

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ تخبرُ بما امتدَّت إليه في المعاصي ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ بما خطَوا به إلى الباطل، وهو قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وقال في آية أخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤] فذكر شهادة الألسُن في هذه الآية مع ذكر الختم على الأفواه في تلك الآية، وذكروا له وجوهاً وأوضحها قول الإمام أبي منصور رحمه الله: أنهم إذا جحدوا أنطق الله الجوارح

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٠٤٣)، والطحاوي في «شرح المشكل» (٤١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٩٧٣)، من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ.

فشهدت بها، ثم أنطق الله ألسنتَهم حتى تعاتِب الجوارح على نُطقها، وذلك قوله: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

قال: وفيه دليل على أن النطق الذي يكون من اللسان لا يكون لأنه لسان، ولكن للُّطف الذي يجعله الله في اللسان فينطقُ، فحيثما جعَل الله ذلك اللطف والمعنى[1] في أيِّ جارحةٍ ما جعل نَطقت، ولو كان النطق لنفس اللسان لكان يجب أن ينطق لسان كلِّ ذي لسانٍ لِمَا له اللسان، فإذا لم ينطق دلَّ أنه لِلُّطف[2] الذي جُعل فيه، وكذلك عملُ كل جارحةٍ من السمع والبصر والذوق والشم وغيرِ ذلك، اختصَّ كلَّ جارحةٍ بشيء من ذلك اللُّطف الذي جعل فيه لذلك[3].

* * *

(٦٦) ـ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾: أي: في الدنيا ﴿لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾؛ أي: على أعين هؤلاء الكفار؛ أي: لأعميناهم ومحَوْنا نورَ أبصارهم.

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾: أي: فبادروا في أول العمَى إلى الطريق ليَسلكوه إلى منازلهم أو مَقْصِدٍ آخر فلم يقدروا على ذلك، هذا مضمَرٌ.

﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾: أي: فكيف يبصرون بعدما أعميناهم؟

* * *

---

(١) في (ف): «ذلك اللطف والمعنى الذي يجعله في اللسان» وفي (ر): «ذلك اللطف الذي يجعله في اللسان»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في «التأويلات».

(٢) في (ر) و(ف): «اللطف».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥٣٤).

(٦٧) ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾: أي: لبدَّلنا خِلقتهم وقلَبْنا بِنْيَتهم فصيَّرناهم جماداً.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أي: مكانهم، كالـمَقام والـمَقامة فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون.

قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿على مكاناتهم﴾ على الجمع[1]؛ لأن الممسوخين جماعة ولكلٍّ واحد مكانةٌ؛ يقول: نَقدِر أن نفعل بهم ذلك في الدنيا كما أنطقنا جوارحهم في العُقبى، ويستحقُّون ذلك لكفرهم، لكنَّا لا نعاجلهم؛ ليتوبوا وليشكروا نعمتي عليهم.

وقيل ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾: لحوَّلنا أبصارهم عن الضلال إلى الهدى ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاهتدوا إلى طريق الحق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ولكن كيف يبصرون ولم أشأ ذلك فلم أفعل بهم ذلك[2].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: لأقعدنا أرجلهم فلم يتقدموا ولم يتأخروا.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾: قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو والكسائي بفتح النون الأولى وتسكين الثانية وتخفيف الكاف وضمها على الفعل الثلاثي.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٢ ـ ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٢) قوله: «بهم ذلك» ليس في (أ).

وقرأ حمزة وعاصم بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف وتشديدها على التفعيل(١).

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ جزمٌ على الشرط بكلمة (مَن) يقول: مَن أطلنا عمرَه صيَّرناه إلى حالةِ الهرم التي تشبه حالةَ الصِّبا في ضعفِ العلم والقوة ونقصان الجسم والبِنية.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾: أنه كذلك.

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامر في رواية ابن ذكوان عن ابن مجاهد عنه، وسهلٌ ويعقوبُ(٢) بتاء المخاطبة(٣)، والباقون بياء المغايبة.

وهو كقوله: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقولِه ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ الآية [الروم: ٥٤]، وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، يقول: فمَن قدر على ردِّ الإنسان في كبره إلى أول حالهِ قدر على إعادته بالبعث إلى أول حاله، وقدر على طمس عينه ومسخ خَلْقه.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾: يقول: إن الذي علَّمناه محمداً مما يتلوه عليكم ويحاجُّكم به ليس بشعرٍ كما يقوله بعضكم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٣)، و«التيسير» (ص: ١٨٥).

(٢) في (أ) و(ف): «حمزة»، بدل: «نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ عامر في رواية ابن ذكوان عن ابن مجاهد عنه وسهلٌ ويعقوبُ».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦) عن نافع وحده، و«التيسير» (ص: ١٨٥) عن نافع وابن ذكوان، و«النشر» (٢/ ٢٥٧) عن نافع وابن ذكوان وأبي جعفر ويعقوب.

قال مقاتل: نزلت في عقبةَ بن أبي مُعيطٍ ـ لعنه الله ـ قال: إن ما يقوله محمد شعر، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أن يقول الشعر[1]، ولو كان شاعراً لدخلت الشبهة على كثير من الناس في أمره أنه إنما يقدر على مثل هذا الكلام لأنه شاعر صناعتُه نظمُ الكلام.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾: أي: ما القرآن إلا ذكر ذكَركم الله به، وقيل: شرفٌ لكم لأنه بلسانكم.

﴿وَقُرْءَانٌ﴾: أي: وكتاب يقرأ ﴿مُّبِينٌ﴾ ما تحتاجون إليه.

* * *

(٧٠) ـ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾: أي: ليخوِّف مَن كان حيَّ القلب؛ أي: هو الذي يَنتفع به.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: وليتحقَّق وعيدُ الله بالعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وسئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثَّل بشيء من الشعر؟ فقالت: كان الشعر أبغضَ الحديث إليه، ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبارِ مَن لم تزوِّدِ

فجعل يقول: «ويأتيك مَن لم تزوِّدْ بالأخبار»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إني لستُ بشاعرٍ ولا ينبغي لي»[2].

* * *

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٨٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٤٩٦)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٠).

(٧١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾: الألف للاستفهام، وهو بمعنى الإثبات، والواو للعطف، ومعناه: أولم يروا مع سائر ما رأوه من آياتنا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ أي: مما تولَّينا خَلْقَه منفردِينَ به لم يشاركنا فيه أحد.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾: وإبلاً وبقراً وغنماً.

﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾: مصرِّفون فيها على ما يشاؤون بالقهر بتسخيرنا إياها لهم، ولولا ذلك لما أطاقوها لقواها وعظم أجسامها؛ كما قال: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

* * *

(٧٢ ـ ٧٤) ـ ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾: أي: ليَّنَّاها وسخَّرناها.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾: هو ما يركب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: من لحومها وشحومها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من قوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ الآية [النحل: ٨٠].

﴿وَمَشَارِبُ﴾: من ألبانها.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: لخالق هذه النعم وباسطِ هذه النعم بالإخلاص والطاعة.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾: مع ما رأوه من آياتنا في خلقنا.

﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي: يرجون نصرهم؛ أي: منعهم من العذاب.

* * *

(٧٥) ـ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾: هو قطع رجائهم منهم.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: قيل: أي: والمشركون للأصنام ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ في التعصُّب لها والذبِّ عنها.

وقال مجاهد: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ عند الحساب[١]؛ أي: لتشفع لهم، فتكذِّبهم وتتبرَّأ منهم؛ كما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

وقيل: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمشركين ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: هم معتقِدون أنهم يُعِينونهم يوم القيامة كأنهم جندٌ لهم[٢].

وقيل: إنَّ كلَّ مَن عبَد شيئاً من دون الله فإنه يؤمَر يوم القيامة باللحوق بمعبوده، فعبَدةُ الأصنام[٣] يُجعلون يومَ القيامة جنداً لهم يُجمعون إليها ثم يُحضرون النار جميعاً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقيل: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المشركون ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للأصنام ﴿جُندٌ﴾ متعصِّبون لهم في الدنيا ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ النارَ يوم القيامة، لا ينفعهم فيها تعصُّبهم لها.

* * *

(٧٦ ـ ٧٧) ـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٨٤).

(٢) في (أ): «جندهم».

(٣) في (أ) و(ف): «الأوثان».

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ يا محمد ﴿قَوْلُهُمْ ﴾ فيك: إنك شاعر وساحر وكاهن وكاذب، وسائرُ وجوه الأذى بالقول.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾: أي: إنَّا نعلم سرَّهم وعلانيتَهم، إضمارَهم وإظهارهم لك، وسنكافيهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أبي بن خلف بن كَلَدة لعنه الله؛ أتى النبيَّ بعظمٍ حائل ففتَّه بين أصبعيه في يومٍ شديدِ الريح على صَفَاةٍ، فجعل لا ينتهي إلى الصَّفَاة حتى تهبَّ به الريح، فقال: يا محمد، أتزعُم أن الله يحيي هذا وهو رميم كما ترى؟ وهو البالي الذي لا شيء أشدُّ بِلًى منه، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، ثم يُميتك ثم يبعثك ثم يدخلك نار جهنم»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾[1]: أولم يعلمْ هذا الكافر أنا خلقناه من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾: آل أمرُه إلى أن صار عاقلاً جَدِلاً مُحاجًّا في إحياء الموتى مُظهِراً ذلك.

* * *

(٧٨ ـ ٧٩) ـ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾: بيَّن لنا شبَهاً لأمر البعث ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾: نسي أمر خَلْقه كيف كان، وأنه لم يكن كما هو الآن، وإنما كان مَوَاتاً فأُحيي.

﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾: أي: باليةٌ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٤٦)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ٤٨٦)، عن قتادة. وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٤١): وعليه المفسرون. وفي رواية سعيد بن جبير عند الطبري (١٩/ ٤٨٧) أنه العاص بن وائل السهمي، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٦) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: خلقها وأوجدها، وإذا قدر على إيجادها بداءً قدر على إعادتها.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾: ثم قرن هذا بما هو أبلغ منه في الدلالة على كمال القدرة فقال:

* * *

(٨٠) - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾: أي: الرطب ﴿نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ﴾؛ أي: من الشجر ﴿تُوقِدُونَ﴾ ومَن قدر على أن يجعل في الشجر الذي فيه الرطوبةُ ناراً فلا رطوبةُ الشجر تطفئها ولا النار تحرق الشجر، قدر على إحياء الموتى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما شجرتان: المرخُ والعَفَار، فمَن أراد منهم النار قطع منهما مثلَ السواك وهي خضراءُ يقطر منها الماء، فيسحقُ المرخَ وهو ذكر على العَفار وهي أنثى فيخرج منهما نارٌ بإذن الله[1]، وذلك قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٢].

وقال[2]: في كلِّ شجرٍ نارٌ إلا العُنَّاب[3].

ومن مُثُل العرب: في كلِّ شجرةٍ نارٌ واستَمْجَدَ[4] المرخُ والعَفَار[5].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ١٤٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩).

(٢) في (ر): «وقالوا»، وانظر التعليق الآتي.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٥٢٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩)، عن الحكماء.

(٤) في (ف): «واستحمد».

(٥) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٣٦)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١٧٢)، وفيه: استمجد: استكثر، =

ثم نبَّههم على ما هو أعظم من هذا فقال:

(٨١ ـ ٨٣) ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾: أي: أمثالَ هؤلاء المنكِرين للبعث بدءًا وإعادةً؛ أي: مَن قدر على الأكبر قدر على الأصغر.

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: يكونه في أسرع وقت لا يعجزه شيء ولا يتعبه[1] شيء.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: أي: نزِّهوا الله عما أضافه إليه هؤلاء المشركون فهو الذي بيده ملكوت كلِّ شيء؛ أي: هو مالك كلِّ شيء ومصرِّفه.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيحاسبُكم ويجازيكم على طاعاتكم ومعاصيكم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

= يقال: أمجدتُه سبًّا وأمجدْتُه ذمًّا، إذا أكثرتَ من ذلك.

(١) في (ر): «يمنعه».

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسمِ اللهِ الَّذي أقسَمَ بالملائكةِ المُكرَّمين، الرَّحمنِ الذي يجزي المـُحسِنين، الرَّحيمِ الَّذي يُسلِّمُ على المُرسَلين.

روى أبيُّ بنُ كعبٍ رضيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَنْ قرَأَ سورةَ والصَّافَّاتِ أُعطيَ مِنَ الأجرِ[1] عشرَ حسناتٍ بعدَدِ كلِّ شيطانٍ وجنٍّ، وتباعدتْ عنه مرَدَةُ الشَّياطينِ، وشهِدَ له حافظاه أنَّه مؤمنٌ بالمُرسَلين»[2].

وهذه السُّورةُ مكِّيَّةٌ، وهيَ مئةٌ وإحدى وثمانون آيةً، وقيلَ: اثنتان وثمانون، الاختلافُ في آيتين: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾.

وكلماتُها ثماني مائةٍ واثنتان وستُّون كلمةً.

وحروفُها ثلاثةُ آلافٍ وثماني مئة وستةٌ[3] وعشرون حرفاً.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السُّورةِ بآخرِ تلكَ السُّورةِ: أنَّه ذكَرَ في ختمِ تلكَ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وأقسَمَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ على أنَّه إلهٌ واحدٌ لا يُشبهُه شيءٌ.

---

(١) «من الأجر» ليس في (أ)، والمثبت موافق لمصادر التخريج.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٣٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(٣) في (أ): «وثمانية»، وهو تحريف.

وانتظامُ السُّورتين: أنَّهما في مُحاجَّةِ المشركين، وفي إثباتِ الرِّسالةِ والبعثِ يومَ الدِّينِ، والتَّنبيهِ بقصصِ الأوَّلين.

* * *

(١) ـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾: هوَ قسَمٌ بالملائكةِ على أنَّ اللهَ إلهٌ واحدٌ.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحِمَه اللهُ: وجهُ القسَمِ بهم: أنَّ اللهَ تعالى قد عظَّمَ شأنَ الملائكةِ في قلوبِ أولئكَ الكفرةِ حتَّى قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨]، وقال فرعونُ لعنَه اللهُ: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، وقولُهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]، وما وصفَهُم اللهُ سبحانه أنَّهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وأنَّهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، كذلكَ أقسَمَ بهم تقريراً لذلكَ في قلوبِهم(١).

وقالَ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهم: الصَّافَّاتُ والزَّاجراتُ والتَّالياتُ كلُّهمُ الملائكةُ(٢)، وكذا قال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ وجماعةٌ(٣).

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ خُفِضَ بواوِ القسَمِ، وسُمِّيَتْ بها لأنَّهم صافُّون في السَّماواتِ في الصَّلواتِ.

وقيل: لأنَّها تصُفُّ أجنِحَتَها في الهواءِ إذا نزلَتْ للوحيِ وغيرِه.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٥٤٤).

(٢) رواه عن ابن مسعود عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٥٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٠٤).
ورواه عن ابن عباس أبو الشيخ في «العظمة» (٥١١).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤)، وهو مروي عن جماهير السلف.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: النَّازِلاتِ بما هو زَجْرٌ للخلْقِ عنِ المعاصي.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾: القارِئاتِ على الرُّسُلِ ذِكْراً؛ أيْ: وحْياً مِن اللهِ، والوصلُ بالفاءِ يدلُّ على أنَّها في صفاتِ جماعةٍ واحدةٍ يبتني بعضُها على بعضٍ.

ومعنى ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ كمعنى ﴿المُلْقياتِ ذِكْراً، عُذْراً أوْ نُذْراً﴾ [المرسلات: ٥ ـ ٦].

والجمعُ بالألفِ والتَّاءِ لِمَا أنَّهم طوائفُ، كلُّ طائفةٍ منهم صافَّةٌ زاجرةٌ تاليةٌ، والجمعُ: صافَّاتٌ زاجِراتٌ تالياتٌ.

وقيل: صافَّاتٌ بالنُّزولِ بسورةِ الأنعامِ جملةً.

والمصادرُ فيها لتأكيدِ الوصفِ، و(التاليات ذِكراً) قيل: أي: تلاوةً، والتَّبديلُ بالذِّكْرِ لتتَّفِقَ الفواصِلُ[1]، وهوَ كقولِ الشَّاعرِ:

ألَـمْ يحزُنْـكَ أنَّ حِبـالَ قيـسٍ ... وتغلِـبَ قـدْ تباينَـتِ انقِطاعـاً[2]

أيْ: تبايُناً.

وقيلَ: ﴿ذِكْرًا﴾، أي: كتاباً وقرآناً.

---

(١) في (ر): «ليتفق رؤوس الآي».

(٢) البيت لعُمير بن شُيَيم القطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي؛ كما في «ديوانه» (ص: ٣١)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٣٧)، و«طبقات فحول الشعراء» لابن سلام (٢/ ٥٣٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٤٨٠)، و«الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (ص: ٥٠٤). وفي أكثر المصادر: (قد تباينتا). والبيت ذكره المؤلف شاهداً على مجيء المصدر على غير لفظ الفعل، وفي إعراب قوله تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾ قول آخر، وهو النصب على المفعولية، إلا أن في إعرابه مصدراً جعلُ المنصوبات الثلاثة على نسق واحد. انظر: «روح المعاني» (٢٣/ ٧).

وقيل: الذِّكْرُ هوَ الذي نُسِخَ منه القرآنُ في السَّماءِ.

وقيل: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ هي التي تزجُرُ السَّحابَ سَوْقاً.

وقال قتادةُ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الملائكةُ صفوفٌ[١] في السَّماءِ، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ قال: ما زَجَرَ اللهُ عنه بالقرآنِ، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ قال: ما يُتلى في القرآنِ مِن أخبارِ الأممِ السَّالفةِ[٢].

* * *

(٤) ـ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾: أقسَمَ على هذا.

وقال الحسن[٣]: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: هي آيُ الكتابِ الَّتي زجَرَ اللهُ بها عبادَه عن معاصيه ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ يعني: آياتِ القرآنِ تتلو ذِكْرَ ما مضى، وذِكْرَ ما نحنُ فيه، وذِكْرَ ما بقِيَ.

وقيلَ[٤]: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾: جماعاتُ المؤمنين إذا اصطفُّوا للصَّلاةِ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: الرَّافعاتُ الأصواتِ بتلاوةِ القرآنِ، فإنَّ الزَّجْرَ والصَّيحةَ في معنًى واحدٍ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [الصافات: ١٩]، وقالَ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٢٩].

وقيل: هيَ صفوفُ الغُزاةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي

---

(١) في (أ): «صافون».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٩٢ ـ ٤٩٥) مفرقاً، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٠٤).

(٣) «وقال الحسن» من (أ). ولم أجده.

(٤) «وقيل» ليس من (أ).

سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ [الصف: ٤]، ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾: خيولَهم، ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾: التَّكبير.

قولُه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾: المقسَمُ عليه.

* * *

(٥) ـ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: نعتٌ له.

﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾: ثُنِّيَ والسَّماواتُ جمعٌ؛ لأنَّ السَّماواتِ[1] جِنْسٌ والأرضَ جِنْسٌ، فهما جِنْسان.

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾: أي: ومالِكُ مطالعِ الشَّمسِ في كلِّ يومٍ مِن أيَّامِ السَّنَةِ والمُدبِّرُ لها.

وقالَ في آيةٍ أخرى[2]: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴾ [الرحمن: ١٧]، وأراد مَشْرِقَ الشِّتاءِ ومَشْرِقَ الصَّيفِ ومَغْرِبَيهما.

وقال في آيةٍ أخرى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [الشعراء: ٢٨]؛ لأنَّه أرادَ به الجهةَ، والجهةُ واحدةٌ.

ولَمْ يذكُرِ المغاربَ في هذه الآيةِ؛ لطولِ الآيةِ بذِكْرِها، وخروجِها مع حذفِها على مُشاكلةِ قَدْرِ الآياتِ قبلَها وبعدَها، وكانتِ المطالِعُ دالَّةً على المغاربِ؛ لأنَّها تطلُعُ بعدَ الغروبِ، والمصالِحُ المتعلِّقةُ بطلوعِها أكثرُ مِنَ المصالحِ المتعلِّقةِ بغروبِها.

---

(١) في (ف): «لأنها».

(٢) «أخرى» ليست في (أ).

وقال مقاتلٌ: إنَّ كفَّارَ مكَّةَ قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص: ٥]، فأقسَمَ اللهُ على أنَّ الإلهَ واحدٌ(١).

وقيل: إنَّ المشركين قالوا: كيف يقومُ إلهٌ واحدٌ بحوائجِنا ولنا ثلاثُ مئةٍ وستُّون إلهاً لا يقُمْنَ بحوائجِنا(٢)؟! فأقسَمَ اللهُ على أنَّ إلهَهمْ وإلهَ مَن في السَّماواتِ والأرضِ وقاضي حوائجِهم واحدٌ.

* * *

(٦) ـ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾: هيَ تأنيثُ الأدنى، أي: الأقربُ، وهي الَّتي تلِينا وتدنو منَّا.

﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ(٣) ﴿بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ﴾ مُضافةً، أي: بالزِّينةِ القائمةِ بالكواكبِ.

وقرأ عاصمٌ في روايةِ حفصٍ وحمزةُ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ منوَّنةً ﴿ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ خفْضاً على البدَلِ.

وقرأ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ منوَّنةً ﴿الكواكبَ﴾ نصباً(٤) على أنَّ الزِّينةَ مصدرٌ بمعنى التَّزيينِ، و﴿الكواكبَ﴾ نصبٌ؛ لأنَّه مفعولٌ بوقوعِ التَّزيينِ عليه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ١٣٩).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٠)، والرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٣٥٧).

(٣) في (ف): «وجعفر وأبو عمرو وسهل ويعقوب وابن عامر وخلف والمفضل» بدل من «وأبو عمرو وابن عامر».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦). وقراءة الكسائي كقراءة ابن كثير ومن ذكر معه.

(٧) ـ ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾.

﴿ وَحِفۡظٗا ﴾: أي: وحَفِظناها[١] حِفْظاً.

وقيل: وجعلْناها حِفْظاً؛ كما قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾.

﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾: أي: مُتناهٍ في الفَسادِ والإفسادِ.

وقيلَ: أي: مُتجرِّدٍ عن كلِّ خيرٍ؛ كـالأمردِ، والشَّجرةِ المـَرْداءِ؛ أي: المـُتجرِّدةُ مِن[٢] الأوراقِ.

* * *

(٨) ـ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾.

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾: قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وعاصم[٣] بالتَّشديدِ، أي: لا يتسمَّعون، أُدغِمَتِ التَّاءُ في السِّينِ كما في المزَّمِّلِ والمدَّثِّرِ، أي: لا يتعرَّضون للسَّماعِ بالإصغاءِ.

وقرأَ الباقون بالتَّخفيفِ مِنَ السَّماعِ[٤]، ومعناه: لئلَّا يسْمَعوا، فلمَّا حُذِفَ النَّاصبُ ارتفعَ؛ كما في قولِه: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ ﴾ [الزمر: ٦٤]، أي: أنْ أعبُدَ، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: لئلَّا يؤمنوا به.

﴿إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾: أي: الملائكةِ، ووحَّدَ ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ لظاهرِ لفظِ ﴿ٱلۡمَلَإِ ﴾، كما يُقالُ: السَّلَفُ الصَّالحُ.

---

(١) في (أ): «وجعلناها»، وهو تحريف.

(٢) في (أ): «عن».

(٣) هي قراءة عاصم من رواية حفص. ووقع في (ر): «قرأ حمزة والكسائي وخلف عن عاصم في رواية حفص والمفضل».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

وقالَ أبو معاذٍ[١]: (سمعتُ إلى قولكَ) بمعنى: (استمعتُ إليه).

يقولُ: إنَّا حفِظْنا السَّماءَ بالكواكبِ الرَّاجمةِ مِن الشَّياطينِ أنْ يتعرَّضوا لسماعِ الوحيِ مِن ملائكةِ السَّماءِ الذين هم الزَّاجراتُ زجراً، فالتَّالياتُ[٢] ذِكْراً في إنزالِ الوحيِ على الرسُلِ، ونحرُسُه عن تغييرِهم.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: أي: يُرْمَون بنجومِ الرُّجومِ، عطفٌ على قولِه: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾.

﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: أيْ: مِن جوانبِ السَّماءِ.

***

(٩) ـ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

﴿دُحُورًا﴾: أي: طَرْداً وإبعاداً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: أي: دائمٌ في الآخرةِ؛ لكُفرِهم وإضلالِهم النَّاسَ وإيهامِهم إيَّاهم أنَّهم يعلمون الغَيْبَ كالأنبياءِ؛ طمَعاً في إفسادِ النُّبوَّاتِ.

***

(١٠) ـ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾: أي: سلَبَ السَّلْبَةَ، ومعناه: أخذَ شيئاً مِن كلامِهم بسرعةٍ طالباً للغَفْلةِ.

وقيل: هذا الاختطافُ ليس في حقِّ الوحيِ، فقد ذكَرَ أنَّه يحفظُه عنهمْ، لكنَّه

---

(١) هو الفضل بن خَالِد، أبو معاذ النَّحْوِي المروزِي مولى باهلة، المتوفى سنة (٢١١هـ). وقد تقدمت ترجمته.

(٢) في (أ): «والتاليات» بدل: «زجراً فالتاليات».

في تسمُّعهِمْ كلامَ الملائكةِ في أشياءَ أُخَرَ سوى الوحيِ، فإذا أخَذوا شيئاً مِن ذلكَ رُجِموا، فذلكَ قولُه:

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي: لحِقَه شهابٌ؛ أي: نجمٌ راجمٌ.

﴿ثَاقِبٌ﴾: أي: مُضيءٌ، وقيل: نافِذٌ، والثُّقوبُ: التَّوقُّدُ، مِن بابِ دخَلَ.

وقيل: نجومُ الرُّجومِ غيرُ نجومِ الزِّينةِ، تلك ثابتةٌ وهذه سائِرةٌ[1] مُتَشتِّتةٌ.

وقال الشَّعبيُّ: لمْ يُقْذَفْ بالنُّجوم حتَّى بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ، فلمَّا قُذِفَ بها جعَلَ النَّاسُ يُسَيِّبون أنعامَهمْ ويُعتِقون رقائِقَهمْ يظنُّون أنَّها القيامةُ، فأتوا عبدَ يالِيلَ الثَّقفِيَّ وكان قد عمِيَ، فقالوا له: قد سيَّبوا أنعامَهمْ وأعتَقوا رقيقَهم، قال: ولمَ؟ قالوا: إنَّ النُّجومَ تهافَتُ[2] مِنَ السَّماءِ، فقال لهم: لا تعْجَلوا، فإنْ كانت نجومٌ تُعْرَفُ فهي عندَ قيامِ السَّاعةِ، وإنْ كانت نجوماً لا تُعْرَفُ فهو أمرٌ حدَثَ، فنظَروا فإذا هيَ نجومٌ لا تُعْرَفُ، قال: فما مكَثوا إلَّا يَسيراً حتَّى أتاهم النَّبيُّ ﷺ[3].

* * *

(١١) ـ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾: أي: فاسألِ المشركين يا محمَّدُ: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾؛

---

(١) في (ف): «ثائرة».

(٢) الهَفْتُ: تساقطُ الشيء قطعةً بعد قطعة كما يهفت الثلج ونحو ذلك. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٦/ ١٣١).

(٣) رواه أبو داود في كتاب «المبعث» فيما نقله عنه القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٢)، وابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٦٧٢)، وروى نحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤١). وقال ابن حجر: وقد أخرجه الطبري من طريق السدي مطولاً، وذكر ابن إسحاق نحوه مطولاً بغير إسناد في «مختصر ابن هشام».

أي: مِن الأممِ الماضيةِ الَّذين كانوا أشدَّ منكم قوَّةً، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، فإنْ أجابوكَ أنَّهم أشدُّ مِمَّنْ سلَفَ فقلْ لهم:

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾: أي: خلَقْنا جميعَهم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: أي: لازقٍ باليدِ، والفِعلُ مِن بابِ دخَلَ، يعني: خَلَقَ أصْلَهم منه ـ وهو آدمُ ـ ثمَّ خلَقَهم منه، فكيفَ صاروا هم أشدَّ منهم، وكيفَ توهَّموا لشدَّتِهم عند أنفسِهم أنَّهم يُعْجِزونني وأنا خالِقُ جميعِهم، وموجدُهم مِن العدَمِ؟

وقيل: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن الملائكةِ والشَّياطينِ والسَّماواتِ والأرضِ وما بينهما، وهو كقولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧] الآياتِ، وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وذُكِرَ بكلمةِ (مِن) لأنَّه جمعَ بينَ ما يعقِلُ وبينَ ما لا يعقِلُ، فغلَّبَ ما يعقِلُ.

يقولُ: فإذا قدَرْنا على خلْقِ ما هو أشدُّ منهم، فنحن نقدِرُ على إعادتِهم بعدَ موتِهم.

وقال مقاتلٌ: نزلَتْ في أبي الأشَدَّيْنِ، وسُمِّيَ به لشدَّةِ بطْشِه، واسمُه كَلَدَةُ بنُ أسيدٍ(١).

وقال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: اسمُه أُبيُّ بنُ أسيدٍ(٢).

***

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ٦٠٣).

(٢) لم أقف عليه، وقد اختلف في اسمه ولقبه، فقيل: أبو الأشدين أسيد بن كلدة، وقيل: كلدة بن أسيد كما مرَّ، وقيل: أبو الأشد بن أسيد بن كلاب الجمحي، كما في «تفسير الماوردي» (٥/ ٤١)، وقيل: كلدة بن خلف الجمحي، كما ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٦٤)، وقيل: هو (أبو الأسد) بالسين المهملة كما ذكر الشهاب الخفاجي في «حاشية البيضاوي» (٨/ ٣٦١)، وقيل غير ذلك.

(١٢) ـ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ[1] بضمِّ التَّاءِ، والباقون بفتْحِها خِطاباً للنَّبيِّ ﷺ[2].

و﴿ بَلْ ﴾: لِنَفْيِ ما مضى وإثباتِ ما بعدَه، أي: ليست لهم[3] هذه الجُرْأةُ على أنَّهم يتوهَّمون أنَّهم يفوتونني، لكنْ أَلِفوا شِرْكَهم، وقلَّدوا أسلافَهم، وأعرَضوا عن التَّدبُّرِ، فهم لذلك على جهلٍ، وأنت يا محمَّدُ تعجَبُ منهم وهم يَسْخَرون منك إذْ تدْعوهم إلى الإيمانِ باللهِ وبالرُّسلِ والبعثِ بعدَ الموتِ.

وقراءةُ الضَّمِّ إخبارٌ مِن اللهِ تعالى عن نفْسِه، وهو مَجازٌ عن الإنكارِ والكراهيةِ، ولا تجوزُ حقيقتُه على اللهِ تعالى، فإنَّه لظُهورِ ما لَمْ يكنْ في الوهْمِ، لكنْ مَن ظَهَرَ له ذلك ـ وهو قبيحٌ في نفْسِه ـ كرِهَه وأنكرَه، فأُريدَ به ذلكَ هاهنا.

وقال قُطْرُبٌ: أي: كبُرَ عندي وعظُمَ، فإنَّ الواحدَ منَّا إنَّما يعجَبُ مِن الشَّيءِ إذا كبُرَ عنده وعظُمَ.

❊ ❊ ❊

(١٣) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ ﴾: أي: وإذا وُعِظوا ﴿لَا يَذْكُرُونَ ﴾؛ أي: لا يتَّعِظون.

وقيل: إذا ذُكِّروا أنَّهم خُلِقوا مِنْ طينٍ لازبٍ.

وقيل: أي: ذُكِّروا ما أحلَّ اللهُ بالمكذِّبين الماضين.

---

(١) «وخلف» من (ر).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٥٦).

(٣) في (ر) و(ف): «بهم».

وقيل: ما يُعاقَبون به يومَ[١] القيامةِ.

وقيل: ما أنعَمَ اللهُ به عليهم وألزَمَهم شُكْرَه.

وقولُه: ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾: أي: أعرَضوا عن ذلك فإنَّهم[٢] لا يذكُرونها ولا يحفظونها.

* * *

(١٤) ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً ﴾: أي: مُعجزةً ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: قيل: أي: يَسْخرون بها. قاله قطربٌ وأبو عبيدةَ وجماعةٌ[٣]، فهو كقولِهم: عجِلَ واستعجلَ، ويَقِنَ واستيقنَ، ونكِرَ واستنكرَ.

وقيل: أي: يَعدُّونها سُخْرِيَةً؛ كقولك: استحسنتُ كذا، واستقبحتُ كذا، واستجهلتُ فلاناً، واستحمقتُه.

وقيل: أي: يدْعون النَّاسَ إلى السُّخْرِيَةِ بها، يريدُون بذلكَ التَّمويهَ على الضَّعفَةِ، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢].

* * *

(١٥ ـ ١٧) ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾: أي: وما هذا إلا تخييلٌ[٤] ظاهرٌ.

---

(١) في (ر) و(ف): «في».

(٢) في (ر) و(ف): «كأنهم».

(٣) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٦٧) ـ ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥١٥) عن قتادة، ورواه الطبري أيضاً في «تفسيره» (١٩/ ٥١٥) عن مجاهد.

(٤) في (ر): «تمويه».

وقولُه تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾: أي: رميماً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾: يسخرون بهذا أيضاً منكمْ.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾: الألفُ للاستفهامِ، والواوُ للعطفِ، ورفعُه مِن وجهين:

أحدُهما: أوَ آباؤُنا يُبعثون أيضاً؟!

وقيلَ: تقديرُه: أنحنُ وآباؤُنا نُبْعثُ؟!

* * *

(١٨ ـ ٢٠) ـ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾: تُبْعَثون[1] ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾؛ أي: أذلَّاءُ صاغِرون، والواوُ للحالِ.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: قيل: صَيْحةٌ واحدةٌ، قالَ الحسنُ: هيَ النَّفْخةُ الثَّانيةُ[2].

﴿فَإِذَا هُمْ قيام﴾: أي: مِن قبورِهم ﴿يَنظُرُونَ﴾: إلى ما يرونه مِن الأهوال.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومُ الجزاءِ، وقيل: الحسابُ. وقيل: يومُ القضاءِ. وقيل: أي: يومُ ينفَعُ الدِّينُ الحقُّ[3].

* * *

(٢١) ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: قيل: هو قولُ بعضِهمْ لبعضٍ.

---

(١) «تبعثون» ليس من (أ) و(ف).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢)، وابن فورك في «تفسيره» (٢/ ٢١٤).

(٣) في (أ): «نفع الدين» بدل: «ينفع الدين الحق».

وقال الكلبيُّ: هو قولُ الملائكةِ لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

قيل: أي: القضاءِ، فإنَّه فصْلُ الخصومةِ.

وقيل: هو القضاءُ الحقُّ؛ لأنَّه هو الَّذي ينفُذُ فتنفصِلُ به الخصومةُ، فأمَّا القضاءُ بغيرِ حقٍّ فيُرَدُّ ولا يقعُ به الفصْلُ.

وقيلَ: هو يومُ التَّمييزِ بين[1] الفريقين بالطَّريقين.

وقيل: هو يومُ الفصلِ، أي: يومُ تفريقِ الأحبَّةِ والأقاربِ بعضِهم مِن بعضٍ باختلافِ الأجزيةِ والأمكنةِ.

***

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: أي: يُقالُ للملائكةِ: اجمَعوا الذينَ كفروا، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]: وهو وضعُ العبادةِ في غيرِ موضعِها.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: أي: قُرناءَهم، وقيل: أي[2]: أصنافَهم، فإنَّهم على طرقٍ.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: مِنَ الأصنامِ.

وقيل: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، أي: قُرناءَهم مِن الشَّياطينِ، قالَ تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ [فصلت: ٢٥]، وقالَ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

---

(١) في (ر): «هو تمييز» بدل: «يوم التمييز بين».

(٢) في (أ): «أي»، وفي (ر): «وقيل» بدل: «وقيل أي».

وقيلَ: «أزواجَهم»؛ أي: زوجاتِهم، وهو قولُ الحسنِ(١)، يعني: كلَّ كافرٍ وكافرةٍ ومنافقٍ ومنافقةٍ، وهو الغالبُ في الاستعمالِ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

وقيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: أي: كُبراءَ الظَّلَمة ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾؛ أي: وأتباعَهم، حتَّى رُوِيَ أنَّ مَن برى لهم قلماً، أو ألاقَ لهم دَواةً، أو ناولَهمْ قِرْطاساً حُشِرَ معهم(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]؛ أي: قُرِنَتْ بأشكالِها.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾:

قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: فدلُّوهم(٣).

وقالَ الضَّحاكُ: فادعوهمْ(٤).

وقالَ ابنُ كيسانَ: فقدِّموهم(٥)، وهادِيةُ الإِجْلِ(٦) هي التي تتقدَّمُها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٢٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٨) وقال: وروي ذلك عن ابن عباس، ورجحه الرماني.

(٢) رواه الديلمي في «الفردوس» (١/ ٢٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٨): غريب.

ورواه ابن بشران في «أماليه» الجزء الثاني (١/ ١٣٢) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، ولفظه: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة، وأعوان الظلمة، وأشباه الظلمة؟ حتى من برى لهم قلماً، أو لاق لهم دواةً، فيجمعون في تابوت من حديد، ثم يرمى بهم في جهنم».

والنصوص والآثار الواردة في النهي عن الكون مع الظلمة كثيرة مستفيضة.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٩٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤١)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤١).

(٥) ذكره الثعلبي الواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩).

(٦) الإِجْل ـ بكسر الهمزة وسكون الجيم ـ: القطيع من بقر الوحش، والجمع آجال. «الصحاح» (مادة: أجل).

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: طريقِ جهنَّمَ.

* * *

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾: أيُّها الملائكةُ في موقفِ العَرْضِ والحسابِ.

﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: عن قولِ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»[1].

وقال الضَّحَّاكُ: عن خطاياهم[2].

وقال كعبٌ: عن أقوالِهم وأفعالِهم[3].

وقولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾: قيل: هو تفسيرُ قولِه: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ، أي: ما لكم لا ينصُرُ بعضُكم بعضاً؟!

وقيل: هو على أبي[4] جهلٍ لعنَه اللهُ؛ إذْ قال يومَ بدرٍ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[5].

* * *

(٢٦ ـ ٢٧) ـ ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾: أي: ليس أحدٌ يقْدِرُ على نصرِ أحدٍ، بلِ الكلُّ مُنقادون لِما يُرادُ بهم.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٢).

(٣) لم أقف عليه عن كعب، لكن ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٢) عن ابنه محمد بن كعب القرظي.

(٤) في (ر): «هو أبو».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٨).

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾: أي: يسألُ كلُّ واحدٍ صاحبَه سؤالَ توبيخٍ، يقولُ هذا: لِمَ غرَرْتَني؟ ويقولُ الآخر[1]: لِمَ قبِلْتَ منِّي.

وقيل: هو في معنى قولِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]، وقولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧].

وقيل: هذا التَّساؤلُ هاهنا بينَ السَّادةِ والأتباعِ.

* * *

(٢٨) ـ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾: قال نِفْطويه: كنتُمْ تمنعوننا عنِ الدِّينِ[2] الحقِّ وعنِ الطَّاعةِ، وتُلَبِّسون ذلك علينا[3].

يُقالُ: أتاهُ عن يمينِه، إذا أتاه مِن الجهةِ المحمودةِ، والعربُ تنسِبُ الفعلَ الجميلَ إلى اليمينِ، وما ضادَّه إلى الشِّمالِ، وقالوا: الميمنةُ مِنَ اليُمْنِ، والمشأمةُ مِنَ الشُّؤْمِ[4].

وقال الفرَّاءُ: أي: كنتُم تأتوننا مِن قِبَلِ الدِّينِ، فتخدعوننا عنه بأقوى الوجوه[5].

وقوَّةُ الرَّجلِ بيمينِه، وتُسمَّى القوَّةُ يميناً كذلكَ، قالَ الشَّمَّاخُ:

---

(١) في (ر): «هذا». وسقطت من (ف).

(٢) في (أ): «اليمين».

(٣) ذكر نحوه من غير عزو الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٣)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٣٨)، ونسبه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٦) إلى الرماني.

(٤) انظر: «تصحيح الفصيح» لابن درستويه (ص: ٤٨٤).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٤).

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرابةُ باليمينِ[٦]

وقيلَ: معناه: كنتُم[٧] تصدُّوننا عن طريقِ الجنَّةِ وسبيلِ النَّجاةِ، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

وقيلَ: هوَ ما ذُكِرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، فالشَّياطينُ يأتونهم مِن كلِّ الجهاتِ، فمَن أتاه الشَّيطانُ مِن جهةِ اليمينِ أتاه مِن قِبَلِ الدِّينِ ولبَّسَ عليه الحقَّ، ومَن أتاهُ مِن قِبَلِ اليسارِ حبَّبَ إليه الشَّهواتِ، ومَن أتاه مِن بين يديه أنساه الآخرةَ، ومَن أتاه مِن خلْفِه خوَّفَه الفقرَ على أعقابِه.

* * *

(٢٩ ـ ٣١) ـ ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: قال لهمُ السَّادةُ: ما كان ذلك منَّا، بل أنتم لمْ تؤمنوا.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾: أي: تسلُّطٍ بحُجَّةٍ ولا قَهْرٍ.

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾: مُجاوزين حدودَ الشَّرْعِ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾؛ أي: وعيدُ ربِّنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٨].

---

(٦) انظر: «ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني» (ص: ٣١٩) من قصيدة يمدح بها عَرابة بن أوس رضي الله عنه.

(٧) «كنتم» ليس من (أ).

﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾: قيل: يقعُ على هذا قولُه: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، وكُسِرَتْ «إنَّا» للَّامِ في قوله: ﴿لَذَآئِقُونَ﴾، أي: تحقَّقَ علينا أنَّا نذوقُ العذابَ.

وسكَتَ عن ذكرِ المَذوقِ لوضوحِه؛ كما في قولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

***

(٣٢ ـ ٣٥) ـ ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: أي: السَّادةُ والأتباعُ سواءٌ في استحقاقِ العذابِ.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: وهم مجرمون.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: يتعظَّمون عن قبولِه ويأنَفون منه.

***

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾: أي: لِمَ نترُكُ عبادةَ أصنامِنا؟! استفهامٌ بمعنى النَّفيِ.

﴿لِشَاعِرٍ﴾: أي: لقولِ رجلٍ يأتي بكلامٍ منظومٍ.

﴿مَّجْنُونٍ﴾: لا يعقِلُ ما يقولُ؛ لأنَّه يخبرُنا بالبعثِ بعدَ الموتِ وهو لا يعقِلُ، ونحنُ لا ندعُ دِينَ آبائِنا بقولِ هذا، يعنون محمداً عليه السَّلامُ، فردَّ اللهُ عليهم ذلك، فقال:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: ليس بشاعرٍ ولا مجنونٍ، بل هو رسولٌ جاءَ بما يجبُ في[1] العقولِ السَّليمةِ.

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي: وحقَّقَ بشاراتِ الأنبياءِ الماضين به، ووافقَ دينَهم وما جاؤوا به مِن توحيدِ اللهِ وطاعتِه.

* * *

(٣٨ ـ ٤٠) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾: أي: إنَّكم يا أهلَ عصرِ النَّبيِّ المكذِّبين به[2] تصيرون إلى النَّارِ، فتذوقون عذابَها الوَجيعَ.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: مِن الكفرِ والمعاصي.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: مَن قرأَ بفتحِ اللَّامِ فهمُ الَّذين صفَّاهمُ اللهُ تعالى عنِ الشِّركِ والمعاصي، ومَن قرأَ بكسرِها فهم الَّذينَ أخلَصوا العبادةَ للهِ، فلمْ يُشركوا به ولمْ يَعصوه[3]، وهذا استثناءُ مَن يؤمنُ منهم بعدَ هذا.

وقيل: هو استثناءٌ منقطعٌ بمعنى (لكن)، أي: هؤلاءِ المكذِّبون بالنَّارِ يُعذَّبون، لكنَّ المؤمنين بالجنَّةِ يُنعَّمون.

* * *

---

(١) في (ر): «على».

(٢) في (أ): «له».

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ونافع بفتح اللام من ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وكسرها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨).

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي: عطيَّةٌ معلومةٌ يعلمون دوامَها لهم.

﴿فَوَٰكِهُ﴾: ترجمةٌ عن قولِه: ﴿رِزْقٌ﴾.

قيل: لمْ يُردْ به الفاكهةُ المعروفةُ في الدُّنيا، لكنَّ الفاكهةَ ما يُتَفكَّه به؛ أي: يُتنعَّمُ به؛ أي: رزقَهم ما يُتنعَّمُ به(١) في الجنَّةِ، وليس ذلك كقُوتِ الدُّنيا الذي يتناولُه مَن يضطرُّ إليه ويضيقُ قلبُه لتأخُّرِه عنه، وهو إشارةٌ إلى أنَّه يتناولُ المأكولاتِ التي يتنعَّمُ بها، وهو كقوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]؛ أي: يتناولونها مُشْتهين لها، لا مُضطرِّين إليها ولا كارهين(٢) لها.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾: أي: بأنواعِ الكراماتِ مع ذلك.

* * *

(٤٣ ـ ٤٥) ـ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: هو نصبٌ على الحالِ، وهو صفةٌ لهم لا لسُرُرِهم، والتَّقابلُ أتمُّ للأنسِ، وأجمَعُ للرُّؤيةِ، وأيسَرُ للتَّحدُّثِ.

وقال مجاهدٌ: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: لا ينظُرُ بعضُهم في قفا بعضٍ(٣).

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾: هي القَدَحُ الملآنُ شراباً.

---

(١) «أي رزقهم ما يتنعم به» ليس من (ف).

(٢) في (أ): «أو كارهون»، وفي (ر): «وكارهين».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦٧)، وابن المبارك في «الزهد» (٢/ ١٣٠).

ورواه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٥/ ٨٥)، وروي عن عكرمة أيضاً، كما في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٧٧).

﴿مِن مَّعِينٍ﴾: قال الحسنُ وقتادةُ والضَّحاكُ والسُّدِّيُّ: أي: مِن خمرٍ جاريةٍ في أنهارٍ ظاهرةٍ للعيونِ(1).

قيل: هو مفعولٌ مِن عانَه يَعينه؛ أي: نظَرَ إليه بعينِه.

وقيل: هوَ فعيلٌ مِن الـمَعْنِ، وهو الإمعانُ في الجَرْيِ، أي: الشِّدَّةُ والسُّرعةُ.

***

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

﴿بَيْضَآءَ﴾: صفةٌ لـ(الكأسِ)، وبياضُها بصفاءِ ما فيها.

﴿لَذَّةٍ﴾: أي: لذيذةٍ، واللَّذُّ نعتٌ كاللَّذيذِ؛ كالطَّبِّ في معنى الطَّبيبِ(2)، والهاءُ للتَّأنيثِ.

﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: لشاربِيها، ليست كخمورِ الدُّنيا في كراهةِ الطَّعمِ.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: قال قُطْرُبٌ: أي: لا تغتالُ عقولَهم كخمورِ الدُّنيا(3)، أي: لا تَذْهَبُ بها. وأصلُه: الإهلاكُ في الخفاء، و«قدْ قتلَه غَيْلةً واغتالَه»، أيْ: قتلَه في خُفْيةٍ.

---

(1) ذكره عن الحسن ابنُ فورك في «تفسيره» (٢/ ٢١٩).

ورواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥١٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٧٢٢)، الطبريُّ في «تفسيره» (٢٢/ ٢٩٨).

ورواه عن الضحاك الطبريُّ في «تفسيره» (٢٢/ ٢٩٨)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٨٨)، وذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٤٦).

(2) انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: طبب).

(3) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٣٣) عن السدي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤٠) عن الشعبي، وهو اختيار أبي عبيدة، كما في «مجاز القرآن» (٢/ ١٦٩).

وقيل: ﴿غَوْلٌ﴾: أي: غائلةٌ، أي: ما يُكْرَه.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ[1] بكسرِ الزَّاي، أي: ولا تنفَدُ خمورُهم، وقرأ الباقون بفتحِها، أي: لا تُزالُ عقولهم[2].

و(قد نُزِفَ) على ما لمْ يُسمَّ فاعلُه، فهو منزوفٌ ونزيفٌ، ونزْفُ البِئرِ: استخراجُ مائِها، كلُّه مِنْ بابِ ضرَبَ.

***

(٤٨) ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾: أي: نساءٌ قد قصَرْنَ أبصارَهنَّ على رؤيةِ أزواجهنَّ؛ لحُبِّهنَّ إيَّاهم ولعفافِهنَّ وحُسْنِ عِشْرتهنَّ، والطَّرْفُ في معنى الجمعِ، ووُحِّدَ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ.

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عَيْناءَ، وهي الواسعةُ العَينِ، الحسنةُ العَينِ، والفعلُ مِنْ بابِ عَلِمَ.

***

(٤٩) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: أي: مَصون، وقيل: أي: مستورٌ.

وقيل: أراد به داخلَ البَيْضِ، وهو تشبيهٌ لهنَّ به في الصَّفاءِ واللِّين.

وقال في صفةِ الولدانِ: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وقال في صفةِ الحورِ

---

(١) في (ر): «حمزة والكسائي وخلف والمفضل عن عاصم».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٦).

العِينِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، أشارَ بذلكَ إلى أنَّ الحورَ العِينَ للصُّحْبةِ دونَ الوِلْدانِ؛ لأنَّ اللُّؤلؤَ للنَّظَرِ لا للذَّوْقِ، والبَيْض لهما.

وقيلَ: أرادَ به المصونَ عن الكسرِ، أرادَ به أنَّهنَّ عَذارى صحيحاتٍ، قال الفَرَزْدَقُ:

خرجْنَ إليَّ لمْ يُطْمَثْنَ[1] قَبْلي وهُنَّ أصحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعامِ[2]

وقال الحسنُ وابنُ زيدٍ: شُبِّهْنَ ببَيْضِ النَّعامِ يُكَنُّ بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ[3].

***

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾: أي: فأقبَلَ بعضُ أهلِ الجنَّةِ ـ وهمُ المُخلصون ـ على بعضٍ يتحدَّثون بما أنعمَ اللهُ عليهم مِن حينِ كانوا في الدُّنيا إلى أنْ صاروا إلى الجنَّةِ.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: أي: صاحبٌ مقارِنٌ كافرٌ بالبعثِ.

***

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾: بالبعثِ؟ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: أي: لَمَجزيُّون، مِن قولِهم: كما تَدينُ تُدانُ[4].

---

(١) في (ف): «يطمثهن».

(٢) انظر: «ديوان الفرزدق» (٢/ ٨٣٥) وهو من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك.

(٣) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٢٥).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٦٢) من طريق أبي قلابة عن النبي ﷺ مرسلًا. ومن طريق

قيل: كانا أخوينِ، وهما المذكوران في قولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، وقد بيَّنا القصَّةَ في سورةِ الكهفِ، قاله الكلبيُّ[1].

وقيل: كانا شريكين على ما نُبيِّنُ.

وقيلَ: أرادَ به قرينَه مِنَ الشَّياطينِ كان يوسوسُ إليه بالتَّكذيبِ بيومِ البعثِ، ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ الآياتِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كانا شريكَين أحدُهما قُطْرُوسُ وهو الكافرُ، والآخرُ يَهودا وهو المؤمنُ، فاستجمَعَ لهما ثمانيةُ آلافِ دينارٍ، وكان أحدُهما مُحترِفاً، والآخرُ لا حِرْفةَ له، فقال المحترفُ لصاحبِه: ليستْ لك حِرْفةٌ، وما أُراني إلَّا مُفارقَكَ ومُقاسمَكَ، فقاسَمه وفارقَه، ثمَّ إنَّ قُطْرُوسَ اشترى داراً بألفِ دينارٍ، فدعا صاحبَه، فقال: كيف ترى هذه الدَّارَ؟ قال: حسَنةً، ثمَّ خرجَ وتصدَّقَ بألفِ دينارٍ، وقال: يا ربِّ! أسألُكَ[2] داراً في جنَّتِكَ، ثمَّ إنَّ الكافرَ تزوَّجَ امرأةً، وأنفقَ عليها وفي أمرِها[3] ألفَ دينارٍ، فدعا صاحبَه، فقال: كيفَ ترى زوجتي؟ قال: ما أحسنَها! ثمَّ خرجَ وتصدَّقَ بألفِ دينارٍ، وسألَ ربَّه تعالى أنْ يُزوِّجَه مِنَ الحُورِ العِينِ، ثمَّ اشترى صاحبُه بألفَيْ دينارٍ بُسْتانين، فدعا صاحبَه فقال: كيفَ تراهما؟ قال: بُستانين خَضْراوين حَسَنين، ثمَّ

عبد الرزاق رواه أحمد في «الزهد» (ص: ١٤٢) لكن عن أبي قلابة عن أبي الدرداء قوله. وله شاهد موصول من حديث ابن عمر رضي الله عنه رواه ابن عدي في ترجمة محمد بن عبد الملك وضعفه. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» لابن حجر (ص: ٣). وروى أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٤٨) عن وهب بن منبه أنه قال: أربعة أحرف في التوراة، وذكر منها: (كما تدين تدان).

(١) ذكره عن الكلبي الواحديُّ في «البسيط» (١٩/ ٥٣)، وأورده يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٨٣١)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤١) من غير نسبة.

(٢) في (أ): «أملك».

(٣) في (ر): «في أمرها»، وفي (ف): «عليها» بدل: «عليها وفي أمرها».

خرجَ فتصدَّقَ بألفَيْ دينارٍ، وسألَ ربَّه أنْ يرزقَه بُسْتانين في الجنَّةِ، ثمَّ توفَّاهما الملَكُ، فانطلَقَ يومَ القيامةِ بالمتصدِّقِ إلى الجنَّةِ، وبوَّأه داراً هُيِّئَتْ له، وزوَّجه حُوراً، وسلَّمَ إليه[1] بُسْتانين في الجنَّةِ، فقالَ حينئذٍ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: يعني في دارِ الدُّنيا، يعني: شريكَه الكافرَ[2].

***

(٥٤ ـ ٥٦) ـ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: يقولُ لأصحابِه: هل أنتم تتطلَّعون معي في النَّارِ؟ لعلَّنا نرى هذا القَرينَ، وأُضْمِرَ هاهنا: فقالوا: نعم.

﴿فَاطَّلَعَ﴾: هذا المؤمنُ ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسَطِ النَّارِ الموقدَةِ.

وقيل: في الجنَّةِ كوًى شارِعةٌ إلى الجحيمِ، فإذا أرادوا النَّظَرَ إلى أهلِ النَّارِ فتَحوها ونظَروا إليها[3].

---

(١) في (ر): «له».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٤٤) من كلام فرات بن ثعلبة البهراني، وهو مختلف في صحبته، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٦٩)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٧٠) عن عطاء الخراساني، وروى الطبريُّ في «تفسيره» (١٩/ ٥٤٣) عن ابن عباس قوله: هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتصدق بأنك مبعوث من بعد الموت أئذا كنا تراباً؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار، فاطلع المؤمن، فرأى صاحبه في سواء الجحيم ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٢٨) من حديث كعب ولفظه: إن بين الجنة والنار كوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا، اطلع من بعض تلك الكوى. =

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾: أي: أقسمُ باللهِ لقد كنتَ قاربْتَ أنْ تُهلِكَني بإضلالك.

ووجهٌ آخرُ: ما أردتَ إلَّا أنْ تُهلِكَني.

***

(٥٧ ـ ٥٩) ـ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾: أي: إنعامُه عليَّ بالتَّثبُّتِ على الحقِّ، والعصمةِ عن قبولِ قولِكَ.

﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾: النَّارَ معكَ، وهو كلمةُ شكرٍ؛ كقولِهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ الآيةَ [الأعراف: ٤٣].

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾: قيل: معناه: أنَّه يقولُ في الجنَّةِ لأصحابِه: أوَ قد أمِنَّا الموتَ بعدَ أنْ أحيانا اللهُ مِن الموتةِ الأولى الَّتي كانتْ في الدُّنيا، انتقلْنا منها إلى دارِ الجزاءِ، وقولُه: ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ ﴾؛ أي: سوى الموتةِ الأولى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾؛ أي: وقد أمِنَّا العذابَ مع تقصيرِنا، فالحمدُ للهِ على هذا، وهو[1] كقولِه عندَ التَّعجُّبِ: أوَ كلُّ هذا النَّعيمِ[2] لنا؟! لا يكونُ إنكاراً، بل يكونُ تعجُّباً وشكراً.

وقيل: يكونُ هذا توبيخاً لقرينِه، وكان في الدُّنيا إذا توعَّدَه قال: وما نحن

= وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٤٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤١) عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو مروي عن قتادة، كما في «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٢١٦).

(١) في (أ) و(ر): «وهي».

(٢) في (ر) و(ف): «هذه النعم».

بمعذَّبين، وما نحن بمبعوثين(١)، ويُكْثِرُ هذا القولَ، فيذكُرُه في(٢) هذه الحالةِ، ويقولُ: أهكذا تقولُ الآن: ما نحنُ بميِّتين إلَّا موتتَنا الأولى حينَ كنَّا نُطَفاً، ثمَّ أحيانا اللهُ، وما نحن بمعذبين بعدَما نموتُ، أي: لا نُبعَثُ بعدَه، أو لا نُعذَّبُ بقولِنا: (لا بَعْثَ)؛ لأنَّه حقٌّ وصدقٌ.

وقيل: (وما نحن بميتين): بمُهْلَكين بعقابِ اللهِ في الدُّنيا كما نُتَوعَّدُ به، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرةِ؛ لأنَّه لا آخرةَ.

ثمَّ قرأ بعضُهم هاهنا: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾، ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ بالاستفهامِ في المواضعِ الثَّلاثةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ سؤالٌ تامٌّ قُرِنَ بالاستفهامِ.

وبعضُهمْ قرأَ: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ على أنَّ الأوَّلَ تامٌّ، وهذا الأخيرَ داخلٌ في الاستفهامِ الثَّاني(٣).

وقيلَ: داخلٌ في الاستفهامين جميعاً، وحقُّه: أَنَّا، بالنَّصبِ، لكنْ كُسِرَ لِلَّامِ في قولِه: ﴿لَمَدِينُونَ﴾.

***

(١) في (ر): «وما نحن بمعذبين وما نحن بميتين»، وفي (ف): «وما نحن بميِّتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين».

(٢) «في» زيادة من (أ) و(ف).

(٣) أما قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ فقد قرئت على الاستفهام عند الجميع، والخلاف فيها بين تسهيل الثانية أو تحقيقها، مع إدخال الألف في كل منهما أو عدم إدخالها، أربع حالات. وأما قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾، فقرأها ابن عامر وأبو جعفر بهمزة واحدة على الإخبار، والباقون بهمزتين على الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ بهمزة واحدة عند نافع والكسائي ويعقوب، والباقون بهمزتين. انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (١/ ٣٧٣).

(٦٠ ـ ٦١) ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾:

قيل: هذان الكلامان الأخيران مِن قولِ هذا الرَّجلِ.

وقيل: هما مِن كلامِ اللهِ تعالى بعدَ تمامِ كلامِ الرَّجلِ.

وقيل: تمَّ كلامُ الرَّجلِ عندَ قولِه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾، ثمَّ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾، فكلُّ ذلكَ له وجهٌ صحيحٌ.

* * *

(٦٢) ـ ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾: أي: أهذا الذي ذكرناه لأهلِ الجنَّةِ خيرٌ أي: أفضلُ ممَّا يعدُّ نُزُلاً للنُّزَّالِ، أم شجرةُ الزَّقُّومِ التي أعددْناها لأهلِ الشِّركِ؟!

* * *

(٦٣) ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا ﴾: أي: هذه الشَّجرةَ ﴿ فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾؛ أي: جعلْنا ذِكْرَ كونِ هذه الشَّجرةِ في النَّارِ ممَّا افتُتِنَ الكفَّارُ به في دِينِهم، فقالوا: كيفَ يكونُ في النَّارِ شجرةٌ والنَّارُ تأكلُ الشَّجرَ؟!

وقيل: لمَّا نزلَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة: ٥١] قال بعضُهمْ: ما الزَّقُّومُ؟ فقال بعضُهمْ: هوَ التَّمرُ والزُّبْدُ، فقالوا: يخوِّفُنا محمَّدٌ بالتَّمرِ والزُّبْدِ(١). فصارَ فتنةً لهم مِن هذا الوجهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٢) عن مجاهد والسدي، والمقصود بالبعض أبو جهل =

وقيلَ: معنى قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾؛ أي: عذاباً؛ كما قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]؛ أي: يُعذَّبون، يقولُ: يعذَّبُ الكُفَّارُ بهذا في النَّارِ.

* * *

(٦٤) ـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: تنبُتُ في أرضِ[1] جهنَّمَ، وهو جوابُ قولِهم: كيفَ تبقى الشَّجرةُ في النَّارِ؟!

يقولُ: إذا كانَ أصلُها مِن النَّارِ تبقى في النَّارِ وإنْ لمْ يبقَ فيها سائرُ الأشجارِ؛ كالسَّمَكِ لَمَّا كانَ أصلُه مِنَ الماءِ يبقى في الماءِ، وإنْ كان لا يبقى سائرُ الحيواناتِ في الماءِ[2].

* * *

(٦٥) ـ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: وهو جوابُ قولِهِمْ: الزَّقُّومُ هو التَّمرُ والزُّبْدُ.

يقولُ: ليس كذلك، بل هي شجرةٌ ثمرُها في القُبْحِ كرؤوسِ الشَّياطينِ، والشَّيطانُ وإنْ لمْ يرَهُ النَّاسُ فقد علِموا أنَّه في نهايةِ القُبْحِ.

وقيلَ: «الشَّياطينُ» الحيَّاتُ هاهنا، ورؤوسُ الحيَّاتِ مُستكرَهةٌ مُستقبَحةٌ.

= وأصحابه، كما روى الإمام أحمد في «المسند» (٣٥٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٢٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٢٠)، والبيهقي في «كتاب البعث والنشور» (٥٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) في (ف): «أصل».

(٢) في (ر): «كما أن سائر حيوانات الماء تبقى في الماء»، بدل: «وإنْ كان لا يبقى سائرُ الحيواناتِ في الماء».

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾: أي: معها، وقيلَ: أي: بعدَها.

﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾: لَمَزْجاً وخَلْطاً مِن ماءٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه.

ولهذا الكلامِ وجهان:

أحدُهما: أنَّه يُخلَطُ الحميمُ بالزَّقُّومِ، فيُجعلان معاً في بطونِهم، ويكونُ ﴿عَلَيْهَا﴾ بمعنى: (معها) على هذا القولِ.

والثَّاني: أنَّهم يجوعون فيَستطعِمون فيُطعَمون الزَّقُّومَ، فيغَصُّون به فيَستسقون فيُسْقَون الحميمَ، وعلى هذا يكون بمعنى (بعدَها).

و(الشَّوْبُ) اختلاطُهما معاً في البُطونِ على التَّناولِ تعاقباً، وهو على مُقابلةِ ما ذُكِرَ مِن المزْجِ لأهل الجنَّةِ، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، و﴿مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٦].

* * *

(٦٨) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾: قال كعبُ الأحبارِ: يُعذَّبون في الجحيمِ، فإذا جاعوا جاؤوا إلى الزَّقُّومِ، فإذا عطِشوا جاؤوا إلى الحميمِ، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فيَسألون أنْ يُردُّوا إلى الجحيمِ، فهم كذلكَ يُردُّون في العذابِ[1].

---

(١) لم أقف عليه عن كعب، ولكن روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢١٧) عن سعيد بن جبير.

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾: أي: إنَّما صاروا إلى النَّارِ لأنَّهم كانوا وجدوا آباءَهم على ضلالٍ.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾: أي: فهُم بهم يقتدون، وعلى آثارِهم يُسرِعون.

قالَ أبو عُبيدةَ: يستحثُّون مَن خلْفَهمْ(١).

وقال المبرِّدُ: يُقالُ: جاءَ فلانٌ إلى النَّارِ مُهْرِعاً؛ أي: يستحثُّه البرْدُ(٢).

ومعنى الآيةِ: يسيرون على آثارِهمْ سِراعاً كأنَّهم يُساقون إليه ويُحثُّون.

* * *

(٧١ ـ ٧٤) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: بتقليدِ الغيرِ، وتركِ النَّظَرِ والتَّأمُّلِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾: رُسُلاً مخوِّفين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: الَّذينَ أنذرَهمْ رسلُنا، فلم يخافوا ولم يقبلوا كيف أهلكْناهمْ؟!

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: إنْ حُمِلَ على حقيقةِ الاستثناءِ، فالإنذارُ كان للكلِّ، فمَن قبِلَ الإنذارَ آمنَ وأخلص، فنجا وتخلَّص، ومَن لمْ يقبلْ منهم وأصرَّ على كفرِه أهلكَه اللهُ تعالى بجُرْمِه.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٧١).

(٢) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٩/ ٦١١٦)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٨٨).

وإنْ حُمِلَ على الاستثناءِ المنقطعِ بمعنى «لكنْ»، فالمـُنذرون هم الكافرون، وهم مُهْلَكون، لكنَّ المؤمنين مُخْلَصون.

* * *

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾: وهذا تفصيلُ المنذِرين والمنذَرين.

يقولُ: ولقد دعانا نوحٌ؛ كما قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾: فأجبْنا دعاءَه، ونِعْمَ المجيبون نحن.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾: أي: وخلَّصْناه ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾: وأولادَه وأهلَ بيتِه ومَن آمنَ به ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: مِن الغَمِّ الذي كان فيه مِن أذى القوم.

* * *

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾: أي: أولادَه هم الذين بقُوا في الأرضِ، فتناسلوا وتوالدوا، فالنَّاسُ بعدَ طوفانِ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن أولادِه وذرِّيَّتِه[1] إلى اليومِ، فالعربُ والعجمُ مِن أولادِ سامِ بنِ نوحٍ، والتُّرْكُ والصَّقالبةُ والخَزَرُ مِنْ أولادِ يافثِ بنِ نوحٍ، والسُّودانُ[2] مِن أولادِ حامٍ.

---

(١) في (ر) و(ف): «من ذريته» بدل: «من أولاده وذريته».

(٢) في (أ): «والسود».

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: أي: وأبقَيْنا عليه ثناءً جميلاً ومدحاً له وانتماءً إليه في الذينَ أتوا بعدَه.

وقيل: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: أي: في أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

وقيل: في الأنبياءِ، فإنَّه لمْ يُبْعَثْ بعدَه نبيٌّ إلَّا أُمِرَ بالاقتداءِ به، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشورى: ١٣]، والمتروكُ مضمَرٌ، وهو ما بيَّنا.

* * *

(٧٩) ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقيل: المتروكُ هو المذكورُ بعدَه، قولُه:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: أبقَيْنا عليه هذا السَّلامَ، ورُفِعَ على الحكايةِ، فإنَّهم يتكلَّمون به على هذا النَّظْمِ، وهو كقولِكَ: (قرأتُ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين) بالرَّفعِ على الحكايةِ، فإنَّهم يتكلَّمون على هذا[١]، ونظيرُه قولُ حسَّان:

لتسمعُنَّ وشيكاً في دياركمُ ... اللهُ أكبرُ يا ثاراتِ عُثْمانا[٢]

وعلى القولِ الأوَّلِ «سلامٌ» ابتداءٌ، ثمَّ له وجهان: إخبارٌ أنَّ السَّلام عليه، وتعليمٌ أنْ يتكلَّمَ به؛ كما مرَّ في قولِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

(٨٠ ـ ٨٢) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾.

---

(١) «فإنهم يتكلمون على هذا» ليس في (أ) و(ف).

(٢) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص: ٢٤٤)، و«الجمل في النحو» للخليل (ص: ٢٦١)، و«التقفية في اللغة» للبندنيجي (ص: ٣٩٣)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ٨٢)، ووروايةالديوان: (ديارهم).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: فنُبقِي لهمُ الثَّناءَ الجميلَ.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: وفيه بيانُ عظمةِ حُسْنِ العبوديَّةِ وصدقِ الإيمانِ، وهو[1] حقيقةُ الإحسانِ.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾: أي: ثمَّ[2] نخبرُكم أنَّا أغرَقْنا بالطُّوفانِ الآخَرين[3] مِن قومِه، وهم الذين لمْ يؤمنوا به.

❋ ❋ ❋

(٨٣) ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾: أي: مِن مُتَّبِعيه ـ يعني: نوحاً ـ إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلامُ.

وقال الفرَّاءُ: وإنَّ مِن شيعةِ محمَّدٍ لَإبراهيمَ[4]. وفيه بُعْدٌ.

يقولُ: إنَّ إبراهيمَ اتَّبعَ نوحاً في هَدْيِه، وصبرَ على ما نالَه في نفْسِه وولدِه ومالِه؛ كما تحمَّلَ نوحٌ عليه السَّلامُ أذى قومِه، وفيه تفضيلُ نوحٍ بجعلِ إبراهيمَ مِن أشياعِه، ومدحٌ لإبراهيمَ بحُسْنِ اتِّباعِه.

❋ ❋ ❋

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: أي: خالصٍ له، وهو في معنى: سالمٍ له.

---

(١) «هو» ليست في (ف).

(٢) في (ر): «ألم».

(٣) في (ر): «الآخرين الذين».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٨).

وقيل: سالمٌ عن كلِّ آفةٍ.

وقيل: هو السَّالمُ عن الغِلِّ في حقِّ الخَلْق.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: و﴿إِذْ﴾ زمانُ وصفِه بالسَّلامةِ، و﴿إِذْ﴾ في الأوَّلِ زمانُ المشايعةِ، وهذا سؤالُ توبيخٍ؛ كقولكَ لِمَن لا ترضى عملَه: ماذا تعملُ؟!.

***

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ: أتريدون أنْ تتَّخذوا مِن دونِ اللهِ آلهةً؟! أي: أصناماً إفكاً؛ أي: كذِباً في تسميتِكم الأصنامَ آلهةً، وهو استفهامٌ على وجهِ الإنكارِ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: فما ظنُّكُمْ بِمَن هو ربُّ العالمين إذا لقيتموه يومَ القيامة ـ أي[1]: وافيتُم موقِفَ حسابِه ـ ماذا يصنَعُ بكم وقد أشركتُم به؟

***

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾: قيل: كان أهلُ زمانِه أصحابَ نظَرٍ في علمِ النُّجومِ، ويستدلُّون[2] على حوادثِ الأمورِ مِن جهتِها، وكان إبراهيمُ عليه السَّلامُ قد كلَّمَهم في الأصنامِ أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَع، ولا تُبْصِرُ ولا تسمَع، وأنَّها جمادٌ لا تعقِلُ، ونهاهم عن عبادتِها، فلمْ ينجَعْ ذلك فيهم، فأحبَّ أنْ يُرِيَهم ذلك مِن أوضحِ وجهٍ

---

(١) في (أ): «إذا».

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «به».

بأنْ يكسِرَها، وكان يحتاجُ في ذلك إلى خلُوِّ موضعٍ يُمكِنُه فيه ذلك، فانتهزَ الفرصةَ، وانتظرَ عيداً لهم يخرُجون فيه إلى الصَّحراءِ جُمْلةً، فدعَوه يومئذٍ إلى الخروجِ معهم، فاعتَلَّ للتَّخلُّفِ عنهم، وهيَّأ عُذْراً يترُكونه له.

وقولُه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾: أي: فعَلَ ما يفعلُه النَّاظرُ في النُّجومِ في تعرُّفِ أمرٍ يريدُ معرفتَه مِن جهتِها.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾: أوهمَهم أنَّ[1] النُّجومَ تدلُّ على أنِّي سأسقم غداً في مَخْرَجي إنْ خرجْتُ، فأنا أتخلَّفُ في منزلي؛ لئلَّا يتزايدَ بي ما يحدُثُ بسببِ الحركةِ، فوقعَ عندهم أنَّه عُذْرٌ.

* * *

(٩٠) ـ ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾: فأعرَضوا عنه مُولِّين الأدبارَ، وكان مرادُه في قولِه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ أي: سأسقمُ سقَمَ الموتِ، فإنَّ العبدَ لا يخلو عنه، أو أرادَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ للحالِ، فإنَّ الإنسانَ لا يخلو كلَّ ساعةٍ عن ضعفٍ ببدنِه بعارضٍ مِن وجهٍ، وزوالِ الاعتدالِ مِن السَّقَمِ والاعتِلالِ.

وقيل: كان عندهم اسمُ السَّقيمِ[2] يقعُ على المطعونِ، وهو الذي به الطَّاعون، وكانوا يتشاءَمون به وينفِرون عنه، فلذلك ولَّوا عنه، وهو أرادَ به ما قلنا، فلمْ يكنْ كذِباً ولا غُروراً، بل كان احتيالاً لإظهارِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فكانَ عملاً مبروراً وسَعْياً مشكوراً.

---

(١) في (ر): «على أن».

(٢) في (أ): «السقم».

وقيل: كانَ يعرِضُ له كلَّ ليلةٍ حُمَّى أو عارضٌ نحوَها في ساعةٍ مِن اللَّيل، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾: لا في علمِ النُّجومِ، لكنْ في عَينِ النُّجومِ في السَّماءِ، وهي تدلُّ بأعيانِها في المتعارفِ على ساعاتِ اللَّيلِ، فقال: قرُبَتْ ساعةُ سقَمي بدلالةِ مسيرِ هذا النَّجمِ، وإذا وقعَ ذلك ضعُفْتُ عنِ الخروجِ، فلا أخرجُ. وكان في نفْسِه قصَدَ كسْرَ الأصنامِ، لكنْ لمْ يكنْ كاذباً فيما أظهرَ مِن الكلام، فلمْ يلحقْه به شيءٌ مِن الملام.

* * *

(٩١) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: أي: فمالَ في خُفْيَةٍ إلى أصنامِهم التي كانوا يسمُّونها آلهةً، وهو مِن روَغانِ الثَّعلبِ إذا قصدَه الكلبُ.

قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: قال السُّدِّيُّ: ثمَّ رجَعَ إبراهيمُ إلى بيتِ الأصنامِ، فإذا هي في بهْوٍ عظيمٍ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً، فوضعُوه بينَ أيديها وقالوا: إذا كان حين نرجِعُ رجَعْنا وقد برَّكتِ الآلهةُ في طعامِنا فأكلْنا، فلمَّا نظرَ إليهم وإلى ما بينَ أيديهم مِنَ الطَّعامِ قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[1]. وهذا على وجهِ الاستهزاءِ، وهو وإنْ كان خِطاباً للجمادِ، لكنَّه صحيحُ الاعتبارِ؛ لأنَّه تحريكٌ للخاطرِ وبعثٌ على الاستدلالِ، فلمَّا لمْ تُجِبْه الأصنامُ قال:

* * *

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾: والجمعُ بالواوِ والنُّونِ لِمَا أنَّه خاطبَها خطابَ مَن يعقِلُ.

وقولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾:

---

(١) رواه عن السدي مطولًا الطبريُّ في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٧٩).

قيل: أي: باليدِ اليُمنى؛ لأنَّها أقوى على العملِ مِن اليُسرى.

وقيلَ: أي: بالقسَمِ الَّذي كان قالَ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقالَ الفرَّاءُ: أي: بالقوَّةِ[1]، قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥].

***

(٩٤) ـ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: قرأَ حمزةُ والمفضَّلُ[2] عن عاصمٍ: ﴿يُزِفُّون﴾ بضمِّ الياءِ من الإزفافِ، وهو الإسراعُ؛ أي: فأقبلَ القومُ إليه يُسرعون حينَ سمِعوا أنَّه فعلَ بأصنامِهم ذلك.

وقرأه العامَّةُ: ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفتحِ الياءِ[3] مِن الزَّفيفِ، والزَّفيفُ: الإسراعُ، مِن بابِ ضرَبَ.

***

(٩٥) ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾: قال هذا بعدَ مُحاوراتٍ كانت بينهم ذكرَها في سورةِ الأنبياءِ، ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩] إلى قولِه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وقال هاهنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾: نحْتُ الخشَبةِ: بَرْيُها.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٤).

(٢) في (ر): «وجبلة عن المفضل»، وفي (ف): «عن المفضل» بدل: «والمفضل».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦٢٧). وقراءة حمزة المشهورة عنه: ﴿يَزِفُّونَ﴾ مثل باقي السبعة.

يقولُ: أتعبدون أصناماً تعمَلونها أنتم، وتترُكون عبادةَ اللهِ الَّذي خلقَكم وأوجدَكم؟!

* * *

(٩٦ ـ ٩٧) ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾: أي: مِن الأصنامِ، ويقعُ أيضاً على الأعمالِ، وهوَ دليلُ خلْقِ الأفعالِ أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا ﴾: لَمَّا لزِمَتْهمُ الحُجَّةُ وعجَزوا عن مُحاجَّتِه صاروا إلى قصْدِ هلاكِه[1]، مُعاندين في مُخالفتِه، فتشاوروا فيما بينهم، فاتَّفقَ رأيُهم على أنْ يَبنوا له بُنْياناً يملؤونه حطَباً، فيُضْرِمونه فيُلْقونه فيه.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ الموقدةِ.

* * *

(٩٨) ـ ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾: أي: قصَدوا أنْ يكيدوا به كما كادَ هو بأصنامِهم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾: أي: أعليناهُ عليهم بالظَّفَرِ والنَّجاةِ مِن قصدِهم، فجعَلْنا النَّارَ عليه برْداً وسلاماً، وقد بيَّنا قصَّتَه في سورةِ الأنبياءِ.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾: أي: وقال إبراهيمُ حينَ خلَّصَه اللهُ مِن النَّارِ: إنِّي مهاجرٌ مِن بلدِ قومي ومِن مولِدي إلى حيثُ أتمكَّنُ مِن عبادةِ ربِّي.

---

(١) في (أ): «هلاكته».

﴿سَيَهۡدِينِ﴾: أي: إلـى الصَّـوابِ فيمـا نويتُـه[١]، فيُبَلِّغُنـي إلـى حيـثُ أصِـلُ فيه إلـى مـا أريدُ.

قيل: خرَجَ إلى بيتِ المقدسِ، وخرجَ أوَّلاً إلى حرَّانَ، فأقامَ بها مُدَّةً.

وظاهرُه يحتمِلُ وجهين:

أحدُهما: أنَّه يكونُ قصَدَ موضِعاً بعينِه، وأرادَ بقولِه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾، أي: سيُرشِدُني إلى مقصِدي.

ويحتملُ أنَّه قصَدَ المهاجَرةَ ولمْ يُعيِّنْ موضِعاً، وأراد بقولِه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾؛ أي: يثيبني ويختارُ[٢] لي موضِعاً هو أهدى لي ويُبَلِّغُني إليه.

وقيلَ: قالَ ذلكَ حينَ رُمِيَ به في النَّارِ، فقالَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: وطَّنْتُ نفْسي على موتي ولقاءِ ربِّي، ﴿سيهديني﴾: أي: يُثبِّتُني[٣] على صبْري.

* * *

(١٠٠ ـ ١٠١) ـ ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: سألَ اللهَ أنْ يرزُقَه ولداً صالحاً يستأنِسُ به في غُرْبتِه وينفرِجُ به عن كربتِه، وتقديرُه: هبْ لي صالحاً مِنَ الصَّالحين؛ أي: ولداً صالحاً يصلُحُ لِمَا صلَحَ له[٤]، فيصبرُ على البلاءِ كصبرِه، ويقومُ في الذَّبِّ عن دينِ اللهِ كقيامِه، فاستجابَ اللهُ له، فوهَبَ له ولداً كذلك:

---

(١) في (ر): «آتيه».

(٢) «أي: يثيبني ويختار» من (ر)، وفي (أ) و(ف) بدلا منها: «سيختار».

(٣) في (أ) و(ر): «يثيبني».

(٤) في (أ): «يصلح لما صلح»، وفي (ر): «يصلح لما يصلح عليه له».

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾: أي: بولدٍ ذكَرٍ يكونُ حليماً إذا كبرَ؛ أي: لا يعجَلُ في الأمورِ، ويتحمَّلُ المشاقَّ.

وفيه دليلٌ على أنَّ الولدَ هبةٌ مِن اللهِ، وأنَّ سؤالَ الولدِ مِن اللهِ تعالى جائزٌ، لكنَّه يسألُه صالحاً في الدِّينِ، لا لذَّةً لنفْسِه، وعوناً على أمورِ دنياه(١)، قال زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

وقالَ إبراهيمُ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقالَ زكريَّا أيضاً: ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال عبادُ الرَّحمنِ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

***

(١٠٢) ـ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾: أي: فبشَّرْناه بولدٍ صالحٍ ورزقناه ذلك، فلمَّا بلَغ الولدُ المبلغَ الذي يسعى معه في أموره ويُعينه على أشغاله التي يستعين الآباء فيها بأبنائهم، وذلك وقتُ اغتباطِ الآباء بالأبناء.

وقيل: أي: لمـَّا بلَغ في كونه مع إبراهيم أنْ يسعى لله في العبادات والطَّاعات، وذلك بأنْ أدركَ وصار مكلَّفاً، وما بعده في الآية دليلُ ذلك.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾: أي: رأيـتُ فيه ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾: أي: بالأمر، ولا يحتمـلُ غير ذلك.

---

(١) وما المانع من أن يسأل الولد لأجل الدين وللعون في أمور دنياه؟!

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾: وهو مِن الرَّأي؛ أي: كيف رأيُك فيه: الإمضاءُ أو التَّوقُّفُ؟ وهذا امتحانٌ منه للولد وتعرُّفٌ بحاله أنَّه هل يُجيبه بالسَّمع والطَّاعة، فيتحقَّق عنده أنَّه وهب له صالحاً، ويُقيم أمر الله فيه بمعاونته، وإنْ أجابه بغير ذلك أمضاه أيضاً على كُرْهٍ منه.

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ: ﴿مَاذَا تُرِىٰ﴾ بضمِّ التَّاء وكسر الرَّاء[١]، أي: بماذا تشيرُ وماذا[٢] تُظهرُ مِن نفْسِك.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾: أي: ما أُمرتَ به، وإخراجُه على صيغة المستقبل على معنى: افعلْ ما أنتَ يا أبتِ مأمورٌ به الآن.

وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: أي: سأصبِرُ على الذَّبح بتوفيق الله وعونه.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لمـَّا كانت ليلةُ التَّروية رأى إبراهيمُ في المنام كأنَّ قائلاً قال له: إنَّ الله يأمرُك أنْ تذبحَ ابنك هذا، فلمَّا أصبح روَّى في نفْسه؛ أي: فكَّر مِن الصَّباح إلى الرَّواح: أمِنَ اللهِ هذا الحلمُ أم مِن الشَّيطان؟ فمِن ثمَّةَ سُمِّيَ ذلك اليومُ يومَ[٣] التَّروية، فلمَّا أمسى رأى في المنام ثانياً، فلمَّا أصبح عرَف أنَّ ذلك مِن الله تعالى، فسُمِّيَ اليومُ عرفةَ، والموضعُ عرفاتٍ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٦).

(٢) في (أ): «بماذا تشير وبماذا»، وفي (ر): «بما تشير وبماذا».

(٣) «يوم» ليست في (ف)، «ذلك اليوم» ليس في (أ) و(ر).

(٤) رواه بنحوه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٣٧٨٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٢٩) من هذا الطريق أيضاً، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، وذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٥٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٥٤).

وقال وهْبٌ: فلمَّا أراد إبراهيم أنْ يذهبَ بإسماعيل عليه السَّلام إلى المَنْحَر قال لهاجر: ألبِسي إسماعيلَ أحسنَ ثيابه، فإنِّي ذاهبٌ به إلى ضيافة، فألبَسَته ودهَنَتْه، وحمَل معه حبلاً وسكِّيناً، ولم يكن إبليس مِن يوم خلَقه اللهُ أشغلَ ولا أكثرَ تَرداداً[1] منه في ذلك اليوم، فكان إسماعيل يعدو أمام أبيه ويلعب، فجعل إبليسُ لعنه الله يقول لإبراهيم: ألا ترى إلى قوامه وشهامته وحُسْنه، فيقول إبراهيم: أُمِرْتُ بذبحه، فلمَّا أيِسَ مِن جانبه أتى هاجر فقال: ذهب إبراهيم بابنكِ لِيذبحَه، فقالت: ولِمَ يذبحه؟ قال: يقولُ: أمرني بذلك ربِّي، قالت: فمَن أنا حتى أحكمَ على ربي؟ فلما أيِسَ مِن جانبها أتى إسماعيل فقال له: إنكَ تنزو وتلعب، ومع أبيك حبلٌ وسكِّينٌ يريد ذبحك، قال: ولِمَ؟ قال: يزعم أنَّ ربَّه أمره بذلك، قال: فإني لا أريد خِلاف ربي، فلما انتهى به إلى منًى قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دلالةٌ أنَّه لا كلُّ مأمورٍ بأمر مِن الله شاء الله أنْ يفعل ما أمره به، حيث أخبره أنَّه سيجده مِن الصَّابرين إن شاء الله، وقد كان إبراهيم مأموراً بذبح ولده، فإذا أُمِرَ هو بالذَّبح أُمِرَ الولدُ أنْ يصبر عليه، ثم أخبر أنَّه سيصبر عليه إن شاء الله، فدلَّ على ما ذكَرْنا، وهو حُجَّة لنا على المعتزلة خذلهم الله[3].

---

(١) في (ر) و(ف): «ترددا».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٠) بزيادة واختلاف من حديث كعب، والذبيح فيه هو إسحاق، وزوجته سارة.

وذكر نحوه الخازن في «تفسيره» (٤/ ٢٣) من رواية كعب الأحبار وابن إسحاق.

(٣) «خذلهم الله» ليس من (أ). وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٥٧٨).

(١٠٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾: قيل: أي: انقادا لأمر الله.

وقيل: أيْ: سلَّما أنفسَهما للائتمار.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾: أي: وصرَعه على الجبين؛ أي: جانب الجبهة، ولها جنبتان يكتنِفانها، وكان هذا إضجاعاً على الجنب كإضجاع الشَّاة للذَّبح.

وقال المفسرون: صرَعه على جبهته؛ لئلَّا يراه حين يذبحه، ولئلَّا ينظر الابن إلى أبيه وهو يذبحه، فيورثَ ذلك رقَّةً أو خِيفةً فيخلَّ بالطَّاعة.

* * *

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾: قال الفراء وغيره: الواو مُقحَمةٌ زائدةٌ[1]، ومعناه: ناديناه[2]، جواباً لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ١٥].

وقولُه تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾: أي: حقَّقْتَ ما أمرناك به في المنام مِن تسليم الولد للذبح.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٠)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠١).

(٢) ومنهم من قدر جواب «لما» محذوفاً، والتقدير: سعدا وأجزل لهما الثواب، ونحوه من التأويلات، والواو عاطفة على أصلها، وهو مذهب البصريين، قالوا: والقول بالتقدير خير من الحكم بالزيادة، لا سيما في كتاب الله تعالى. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٩/ ٣٢٤).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: نوفِّقُ للإحسان مَن نوى الإحسان، وأحسنَ النِّيَّةَ وأخلصَها وصحَّحها[1] وصمَّمها.

* * *

(١٠٦) - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾: أي: الاختبارُ الظَّاهرُ لإظهارِ ما علِمَ الله على ما عَلِم الله[2]، ويُستعمل البلاء في المكروه والمحبوب؛ أي: المحنةِ والنِّعمة، ويصلُح هذا لكل واحد منهما؛ أي: قولُنا لك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وإسقاطُ حقيقة الذبح عنك نعمةٌ، وأمرُنا إياك بذبح ولدك مِحْنةٌ.

* * *

(١٠٧) - ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾: أي: الولدَ ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: ما يُذبح مكانه، وهو عظيمٌ في هيئته، وعظيمٌ في خطَره ورِفعته؛ لأنه كان يَرعى[3] في الجنة أربعين عاماً.

قال عثمان بن حاضر[4]: هبَط عليه الكَبْشُ مِن ثَبِير[5]، وكان رعى في الجنة أربعين سنة[6].

---

(١) «وصححها» ليست في (أ).

(٢) «على ما علم الله» من (ر) و(ف).

(٣) في (أ) و(ف): «رعى».

(٤) عثمان بن حاضر الحميري، ويقال: الأزدي، روى عن ابن عباس، وأنس، وجابر وغيرهم، قال عنه أبو زرعة: يماني حميري ثقة، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وروى له أبو داود وابن ماجه. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٩/ ٣٤٩)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٢٧٥).

(٥) ثبير: من أعظم جبال مكة. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٧٢).

(٦) رواه عنه عبدُ بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ١١٢).

وقيل: ثمانين سنة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل عليه تَيْسٌ مِن ثَبير، أقرنُ له ثُغاءٌ[١]، وهو الكبش الذي قرَّبه ابن آدم فتُقُبِّل منه، وكان مخزوناً في الجنة[٢].

قال الكلبي رحمه الله: وأخذ إبراهيم الشَّفْرة ليذبحَه، قال إسماعيل: يا أبتِ! أوثِقْني، فإني أخاف أنْ أجدَ حدَّ[٣] السِّكين فأضطربَ فأشقَّ عليك، واصرفْ وجهك عني، فإني أخاف أنْ ترحمني فيَشقَّ عليَّ[٤].

وفي حديث وهب قال له: اشدُدْ وَثاقي، فإني أخاف أنْ يفارقَني عقلي، ويتحرَّكَ منِّي عضو فيؤذيَك، وأنا أكره أنْ أختِمَ عمري بذلك، فإذا فرَغْتَ مِن أمركَ، فاقرأ على أمي مني السَّلام، وقل لها: لا تجزعي، فإن الله قد أحرز لكِ ابنكِ في الجنة خالداً مخلَّداً، فلما وضَعَ السِّكينَ عليه ليذبحه نودي: يا إبراهيمُ! ارفع رأسكَ، فاذبح هذا الكبش الذي ينحدرُ عليك مكانَ ابنكَ، فرفع إبراهيم رأسه فإذا هو بكبش ينحدرُ عليه مِن الجبل المشرف على مسجد منًى أقرنَ أملحَ، فقام إليه إبراهيم ليذبحه، فهرب الكبش، فاتَّبَعه إبراهيم، فانتهى به إلى جمرة العقَبة، فاضطرَّ عندها، ثم أخذه، ثم أقبل به نحو ابنه[٥]، حتى انتهى به إلى ما بين الجمرتين، فرمى بنفْسه فلم يُطِقْه

---

(١) الثُّغاء: صوت الغنم، والفعل: «ثغا يثغو». انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٨/ ١٥٩).

(٢) أخرجه بهذا السياق ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٢١ ـ ٣٢٢٤)، وكون الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو نفسه الذي قربه ابن آدم أخرجه من قول ابن عباس أيضاً الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٨٧).

(٣) في (ر): «حز».

(٤) روى نحوه سعد بن منصور وابن المنذر عن عطاء بن يسار فيما نقله السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١١٣)، ورواه الإمام أحمد من وجه آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٢٧٩٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٥) عن مجاهد، ولم أقف عليه للكلبي.

(٥) «نحو ابنه» ليس من (ف).

إبراهيم، فذبحه مكانه، فصار الذبح هنالك، ثم جاء إلى ابنه فحلَّه[1].

وفي حديث وهب: فإذا بكبش مثلِ بدنِ الفيل العظيم قد لوى قرْنَه الأيمن على ساقِ سمُرةٍ غليظةٍ، لم يكن ليحبِسَه إلا ذلك.

ولما ذبح الكبش أوحى الله إلى هذا الولد أنِ ادعُ، فإن لكَ دعوةً مستجابةً، فقال: اللهم إني أدعوكَ أن تستجيبَ لي: أيُّما عبد مِن الأولين والآخرين لقِيَكَ لا يُشرك بكَ شيئاً أنْ تدخلَه الجنة، فقال: لكَ ذلك[2].

***

(١٠٨) ـ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾: أي[3]: على إبراهيم ثناءً حسناً ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: في الأنبياء بعده.

وقيل: في الأمم بعده.

وقيل: في أمة محمد، فكلٌّ ينتمي إليه ويُصلي ويُسلِّم عليه.

وقيل: تَرَكَ مناسكه ونسائكه فيمَن بعده.

وقيل: هو ما استجاب مِن قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

---

(١) ذكر الثعلبي نحوه مطولاً في «تفسيره» (٨/ ١٥٤) عن محمد بن إسحاق بن يسار، ولم أقف عليه لوهب.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٠٨) عن كعب، والذي في هذه الرواية إسحاق لا إسماعيل، وهذا قول أهل الكتاب، فالخبر من الإسرائيليات التي عرف عن كعب روايتها.

(٣) في (أ): «يعني».

(١٠٩ ـ ١١١) ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقيل: هو ما بعده: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾: على ما شرحناه في قصة نوحٍ مِن هذه السورة.

وقولُه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: هو على ما فسَّرناه في قصة نوح عليه السلام، وكرَّرَ قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ في حق إبراهيم عليه السلام؛ لاختلاف الإحسانَين والجزاءَين، وهو ما ذُكِر ثمَّةَ وهاهنا.

قولُه تعالى: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: قيل: وجزيناه على صبره في حقِّ إسماعيل أنْ بشَّرناه بولد آخر، وهو إسحاقُ، ﴿نَبِيّٗا﴾ نصبٌ على القطع؛ لأنه نكرةٌ نُعِت به معرفةٌ، ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ كالولد الأول.

* * *

(١١٣) ـ ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾.

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ ﴾: أي: على إبراهيم ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾: ولدِه، أي: أدمْنا عليهما البركاتِ، وكثَّرْنا نَسْلَهما.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾: لما ذكَرَ البركة عليهما ـ ومنها[1] كثرةُ نسلِهما ـ وظاهرُه للثَّناء بها، ذكَرَ أنَّ من ذُرِّيتِهما محسناً فله جزاء المحسنين، ومسيئاً فله جزاء المسيئين، وأنه[2] يُميِّزُ بينهما، وإنْ كانا من نسلِهما يُعرِّفُ عبادَه أنَّ الجزاء لا يُستَحقُّ بصلاح الآباء، وإنما يُستَحقُّ بالأعمال الحسنة.

---

(١) في (أ) و(ر): «منهما».

(٢) في (أ): «والله».

ثم اختلفوا: في أنَّ الولدَ المأمور بذبحه إسماعيلُ أو إسحاقُ؟

قال خوَّات بن جُبير، وسعيد بن المسيَّب، ويوسف بن مهران، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبير، وأبو الجَلْد[١]، وعطاءٌ، والضَّحاك، وأبو صالح، والكلبيُّ، ومحمد بن كعب القُرَظيُّ، وعليُّ بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، ومعاوية، وابن عباس[٢]، ومجاهد، وابن عمر، وأبو هريرة، والحسن، ووهْب بن منبِّه رضي الله عنهم: إنه إسماعيل[٣].

وقال العبَّاس، وعمر، وعثمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام، وجابر بن عبد الله، وأبيُّ بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخدري، وأبو الدرداء، وكعب الأحبار، وعبيد بن عمير، وعبد الله بن أبي الهذيل، وأبو ميسرة، وابن سابط، والسُّدِّيُّ، ومسروق، وعثمان بن حاضر، وقتادة، وعكرمة، وعطاء الخُراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو اليمان: هو إسحاق عليه السلام[٤].

---

(١) في (ر) و(ف): «الخالد»، وهو تصحيف.

(٢) في (أ): «إسحاق».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٢ ـ ٥٩٨) عن ابن عمر، وابن عباس، والشعبي، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب القرظي، وعمر بن عبد العزيز، ومعاوية.
وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٣) أيضاً عن سعيد بن جبير، وعطاء، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٥١) عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، وسعيد بن المسيب، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٤٧) عن عبد الله بن سلام، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٠٠) عن الكلبي، ورواه الحاكم في «مستدركه» (٤٠٤٠)، عن خوات بن جبير.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٢) عن العباس، وابن عباس، وابن مسعود، وكعب، ومسروق، وعبيد بن عمير، وعبد الله ابن أبي الهذيل، وابن سابط، وأبي ميسرة.
ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٥١) أيضاً عن عمر بن الخطاب، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومقاتل، والزبيري. =

فمَن جعله إسحاق احتجَّ بما رُوي في الخبر أنَّ يوسف صلوات الله عليه كان يقول: أنا يوسف صدِّيقُ الله ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ الله ابنِ إسحاقَ ذبيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله[1].

= وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٣) أيضا عن علي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبي، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهري، والقاسم بن أبي بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدي، وقتادة.

وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٤٧) أيضاً عن أبي هريرة، وأبي موسى الأشعري، ووهب بن منبه.

وهو القول الذي رجحه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٨)، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٦٣)، وقال القرطبي: وهذا القول أقوى في النقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ورد ذلك ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٣) فقال: وهذه الأقوال [القائلة بأن الذبيح هو إسحاق] ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر عن كتبه، فربما استمع له عمر، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف واحد مما عنده، وقد ورد في ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ـ ولكن لم يصح سنده.

وقال الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٦٠٩): وقد كنت أرى مشايخ الحديث قبلنا وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٢٧٨) موقوفاً على ابن مسعود. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٢): فيه بقية مدلس، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

ورواه أيضاً في «الكبير» (٨٩١٦) موقوفا عليه. قال الهيثمي: رواه الطبراني موقوفاً بإسنادين، رجال أحدهما ثقات غير أن مشايخ الطبراني لم أعرفهم.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٧٠٨) من حديث أبي ميسرة التابعي.

وقد روى البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لما سئل عن أكرم الناس: «فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». لم يقل: (ذبيح الله).

ومَن جعله إسماعيل احتجَّ بقوله عليه السلام: «أنا ابن الذَّبيحين»[١]، وعنى بأحدهما أباه عبد الله، وقصَّتُه معروفةٌ، وبالثاني إسماعيل.

وبقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، فلما بشِّرتْ سارة بأنَّ لها من ولدها إسحاقَ نافلةً هو يعقوب، وعلِم بذلك إبراهيم، كان يتيقَّن أنَّ إسحاق لا يُذبحُ، فلا يتحقَّق الابتلاء بأمره بذبحه.

ولأنه[٢] قال في هذه السورة بعد تمام قصة الولد: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾، فكان التبشير بإسحاق بعد مُضيٍّ هذه القصة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا حاجةَ بنا إلى معرفة ذلك الولد بعينه، ولو كانت بنا حاجةٌ[٣] إليه لبيَّنَ الله تعالى لنا ذلك[٤].

---

(١) لا أصل له بهذا اللفظ، كما ذكر ابن حجر والزيلعي فيما نقله العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٢٦).

وقد روى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦) عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم، «كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله! عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك عليه الصلاة والسلام»، ثم ذكر أن الذبيح الأول والده عبد الله، والثاني إسماعيل.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٥): هذا حديث غريب جداً. وضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٦).

(٢) في (ر): «ثم»، و(ف): «لأنه».

(٣) في (أ): «حاجة التعيين».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥٧٦)، وأسوقه بلفظه لنفاسته، قال: (فلا حاجة لنا إلى معرفة ذلك أنه فلان أو فلان، إذ لو كان لنا إلى بيان ذلك حاجة لبين وأزال الإشكال، واختلاف الناس في ذلك والتكلم فيه فضل وتكلف، إذ لا يحتمل أن يكون بالناس حاجة إلى معرفة ذلك وبيانه، ثم لا يبين لهم ولا يعرف ذلك، فدل ترك التنازع لذلك على أن لا حاجة لهم إلى ذلك). ونحوه قال الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣١١).

(١١٤ ـ ١١٦) ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾: أي: تفضَّلْنا عليهما بإيتاء النبوة والرسالة وغير ذلك مما يكثُرُ، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] الآيات.

وقولُه تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا ﴾: أي: بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: الغمِّ الذي يأخذ بالنَّفْس مِن الاستعباد من فرعون وقومه وسائر المِحَن.

وقولُه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ ﴾: أي: موسى وهارون وقومهما على فرعون وقومه ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾: بالحُجَّة والقوة ووجوه النُّصْرة.

* * *

(١١٧ ـ ١٢٢) ـ ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ﴾: أي: موسى وهارون ﴿ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾؛ أي: البيِّنَ الظاهر الواضح، وهو التوراة.

﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: أي: أرشَدْناهما إلى الدين الحق، ثم أمَرْناهما بدعاء الناس إليه.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾: له وجهان كما مرَّ في ذِكْر نوح عليه السلام.

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: وقد فسَّرْناه في ذِكْر نوح.

(١٢٣ ـ ١٢٥) ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾: أي: ألا تخافون الله؟! استفهامٌ بمعنى الأمر.

وقولُه تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾: قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسُّدِّي: البَعْلُ: الرَّبُّ في لغة أهل اليمن، يقال: هذا[١] بَعْلُ هذا الثوب؛ أي: ربُّه[٢].

وقال الحسن والضحاك وابن زيد: هو اسمُ صنمٍ لهم، وبلاد هؤلاء كانت (بَعْلَبَكَّ) بنواحي الشام[٣].

وقيل: إنَّ البَعْل كانت امرأةً يعبدونها.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾: أي: وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المـُقَدِّرين والمصوِّرين، ولا خالقَ إلا الله؟!

والخَلْقُ حقيقةً هو الاختراع، ويُستعمل في التقدير، والمراد به هاهنا ذلك.

***

(١٢٦ ـ ١٢٨) ـ ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾: قرأ حمزة والكسائي وحفصٌ عن عاصم بالنصب؛ لأنه نعتُ قولِه: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾.

---

(١) في (أ): «هو».

(٢) رواه الطبري عنهم في «تفسيره» (١٩/ ٦١٢ ـ ٦١٣).

(٣) رواه عن الضحاك وابن زيد الطبريُّ في «تفسيره» (١٩/ ٦١٤)، وعن الحسن يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٨٤٠).

وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء والخبر، أو على إضمار: هو[١].

قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: أي: استحقُّوا إحضارَ عذاب النار.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: استثنى الذين أخلصوا العبادة لله، والذين أخلصهم الله بالإيمان منهم، وبيَّنَ أنهم لا يحضُرون العذاب.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ أي: لكنَّ هؤلاء لا يحضُرون النار.

***

(١٢٩ ـ ١٣٢) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾: فسَّرْناه.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿على آل ياسين﴾، والباقون ﴿على إل ياسين﴾[٢].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: فسَّرْناه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إلياسُ هو إدريسُ[٣].

وقال محمد بن إسحاق: هو إلياس بن قيس[٤] بن فِنْحاص بن العَيْزار بن هارون بن عمران.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١/ ٥٤٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١/ ٥٤٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٥٨) ثم قال: وإلى هذا ذهب عكرمة، وقال: هو في مصحف عبد الله: وإن إدريس لمن المرسلين، وتفرد عبد الله وعكرمة بهذا القول.

(٤) كذا في النسخ الثلاث، وقد ذكره عنه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦١٢)، وفيه: إلياس بن تسبي، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٥٢)، وفيه: إلياس بن بشر.

والقيِّمُ بأمور بني إسرائيل بعد يُوشَع كان كالِبَ بنَ يُوقَنا ثم حِزْقيلَ مِن بعدِه، ولما قُبِض حِزْقيل كثُرت الأحداث في بني إسرائيل، وتركوا عهد الله الذي عهِدَ إليهم في التوراة، وعبَدوا الأوثان، وبعث الله إليهم إلياس نبياً في عهد ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له: أَحابُ[١]، فكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائرُ بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له: بعل[٢].

فأما قولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ فله وجهان:

أحدُهما: أنَّ ﴿إِلۡيَاسَ﴾ زِيد في آخره ياء ونون لِتَسْتويَ الفواصلُ؛ كما في قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، وفي آية[٣] أخرى: ﴿مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

والثاني: أنَّه إلياسُ ومُتَّبِعوه؛ صار جمعاً بهم؛ كما يقال: المـهَلَّبون، للمُهَلَّب وأتباعه.

ومَن قرأ: ﴿آل ياسين﴾ فقد قيل: هم أهل القرآن، و(ياسين) سورةٌ منها، والإضافةُ إليها إضافةٌ إلى كل القرآن معنًى؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث حرب[٤] حُنين: «يا أصحاب سورة البقرة»[٥].

وقيل: «ياسين» اسم رسول الله ﷺ، و«إلْ ياسين» آل محمد عليه السلام.

* * *

---

(١) في (أ) و(ف): «أجاب».

(٢) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٣٧) من طريق محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه.

(٣) في (أ): «رواية».

(٤) في (أ): «في حديث في حرب».

(٥) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٧٦).

(١٣٣ ـ ١٣٨) ـ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: قد فسَّرْناها مرات[١].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾: أي: أهلكناهم.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾: يا مَعْشَر العرب ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على بلادهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: نصبٌ على الحال، أي: داخلين في وقت الصباح.

﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾: أي: وتمرُّون عليهم بالليل أيضاً، فكانت مدائنُ[٢] قوم لوط في أرض العرب، وكانوا يسافرون ويتكرَّرُ مرورهم عليها بالليل والنهار، وهو داعٍ إلى الاعتبار.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفليس لكم عقول تتأمَّلون بها أنَّهم ماذا فعلوا وماذا فعلنا بهم كذلك، فتتَّقوا مثلَ فعلهم لئلَّا[٣] تُجازَوا مثلَ جزائهم.

* * *

(١٣٩ ـ ١٤٠) ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: الإِباق: الفرارُ إلى حيث لا يهتدي إليه الطلاب؛ أي: خرج من بين قومه حين[٤] كذَّبوه من غير علمِ قومِه بخروجه.

---

(١) في (أ): «فسرناها» بدل: «قد فسرناها مرات».

(٢) في (أ) و(ف): «مدن».

(٣) في (ر): «كيلا».

(٤) في (ف): «حيث».

وقيل: هو في معنى قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقيل: فرَّ بدينه إلى حيث يَسْلَم.

وقيل: خرج خائفاً على نفْسه منهم.

وقيل: خائفاً نزولَ العذاب.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: السفينةِ المملوءة، وهو واحد هاهنا مذكَّرٌ، والاسم يصلُح للجمع، وقد يؤنَّثُ.

* * *

(١٤١ ـ ١٤٣) ـ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾: أي: قارَعَ بإلقاء السِّهام.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: أي: مِن الذين خرجت عليهم القُرْعة.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾: أي: فألقى نفْسه في البحر لوقوع القُرْعة عليه، فابتلعه السمك.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: أي: آتٍ[1] بما يُلام عليه، وهو الخروج قبل أنْ يُؤمر به.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

قيل: أي: مِن المصلِّين قبل ذلك، وكان كثير الصلاة. قاله قتادة[2].

وقيل: أي: المنزِّهين اللهَ بكلمة التسبيح، وكان كثير الذكر لله تعالى والتسبيح.

---

(١) في (أ): «أتى».

(٢) رواه عن قتادة الطبريُّ، وروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي. انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٨ ـ ٦٣٠).

وقيل: فلولا أنه صار مِن المسبِّحين؛ كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، وهو قوله في الظُّلُمات: ﴿سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قاله سعيد بن جبير[١].

* * *

(١٤٤ ـ ١٤٥) ـ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾: أي: بقِيَ في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: يومِ تُبعَثُ الخلائق، وهو يومُ القيامة؛ أي: لبقِيَ فيه حتى يُحشَرَ يومئذ من بطن الحوت، وسائرُ الناس من القبور.

وفيه دليلٌ على أنَّ إخلاص[٢] العمل في الرَّخاء سببُ خَلاص العبد حالةَ البلاء.

وقولُه تعالى: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ﴾: أي: ألقيناه، يعني: أخرجناه من بطن الحوت وألقيناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ أي: الفضاء، وهو الصحراء الخالية عن البِناء والأشجار وما يُظِلُّ، مِن التَّعرِّي.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: أي: سقيمُ البدن، قد رقَّ بدنه وضعُفَ ولطُفَ، وصار لا يطيق حرَّ الشمس وهُبوب الريح.

* * *

(١٤٦) ـ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

---

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٢٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٠)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٩).

(٢) في (أ) و(ف): «إحسان».

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾: قال أهل اللغة: هو كل شجرة ليس لها ساقٌ، ولها ورق عريض[(١)].

وقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومجاهد وسعيد بن جُبير: هو القَرْع[(٢)]، هو[(٣)] مأخوذ من: قطَنَ بالمكان؛ أي: أقام به، وهي إقامةُ زوال، لا إقامة رسوخ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: القَرْع أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً في السماء في مدة لطيفة، ويقرُب الوصول إلى الانتفاع بها أكلاً واستظلالاً.

قال: وروي عن النبي ﷺ أنه قيل له: إنك لتحبُّ القرع؟ قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس بن متى وهي تزيد في العقل»[(٤)].

وقال السُّدِّي: لبِث في بطن الحوت أربعين يوماً، وكذا قال الكلبي ومقاتل.

وقال عطاء: سبعة أيام.

وقال الضحاك: عشرين يوماً.

---

(١) في (ر) و(ف): «عظيم عريض». وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١٤)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٧٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧١) عن ابن عباس والحسن ومقاتل.

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٤ ـ ٦٣٦).

(٣) «هو» من (أ).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٥٨٩).

والحديث بهذا اللفظ ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٦٢)، والقرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٤) وغيرهما من غير إسناد.

وقال العراقي: لم أقف عليه، وقال ابن حجر: لم أجده. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٥٧).

وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يحب الدباء وهو القرع، كما عند «مسلم» (٢٠٤١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال ابن حيان: ثلاثة أيام[١]، وعن الحسن كذلك[٢].

وقال الشَّعبي: ما مكث يوماً تامًّا[٣]، التقمَه ضحًى، فلما كان بعد العصر تثاءب الحوت، فرأى يونس ضوء الشمس، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فنبَذه وقد صار كأنه فَرْخ[٤].

وقيل: كانت وَعْلَةٌ تختلف إليه، فيشرب من لبنها، لا تفارقه.

وعن الحسن: أنه قيل له: اليقطين هو القَرْع؟ فقال: وما يجعل القَرْع أحقَّ به من البِطِّيخ والقِثَّاء[٥].

وقال مقاتل: مرَّ الزمان على الشجرة فيبِست، فبكى يونس جزَعاً، فأوحى الله إليه: بكيتَ على شجرة يبِسَتْ جزعاً، ولا تبكي على مئة ألف في يد الكفار[٦].

* * *

(١٤٧) ـ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

---

(١) ذكر الأقوال الأربعة الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٠)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١٠٩).

(٢) ذكر الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣١٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٦٢) أن الحسن قال: لم يلبث إلا قليلاً.

(٣) في (ر): «كاملا».

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والحاكم؛ كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٢٧).

وذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٣)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٦٨).

(٥) لم أقف عليه للحسن، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٦) عن سعيد بن جبير، وذكره عن مقاتل البغويُّ في «تفسيره» (٤/ ٤٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٦٢) بصيغة روي.

وقولُـه تعالـى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: قال ابـن عباس رضي الله عنهما: أي: بـل يزيدون[1].

وقيل: هو إبهامٌ من الله تعالى على السامعين، وتقديرُه: أرسلناه إلى أحد هذين العددين.

وقيل: هو تشكيك المخاطَبين.

وقيل: أي: هو عند الناظر إليهم كذلك، لا يظُنُّ أنهم دون مئة ألف، ولكن يظُنُّ مئة ألف أو زيادةً على ذلك.

وقيل: ﴿أَوْ﴾ هاهنا للغاية[2]؛ كما في قوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، فكأنه قال: وأرسلناه إلى مئة ألف حين أرسلناه إليهم وكان فيهم إلى أنِ ازدادوا على ذلك.

***

(١٤٨) ـ ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

واختُلِف في هؤلاء وفي وقت الإرسال إليهم:

قيل: هم القوم الذين خرج منهم، والإرسالُ كان قبل الخروج منهم، وتقديرُه: وكُنَّا أرسلناه[3] إلى مئة ألف أو يزيدون ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ به بعد مفارقته إياهم ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: وقد بيَّنا تلك القصة عند قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ الآية [يونس: ٩٨].

وقيل: القوم هؤلاء، و(أرسلنا) معناه: أي: وأرسَلْناه إليهم بعد الخروج من بطن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٣٧).

(٢) في (ر) و(ف): «بمعنى الغاية».

(٣) في (أ): «وكما أرسلنا» بدل من «وكنا أرسلناه».

الحوت؛ أي: أعَدْناه إليهم، ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾: فجدَّدوا الإيمان به، ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى انقضاء آجالهم.

وقد ذكَرْنا قصة الخروج إلى السفينة والخروج من بطن الحوت في سورة الأنبياء.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ يونس كان أوعَدَ قومه العذاب، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كل والدة وولدها، ثم خرجوا فجَأَروا إلى الله تعالى واستغفروه، فكفَّ الله عنهم العذاب، وغدا يونس ينتظر العذاب، فلم ير شيئاً، وكان مَن كذَب ولم يكن له بيِّنة قُتِل، فانطلق مغاضباً حتى أتى قوماً في سفينة فحمَلوه وعرَفوه، فلما دخل السفينة ركَدت والسفينةُ تسير يميناً وشمالاً، فقال: ما لِسفينتكم؟ قالوا: ما ندري، قال يونس: إنَّ فيها عَبْداً آبِقاً، وإنها واللهِ لا تسير بكم إلا أنْ تُلْقوه، قالوا: أمَّا أنتَ يا نبي الله فلا واللهِ لا نُلْقيكَ، قال لهم يونس: فاقترِعوا، فمَن قُرِعَ فليَقَعْ، فقارَعهم يونس، وقال: مَن قُرِع ثلاثاً فليقعْ، فقُرِع يونس ثلاث مرات فوقَع، وقد وُكِّلَ به الحوت، فلما وقع ابتلعه، فأهوى به إلى قرار الأرض، فسمِعَ يونس تسبيح الحصا، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ظُلْمةُ بطن الحوت، وظُلْمةُ البحر، وظُلْمةُ الليل، قال: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾، قال: كهيئة الفَرْخ المـَمْعُوط الذي ليس عليه رِيشٌ، فأنبَتَ الله عليه شجرة من يقطين، وكان يستظلُّ بها فيُصيب منها، فيبِسَتْ فبكى عليها، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أنْ يبِسَتْ ولا تبكي على مئة ألف أو يزيدون أردتَ أنْ تُهلِكَهم؟ فخرج فإذا هو بغلام يَرعى غنماً، فقال: مَن أنت يا غلامُ؟ قال: مِن قوم يونس، قال: فإذا رجعتَ إليهم فاقرأْ عليهم السلام، وأخبِرْهم أنَّك قد لقيتَ يونس، فقال له الغلام: إنْ تكُ يونسَ فقد تعلَمُ أنَّ مَن كذَبَ ولم تكن له بينة

يُقتَل، فمَن يشهدُ لي؟ قال يونس: تشهدُ لك هذه الشجرة وهذه البقعة، فقال الغلام ليونس: مُرْهما، قال لهما: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام إلى قومه، فأتى الملكَ، فقال: إني قد لقيتُ يونس، وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر به أن يُقتَل، فقال: إنَّ لي بينةً، فأَرسل معه، فانتهَوا إلى البقعة والشجرة، فقال لهما الغلام: أنا أَنشُدُكما اللهَ: هل أشهدَكما يونس؟ قالتا: نعمْ، فرجع القوم مذعورين، فأتوا الملك فحدَّثوه بما رأوه، فتناول الملكُ بيد الغلام، فأجلسه في مجلسه، فقال: أنت أحقُّ بهذا المكان مني».

قال عبد الله بن مسعود: فأقام به الغلام أربعين سنة(١).

وذُكِرَ أنَّ الله تعالى أوحى إلى يونس عليه السلام بعد نجاته: أنْ قل لفلانٍ الفخَّارِ يكسرِ الجِرار التي عملها بهذه السنة كلها، فقال يونس: يا رب! إنه عمِل مدةً في اتخاذ ذلك، فكيف آمرُه أنْ يكسرَه كله؟! فقال: يا يونس! يرِقُّ قلبُك لخزَّافٍ يُتلِفُ عمَلَ سنةٍ، وأردتَ أنْ أُهلِكَ مئة ألف أو يزيدون من عبادي؟ يا يونس، أنتَ لم تخلقهم ولم توجدهم، ولو كانوا مِن عمَلِكَ لرحمتهم(٢).

***

(١٤٩) ـ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾: أعاد الكلام إلى مُحاجَّة المشركين في وصفهم اللهَ تعالى باتخاذ البنات.

يقول: فاسأل هؤلاء المشركين عن قولهم: إنَّ الملائكة بنات الله، وإنهم يعبدونهم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٦٧)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٧١)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٥/ ١٥٢) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٤٢).

لهذا السبب تقرُّباً به إلى الله: ما حُجَّتهم من العقل أو السمع؟ أفي مُقتضى العقل أنْ يكون لله البناتُ وللمشركين البنون، فيكونَ لكم أفضلُ نوعَيِ الأولاد ولله أَدْوَنُهما؟!

وهو كقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١]؛ أي: جائرة.

***

(١٥٠ ـ ١٥٢) ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾: أي: أيدَّعون أنهم شهدوا خَلْقَنا الملائكةَ؛ أي: حضروه فرأوا أنا خلَقْناهم(١) إناثاً؟!

وهو كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، وهذا لا يمكنهم أنْ يدَّعوه، وإذا بطَلَ هذا بالعقل ولا مشاهدةَ ثبَتَ كذبُهم، وذلك قولُه:

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: والإفكُ: الكلام المصروف عن الحق إلى الباطل.

***

(١٥٣ ـ ١٥٦) ـ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾: دخل ألفُ الاستفهام على ألف «الافتعال»، وهو استفهام بمعنى الإنكار، يعني: أتقولون أنَّه اختار البنات على البنين مع نُقْصانهن رضاً بالأخسِّ، فما حُجَّتكم على ذلك؟

---

(١) في (ر): «أي حضروا فرأوا أنا خلقنا الملائكة»، وليس من (ف).

﴿مَا لَكُمْ﴾: وهو استفهام في معنى التوبيخ؛ أي: وماذا يحمِلُكم على هذا القول بغير حُجَّة؟!

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: كذلك أيضاً.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا تتذكَّرون ما في عقولكم؟! أفلا تتَّعِظون بمواعظ ربكم؟!

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾: أي: حُجَّةٌ ظاهرة مِن كتاب.

* * *

(١٥٧) ـ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾: أي: الكتابِ الذي أُنزِل عليكم وفيه حُجَّة ذلك.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في هذه الدَّعوى، فإذا بطَلت الدِّلالة بالعقل أو المشاهدة أو السمع سقَط ذلك وبطَل.

ورُوِي: أنَّ جُهَيْنة وبني سَلَمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله[١].

وقال مقاتل بن حيان: زعموا أن الله وإبليس أخوان[٢].

وقال الكلبي: زعموا أن الله صاهَرَ إبليس، فولَدت الملائكة، فاتخذهم اللهُ بناتٍ[٣].

* * *

(١٥٨) ـ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: قيل: قالوا: إنَّ أمهات الملائكةِ بناتُ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٦٢)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ١١٨)، وذكر أيضاً من الأحياء التي زعمت أن الملائكة بنات الله خزاعة وبنو مليح.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنه، ولم أقف عليه لمقاتل.

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٤).

سَرَواتِ الجن[(١)]؛ أي: ساداتِهم، فقد جعلوا اللهَ أباً، والجنَّ أمهاتٍ، والملائكةَ بناتٍ، وهو نسَبٌ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾: وهُمُ الجنُّ[(٢)].

﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: أي: يحضُرون الحساب يوم القيامة، وفِعْلُ العِلم واقع على ذلك، وإنما كسر ﴿إِنَّهُمْ﴾ ولم يفتَحْ؛ للجواب باللام: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾.

وإنما قال: ﴿عَلِمَتِ﴾؛ لأنَّ فيهم مؤمنين قد أتوا النبيَّ ﷺ وآمنوا به على ما ذُكِرَ في سورة الجن.

وذكَرَ مجاهد وغيره أنَّ القائلين بمصاهرة الجن مشركو العرب[(٣)].

وقال قتادة: هم اليهود[(٤)].

وقيل: معنى قوله: ﴿بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾؛ أي: الملائكةِ، وهو قولهم: إنَّ الملائكة[(٥)] بنات الله، و(الجِنَّة) من الاجتنان، وهو الاستتار، وصِفَةُ الملائكة كذلك، وعلى هذا تأويلُ بعضهم: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أي: من الملائكة، وقولُه تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾: أي: الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: القائلون بهذا ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ الحسابَ والعذابَ يوم القيامة.

* * *

(١٥٩ ـ ١٦٣) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣١) عن مجاهد.

(٢) «وهم الجن» ليس من (أ).

(٣) رواه عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٤٥).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٤٥).

(٥) في (أ): «إنهم».

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: نزَّه نفْسَه عن قولهم هذا.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: استثنى المؤمنين المخلَصين من المحضَرين العذابَ.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾:

قال الحسن: فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ما أنتم على عبادة الأوثان بمُضِلِّين إلا مَن قُدِّرَ عليه أنه يَصْلى الجحيم[(١)].

وقال الفراء: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: به[(٢)]، ويرجع إلى (ما).

وقيل: معناه: أي: مِن أجله؛ كقولكَ: اشتريتُ هذا على فلان؛ أي: من أجله؛ أي: قصدُكم إضلالَ النَّاسِ يكون من جهة الأصنام؛ لتكون العبادة لها.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾: مفعول؛ لوقوع فعلِ الفتنة عليه، وهي الإضلال؛ أي: لا يَقْدِرون على إضلال أحد إلا مَن علِمَ الله منه اختيار الكفر والإصرارَ عليه، فقدَّرَ عليه الكفرَ والإصرارَ عليه ودخولَ النار.

وصَلْيُ النار: دخولُها.

وقيل: قرأ الحسن: (صالُ الجحيم) بالرفع[(٣)].

قال الأصمعي: كان الحسن أعلمَ باللغة وأفصحَ مِنْ أن يقرأ هكذا.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٤٨)، وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥٩٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٤).

(٣) ذكرها الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٦٥٠)، والزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣١٥)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٩٤)، وذكروا للقراءة ـ إن صحت ـ وجهاً أقوى من الذي ذكره المصنف، وذلك حملاً لها على الجمع، حيث أراد: «صالون الجحيم»، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لسكونها وسكون اللام من «الجحيم»، مع تقدير «مَن» جنسيةً، أي: بالجنس الذين هم صالوا الجحيم.

وقالوا: إنْ ثبَت ذلك عنه فهو على القلب؛ كما يقال: شاكُ السِّلاحِ، فأصلُه: شاكي السلاح[1].

* * *

(١٦٤ ـ ١٦٦) ـ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: أكثر المفسرين على أنه خبرٌ عن الملائكة أنهم يقولون هذا، وفيه إضمار ليتَّصِلَ بالأول: وتقول الملائكة الذين جعلتُموهم بنات الله تعالى: وما منا إلَّا له مقام معلوم في السماء للعبادة، لا يتقدَّمُه ولا يتأخَّرُ عنه، فنحن عَبيده لا بناته.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾: للخدمة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: المنزِّهون الله عما لا يليق به من الصفة.

وقيل: هو قول النبي ﷺ والمؤمنين: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ أي: ليس منا ومنكم ـ أيها المشركون ـ أحدٌ إلا له مقام معلوم في الآخرة للحساب، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في الدنيا للصلاة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ لله المنزِّهون له.

* * *

(١٦٧ ـ ١٧٠) ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) أي: يقلب حتى يصير: صائل، ثم يقال: صال، في صائل، كما يقال: شاك، في شائك.
وذكروا للقراءة وجهاً آخر، وهو حملها على الجمع والتقاء السَّاكنين، حيث أراد: «صالون الجحيم» محمولًا على معنى ﴿مَنْ﴾، والتَّوحيدُ في ﴿هُوَ﴾ على لفظه، فحذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لسكونها وسكون اللام من «الجحيم»، مع تقدير «مَن» جنسيةً، أي: بالجنس الذين هم صالوا الجحيم.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾: أي: ولقد كان هؤلاء المشركون يقولون قبل أنْ يُبعثَ إليهم محمد:

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾: أي: كتاباً مِن الرسل الأولين؛ أي: لو أُرسِلَ إلينا رسول، وأُنزِلَ علينا كتاب.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: مؤمنين مخلِصين[1] غيرَ مشركين.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾: أي: فقد جاءهم الذِّكْر ـ وهو القرآن ـ فجحَدوه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: عن قريب ما يحلُّ بهم من العذاب، أي: فلا يَضِقْ صدرُك يا محمد بكفرهم وإيذائهم.

* * *

(١٧١ ـ ١٧٤) ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾: أي: لقد[2] تقدَّمَ وعدُنا ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾: كُسِرَ لأجل اللام مع أنَّ الفعل واقع عليه، ويجوز أنْ يكون مبتدأً على الحكاية، أي: سبَق للأنبياء قولُنا لهم ذلك، وكذلك يكون لك يا محمد.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾: جُمِعَ لأن معنى (الجُنْد) الجمع، وقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] فوحَّدَ لأن لفْظَه واحد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: يا محمد، أعرِضْ عن مُكافأتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: وهو نزول الأمر بالقتال.

* * *

(١٧٥) ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) قوله: «مؤمنين مخلصين» ليس من (أ)، وهذا المعنى أنسب بقراءة كسر اللام، وكسر اللام وفتحها قراءتان سبعيتان تقدمتا.

(٢) في (ر) و(ف): «فقد».

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾: أي: فانتظِرْ ما ينزل بهم، وهو كقولك: انظرْ ما أصنعُ بفلان[1].

وقيل: أي: أبصِرْهم حين ينزل بهم العذاب، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾: عن قريب يَرون ذلك.

وقيل: أي: كُنْ على بصيرة من عذابهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾: يصيرون على بصيرة من ذلك.

وقيل: على بصيرة من أمرِكَ، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[2]: حين لا ينفعهم.

* * *

(١٧٦ ـ ١٧٩) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾: قَبْل حينِه، وهو توبيخ.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾: أي: العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾؛ أي: بعرَصَتهم، وهو نزول بهم.

﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾: نزل بهم ما يسوؤُهم، وكانت عادتُهم مفاجأةَ الأعداء صباحاً، فقيل هاهنا كذلك مجازاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾: قيل: التَّكرار[3] للتأكيد والتقرير.

وقيل: الأول حين القتالِ وإبصارِ عذاب الدنيا، والثاني للآخرة.

* * *

(١٨٠ ـ ١٨٢) ـ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) في (أ): «انظر ماذا أصنع لفلان».

(٢) في (أ): «يصيرون كذلك».

(٣) في (ر) و(ف): «التكرير».

وقولـه تعالـى: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ ﴾: أي: تنزيهاً لربك يا محمد عمَّا وصفَه به المشركون مِن الأولاد والشُّركاء.

﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾: أي: له العزَّةُ بذاته، فلا حاجةَ له إلى التَّعزُّز بالأولاد، وهو كما قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر: ١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

وقيل: أي: مالكُ العِزَّة التي تكون للعباد مِن الظَّفَر والنُّصْرة وغير ذلك، فمنه التمسِ العزَّةَ.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾: أي: تحيَّةٌ مِن الله عليهم.

وقيل: أي: وأمان لهم أنْ يُنصرَ عليهم أعداؤهم في الدنيا، أو ينالَهم عذاب في العُقْبى.

﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾: أي: هو المُستحِقُّ للثناء والحمد.

وانتَظَمَتْ هذه الخاتمة بتنزيهِ الله تعالى عن كل صفات المشركين الذين معهم المُحاجَّة في هذه السورة، والثناءِ على المرسلين الذين بلَّغوا رسالات الله إلى أُمَمهم على ما ذكروا في هذه السورة، والشُّكرِ لله على ما أنعمَ على عباده، ففصَّلَها في هذه السورة.

ورُوِي عن علي رضي الله عنه أنه قال: مَن أحبَّ أن يكتال بالمِكْيال الأوفى مِن الأجر يوم القيامة فليكن آخرَ كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(١)].

---

(١) رواه بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٦) موقوفاً على علي رضي الله عنه.

وفي إسناده الأصبغ بن نباتة رمي بالكذب، ورواياته عن علي لا يتابع عليها كما قال ابن عدي. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٠٨).

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٤) عن الشعبي.

سُورَةُ صٓ

سُورَةُ صٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي هزَمَ الأحزاب، الرحمنِ الذي أنزل الكتاب المبارك ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، الرحيمِ الذي وعد المؤمنين جنات عَدْنٍ مُفَتَّحةً لهم الأبواب.

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخَّرَه الله تعالى لداود عليه السلام عشرُ حسنات، وعصَمَه[1] أنْ يُصِرَّ على ذنب صغير أو كبير»[2].

وهذه السورة مكِّيَّةٌ، وهي ثمانٍ وثمانون آية، وقيل: ستٌّ وثمانون، وقيل: خمس وثمانون. الاختلاف في قوله: ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾، وقوله: ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾.

وكلماتُها: سبعُ مئة وثلاثٌ وثلاثون، وحروفُها: ألفان وتسعُ مئة وأربعةٌ وتسعون.

وانتظام أوَّلِ هذه السورة بآخر تلك السورة: أنه ختَمَ تلك باسمه رب العالمين، وفتح هذه باسمه الصَّادق.

---

(١) في (ف): «وعصم».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٧)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الموضوع، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

وانتظام السورتين: أنهما في ذِكْر المشركين ومُحاجَّتهم ووَعْظهم وتنبيههم، وتسليةٌ للنبي وبشارتُه بحُسْن العاقبة بما ذُكِر مِن قصص المرسلين والأمم الماضين.

* * *

(١) ـ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿صٓ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو قسَمٌ باسم من أسمائه تعالى.

وقال السُّدِّي: هو قسَمٌ بحرف من حروف المعجم.

وقال الضحاك: معناه: صدَقَ اللهُ.

وقال قتادة: هو اسم القرآن[١].

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: هو افتتاح أسماء الله: صمد، وصانع، وصادق.

وقال عكرمة: سأل نافعٌ الأزرقُ عبدَ الله بن عباس عن ﴿صٓ﴾: فقال: ﴿صٓ﴾ كان بحراً بمكة، وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليلَ ولا نهارَ.

وقال سعيد بن جُبير: ﴿صٓ﴾ بحر يُحيي الله به الموتى بين النَّفْختين[٢].

وقيل: هو اسم محمد عليه السلام، اختصارٌ من: المصطفى.

وقيل: معناه: صَدُّ أهل مكة عن الحق.

وقيل: معناه: صادَ محمد قلوب الخَلْق.

وقال الحسن: (صادِ) أي: عارضِ القرآن بعملكَ[٣]، وهو أمر من المـُصادَاة، وعلى هذا تُكْسَر.

---

(١) ذكر هذه الآثار الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٦)، ورواها الطبريُّ في «تفسيره» (٢٠/ ٥ ـ ٧).

(٢) ذكر هذه الآثار الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٦).

وقيل: على هذا معناه: دارِ الخَلْقَ والطُفْ بهم، والمُصادَاة: المداراةُ، قال كُثَيِّرٌ:

فيا عزُّ صادِي القلبَ حتى يودَّني فؤادُكِ أو رُدِّي عليَّ فؤادِي[1]

ويجوز: فؤاديا[2].

وقال الزَّجَّاج: أي: قاتلِ الناس وحاربْهم[3].

وهي مُسَكَّنةٌ على قراءة عامَّة القراء لأنها حرفٌ، ومفتوحةٌ عند بعضهم؛ لاجتماع الساكنين كـ«أين» و«كيف»، ومضمومةٌ عند بعضهم بمنزلة الاسم المبتدأ، ومكسورةٌ عند بعضهم؛ لأنها حركة ضرورية، وعند بعضهم على تأويل الأمر على ما بيَّنا[4].

وليست بآية بالإجماع؛ لأنها لا تُجاوزُ كلمةً، وهي كقوله: ﴿قٓ﴾، و﴿نٓ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: هو قسَم ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: أي: الوعظِ، وقيل: أي: ذِكْر ما يُحتاج إليه. وقيل: الذِّكْرُ الشَّرفُ. وقيل: العِلْم. وقيل: ذِكْر أسماء الله تعالى وصفاته.

***

(٢) ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

---

(١) انظر: «ديوان كثير عزة» (ص: ٤٤٣)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٢/ ١٥٣).

(٢) «ويجوز فؤاديا» من (ر).

(٣) ذكره عن الزجاج الماتريديُّ في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٥٩٧).

(٤) قرأ الجمهور ـ ومنهم القراء العشرة ـ «ص» بسكون الدال، وقرأ أبي والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وابن أبي عبلة ونصر بن عاصم بكسر دالها، وقرأ عيسى ومحبوب عن أبي عمرو وغيرهما بفتحها، وقرأ الحسن أيضاً وابن السميفع وهارون الأعور بضمها. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩١)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٩/ ١٣٤).

والذي وقعَ عليه القسم محذوفٌ عند بعضهم، والمذكور بعده دالٌّ عليه، وهو قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾: وذلك المحذوف: لقد جاء الحق.

وقيل: بل المحذوف: ما الذين كفروا في طلَبِ حقٍّ، بل هُم في تعزُّزٍ عند أنفسهم عن طلَبِ الحقِّ، أي: ترفُّع وتكبُّر.

﴿وَشِقَاقٍ﴾: أي: ومُشاقَّةٍ لمحمد، وهي المعاداةُ والمخالفة، وكلمةُ ﴿بَلِ﴾ تدلُّ عليه؛ لأنها لنفي ما مضى ذِكْرُه، وإثباتِ ما ذُكِر بعده، والحذفُ في مِثْله أبلغُ مِن ذِكْره؛ لأن الذِّكْر يقصُره على ما ذُكِر، وفي الحذف تَذهب النَّفْس فيه كلَّ مذهب.

وقيل: بل جوابه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

وقيل: بل جوابه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾.

ورُوِي أنَّ كفار مكة جاؤوا إلى أبي طالب في مرضه، فقالوا: إنه قد حضَرَكَ ما ترى، وقد علِمْتَ ما بيننا وبين ابن أخيكَ، فادْعُه فخُذْ لنا منه وله منا، فيكُفَّ عنا ونكُفَّ عنه، فدعاه أبو طالب، فكلَّمه في ذلك، فقال: «إنما أريدهم على كلمة، وهي أن يقولوا: لا إله إلا الله»، فنفروا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، فنزل قولُه: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[1].

* * *

(٣) ـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ﴾: أي: بالاستغاثة وطلَب التوبة.

﴿وَّلَاتَ﴾: أي: وليس، وهو في لغة أهل اليمن.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٧٢)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٠٨) (٣٤١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقيل: هي «لا» زيدتْ عليها التاء؛ كما في قوله: (ثَمَّ وثمَّة)، و(ثُمَّ وثُمَّةَ).

واختار الكسائيُّ الوقف عليها بالهاء(١)، والفرَّاءُ بالتاء(٢).

وقولُه: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾: أي: وقتَ مَفَرٍّ، وقد ناصَ ينوصُ نَوْصاً؛ أي: فرَّ وراغَ.

وقال الفراء: النَّوْصُ ـ بالنون ـ: التأخُّرُ، والبَوْصُ ـ بالباء ـ: التَّقدُّمُ، وقد جمعهما امرؤ القيس في بيت واحد:

أمِنْ ذِكْر سلمى(٣) إذْ نأتْكَ تَنوصُ فتقصُرُ عنها خُطْوةً وتَبوصُ(٤)

وقال الحسن: أي: ليس هذا وقتَ نَزْوٍ(٥).

وقال ابن عباس: كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطُروا في الحرب قال بعضهم لبعض: مَناص؛ أي: اهرُبوا وخذوا حِذْرَكم، فلما نزل عليهم العذاب ببَدْر قالوا: مناص، فأنزل الله: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾(٦).

وقيل: معناه: كم أهلَكْنا قبل مشركي العرب من القرون الخالية بتكذيبهم، فلم يَقْدِروا على دفع الهلاك عن أنفسهم، ولمـَّا أخذهم العذاب رفعوا أصواتهم بالاستغاثة والتوبة وطلباً للخَلاص، فلم ينفعْهم ذلك؛ لأنه كان حالةَ البَأْس.

* * *

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢/ ١٣٢)، وقال: هذا هو الصحيح عنه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٧).

(٣) في (أ): «ليلى»، وهي رواية الفراء، والمثبت من باقي النسخ وهي رواية الديوان.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٧)، والبيت في «ديوان امرئ القيس» (ص: ١١٧).

(٥) لم أقف عليه للحسن، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٧٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧١).

(٤) ـ ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾: أي: أظهرَ هؤلاء المشركون العَجَبَ.

﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾: أي: مِن أنْ جاءهم رجلٌ[1] منهم يُنذرهم عذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾: أي: خادِعٌ بكلامه المـُمَوَّه، كذَّابٌ[2] في دعوى الرسالة.

* * *

(٥) ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾: أي: أحَكَمَ أنَّ الآلهة التي تُعبد إنما يَستحقُّ منها العبادةَ إلهٌ واحد، وهو الذي يذكُر أنه أرسله وأنزل عليه كتابه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾: أي: عَجيب؛ وقيل: هو نهاية العَجَب.

يقولون: هو مِن أعجب العَجَب أنْ[3] يخفى الحقُّ على آبائنا وعلينا ويظهرَ له، والطُّوالُ أبلغ مِن الطَّويل، وكذا الجُمال أبلغ مِن الجميل.

* * *

(٦) ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾: أي: ذهب أشراف هؤلاء الكفار مِن عند النبي.

وقال قُطْرُبٌ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾: أي: وجعل الملأُ، وهو لابتداء الأمر دون الذهاب[4].

---

(١) في (ر): «منذر رجل».

(٢) في (أ): «كاذب».

(٣) في (ر) و(ف): «أي».

(٤) لعل المراد بهذا ما قاله السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٢٠٣): ليس المراد بالانطلاق المشي، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام.

﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾: أي: قائلين بعضهم لبعض: أي: امضوا على ما كنتم عليه، ولا تُقيموا على استماع كلام محمد.

و﴿أَن﴾ بمعنى (أيْ) التي للتفسير. وقال الزَّجّاج: معناه: بأن امشوا(١).

﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾: أي: واحبسوا أنفسكم على عبادة آلهتكم التي كنتم أنتم وآباؤكم على عبادتها، فإنها تستحقُّ ذلك.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾: أي: إنَّ كلام محمد هذا لَشيء يُراد به جرُّكم إلى الانقياد له لِيتحكَّمَ في أنفسكم وأموالكم وأولادكم وأهاليكم بما يشاء، وهو كلام يُذْكَر على الإبهام للتَّحذير.

* * *

(٧) - ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: إنَّ قوله: (لا إله إلا الله) ما سمعنا به في أديان قومنا التي هي الملَّةُ المتأخِّرة عن الملل المتقدِّمة.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي: ما هذا إلا ابتداعٌ كَذِبٌ.

وقال مجاهد: الملة الآخرة: ملةُ قريشٍ(٢).

وقال ابن عباس: الملة الآخرة: اليهوديَّة والنصرانيَّة(٣)، وجُعِلَتا ملَّةً واحدة على

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٢١)، ونص كلامه: معناه: أي: امشوا، وتأويله: يقولون امشوا، ويجوز: وانطلق الملأ منهم بأن امشوا، أي: بهذا القول.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٦٠٧) عن عامة أهل التأويل، وهو قول الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٩٩).
والمروي عن ابن عباس أن الملة الآخرة هي النصرانية، كما رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢) عنه وعن السدي ومحمد بن كعب القرظي.

معنى أنهما ملَّةُ أهل الكتاب، يَعْنون أنَّ اليهود يقولون: عُزَيرٌ ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله وثالثُ ثلاثةٍ، كأنهم قالوا: التوحيد شيء كان يقوله المتقدِّمون اختلاقاً، فذلك قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

وهو كقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ثم اتَّفقَ المتأخِّرون وهم أهل الكتاب على خِلافِ ذلك وتَرْكِ ذلك.

* * *

(٨) ـ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾: أي: القرآنُ، استفهام بمعنى الإنكار. أي: كيف خُصَّ به دونَنا؟!

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾: أي: ليس ردُّهم قولَكَ لإنكارهم كونَكَ صادقاً في سائر كلامك، لكنْ يشكُّون فيما أنزلتُه عليكَ مِن الذِّكر: هل هو مِن عندي؟ إنكاراً لاختصاصي إيَّاكَ بالرسالة فيما أنزلتُه عليكَ مِن الذِّكْر[١].

وقولُه تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾: أي: وقد رأوا مع ذلك إِمْهالي لهم إياهم، وتأخيري العذاب عنهم، فظنوا أنَّ ذلك لرضايَ بشِرْكهم.

و﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾: بمعنى: ولم يذوقوا، و«ما» زائدة مؤكِّدة، كما في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و﴿عَذَابِ﴾: بمعنى: عذابي، على الإضافة.

* * *

(٩) ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

---

(١) «فيما أنزلته عليك من الذكر» ليس من (أ).

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾: أي: أعندَ هؤلاء المشركين خزائنُ رحمةِ الله، فيقسِمون منها ما يشاؤون على مَن يشاؤون حتى يُعْطوا النبوَّةَ مَن يريدون؟!

أي: فليس لهم ذلك، بل هو لله يُعطيها مَن يشاء، وهو كقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

* * *

(١٠) - ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أي: أمْ يدَّعون أنَّ مُلْكَ السماوات والأرض وما بينهما مِن الهواء لهم، فهم قادِرون على إنزال ما يُريدون مِن الوحي إلى مَن يريدون أنْ تكونَ النبوة له، وعلى المنع مِن نزول الوحي على مَن لا يُريدون، حتى يمنعوا ملائكتي مِن النزول بالوحي على محمد؟! فإن(١) كانوا يدعونه:

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾: أي: فليَصْعدوا إلى السماء مِن أبوابها وطرُقِها الموصِلة إليها، فليمنعوا مِن نزول الوحي على محمد، وإذ لا يُمكنهم أنْ يدَّعوا ذلك وهي لي، كان لي أنْ أُنزلَه على مَن أشاءُ.

* * *

(١١) - ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

وقولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: قيل: أي: لو كان هؤلاء يُطيقون الصُّعودَ إليها لكانوا جُنْداً مهزومين هنالك؛ أي: في موضع الارتقاء، فكيف وهم لا يُطيقون الارتقاء إليها؟!

---

(١) في (ف): «فإنهم».

وقيل: هذه الآية تتَّصِلُ بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، ولا يضرُّك ذلك؛ لأنهم جُنْدٌ أهزِمُهم وأفرِّقُ جَمْعَهم وتحزُّبَهم وأجعلُهم أَسْراكَ.

وقيل: أي: هم مهزومون مِن الأحزاب، فكيف يرتقون في الأسباب؟!

وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: قيل: أي: مِن قبائل شتَّى تجمَّعوا على مُعاداتك.

وقيل: أي: هم مِن جُمْلة الأحزاب المتقدِّمين، وهم المذكورون في الآية التي بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾، وهذا قول مجاهد[1].

ووجهٌ آخرُ للآيتين المتقدِّمتين: أنَّ الكفار أنكروا نبوة محمد، وقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] له أملاكٌ وأموالٌ، فقال الله لهم: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ التي لا تنقطعُ؟ أم لهم مُلْكُ السماوات والأرض وما بينهما فيتعظَّموا بذلك، فيرون لهم الفَضْل على محمد؟

فإذا لم يكن لهم ذلك، وإنما يملِكون أموالاً تروح وتغدو وتزول عن قليل، فليس لهم موضعُ تعظيمٍ تُستَحَقُّ به النبوَّةُ، ولو كان ذلك بالمـُلْك لم يكن بمُلْك[2] الأموال، بل بمُلْك السماوات والأرض، فليس لهم ذلك، فليَصْعدوا إلى السماء فينظُروا: هل يُمكنُهم إزالةُ النبوة عمَّنْ أوتيَها بلا مُلْك؟!

وهذا كلامٌ يُذْكَر للتَّبعيد؛ كما قال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقيل: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾: معناه: فإنْ كان لهم مُلْك السماوات والأرض فليَصْعدوا إليها فيدبِّروها؛ لأنَّ مَن ملَكَ ولايةً أشرَفَ عليها وتعهَّدَها، وإذ ليس يمكنُهم ذلك دلَّ أنهم لا يملِكونها.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩) بلفظ: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ﴾: قريش، ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: القرون الماضية. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٤٧) إلى الفريابي وعبد بن حميد.

(٢) في (أ): «لملك»، ووقع في (ر) هنا وفي الموضع الآتي: «يملك».

وقيل: لمَّا أسلمَ عمر رضي الله عنه شقَّ ذلك على قريش، وفرِحَ به المؤمنون، فقال الوليد بن المغيرة للملأ مِن قريش: امشوا إلى أبي طالب، واثبُتوا على آلهتكم، وكانوا خمسةً وعشرين رجلاً، منهم الوليد بن المغيرة، وهو أكبرهم سناً، وأبو جهل بن هشام، وأبيٌّ وأميةُ ابنا خلف، وعُمير بن وهْب، وعُتْبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، وعدي بن قيس، والنَّضْر بن الحارث، وأبو البَخْتَرِيِّ[1] بن هشام، وقُرْط بن عمرو، وعامر بن خالد، ومَخْرَمة بن نَوْفل، وزَمْعَة بن الأسود، ومُطْعِم بن عدي، والأخنسُ بن شَرِيق، وحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى، ونبيهٌ ومُنبهُ ابنا الحجَّاج، والوليد بن عُتْبة، وهشام بن عمرو بن ربيعة، وسُهيلُ بن عمرو، فقال لهم الوليد: امضوا إلى أبي طالب، فأتوا أبا طالب وقالوا له: أنت شيخُنا وكبيرُنا، وقد علِمْتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنَّا أتيناكَ لِتَقضيَ بيننا وبين ابن أخيك، فأرسلَ أبو طالب إلى النبي عليه السلام فدعاه، فقال له بمَشْهَدٍ منهم: يا ابن أخي! هؤلاء قومُك، فلا تمِلْ كلَّ الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «وما يريدون مني»، قال: يقولون: ارفِضْنا وارفِضْ ذِكْرَ آلهتنا وندعْكَ وإلهكَ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أتُعْطُون أنتم كلمة واحدة تملكون بها العربَ، وتدينُ لكم بها العجمَ؟»، فقال أبو جهل مِن بينهم: يا محمد! لَنُعْطِيَكَها وعَشْرَ أمثالها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»، فقاموا ونفَروا من ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ﴾ أي: الآلهةَ التي لنا والآلهةَ التي لغيرنا ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، أي: لأمرٌ عَجيبٌ[2].

---

(١) في (ر) و(ف): «البُحْتُري».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣) عن السدي. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٧٨)، والزمخشري في (٤/ ٧١) من غير سند.

وروى أصله مختصراً الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائيُّ في «الكبرى» (٨٧١٦)، والإمام أحمد في =

(١٢) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ رسولَهم نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى.

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: كانت له ملاعبُ من أوتاد.

وقال السُّدِّيُّ والربيع بن أنس: كانت له أوتاد يعذِّبُ بها[1].

وقال مقاتل: كان يأمر حتى تمَدَّ رجلا الرجل إلى ساريتين ويداه إلى ساريتين ثم يعذِّبُه.

وقال مقاتل بن حيان: كان يأمر أنْ يُمَدَّ الرجل مُستلقياً على الأرض، ثم يشدُّه بالأوتاد.

وقال السُّدِّي: كان يمدُّ الرجل بين الأوتاد، ويُرسل عليه الحيَّات والعقارب.

وقال الضحاك: الأوتادُ: البُنيان الثابتة.

وقيل: ذو الأوتاد، أي: ثابت أركان المُلْك[2].

وقال الأسود بن يَعْفَرَ:

ولقد غدا فيها بأطيبِ عِيشةٍ ... في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتاد[3]

وقيل: هي أوتادُ خيام الجيوش، وكانت كثيرةً فعُرِفَ بها.

= «مسنده» (٢٠٠٨)، عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٠ ـ ٣١).

(٢) في (ف): «الثابت الأركان» بدل: «ثابت أركان الملك».

ذكر هذه الآثار بنحوها الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧٤).

(٣) انظر: «ديوان الأسود بن يعفر» (ص: ٢٧)، وصدره فيه: ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَثَمُودُ﴾: أي: كذَّبَتْ صالحاً.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾: أي: كذَّبوا لوطاً.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: أي: قومُ شعيب كذَّبوا شعيباً، وقد فسَّرْنا الأَيْكةَ[1] في قصته.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: تحزَّبوا على أنبيائهم؛ أي: تجمَّعوا على تكذيبهم وإيذائهم.

وقولُه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: أي: ما كلٌّ ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾؛ أي: فوجَبَ عليهم عقابي، وأهلكتُهم بما مرَّ ذِكْرُه في قصصهم، فكذلك أفعل بمُكذِّبيكَ يا محمد.

* * *

(١٥) ـ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: وما ينتظرُ هؤلاء المشركون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: عذاباً يفجؤُهم فيستأصلُهم؛ يُقالُ: صاح بهم الزَّمان؛ أي: هلَكوا.

قال الشاعر:

صاحَ الزمانُ بآلِ بَرْمَكَ صَيْحةً ... خرُّوا لشِدَّتها على الأذقان[2]

وعلى هذا: هو كقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

---

(١) في (أ) و(ف): «الكلمة».

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٧٢) من غير نسبة.

وقيل: هذه الصَّيْحة هي النَّفْخة الأولى في الصُّور، فهو كقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، أي: إنْ لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو مُعَدٌّ لهم يوم القيامة.

وقولُه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾: قرأ حمزة والكسائي بضمِّ الفاء، والباقون بفتحها[1].

وقال قتادة والسُّدِّي: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾: أي: ما للصَّيْحة مِن إفاقة؛ أي: رجوعٍ إلى الدنيا[2].

وقال ابن زيد: أي: ما لها مِن فُتور كما يفيقُ المريض[3].

وقيل: ما لها مِن راحة، وهذا إذا قُرِئَتْ بالفتحة، وما لها مِن مُكْثٍ مِقدارَ ما بين الحَلبَتين، وهذا إذا قُرِئَت بالضمة، وهذا قولُ أبي عبيدة[4].

وقال الكسائي والفراء وأبو عبيدة والأخفش: هما لغتان في فواق النَّاقة بين الحَلبتين[5].

وقال قُطْرُب: بالفتح: الإفاقةُ، وقد فاق فَواقاً وأفاقَ إفاقةً، وأما فواقُ الناقة ففيه لغتان.

* * *

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥) عن السدي، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧٤) عن قتادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥)، ولفظه: يا لها من صيحة لا يفيقون فيها كما يفيق الذي يغشى عليه، وكما يفيق المريض، تهلكهم، ليس لهم فيها إفاقة.

(٤) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٧٩). ووقع في (أ): «وهذا إذا فرق أبي عبيدة»، وفي (ر): «وهذا فرق أبي عبيدة».

(٥) ذكره عنهم الرازي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٧٢).

(١٦) ـ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أي: استعجلوا العذاب؛ كما ذكَرَ ذلك عنهم في آيات.

والقِطُّ: الصَّحيفة، وهي صحيفة الأعمال التي يُعطاها الناس يوم القيامة عن أيمانهم وشمائلهم؛ أي: عجِّلْ لنا هذا إنْ كان صدقاً.

وقيل: هو كقوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وكقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وقيل: القِطُّ: النَّصيب، مِن القَطِّ: وهو القَطْع، وهو ما قُطِعَ مِن الكُلِّ فجُعِل لصاحبه، فكأنهم قالوا: عجِّلْ لنا نصيبَنا مِن العذاب مِن النار إنْ كان الأمر على ما تقول، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩].

وقيل: أرادوا: عجِّلْ لنا نصيبَنا مِن الجنة والثوابِ الذي تعِدُنا على الإيمان لنؤمنَ بكَ، ونحن نريده في الدنيا لا في الآخرة، يستهزؤون بذلك.

وقيل على هذا: عجِّلْ لنا كَتْبَ جوائزِنا مِن الله بذلك ككَتْبِ جوائز الملوك.

وقال المبرد: «القُطوطُ» أصلُها الصُّحُف بالجوائز، ثم قيل لكلِّ نصيبٍ: قِطٌّ(١).

قال أبو العالية: لما نزل في الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ... و... بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٥]، قرأها عليهم رسول الله ﷺ، فقالوا على جِهة الاستهزاء: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ يَعْنون: هذا الكتابَ(٢).

---

(١) لم أقف عليه للمبرد، وذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٤٣)، وابن دريد في «جمهرة اللغة» (١/ ١٥٠)، وأبو عبيد في «الغريبين» (مادة: قطط).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٢)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٤٣) عن أبي العالية والكلبي، وزاد الواحدي نسبته لمقاتل.

وقيل: قائلُ هذا الكلام أبو جهل[١].

وقيل: قائلُه النَّضْر بن الحارث[٢].

***

(١٧) ـ ﴿اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: أي: مِن قولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وقولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، وقولِهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ وغيرِ ذلك، فإنا نجعل لكَ العاقبة الجميلة، ولهم المغبَّةَ الوَبيلة؛ كما كان ذلك للأنبياء المتقدِّمين ومكذِّبيهم، وبيَّن قصصَهم، هذا أحد معاني ربْطِ قصة داود عليه السلام بهذا الكلام.

ووجهٌ آخر: إنا أحسَنَّا إليكَ كما أحسنَّا إلى داود، ولو شئنا لأعطيناكَ مِن الدنيا كما أعطينا داود وسليمان عليهما السلام وأكثرَ مِن ذلك، ولكنِ اختَرْنا لكَ ما هو أَعْوَدُ[٣] عليك.

ووجهٌ آخر: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾: وما آتيناه من النبوة والمُلْك، ثم لم نترُكْ عِتابَه[٤] على أدنى زلَّةٍ كانت منه، فتنبَّهوا بذلك على أني منتقِمٌ ممَّنْ عصاني.

ووجهٌ آخر: واذكر قصصهم برهاناً لكَ على صحَّةِ نبوَّتِكَ.

يقول: فاصبِرْ على أذاهم، ولا تجزَعْ منه، وأَقبِلْ على الإنذار وإيراد البراهين، واذكُرْ عَبْدَنا داود.

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾: أي: القوة في أمرِنا، والصبر على الدعاء إلينا، فاقتَدِ به.

---

(١) رواه عبد بن حميد عن قتادة كما في «الدر المنثور» (٤/ ٥٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٠٦) عن عطاء.

(٣) في (ر): «أعون».

(٤) في (أ): «عقابه».

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: رجَّاعٌ إلى طاعتنا وطلَبِ مرضاتنا.

* * *

(١٨) ـ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾: هو كما مرَّ في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: أي: في طرَفي النهار.

والعَشِيُّ: وقت العصر إلى الليل، والإشراقُ: وقت إضاءة الشمس، وقد شرَقَتْ؛ أي: طلَعَتْ، وأشرَقَتْ؛ أي: أضاءَتْ.

وقيل: العَشِيُّ: وقت صلاة العصر، والإشراقُ: وقت صلاة الضحى.

قال كعب الأحبار لعبد الله بن عباس: إني لأَجِدُ في كتاب الله صلاةً بعد طلوع الشمس، فقال: أنا أوجدُكَها[1] في كتاب الله في قصة داود، قال: وما هي؟ قال: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، وليس الإشراق طلوع الشمس، إنما هو صفاؤُها وضَوْءُها[2].

* * *

(١٩) ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾: عَطْفٌ على قوله ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، وحشرُها: جَمْعُها إليه حتى تحضُرَه، وتسبِّحَ معه، وتسمعَ تسبيحه.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: لم يُعْطِ الله أحداً مِن خَلْقه مثلَ صوت داود

---

(١) في (ر): «أجد لها».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٣).

عليه السلام، حتى إذا كان يقرأ بالزَّبور[1] تُدْنى له الوحوشُ حتى يؤخذَ بأعناقها، وإنها لمُصيخةٌ به تسمعُ صوتَه[2].

وحشرُها يجوز أنْ يكون مِن الملائكة، أو مِن كبارها لصغارها، وقد كان الله تعالى جعل كبارها مُنقادةً له ومُطيعةً لأمره.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: كلٌّ مِن الطير له مُطيعٌ راجع إلى طاعته.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: قوَّيْنا سُلْطانه.

قيل: بكثرة الرجال.

وقيل: بصَنْعة الدُّروع.

وقيل: بإلقاء الرُّعْب في قلوب أعدائه.

وقيل: بأسباب المنَعةِ.

وقيل: كان يحرُسه كلَّ ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل.

وقيل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قوَّيْنا سُلْطانه[3] بنصرنا له ودَفْعنا عنه.

وقيل: أي: بالعدل في الرَّعِيَّة، والحقِّ بالقضيَّة.

وقيل: أي: بقَبْض أيدي الظَّلَمة.

وقيل: أي: بدُعاء المستضعَفين.

---

(١) في (أ) و(ر): «قرأ الزبور».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٧١) عن محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٢٢٣)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٣٠٧) من غير نسبة.

(٣) «أي قوينا سلطانه» ليس من (أ).

وقال الإمام القُشيريُّ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ بأنْ رأى النصر منا، وتبرَّأَ مِن حوله وقوته.

وقيل: أي: بوزراء صالحين.

وقيل: أي: بتيقُّظه وحُسْن سياسته.

وقيل: بقَبوله الحقَّ مِن كل أحد.

وقيل: برجوعه إلينا في عموم الأوقات[1].

قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾: قيل: أي: النبوة.

وقيل: العِلْمَ بالشَّرْع.

وقيل: إحكامَ الأمور.

وقيل: وضعَ كلِّ شيء مَوْضِعَه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي: أسباب القضاء بين الخُصوم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو بيان الكلام[2].

وقال الضحاك: أي: القضاء[3].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هو القضاء بين العباد، وكان لا[4] يتتعتعَ في قضائه، ويفصِلَ على الوجه الحقِّ بين المتخاصمين[5].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٤٩).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٨).

(٣) لم أقف عليه للضحاك، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٩ ـ ٥٠) عن مجاهد والسدي وابن زيد وابن مسعود.

(٤) في مصدر التخريج: «كأن لا» بدل: «وكان لا».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٤).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: البيِّنة على المُدَّعي، واليمينُ على مَنْ أنكرَ[١].

وقال شُرَيْح والشَّعبي: هو قوله: (أمَّا بعدُ)، وهو أول مَن قالها[٢].

وقال المبرد: الخِطابُ: المخاطبة، وفَصْلُه: الخروجُ مِن مخاطبةٍ إلى مخاطبة، وفَصْلُ قصةٍ بعد قصة، وخُصومةٍ بعد خُصومة.

* * *

(٢١) ـ ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: كلمة تُستعمل للتنبيه على جَلالة[٣] القصَّةِ؛ لتكون داعيةً إلى الإصغاء إليها والاعتبار بها؛ لأنها في المعنى تقريرٌ للمُخاطب بأنَّه لم يسمعْها، وفي اعترافه بذلك إقرارٌ منه أنه مُحتاج إلى سماعها، فيقول له حينئذ: فاسمَعْها، فقد كان كذا وكذا.

﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾؛ أي: خبرُ الخُصوم، هو في الأصل مصدرٌ، فصلُحَ للجمع، ودليل أنه جَمْع قولُه: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾؛ أي: علَوْهُ وتسلَّقُوه؛ لأنه كان مُحتجِباً عن الخصوم، مُتفرِّغاً للعبادة، مُتخلِّياً لها، فنزَلوا إليه مِن عالٍ، والمِحْرابُ: موضعُ صلاته.

وقيل: كان غُرْفةً، والمِحْراب قد بيَّنَّا الأقاويل فيه في سورة آل عمران.

* * *

(١) في (ر) و(ف): «واليمين على المدعى عليه». والخبر ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥١) عن الشعبي، وأما شريح، فقد نقل الطبري عنه في نفس الموضع روايات متعددة فيها أن فصل الخطاب: الشاهدان واليمين، أو نحو ذلك.

(٣) في (أ): «حال».

(٢٢) ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: أي: حين دخلوا عليه بالتَّسوُّر.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: أي: خاف مِن دخولهم عليه بغير إذنٍ، ومِن غير الباب، ومع قيام الحُجَّاب، أو ظنَّ أنهم لُصوصٌ مُكابرون، أو أنهم ملائكة جاؤوا لأمر عظيم.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾: فإنَّا لن ندخُلَ لريبة، لكنْ لوقوع خُصومة خشِينا وقوعَ الخلَلِ في التأخير في تلافيها، وعلِمْنا رِضاكَ بإصلاح ما فيها، فتفرَّغَ داود لهم.

فقالوا: ﴿خَصْمَانِ﴾: أي: نحن خَصْمان.

وقيل: أي: فينا خَصْمان، وقد كانوا جماعةً بدليل قوله: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾، ﴿دَخَلُوا۟﴾، ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾، والجماعة مُدَّعٍ ومُدَّعًى عليه وشهودٌ، فإنه لا يقول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ بمجرَّدِ دعوى المُدَّعي، فالظَّاهرُ أنه قال ذلك بعد شهادتهم للمُدَّعي.

﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: تعدَّى وظلَمَ.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: أي: لا تُباعِدْ عن الحق، وقيل: أي: لا تَجُرْ.

وقيل: أي: لا تُسْرِفْ.

وقد شطَّ شُطوطاً مِن باب دخل وضرب؛ أي: بعُدَ، وأشَطَّ؛ أي: جارَ، وأشَطَّ؛ أي: باعَدَ في السَّوْم، والشَّطَطُ: مُجاوزة القَدْر في كل شيء.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: وأَرْشِدْنا في قَطْع خصومتنا إلى قَصْد السبيل، فإنَّ السَّواءَ الوسَطُ، والوَسَطُ[1]: العَدْلُ، وهذا كلُّه كلامُ استعطافٍ.

---

(١) «والوسط» ليس من (أ).

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ يعني: صاحبي وصديقي ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾: هي الأنثى مِن الضَّأْن ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾؛ أي: أعطِنيها واجعَلْها كِفْلي؛ أي: نَصيبي.

وقيل: أي: ضُمَّها إليَّ واجعلني كافِلَها.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾: أي: غلَبَني بعِزِّ سُلْطانه، وهو مِن باب دخَل[1]، يقال: مَن عزَّ بَزَّ[2]، أي: مَنْ غلَبَ سلَبَ.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: وشهِدَ له الشُّهودُ بذلك[3].

***

(٢٤) ـ ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾: أي: مَضمومةً إلى نعاجه.

وقيل: أقرَّ خصمُه بذلك، فلذلك قال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾: إذ معناه: إنْ كان الأمر كما تقولُ فلقد ظلَمَكَ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: هو جَمْع خليط، وهو الذي يكون له مع الآخرِ خُلْطةٌ، أي: اختلاط بشِرْكة أو مُعاملة أخرى.

---

(١) في (ر): «جعل». والصواب المثبت، قال أبو حيان في «البحر المحيط» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]: يقال: عَزَّ يعُزُّ بضم العين، أي: غلب، ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾، وعَزَّ يعَزّ بفتحها، أي: اشتد، وعزَّ يعِزُّ من النفاسة، أي: لا نظير له.

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١١٣)، و«الكامل» للمبرد (٤/ ٣٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦١٥).

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: يطلب الفَضْل لنفْسِه ويظلم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فإنهم لا يَبْغون.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: ﴿مَّا﴾ زائدةٌ مؤكِّدةٌ؛ أي: هم قليل.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: أي: علِمَ داود بالدليل أنَّا امتحَنَّاه فلمْ يصبِرْ على المِحْنَة حتى صار إلى خِلاف ما هو به أولى.

وقرأ أبو عمرو في رواية العبَّاس: (فَتَنَاهُ) بالتخفيف[1]، على أنَّ الخَصْمَين فتَنَاهُ، أي: أظهرا له ما خَفِيَ عليه.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾: زلَّته ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: سقَطَ على وجهه لله ﴿وَأَنَابَ﴾: أي: رجع إلى الله ممَّا وقَعَ فيه.

* * *

(٢٥) ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾: أي: زلَّته ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ أي: القُرْبة في المنزلة يوم القيامة.

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾: أي: مَرْجِعٍ، وهو الجنة.

والدليلُ على أنَّ الركوع سجودٌ هاهنا أنَّ النبي ﷺ سجَدَ لها وقال: «سجدَها داود توبةً، ونحن نسجُدُها شُكْراً»[2].

وهذه قصة زلَّ فيها كثير مِن الناس، وقالوا في نبي الله داود عليه السلام ما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦٢٨).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٨٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، واللفظ له.

لا يليقُ بحال الأنبياء، فإنَّ الله تعالى يقول في حقِّهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهم هُداةُ البشر، وشُفَعاءُ العصاة[1] يوم القيامة، وكانوا في غاية الطهارة، وكمالِ الفراغ في حقِّ أنفسهم، والذي انتشرَ مِن ذلك روايةٌ أكثرُها مردود:

ما يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان داود عليه السلام جزَّأ الدَّهْرَ أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بأشغاله، ويوماً يجمع بني إسرائيل فيُبكيهم ويُبْكونه، وكان في المحراب يومَ عبادته إذ وقع بين يديه طائر[2].

وعنه في رواية: أنَّ داود قال: يا رب! اجعلني مع أجدادي في رُتْبَتِهم، فأوحى الله إليه أنِّي لم أبتلِكَ بما ابتليتُ به أجدادكَ، فأما إبراهيم فابتليتُه بالمال والنَّفْس والولد فلم أرَ منه ما أكرهُه، وأما إسحاق فابتليتُه بالذَّبْح فسلَّمَ لقضائي، وأما يعقوب فابتليتُه بالحُزْن على ولده فرضِيَ وصبرَ، فإنْ شئتَ ابتليتُكَ وجعلتُكَ بمثابتهم، فقال داود: فابتلِني بما شئتَ، فأوحى الله إليه: إني مُبْتَليكَ في شهر كذا في يوم كذا، وإنما هو ساعة وامرأة، فتحيَّنَ داود الشَّهرَ واليوم، وخلَا ذلك اليومَ بنفْسِه، وجعل الحرسَ على بابه، وكانوا ثلاثين ألفاً ـ وقال مقاتل: ثلاثةً وثلاثين ألفاً، وقال القُرَظِيُّ: أربعة آلاف ـ، فوكَّلَ الأحراسَ، ولبِسَ الصُّوف، ودخل المحراب، وفتحَ الزَّبور فوضعه بين يديه، فبينما هو في نُسُكِه إذ وقع طائر بين يديه، حسِبَه داود مِن ذهب، فمدَّ يده ليتناولَه ويدفعَه إلى بُنيٍّ له صغير، فوثبَ الطائر، وجثَمَ في موضع آخر، فقام إليه داود، فطار وجثَمَ على كُوَّةٍ، فقام داود إليها، فوقع بصرُه في بستان فيه أشجار، فرأى امرأةً لم ير الراؤون مِثْلَها جمالاً وحسناً وكمالاً، فتحيَّرَ داود وأُعْجِبَ بها، فرأت ظلَّةً، فانتقَضَتْ في شَعرها، فغطَّتْ نفْسَها به، فازداد داود بذلك عَجَباً، فرجع وكان

(١) في (ر) و(ف): «الجناة».

(٢) في (ر): «طائر الفتنة».

له تلميذان مِن بني إسرائيل، فدعا أحدَهما فقال: اذهبْ فتأمَّلْ حالة المرأة والبستان، وهل هي ذاتُ زوج أم لا؟ فذهب ورجع، وقال: إنها بتشايع[١] امرأةُ أوريا بن حنانَا، وكان غائباً في غَزاة.

وقال مقاتل: كان أوريا في غَزاة نحوَ البَلْقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب: أنْ مُرْ أوريا بن حنانا حتى يأتيَ البلقاء، فيُقاتلَ أهلها حتى يفتَحَها أو يُقتَلَ، فقاتل حتى قُتِلَ.

وقال الكلبيُّ: لما تخاصمَ الملكان، وقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ نظرَ أحدهما إلى الآخر[٢] فضحِكَ، وعلِما أنَّ داود لم يفهم القضيَّة، فقاما مِن بين يديه، وصعِدا إلى السماء حِيال وجهه، فعلِمَ داود عند ذلك أنه مبتلًى، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾[٣].

---

(١) في (أ): «شائع»، وفي (ر): «تتشايع».

(٢) في (ر): «صاحبه».

(٣) ذكره هذه الروايات الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٤ ـ ٦٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧٨)، وليس فيها إسناد يصح، وفيها ما ينافي عصمة الأنبياء، ويخل بمنصبهم.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٦٠): قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ثم قال: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقال القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ١٦٣): وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الأخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نصَّ اللهُ تعالى عليه قولُه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥]، وقولُه فيه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

قال سعيد بن جُبير وابن المسيِّب: سمعتُ عليًّا رضي الله عنه يقول: مَن حدَّثكم بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدتُه مئة وستين؛ لأنه حدُّ الفِرْية على الأنبياء، فأُضَعِّفُه(١).

وقيل: كانت زلَّته أنه تمنى أنْ يتزوَّجَ بامرأة أوريا، لكنْ صبر ولم يطلُبْ، واتفقت غيبة أوريا في غَزاة استشهد فيها مِن غير قَصْد من داود، فأُخْبِرَ بذلك، فلم يجزَعْ عليه كما جزِعَ على غيره، فعوتب عليه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أما وقوعُ الطائر بقُرْبٍ منه ونظرُه إليه وإعجابُه به والهمُّ بأخذه فيُحتمَل أنْ يكون، وكذا الذهاب لطلَبه والنظر إليه أنه مِن أين؟ وإلى أين؟ وإلى ماذا صار؟ فذلك محتمَلٌ أنْ يكون، ثم هو مَعْذور في ذلك؛ لمَّا كانت الطيور حُشِرَتْ إليه وسُخِّرَتْ في التسبيح معه والطاعة له، فجائزٌ أنْ يكون له البحث عن حال ذلك الطائر على حسب ما كان مِن سليمان، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النمل: ٢٠].

وكذلك وقوعُ بصَرِه على تلك المرأة، فكان بلا قَصْدٍ منه، فكان مَعْذوراً فيه، وميلُ قلبِه إليها لحُسْنها وجمالها، فذلك مِن غير تكلُّفٍ منه، فأما إدامة النَّظر إليها، فإنه لا يُحتمل أنْ يكون ذلك منه ولا مِن نبي مِن الأنبياء النَّظرُ إلى ما لا يحِلُّ النظر إليه.

وكذا بعثُ زوجها في القتال ليُقتَلَ، فهذا أيضاً غير مُحتمل، لكنه يُحتمل بعثُه ليجاهد أعداء الله تعالى، وكان ذلك فرضاً عليه، وقُتل فيه من غير أن يُتوهَّمَ منه قصدُ قتلِه وهلاكه(٢).

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٨١)، والرازي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٧٩) من غير إسناد.

(٢) كذا ذكر الماتريدي هذه التأويلات، وكلها لا لزوم لها، فإن التأويل فرع عن ثبوت النص، فلما كانت الروايات في القصة غير ثابتة فلا حاجة إلى تأويلها، وتنزيه النبي المعصوم أولى.

قال: فإنْ قيل: كيف عُوتِبَ كلَّ هذا العتابِ ـ حتى بعَثَ الملائكة بالخصومة عنده تمثيلاً لحاله وتقريراً لذلك عنده، ثم أخبَر أنه غفَر له بعد طول المدة ـ إنْ كان معذوراً في ذلك غيرَ مؤاخَذٍ به؟

قيل: إن الأنبياء عليهم السلام كانوا يؤاخَذون بأدنى شيء كان منهم مما لا يُؤاخذُ غيرهم بذلك، بل يُعدُّ ذلك منهم مِن أرفع الأعمال وأجلِّها؛ نحوَ ما عُوتِبَ يونس عليه السلام في خروجه مِن بين قومه لِيَسْلَمَ له دينه أو نفْسه، لكنه خرَجَ بلا إذن مِن الله فعوتِبَ كذلك، فعلى ذلك جاز أنْ يكون عِتابُ داود عليه السلام؛ لأنَّ ما فُعِلَ فُعِلَ بغير إذن مِن الله تعالى.

ثم في بعْثِ الملائكة إليه وجوهٌ مِن الحكمة، وأنواعٌ مِن الفائدة:

أحدُها: جوازُ الحُجَّاب والحرَس، حيث دخلوا عليه مِن غير الباب.

والثاني: رفعُ الحُجَّاب عن الخصوم، والجلوسُ للقضاء في وقت حاجة الخُصوم، لا على وقت اختيار نفْسِه، حيث دخلوا عليه مِن غير باب الخصومة بلا إذنٍ منه.

والثالث: قُدْرةُ الملائكة على التصوُّرِ بصورة البشر، وذلك يرُدُّ على الفلاسفة قولَهم بخلافه.

ثم قولُ الخَصْمين ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ وكذا وكذا ـ ولم يكن ذلك منهما ـ ليس بكذِب، بل هو تمثيلٌ وتشبيهٌ[1]، أي: لو كان أخوان لأحدهما كذا وكذا نَعْجةً وللآخر نَعْجةٌ واحدةٌ، فغلَب صاحبُ النِّعاج الكثيرة على صاحب النَّعْجة الواحدة فأخذَها، أليس يكون ظالماً؟ فيكون تمثيلاً لا تحقيقاً[2].

---

(١) في (ر): «وتغشية».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦١٥ ـ ٦١٧).

وقال غيره: هو مِن مَعاريض الكلام، ومعنى قولِه: ﴿خَصْمَانِ﴾: أي: نحن في صورة خَصْمين بغى أحدُهما على الآخر، وذِكْرُ التسع والتسعين نَعْجةً تمثيلٌ لنساء نبي الله داود عليه السلام، فقد كانت نساؤُه بهذا العدد، والعرب تُكَنِّي عن النِّسوة بالنِّعاج والبقر والنَّوْق، وقال عنترة:

يا شاةَ ما قنَصٍ لمن حَلَّتْ له ... حرُمَتْ عليَّ ولَيْتَها لم تَحْرُمِ[1]

وقيل: لم يكن منه إلَّا خِطْبَتُها؛ إذ ليس في الآية إلا قولُه: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ إذ ليس فيه أنه أخذَها، وكذلك قولُه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾، ولم يقل: بأخْذِ نعجتِك، وكذلك قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾، ولم يقل: في الاستيلاء.

وقيل: كانت زلَّته أنه سأل عنها، فقيل: فارِغةٌ، فخطَبَها، وكان خطَبَها غيرُه قَبْلَه، وكانت خِطْبَةً على خِطْبة أخيه، فعُوتِبَ لذلك، وعلى هذا قولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾: أي: في خِطابها بالخِطْبة.

وقال محمد بن جرير الطبريُّ: القصةُ على ظاهرها، والخصمان كانا مِن الإِنس، وقعَتْ لهما هذه الخصومة[2] على الحقيقةِ، فاستعجلا في الوصول إلى نبي الله بالتَّسَوُّر في المحراب، ولم ينتظِرا خروجه ولا إذْنَ الحُجَّاب، وكان هذا مِن سوء الأدب، فاستنكَره داود عليه السلام وتسخَّطَ[3] عليهما، ثم مالَ قلبُه إلى

---

(١) انظر: «ديوان عنترة بن شداد» (ص: ١٧٨)، والبيت من معلقته الشهيرة، قوله: (يا شاة) كناية عن المرأة، والعرب تكني أيضا عن المرأة بالنعجة، وأراد: يا شاةَ قنصٍ؛ أي: صيد، وقوله: (لمن حلَّت له)؛ أي: لمن قدر عليها، وقوله: (حرُمتْ عليَّ) اختلفوا في السبب، فقيل: لأنها كانت من قوم أعداء، وقيل: لأنها كانت جارته وقيل غير ذلك. انظر: «شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص: ٢٠٧).

(٢) في (أ): «الحادثة».

(٣) في (أ): «واستنكره وسخط» بدل: «فاستنكره داود عليه السلام وتسخط».

المدَّعي لترقيقه في الكلام، فعجَّلَ في الحُكْم قبلَ مسألة الخَصْم، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، فكان ذلك زلَّةً منه؛ إذ كان الواجب عليه الاحتمالَ منهما، وأنْ لا يُعَجِّلَ في القضاء.

وقولُه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: أي: وقَعَ له في غالب الظَّنِّ أنَّه أخطأَ فيما فعَلَ، وأنما قد فتنَّاه بذلك ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾.

وقولُه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ دليلٌ أيضاً على ما قلناه، فإنَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكور قبله، وهو ما ذُكِر في الآية دون شيء آخر، وكذلك ما بعده: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يؤيِّدُ هذا[١]، وإذا كان ما ذكَرْناه جائزاً ولم يَرِدْ خبرٌ عمَّنْ يجب تقليده بخلافه، كان لزوم الظاهر أولى مِن غيره، ولم يثبُتْ خبرٌ بأنَّ الخصمين كانا ملكَين، ولا أنه كان من داود عليه السلام ما ذكَره أهل الروايات مِن قصة تلك المرأة[٢].

---

(١) في (ر): «ذلك».

(٢) لم أجد هذا الكلام عند الطبري، لكن قال نحوه ابن حزم في «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٤) فذكر أن ما جاء في الآية لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولَّدها اليهود، ثم قال: (وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل وقوَّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّب الله عز وَجل، وَأقر على نَفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قطّ خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قطّ لأحدهما تسع وتسْعُونَ نعجة، ولا كان للآخر نعجةٌ واحِدَةٌ، ولا قال له: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾... ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردةُ، وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرِّض زوجها للقتل عمدا ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين =

وقال[١] الإمام أبو منصور رحمه الله: فإنْ قيل: ما الحكمةُ في ذِكْر زلَّات الرسل، واللهُ تعالى وصَفَ نفْسَه بأنه غفور؛ أي: ستورٌ، وقد أمرَنا بالسَّتر على مَن ارتكب[٢] ذنباً، فكيف ذكَرَ هو زلَّات أنبيائه حتى تُقرأَ زلَّاتهم في المساجد والمكاتب بأعلى صوت إلى يوم القيامة؟

قلنا: لذلك وجوه:

أحدُها: أنْ تكون آيةً لرسالته؛ لأنَّ قلوب الخلق لا تحتمِلُ ذِكْرَ مساوئ الآباء والأجداد، وذِكْرَ مساوئ أنفسهم، فإذا ذكَرَ رسولُ الله ﷺ ذلك، دلَّ على أنه عن أمرٍ مِن الله يذكُرُ ذلك.

والثاني: ذكَرَ زلَّاتهم امتحاناً منه عبادَه بأنْ[٣] كيف يُعاملون رسلهم بعدما عرَفوا منهم الزلَّات؟ وكيف ينظُرون إليهم بعين الرَّأفة والرحمة؟ يمتحِنُهم بذلك على ما امتحنَهم بسائر أنواع المِحَن.

والثالث: لِيَعلمَ الخَلْقُ أنَّ الرسل كيف عاملوا ربهم عند زلاتهم، فيُعاملون هم ربَّهم عند ذنوبهم كذلك مِن البُكاء والتضرُّع والفزَع إلى الله والتوبة.

والرابع: أنْ يكون ذكَرَها لِيُعلمَ أنَّ ارتكاب الصغائر لا يُزيل الولاية، ولا يُخرِجُ مِن الإيمان؛ ردًّا على الخوارج.

= الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله فكيف أن يستضيف إلى أفعاله...) إلى آخر ما قال.

(١) في (ر): (قال)، وفي (ف): «فقد قال».

(٢) بعدها في (ر): «كبيرة».

(٣) في (ر): «أن»، وفي (ف): «أي».

والخامس: أنْ يكون ذلك لِيُعلمَ أنَّ الصغيرة ليست بمغفورةٍ، ولله أنْ يُعذِّبَ عليها؛ ردًّا على المعتزلة[١].

وقال غيره: جاء في التفسير في قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أنه خرَّ ساجداً أربعين يوماً وليلةً حتى نبتَ العُشْبُ مِن دموعه، فأوحى الله تعالى إليه: أنَّا قد غفَرْنا لكَ[٢].

ورُوِي: أنه ما شربَ مدَّةً كثيرةً ماءً في إناء إلا وثُلُثاه دمعٌ، والثُّلُثُ ماء.

وقيل: أغلَقَ داودُ يومَ خوفِ الابتلاء على نفْسِه أبوابَ الدار، لكنْ لم يُمْكِنْه أنْ يُغْلِقَ على نفْسه أبواب[٣] الأقدار.

***

(٢٦) ـ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: صيَّرْناكَ في الأرض حاكماً بين العِباد، وخلَفاً عمَّن كان قبلك فيها مِن الأنبياء.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: فامنَعِ المتنازِعين بعضَهم مِن بعض بما أمَرَ الله تعالى به مِن ذلك، فإنه الحقُّ؛ أي: الذي يحِقُّ أنْ تَعْمَلَ به.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾: أي: هواكَ المخالِفَ لأمر الله.

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: نصبٌ بالفاء؛ لأنه جواب النَّهْي؛ أي: يعدِلَ بك الهوى واتِّباعُه عن الطريق المُفضي بسالكه إلى رِضوان الله.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٦١٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٤) عن ابن عباس، وقد تقدمت قطعة منه، ورواه (٢٠/ ٦٩) عن الحسن.

(٣) في (أ): «باب».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: نصب ﴿يَوْمَ﴾ لوجهين:

أحدُهما: أنه ظرفُ قولِه: ﴿عَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾؛ أي: لهم ذلك يوم القيامة ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾: أي: تركوا سلوكَ سبيل الله.

والثاني: أنه مفعولُ ﴿نَسُوا۟﴾؛ أي: نسُوا يوم الحساب الذي فيه حُكْمُ الله بين عباده بالحق، فحكَموا في الدنيا بغير الحقِّ.

وهذا النِّسيان هو التَّناسي والتَّغافُل.

ثم هذا الخِطاب مِن قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ إلى هاهنا يحتمِلُ الاستخلافَ بعد التوبة عليه، ويحتمِلُ أنْ يكون معناه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاثبُتْ على ذلك، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾: هو تذكير عن نسيان يوم الحساب.

يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المكلَّفين لأُهملَهم، فلا آمرَهم ولا أنهاهم، بل خلقْتُهم لِأمتحنَهم وأُكلِّفَهم، وإذا كلَّفْتُهم ميَّزْتُ بين مُحْسِنهم ومُسيئهم بالثواب والعقاب، وذلك يوم الحساب.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: ظنُّ خَلْقِ السماء والأرض وما بينهما باطلاً هو ظنُّ الكفار ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

(٢٨) ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿أَمْ﴾ بمعنى ألف الاستفهام، أو هو عطفٌ على ألفِ استفهامٍ مُقدَّرٍ على ما مرَّ تقريره مرات، وهو استفهام بمعنى النفي، وهو تحقيق معنى الامتحان، والتَّمييز بين أهل الإساءة والإحسان.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾: أي: كالعُصاة الذين يَفْجُرون؛ أي: يَميلون عن الحق إلى الباطل.

وقيل: هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وعُطف بعضها على بعض بـ(أم).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يعني: عليًّا، وحمزةَ، وعبيدةَ بن الحارث رضي الله عنهم، ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعني: عُتْبة وشَيْبة ابنا ربيعة، والوليد بن عُتْبة لعنهم الله[1].

وقال مقاتل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يعني: بني هاشم بن عبد مَناف، ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعني: بني عبد شمس[2].

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٢٦١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٦٥) من رواية الكلبي عن ابن عباس.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤٣)، وذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٤٣٨) من غير نسبة.

وقولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾: أي: هذا كتاب أنزلناه إليك مبارك.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمُفسدون والمُتَّقون والفُجَّار؛ أي: ليتفكَّروا[1] بعقولهم ما فيه مِن العلامات الدالَّة على الحق والباطل.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: وليتَّعظوا بعِظاته، ويتذكَّروا بذِكْره، فإنه القرآن ذو الذِّكْر كما ذُكِرَ في أول السورة.

وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾: أي: رزَقْناه ولداً اسمه سليمان.

﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾: أي: سليمانُ نِعْمَ العبدُ.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: إذ كان[2] رجَّاعاً إلينا في أموره، مُستغفِراً مِن زلَّته.

* * *

(٣١) ـ ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾: صِلةُ قولِه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: أي: آخرَ النهار، وهو وقتُ العصر.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾: عُرِضَتْ عليه الخيلُ لينظُرَ إليها؛ إظهاراً منه الحُبَّ للجهاد، والحِرْصَ عليه، والحثَّ للناس على الاقتداء به في ارتباطها.

وقولُه: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: الخيول القائمةُ على ثلاث قوائمَ وقد أقامَتْ قائمةً[3] على طرَف الحافر مِن يد أو رجل، مِن باب ضرَب، ومصدرُه: الصُّفون.

---

(١) في (أ): «ليتدبروا».

(٢) في (ف): «أي» بدل: «إذ كان».

(٣) أي: أقامت القائمة الرابعة.

وقال القُتَبيُّ: الصَّافِن في كلام العرب: الواقف مِن الخيل وغيرِها؛ قال النبي ﷺ: «مَن سرَّه أنْ تقوم له الرجال صُفوناً فليتبوَّأ مقعدَه مِن النار»[١].

قولُه: ﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمع جَواد، وهو الذي يُجيدُ السَّيْر، ويتَّسِع في العَدْوِ، وهما وَصْفان:

أحدُهما: حُسْنُ هيأتها في وقوفها.

والثاني: جودة سَيرها حال ركضها.

قال الكلبي: غزا سليمان بن داود عليهما السلام أهلَ دمشقَ ونَصِيبين، فأصاب منهم ألف فرس، فكانت الخيل تُعرَضُ عليه وقت العصر، فعُرِضتْ عليه منها تسعُ مئة، فتنبَّهَ لصلاة العصر، فإذا الصلاة فاته وقتُها، فأمر بها فعُرْقِبَتْ[٢] وبقِيَتْ منها مئة، وهي التي تناسلت إلى اليوم[٣].

وقال مقاتل: ورِثَ سليمان مِن أبيه ألف فرس كان أبوه أصابَها مِن العمالقة،

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٧٩).

والحديث ذكره الخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٣٩٧)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٦٢٦)، والهروي في «الغريبين» (مادة: صفن)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٠٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٩١)، من غير سند، وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٨٩): غريب. والثابت في الحديث ما رواه الترمذي في «سننه» (٢٧٥٥) وحسنه، وأبو داود في «سننه» (٥٢٢٩)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٦٨٣٠)، من حديث معاوية رضي الله عنه، بلفظ: «من سره أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

(٢) يقال: عَرْقَبْتُ الدابة: إذا قطَعْت عُرْقُوبها، وهو كناية عن قتلها، والعُرْقُوب: العصب الغليظ المُوَتَّرُ فوق عَقِبِ الإنسان، وعُرْقوبُ الدابة في رِجلها بمنزلة الرُّكبة في يدها. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٣/ ١٨٥) و«الصحاح» (مادة: عرقب).

(٣) وهذا من خرافات الكلبي وما أكثرها!

فصلَّى الصلاة الأولى وقعَدَ على كرسيه وهي تُعرضُ عليه، ففاتته صلاة العصر، فضرَبَ سُوقَها وأعناقَها[١].

وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ مِن البحر لها أجنحةٌ، فكانت تُعرَضُ عليه وقت العصر حتى فاتته الصلاة[٢].

***

(٣٢) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾: أي: آثرْتُ؛ كما قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقولُه تعالى: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾: أي: حُبِّي للخير؛ كما قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ أي: كحُبِّهم لله.

و﴿ٱلْخَيْرِ﴾ قال قتادة والسُّدِّي: أي: الخَيْل[٣]، قال النبي ﷺ: «الخيل مَعْقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[٤].

وقيل: أي: حُبَّ المال؛ كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقولُه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾: أي: على ذِكْر ربي، ويجوز (عن) عبارةً عن (على)[٥]؛ قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ أي: على نفْسه، قال الشاعر:

---

(١) ذكرهما عن الكلبي ومقاتل الثعلبيُّ في «تفسيره» (٨/ ١٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٨٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٨٨) عن عوف عن الحسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٤) عن السدي، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٩٢) عن قتادة والسدي.

(٤) رواه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣)، من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٥) في (ر) و(ف): «ويجوز عن عبادة ربي».

إذا رضِيَتْ عليَّ بنو قُشير ... لَعَمْرُ الله أعجبني رضاها[1]

وقيل: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: أحببْتُ الخيرَ[2] حُبًّا شغَلَني عن ذِكْر ربي.

وقيل: ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾؛ أي: قعدتُ وتأخَّرْتُ، يقال: أحَبَّ الجملُ: إذا برَكَ، وأحبَّ الأسدُ: إذا طأطأَ رأسَه وسكَنَ، قال الشاعر:

مُحِبٌّ كإِحْباب السَّقيم وإنما ... به أَسَفٌ أنْ لا يَرى مَن يُساوِرُه[3]

يصِفُ الأسد.

وتقديره: إني قعدتُ وتأخَّرْتُ لحُبِّ الخيل[4] عن ذِكْر ربي.

والذِّكْرُ: الصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وأراد بقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾: صلاةَ العصر، وهذا عن علي وقتادة والسُّدِّي[5].

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾: أي: توارَتِ الشمس بما حجَبها عن الأبصار، ولم يَسْبِقْ ذِكْرُها، لكنْ نعرف أنها المراد لأنه ذكَرَ العَشِيَّ، ولا شيءَ يتوارى

---

(١) البيت لقُحَيف العُقَيلي، كما في «النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٨١)، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص: ٥٠٧).

(٢) في (ر) و(ف): «الخير».

(٣) البيت لأبي الفضل الكناني، كما في «الأصمعيات» (ص: ٧٨)، وذكره ابن فارس في «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٧)، وثعلب في «مجالسه» (ص: ٦٤) من غير نسبة، والرواية في «الأصمعيات»:

محب كإحباب السقيم وما به ... سوى أسف أن لا يرى من يشاور

(٤) في (أ): «الخير».

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٤).

حينئذ غيرُها، وهذا كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]، قال لَبيد:

حتى إذا أَلْقَتْ يداً في كافر ... وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغورِ ظَلامُها[1]

يعني: الشَّمسَ.

وقال حاتم الطائي:

أَماوِيَّ! لا يُغْني الثَّراء عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ[2]

يعني: النَّفْس.

(٣٣) ـ ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾: أي: الصَّافناتِ الجِياد.

﴿فَطَفِقَ﴾: أي: أخذَ وابتدأ ﴿مَسْحًۢا﴾؛ أي: يمسَحُ مَسْحاً؛ قال أبو عبيدة: أي: يقْطَع، يقال: مسح علاوته؛ أي: ضرب عنقه، وكذا قال الكسائي والفراء والخليل وجماعة مِن المفسرين: أنَّه القَطْعُ[3].

﴿بِٱلسُّوقِ﴾: وهي جمع الساق.

﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾: جمع العُنُق؛ أي: جعل يُعَرْقِبُ سُوقَها ويقطَعُ أعناقها.

واختلفوا في وجه ذلك على هذا القول:

---

(١) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١١٤)، والبيت من معلقته الشهيرة.

(٢) انظر: «ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره» ليحيى بن مدرك الطائي (ص: ٢١٠).

(٣) انظر: «العين» للخليل (٣/ ١٥٦)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٨٣)، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٥٢) عن الفراء، وجعله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ١٣١) قول الجمهور.

قيل: فعَلَ ذلك تلهُّفاً على فَوْت الصلاة، فأتلفَها قَطْعاً لأسباب الشُّغل عن ذِكْر الله تعالى، وهو كمَن شغَلَه ثوبُه عن الصلاة فخرَقه[١] حَسْماً لطمَع الشيطان في عوده إلى مثله، وللإنسان إتلافُ ماله في غرَضٍ صالحٍ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنْ ثبَتَ هذا فلوجهين:

أحدهما: أنه كان ذلك في شريعته جائزاً، وإنْ كان لا يجوز في شريعتنا إتلافُ الحيوان وتعذيبُه، وهو كتعذيبِه الهُدْهُدَ حين تفقَّدَه، ولا يجوز تعذيب الطير في شريعتنا، أو يكون ذلك منه قبْلَ نهيه عن المُثْلة، ثم نُهِيَ عنها، فحُرِّمَ ذلك عليه وعلينا.

والثاني: أنْ يكون ذلك عبارةً عن الذبح؛ لتُفَرَّقَ لحومُها على الناس، فيكونَ كفارة لِمَا كان منه[٢].

وهذا وجهٌ آخر قال به جماعة: أنَّه ذبحَها وأطعمَها الناسَ، فدلَّ ذلك على أنَّ الخيل كانت مأكولةً في شريعته، ولم يكن ذلك تعذيباً للخيل، بل رياضةً للنَّفْس، وتقرُّباً إلى الله تعالى بأحبِّ الأموال إليه، وعلى هذا عَرْقَبَةُ السوق كانت لئلَّا[٣] تنفِرَ، ويُتمكَّن مِن ذبحها، وقَطْعُ الأعناق كانت ذبحاً وذكاة ومشروعة، وشكَرَ الله سَعْيه ذلك، فأثنى عليه به، وأبدَله مكانها ريحاً غُدُوُّها شهرٌ ورَواحُها شهر، فزاد في المعونة، ورفَعَ المؤونة.

وفيه قولان آخران سوى القَطْع والذَّبْح:

أحدُهما: أنه مسَحَ السُّوق، أي: كواها، وكوى على الأعناق أيضاً، وجعلَها في سبيل الله للغُزاة، وأعلَمَها بالكيِّ، وليس المسح باسمٍ للقَطْع لا محالةَ، فإنه عبارة عن المسِّ، وذلك يقع بما دون القَطْع.

---

(١) في (أ): «فحرقه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٢٥).

(٣) في (ر): «ولهذا عرقبة السوق لئلا».

والآخر: أنه كان مُجَرَّدَ مسٍّ للسُّوق والأعناق؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يمسَحُ أعْرافَ الخيلِ وعراقيبها حُبًّا لها[1].

وقال الزُّهْري: مسَحَ الغُبار عنها، وليس يأنَفُ الرجل ـ وإنْ جلَّ مقداره ـ عن تعهُّدِ الخيل بنفْسه[2].

وقيل أيضاً: كان يمسَحُ هذه المواضع ينظُرُ: هل حدَثَ بها عيبٌ فيُسْتَصْلَحَ؟

وقيل على هذا الوجه: عُرِضَ عليه بعضها، ثم تذكَّرَ الصلاة فصلاها، ثم أمرَ بعَرْض ما بقِيَ عليه، فجعل يمسح سُوقها وأعناقها، وذلك قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾، أو رُدَّ كلُّ ما[3] عُرِض عليه مرَّةً، فرآها ثانياً ومسَحها؛ إظهاراً لحُبِّها وحثًّا على ارتباطها.

وقيل على هذا: ليس في الآية ذِكْرُ فوت الصلاة.

ولها تأويل آخر: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾: الخيلُ، فنظَرَ إليها إلى غروب الشمس حُبًّا للخيل، ورغبةً في إمساكها للجهاد في سبيل الله تعالى، وإظهاراً للناس بقوله: إنه يُحبُّها بأمر الله تعالى، فإن معنى قوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾؛ أي: الخيل؛ أي: أحببتُها حبًّا ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾؛ أي: بما ذكَر لي ربي في الزَّبور أنَّ حُبَّها وارتباطَها مما يرضى به الله تعالى، وقال: أعيدوها عليَّ، فجعل يمسحها مسحاً إظهاراً لمحبَّتها.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٧)، وهو الصواب في القصة، ورجحه الطبري فقال: وهذا القول الذي ذكرنا عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها في اشتغاله بالنظر إليها.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٦٨) عن الزهري وابن كيسان.

(٣) في (أ) و(ر): «أورد كل» بدل من «أي: ردوا ما».

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: أي: اختبرناه كما اختبرنا آباءه، كما قال: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤].

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: هو بيان تلك الفتنة.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾: هو إلى الله؛ أي: رجع إليه كما رجع أبوه وأناب واستغفر الله تعالى، فغفَرَ الله له، فسأله المُلْك الذي لا ينبغي لأحد مِن بعده فأعطاه، كما جعل أباه خليفةً في الناس، ووعدَه الزُّلْفى وحُسْنَ مآب.

وزلَّ في تفسير هذه الآية بشرٌ كثيرٌ، ورووا فيه رواياتٍ مختلفةً:

قال قتادة: إنَّ سليمان غزا مِلِكاً من الملوك، فقهره وسبى ابنةً له، وشُغفَ بها، واختصَّها مِن بين نسائه، وكان اسمها: جرادة، فقالت لسليمان: إنْ رأيتَ أنْ تأذنَ لي حتى أتَّخذ صورةً على صورة أبي، فلستُ أتمالَكُ شوقاً إليه، فأذن لها، فاتَّخذت صنماً، فعبَدَته في دار سليمان أربعين يوماً، وقيل: خمسين يوماً، فابتلى الله سليمان بسبب ذلك بنَقْل مُلْكه عنه، وإلقاء جسد على كرسيِّ مُلْكه(١).

وقال مقاتل: هو شيطان اسمه: صخرُ بنُ عمير بن عمرو(٢) بن شرحبيل، قال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أعطني خاتمكَ حتى أُخبرَك، فأعطاه خاتمه، فرماه في البحر، فانتقل مُلْك سليمان عنه لزوال خاتمه(٣).

وقيل: تختَّمَ صخرٌ به، فصار المُلْك له.

وقال السُّدِّي: كانت لسليمان ثلاثُ مئة نِسْوة مَهريَّة، وكان آثرُ نسائه عنده امرأةٌ

---

(١) ذكره الثعلبي بنحوه مطولًا في «تفسيره» (٨/ ٢٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٩١)، عن وهب بن منبه، ولا شك أنه من خرافات بني إسرائيل التي أكثر منها وهب.

(٢) في (أ): «عميرة» بدل: «عمير بن عمرو».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٨) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وخبر ابن عباس ضعيف جدًّا، وهذا كله من الإسرائيليات.

يقال لها: جرادة، وكان سليمان إذا أجنبَ أو دخل الخَلاء نزَعَ خاتمه فدفعه إليها، لا يأمَنُ عليه سواها، فدخل الخَلاء يوماً ودفَعَ الخاتم إليها، فجاء شيطان اسمه: آشَمَدِّي[1] على صورة سليمان، وأخذَ منها الخاتم فظنَّته سليمان، وقعد الشيطان على كرسيه، وخرج سليمان مِن الخلاء فطالبَها به، فقالت: ألَمْ أُعْطِكَهُ الآن؟! فخرج سليمان وغاب، وقعد الشيطان على كرسيه يقضي بين الناس[2].

وذكروا أشياء لا تقبلُها العقول السليمة، وتردُّها العقائد المستقيمة، ولا يجوز على نبي الله سليمان ولا على سائر الأنبياء الرضا بعبادة الأصنام[3]، ولا التَّرْكُ بعد العلم، فإنْ فعلَتْ ذلك امرأته بغير علمه، فما معنى عِتاب سليمان به وهو لا يَعْلَم به؟!

وكيف يجوز تسليط الشيطان أن[4] يحكُمَ بين الناس بالباطل، ويأتيَ النساء، ويُصَوِّرَ أنه نبي، وأنَّ أحكامَه أحكامُ الله تعالى، وهذا تلبيس على المسلمين طريقَ الدين؟!

فكيف تصوَّرَ بصورة سليمان وعلى الناس الإيمانُ بسليمان، والشيطانُ تَصَوَّر بصورة سليمان وهم يعتقدونه نبيَّ الله، ولا يصلون إلى حقيقة ذلك ألبَتَّة؟! هذا مُحالٌ مِن القول.

وكيف يسلُبُ الله سليمان مُلْكه في حياته وقد بقَّاه عليه سنة كاملة بعد وفاته؟!

وكيف ينزعه منه وهو يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾، واستجاب الله له في قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

---

(١) في (ر): «اشبري».

(٢) رواه الطبري مطولاً في «تفسيره» (٢٠/ ٩١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٩١). وليس بأقل خرافة من سابقه.

(٣) في (أ): «الصنم».

(٤) «أن» من (أ).

وعند بعض المفسرين: كان له المُلْك قبل هذه الفتنة.

قال مقاتل: فُتِنَ سليمان بعد مُلْكه عشرين سنة، وملَكَ بعد الفتنة عشرين سنة[١].

ومنهم مَن قال: سؤال هذا الملَك كان بعد الفتنة، ويدلُّ عليه نَظْم الآية، لكنَّ بعضَ ما ذكرناه مِن الدلائل كافية، ولِمَا قاله هؤلاء نافية.

وقيل: إنه كان لسليمان مئة امرأة، فقال: لأطوفَنَّ الليلة على نسائي، فتحمِلُ كل واحدة منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله، ولم يستَثْنِ، فما حمَلَتْ منهن إلا واحدةٌ ولدت شِقَّ غلام، وقيل: ولداً ميتاً، فجيء به وهو على كرسيه، فوُضِعَ في حِجْره، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾. وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو استثنى لولَدتْ كلُّ واحدة منهن غلاماً يقاتلون في سبيل الله تعالى فرساناً أجمعين»[٢]، فكانت فتنتُه هذه، وعتابُه لترك الاستثناء.

وقال الشَّعبي: وُلِد لسليمان ابنٌ، فاجتمعت الشياطين، وكانت تُقَدِّرُ أن راحتها في موت سليمان، فقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ولد لم ننفكَّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة، فسبيلُنا أن نقتل ولده أو نَخْبِلَه، فعلِم سليمان بذلك، فأمر السَّحاب

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٠٧)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٩٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٧)، (٧٤٦٩)، ومسلم (١٦٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن، فولدت فارسا يقاتل في سبيل الله».

وقوله: «ولم يستثن»؛ أي: لم يقل: إن شاء الله؛ قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٦١): أي: بلسانه، لا أنه أبى أن يفوض إلى الله، بل كان ذلك ثابتاً في قلبه، لكنه اكتفى بذلك أولاً ونسي أن يجريه على لسانه.

قلت: ويضرب هذا مثالاً لتفسير القرآن بالسنة عن طريق الاجتهاد، فبعض المفسرين حملوا هذه الآية على حديث سليمان هذا، فقالوا: إن هذا هو الجسد الذي أخبر الله سبحانه وتعالى عنه، لكن الرسول ﷺ لم يربط هذا الحديث بالآية، وإنما أخبر بخبرٍ عن سليمان عليه السلام، فحَمْلُ الحديثِ على الآية ليس من فعل الرسول ﷺ، لأنه لم يرد من الرسول ﷺ على سبيل التفسير.

حتى حملَتْه الريح، وغدا ابنه في السَّحاب خوفاً مِن مَعَرَّة الشياطين، فابتلاه الله تعالى لأجل هذا الخوف[1] بموت هذا الولد، فأُلقِيَ ميتاً على كرسيه[2].

(٣٥) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾: أي: زلَّتي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾: لم يسأل ذلك نفاسةً على غيره، وطلباً للاستئثار بمِثْله، لكنْ أراد أنْ يكون مُلْكه على هذا الوجه آيةً لنبوته يَبينُ[3] بها عن غيره مِن ملوك الأرض في عصره.

وقيل: أراد به أنْ يكون علامةً لقَبول توبته.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أنه أراد أنْ يستسلِمَ له الخَلْق في الإجابة إلى ما يدعو إليه مِن توحيد الله تعالى وعبادته لَمَّا رأى أنَّ إجابة الناس وإقبالهم إلى مَن عنده السَّعةُ والغِنى أسرع، ورغبتَهم فيه أكبر، فإذا كان ما ذكرنا كان في سؤاله نجاةُ الخَلْق كلِّهم لِمَا يستسلمون له ويجيبونه إلى ما يدعوهم إليه.

ويحتمل أنه سأل ذلك ليبقى له الذِّكْر والثَّناء الحسَن في الخَلْق، وكذلك كان التماس المرسلين؛ قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤][4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفْريتاً مِن الجن تفلَّتَ عليَّ البارحة ليقطع صلاتي، وإن الله أمكنني منه، ولقد همَمْتُ أنْ أربطَه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا فتنظروا إليه كلُّكم»[5].

---

(١) «لأجل هذا الخوف» ليس من (أ).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٠٦)، وهذا أيضا من خرافات الإسرائيليات.

(٣) في (ر): «يتبين».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٢٨).

(٥) رواه البخاري (٤٦١)، (٣٤٢٣)، (٤٨٠٤)، ومسلم (٥٤١).

وفي رواية: «حتى تلعبَ به صبيان المدينة، فذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾، فرده الله خاسئاً»[1].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: أي: المعروفُ بكثرة الهِبات[2].

وفيه دليل على أنَّ الأهم بالمؤمن تقديمُ سؤال المغفرة على كلِّ سؤال.

وقيل: إنما سأل مثلَ هذا المُلْك؛ لينالَ ثواب الملوك العادلين، قال النبي ﷺ: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ مِن عبادة سنة»[3].

وقيل: سأل ذلك لعِلْمه بأنه لا يقوم به أحد مثلُه؛ ليُنْصِفَ المظلوم من الظالم، وليَعْمُرَ البلاد، ويُنْعِشَ[4] العباد، ويُظهرَ الرشاد، ويقطعَ الفساد.

وقيل: سأل ذلك ليُظهر مِن نفْسه عند كمال المُلْك في الدنيا كمالَ العبودية للمولى، فيزدادَ خشوعاً ومَسْكنةً لله تعالى بزيادة الله له في المُلْك والرِّفعة، ولذلك كان يأكل خبز الشعير، ويُرمِلُ الخُوْصَ[5]،..............................

---

(١) رواه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) في (ر): «بكثرة أسباب الهبات».

(٣) قال الزيلعي في «نصب الراية» (٤/ ٦٧): غريب بهذا اللفظ.

وروى أبو نعيم في «فضيلة العادلين» (١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة، قيام ليلها، وصيام نهارها». وضعفه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٥/ ٤٠).

وروى الطبراني في «الأوسط» (٤٧٦٥)، وفي «الكبير» (١١٩٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٧): فيه سعيد أبو غيلان الشيباني لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٤) في (أ): «وينفس».

(٥) الخُوص: هو ورق النخل وما شابهه، أي: أن سليمان كان ينسج الورق ويرققه. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ١٩٨) و(١٥/ ١٤٩).

ويأكل مِن كَدِّ يده، ويجلس مع المساكين، وكان يقول: مسكينٌ جالس مسكيناً[١].

وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِى﴾: قال أبو عبيدة: أي: لا يكون[٢].

وقيل: هو فعل لازم لقولهم: بغى؛ أي: طلَبَ بُغْيته فانبغى[٣]؛ أي: طَلِبته[٤] فحصل.

* * *

(٣٦) ـ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

فاستجاب الله دعاءه هذا، وذلك فيما قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾: أي: ذلَّلناها له ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾؛ أي: سهلةً ليِّنة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي: حيث أراد سليمان مِن البلاد والمواضع.

يقال: أصاب الصوابَ فأخطأ الجواب؛ أي: أراد الصواب.

وقال قتادة: ﴿رُخَآءً﴾: أي: سريعةً طيِّبة حيث أراد.

وقال الحسن: كان يغدو من إيليا، ويَقيلُ بقزوين، ويبيت بكابل.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك والسُّدِّي: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: حيث أراد[٥].

* * *

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾: عطف على الأول، أي: وسخَّرنا له الشياطين.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٢)، والرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٢٢٠) من غير سند ولا نسبة.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٨٣).

(٣) في (أ) و(ر): «فانبغى».

(٤) «طلبته» زيادة من (أ).

(٥) روى جميع هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩٥ ـ ٩٨).

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾: ترجمة عنه، أي: فسخَّرْناهم له، فبعضهم كانوا يبنون له الأبنية العظيمة المرتفعة البديعة، وبعضهم يستخرجون له مِن البحار الجواهرَ واللآلئَ والحُلِيَّ الثمينة.

وقال مقاتل: كان سليمان أول مَن استخرج اللؤلؤ مِن البحر(١).

﴿وَءَاخَرِينَ﴾: أي: مِن الشياطين ﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: مُقيَّدين، مِن القِران، والتشديد للتكثير والتكرير.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: أي: الأغلال، والواحد: صَفَد، بفتح الفاء.

وقال السُّدِّي: كان يجمع أيديَهم إلى أعناقهم بالسلاسل(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان مَن امتنع منهم عن العمل له بالبِناء والغَوْص وغير ذلك قيَّدَه بالغُلِّ؛ ليدفع شرَّه عن الخَلْق(٣).

* * *

(٣٩) - ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي: فلما أعطيناه هذا كلَّه، قلنا له: هذا عطاؤنا لك.

﴿فَٱمْنُنْ﴾: أي: أَعْطِ منه ما شئتَ ومَن شئتَ.

﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾: أي امنَعْ منه ما شئتَ ومَن شئتَ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: بغير تَبِعَةٍ عليكَ فيه، ولا سؤالٍ عنكَ: لِمَ أعطيتَ؟ ولِمَ أمسكتَ؟

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٤٦١) عن مقاتل، وهو من غير نسبة عند الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٩٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩٩).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٢٩).

وقيل: هو تفويضُ تقديرِه ما يُعطي وما يُمسك؛ أي: أَعْطِ وأَمسِكْ غيرَ مُقدَّر عليك تقديراً لا تجوز الزيادة عليه ولا النقصان منه.

وقولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: قيل: أي: فامنُنْ؛ أي: أَعْطِ مَن أعطيتَه مُتفضِّلاً لا مُحاسِباً له على ما تُعطيه، وراجياً مكافأته عليه بقَدْره.

وقيل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ صلةُ قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: عطاؤُنا لك بغير حساب؛ أي: أعطيناكَ بغير حساب[1] لكَ علينا، بل ابتداءَ إنعامٍ منا.

وقيل: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: أعطيناكَ مِن غير أن يُنقِصَنا الإعطاءُ أو يزيدَنا تركُ الإعطاء، وهو معنى الحساب؛ لأنه لتعرُّفِ الزيادة والنُّقْصان، وهما عن عطائنا مُنْتَفيان.

وقيل: ﴿فَٱمْنُنْ﴾؛ أي: فامنُنْ على مَن شئتَ فأَطلِقْه ولا تستعملْه، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: احبسه واستعمله، والأولُ كقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ [محمد: ٤]، والثاني كقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: لا نحاسبك على ما فعلتَ، ولا نسألكَ: لِم فعلت؟ أو[2] هلَّا فعلتَ.

***

(٤٠ ـ ٤١) ـ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: كما كان لأبيه داود، وقد فسَّرْنا ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: أي: دعا ربه؛ أي: اذكر عبدنا أيوب كما ذكرتَ داود وسليمان إذ قال في دعائه وندائه:

---

(١) «أي أعطيناك بغير حساب» ليس من (أ).

(٢) في (أ): «و».

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾: أي: أصابني ﴿بِنُصْبٍ﴾؛ أي: نَصَب، وهو التَّعَب، وهو كالشُّغْل والشَّغَل، والحُزْن والحَزَن، والرُّشْد والرَّشَد، والبُخْل والبَخَل.

وقال أبو عبيدة: ﴿بِنُصْبٍ﴾: أي: أذًى[1].

وقال قُطْرُب: أي: مرض، وقال المبرد: أي: مكروه.

وقولُه تعالى: ﴿وَعَذَابٍ﴾: قيل: أي: شديد. وقيل: أي: عَناء.

ومعنى إضافةِ ذلك إلى الشيطان عند بعضهم: أنَّ الشيطان كان سأل الله أنْ يسلِّطَه على ماله وولده وجسده على ما ذكَرْنا في سورة الأنبياء في قصته.

وعند بعضهم: أنَّ الشيطان وسوس إليه وأوردَ على خاطره ما يبعَثه على الجزَع والشِّكاية مِن تَذْكار الحالة الأولى.

وعند بعضهم: أنه يُخيِّلُ إلى امرأته وإلى الناس أنه لو كان له جاه عند الله لم يبتلِه بمِثْل هذه البَليَّة، وكان يُنفِّرُ الناس عنه، ويخدَعُ امرأته بأشياء.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾: أي: فاستجبنا له، وقلنا له: اركض برجلكَ، أي: اضرب بها وحرِّكْها في مكانكَ.

قال الحسن: فركَضَ برجله فسقطت عنه كلُّ دُودة كانت في جسده.

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾: أي: فضرب برجله الأرض، فنبعت عَين فيها ماء بارد ليغتسل به ويشربه، فزال ما كان به مِن ضُرٍّ حين اغتسل به وشربه.

* * *

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٨٤)، وفيه: بلاء وشر.

(٤٣) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: قال مقاتل: كان لأيوب سبعُ بنات وثلاثة بنين في المكتب، ومعلم يعلِّمهم التوراة، فأخذ إبليس بالسَّارية فهزَّها، فانهدمَ السَّقْف ووقع عليهم، فلما شفاه الله تعالى أحياهم ورزقه مِثْلهم سبع بنات وثلاثة بنين(١).

وقال الضحاك: أوحى الله تعالى إليه: أتريد أنْ أبعثَهم؟ قال: لا يا ربِّ! دَعْهم في الجنة، فعلى هذا آتاه أهله في الآخرة، وأعطاه مثلهم في الدنيا بأنْ عمَّرَه فتزوج، فولد له أولاد كذلك(٢).

وقيل: معناه: ووهبنا له أجرَ أهلِه في الآخرة ومِثْلَهم في الدنيا.

وقال النبي ﷺ: «إنه تناثر عليه جَرادٌ مِن ذهب حين عوفي، فجعل يأخذه في ثوبه، فأوحى الله إليه: ألَمْ يَكْفِكَ ما أعطيناكَ؟ قال: يا رب! ومَن يشبع مِن فضلك؟!»(٣).

وقولُه تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: أي: فعلتُ به ذلك رحمةً مني عليه.

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (١٥/ ١٥٠) عن الكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢٠٧) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، فيكون الخبر واحداً؛ لأن الكلبي هو الراوي عن أبي صالح، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٧) عن مجاهد قال: قيل لأيوب: إن شئت أحييناهم لك، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وتعط مثلهم في الدنيا، فاختار أن يكونوا في الآخرة، ومثلهم في الدنيا. ولم أقف عليه للضحاك.

(٣) رواه البخاري (٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه بدل «يا رب ومَن يشبع مِن فضلك»: «بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

وقولُه تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: وتذكيراً للعقلاء ليصبروا كما صبر، فيُؤجَروا كما أُجِر.

***

(٤٤) ـ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾: أي: وقلنا له؛ أي: في تكفير يمينه على ضرب امرأته.

قال سعيد بن المسيِّب: كانت امرأته تأتيه كلَّ يوم بشيء معلوم، فأتته يوماً بأكثرَ مِن المعهود، فخاف عليها سوءاً، فحلف ليضربنَّها مئة سُوط[١].

وقيل: أعطَتْ في طلَب القُوت يوماً ذُؤابتَيها، فجأت فرآها كذلك، فظن بها شيئاً، فحلَف على ذلك.

وقيل غير ذلك، فقال الله تعالى له:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾: قال الخليل: هو قَبْضة قُضْبانٍ يجمعها أصل واحد[٢].

وقال قُطْرُبٌ: هو الحُزْمة مِن الكَلأ والرَّيحان.

وقيل: هو ملءُ الكف مِن حشيش أو شَماريخ[٣].

وفي بعض التفاسير: أنه أخذ قَبْضة مِن مكانِسَ[٤].

---

(١) ذكره عنه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٥٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٠٣).

(٢) انظر: «العين» للخليل (٤/ ٣٦٣).

(٣) الشماريخ: جمع شُمْرُوخ، وهو غصن دقيق يكون في أعلى الغصن الغليظ. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ٢٦٣).

(٤) مكانس: جمع مِكْنس، وهو ما يُكنس به. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (٦/ ١٩٧).

وفي بعضها: مِن ثُمام[١].

وفي بعضها: مِن إِذْخِر[٢].

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾: أي: امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾؛ أي: في يمينك، خفَّفَ عنها لعدم جِنايتها، وأبرَّه فيما حلف لحُسْن نيته فيما حلف[٣].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾: أثبت له صفة الصبر مع قوله ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؛ لأنه لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه قال ذلك مع الله لا مع غيره، ولأنه كان مَرَّةً، ولأنه كان شكراً لله على ما أَهَّلَه له.

وقيل: الصَّبر[٤]: استعذاب البلاء دون استصعابه.

وقيل: هو التَّلَذُّذ بالبلاء.

وقيل: هو الوقوف تحت الحُكْم.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾: لم يشغله البلاء عن المُبْلي، وسليمان نِعْم العبد لم يشغله العطاء عن المُعْطي.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: رَجَّاع إلى الله، وهو تحقيق ما قلنا.

وقيل: مكث في بلائه ثماني عشرة سنة[٥].

---

(١) الثُّمام: نبت ضعيف له خُوص أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسدَّ به خصاص البيوت، واحده: ثمامة. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: ثمم).

(٢) الإِذْخِر: حشيشة طيبة الريح. انظر: «العين» للخليل (٤/ ٢٤٣).

(٣) في (ر) و(ف): «وجد».

(٤) في (ر): «والصبر» بدل: «وقيل: الصبر».

(٥) وهو المروي عن النبي ﷺ، رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩٨)، والحاكم في «مستدركه» (٤١١٥) وصححه.

وقال السدي: ثلاث عشرة سنة(١).

وقال مقاتل: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات(٢).

* * *

(٤٥) ـ ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾: قرأ ابن كثير: ﴿واذكر عَبْدَنا﴾، وهو لإبراهيم خاصة، والباقون: ﴿عِبَادَنَا﴾(٣)، وهو له ولإسحاق ويعقوب.

﴿أُولِي الْأَيْدِي ﴾: جمع يد، وبها يقع البطش والقوة.

﴿وَالْأَبْصَارِ ﴾: جمع بصَر، وهو بصر القلب، وبه يقع الاستبصار والمشاهدة، وهذا وصف لهم بالقوة في العمل، والكمالِ في العِلْم.

وقال الحسن: ﴿أُولِي الْأَيْدِي ﴾: أي: الأيادي على الناس، ﴿وَالْأَبْصَارِ ﴾: في دين الله(٤).

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾: قرأ نافع بغير تنوين على الإضافة، والباقون بالتنوين على التَّرجمة(٥).

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٣١) عن قتادة.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤٨)، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٣١).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨).

يقول: إنَّا اختصَصْناهم[1] واستخلصناهم بخاصِّيَّةٍ، وهي تذكيرُ الناس[2] بيوم القيامة؛ لإرسالنا إياهم دُعاةً للخَلْق.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: المختارين ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾؛ أي: الأفاضل.

وقيل: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: وهو ذِكْرهم في الآخِرين في دار الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾: المستحِقِّين للجنة.

* * *

(٤٨) - ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف: «واللَّيْسَع» بلامين، والباقون بلام واحدة[3].

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾: قال ابن إسحاق: إنَّ الْيَسَعَ وذا الكِفْل كانا ابنَيْ عم، وكان الْيَسَعُ في أربع مئة مِن الأنبياء في زمانِ ملكٍ غَشوم، فقتل الملِكُ منهم ثلاث مئة، وبقي ذو الكِفْل ومئةٌ منهم، فكفِلَهم وجعل يُطعمهم ويَسقيهم، وخبَّأَهم حتى أُفْلِتوا، فمِن ذلك سُمِّيَ: ذا الكفل[4].

وقد ذكَرْنا في قوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣] أنَّ الْيَسَعَ كان آمن بإلياس، ولما ذهب إلياس نُبِّئَ الْيَسَعُ في بني إسرائيل.

---

(١) في (ر): «أخلصناهم».

(٢) في (ر): «الناسي».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٠٤)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٦٠).

(٤) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٣٢١) عن الكلبي.

وقيل: لمَّا مات أيوبُ أرسل الله ابنَه بِشْرَ بن أيوب نبيًّا، وسماه: ذا الكِفْل، وأمرَه بالدعاء إلى توحيده، وكان نبيًّا بالشام عمَّرَه الله خمساً وسبعين سنة، ثم مات، فأرسل الله تعالى بعده شُعيباً.

وفيه أقاويل أُخَر ذكرناها في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾.

* * *

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾: هذا الذي تلَوْناه عليكم مِن قصص الأنبياء ذِكْرٌ؛ أي: وَعْظٌ، فتذكَّروا[1] به.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي: للمُتذكِّرين به، وقيل: لكل المؤمنين على العموم لا للأنبياء الذين ذكرتُهم على الخصوص.

﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: أي: مرجعٍ، ثم فسَّرَه:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: وهي في محلِّ نصبٍ[2] ترجمةً عن الأول.

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾: التَّفْتيحُ: تكثير الفتح، وذلك لِذِكْر الأبواب؛ أي: إذا أتوها فتحوا أبوابها لدخولهم؛ كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

* * *

(٥١ ـ ٥٢) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾.

---

(١) في (ر): «فتذاكروا».

(٢) في (أ): «النصب».

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾: نصب على الحال، أي: يتَّكِئون على الأرائك فيها.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾: للأكل ﴿وَشَرَابٖ﴾: للشُّرْب.

و﴿يَدۡعُونَ﴾: أي: يحكُمون. وقيل: يطلبون. وقيل: ينادون.

وقيل: يتمنَّون بقلوبهم، فيأتيهم من غير لَبْثٍ ولا كُلْفة.

قولُه تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: نساء قد قصَرْنَ أبصارهن عليهم.

﴿أَتۡرَابٌ﴾: لِدَاتٌ على سنٍّ واحدة، متساوياتٌ في الحسن والجمال، وذلك أنفى للغَيْرة عنهن؛ لأن النَّفْس تتوق إليهن على السواء.

* * *

(٥٣ ـ ٥٦) ـ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾: أُجازيهم به يوم أُحاسِبُ الخَلْق، فأُجازيهم على أعمالهم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا ﴾: أي: عطاؤنا الذي لا ينقطع ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: فناءٍ.

﴿ هَٰذَا﴾: أي: هذا لهؤلاء، أو: هذا كما وصفنا، أضمرَ خبره.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾: أي: وإن للمُتمرِّدين لأسوأ مرجع ﴿ جَهَنَّمَ﴾: ترجمة عنه ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾: يدخلونها ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ أي: فبئس الفراش المـُعَدُّ لهم، بخلاف ما ذُكِرَ للمتقين مِن حسن المآب والجنة المفتَّحة الأبواب.

* * *

(٥٧) ـ ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾: قيـل: أضمـر فيـه: نزُلهـم؛ أي: هـذا نزُلهـم فليذوقـوه.

﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾: ترجمةٌ عن المضمَر.

وقيل: فيه تقديم وتأخير: هذا حميمٌ فليذوقوه، وغسَّاق فليذوقوه، وهذا مكانَ الفاكهة والشراب للمتقين.

والحميمُ: الماء الحارُّ الذي تناهى حرُّه، قال: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وأما الغَسَّاق:

فقد قال قتادة: هو ما يَسيل من بين جلده ولحمه(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الزَّمْهَرير الذي يحرق ببَرْده كما تحرق النار(٢).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: هو القَيْح الذي يَسيل منهم يجتمع فيُسْقَونه(٣).

وقال كعب: الغسَّاقُ: عَين في جهنم يسيل إليها سُمُّ كلِّ ذات حُمَة مِن حية وعقرب(٤).

وقيل: هو قَيْح شديد النَّتْن.

وقيل: هو ما يَسيل مِن الصَّديد.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٠٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩١٠٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١٣).

(٣) ذكره ابن فورك في «تفسيره» (٢/ ٢٩٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٩).

وقيل: الغَسَّاقُ مأخوذ مِن الظُّلْمة والسوادِ مِن الليلِ الغاسقِ، وهو شراب أهل النار، بخلاف شراب أهل الجنة الذي له صفاءٌ وحسنٌ ورِقَّةٌ.

وقال ابن بُريدة: الغَسَّاق: المُنْتِن، وهي لغة الطَّخارية[١]. وقيل: التركية[٢].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: هو عُصارة أهل النار[٣].

وقال الأخفش: هو ما يغسِقُ مِن فُروج الكفرة والزُّناة، أي: يسيل[٤].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية حفص بالتشديد، وكذا في ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتخفيف[٥].

فالمخفَّف اسم كالشَّراب والعذاب، والمشدَّد نعت كالكَذَّاب والقَلَّاب والغَلَّاب، وقد غسَقَت القَرْحة غُسوقاً؛ أي: سالت، وغسَقَت العين غَسَقاناً[٦]؛ أي: جرى دمعُها، وغسَقَ الليل: إذا أظلم، والغسَقُ: الظُّلْمة.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾: قرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿وَءَاخَرُ﴾

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٠). والطَّخارية: نسبة إلى ولاية واسعة من نواحي خراسان. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٢٣).

(٢) انظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ١٣٨)، و«المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» للسيوطي (ص: ١١٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١٣).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١٣) عن قتادة والأخفش.

(٥) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٦) في (ر) و(ف): «غسقا».

بالضم[1] على الجمع، أي: ضُروب أُخَرُ، وقرأ الباقون بالفتح على الواحد[2]؛ أي: وعذابٌ آخَرُ مِن شكله؛ أي: شِبْهه.

و(الشَّكْل) بالفتح: ما يُشاكل الشيءَ، وبالكسر الدَّلُّ[3].

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أي: ضُروب وألوان، وهي الضَّريع والغِسْلين[4] والصَّديد والزَّقُّوم.

* * *

(٥٩) ـ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾: أي: يقال لهم: هذا فَوْج؛ أي: انظروا إلى أفواج أمم الكفار[5] الذين أضلَلْتُموهم، فإنهم مُقْتَحِمون النَّارَ معكم، لم يُمْكِنْكم نصرتهم ودفعُ العذاب عنهم.

والفَوْج يطلق[6] للجمع معنًى، ولفظُه لفظ الواحد، فلذلك وحَّد نعته فقال: ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾.

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾: أي: يقول الأوَّلون للمُقتحِمين: لا مرحباً بهم.

هذه كلمة تُذكر عند استثقال[7] الداخل، وضدُّه: مرحباً، يقال ذلك للإكرام

---

(١) في (ر): «وسهل ويعقوب والمفضل عن عاصم» بدل: «وابن كثير وأخر»، وفي (أ) سقط قوله: «بالضم».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨)، و«جامع البيان» للداني (٣/ ٩٨٤)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٤٠٠).

(٣) أي: التغنج والدلال. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٠/ ١٥).

(٤) في (أ): «والغساق».

(٥) في (أ): «الكفرة»، وفي (ف): «الكفر».

(٦) «يطلق» ليس من (أ) و(ف).

(٧) في (أ): «تذكر عند استعمال استثقال»، في (ر): «تقال عند استثقال».

وللفرح بالداخل، ومعناه: أتيتَ مرحباً؛ أي: منزلاً رحباً واسعاً وخيراً واسعاً[1].

و(الرُّحْبُ) بالضم: السَّعَة، و(الرَّحْب) بالفتح: الواسع، و(المَرْحَب): موضع السَّعة.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾: أي: داخلوها، أي: هم مثلُنا، فلا فرحَ برؤيتهم، ولا فرجَ بمعونتهم.

***

(٦٠ ـ ٦١) ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾: أي: بل أنتم الذين لا نفرح بالاجتماع معهم.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾: أي: أنتم حمَلتمونا على الكفر بالدعوة والتَّزْيين حتى أوردتُمونا هذه الموارد.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: أي: موضعُ الاستقرار، والهاء في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ يرجع إلى الصَّلْيِ، فقد ذُكِر فعلُه، أو إلى الاقتحام لذلك.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾: أي: مَن كان سبباً لهذا بدعوته.

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾: أي: مُضاعَفاً بكفره ودعوته إيانا إليه.

﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: أي: في نار جهنم.

***

(٦٢) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾: أي: يقول هؤلاء: ما

(١) «وخيراً واسعاً» ليس من (أ).

لنا؟ أي: ما السبب في أنَّا لا نرى معنا في هذا الموضع رجالاً كُنَّا في دار الدنيا ﴿نعدُّهم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ لتَرْكِهم ديننا إلى دينٍ كان باطلاً عندنا؟!

وقيل: ﴿مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ أي: مِن الأرذال والسَّفِلة، هذا كما يقال[1]: هذا مِن شرِّ المتاع.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ أبا جهل وذويه يقولون في النار: أين صُهَيْب؟ أين بلال؟ أين عمار؟ أين خبَّاب؟ وهم الذين كانت السادة تسخَرُ منهم[2].

وقال مقاتل: هذا قول صناديد قريش في النار للعبيد والموالي[3].

* * *

(٦٣) ـ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾: مَن قرأ بكسر الألف غيرَ مقطوع[4] فهو على التحقيق؛ أي: كنا اتَّخذناهم سخريًّا.

قال أبو عبيدة: مَن كسر السين جعله مِن الـهُزْء، أي: نسخر بهم، ومَن ضمَّها جعلها من السُّخْرة، وهي التَّسَخُّر والاستذلال والاستعمال[5].

---

(١) في (ف): «هذا كما تقول»، وفي (أ): «هذا ما يقال».

(٢) ذكره عن ابن عباس: السمعانيُّ في «تفسيره» (٤/ ٤٥١)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١٥) عن مجاهد.

(٣) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢١٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٠٠) دون نسبة.

(٤) هي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨).

(٥) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٨٧).

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ على هذا يكون فيه إضمار ألف الاستفهام، ثم عطف الثاني عليه بـ﴿أَمْ﴾، وتقديرُه: أَأُدْخِلوا غير هذا المدخل(١) أم زاغت عنهم الأبصار؟ أي: أبصارنا، فلا نراهم وهم معنا هاهنا.

ومَن قرأ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بألف مفتوحة على القطع فهو استفهام(٢)، والثاني معطوف عليه بغير إضمار، ومعناه: أكان ذلك باطلاً منا(٣) وهزواً بغير حق، وكانوا أخياراً لا أشراراً، فأُدْخِلوا غير مدخلنا أم أُدْخِلوا هاهنا معنا ومالت عنهم أبصارُنا لكونهم في ناحية أخرى مِنَّا؟!

* * *

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾: أي: هو كما أُخْبِرتموه(٤)، وليس بباطل أنهم يتخاصمون على هذا الوجه، على ما ذكر عنهم ذلك في آيات: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] الآيات، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] الآيات، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥].

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾: أي: مُخَوِّف بهذا اليومِ وبهذا العذاب، وقيل: بالقرآن، ورسولٌ داعٍ إلى الحق.

---

(١) في (ر): «أدخلوا غير هذه المداخل».

(٢) هي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨).

(٣) في (أ): «هنا».

(٤) في (ر): «أخبروا».

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: فأدعوكم إلى توحيده وعبادته.

* * *

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: نعت لقوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وكذلك **قولُه**: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾: قيل: أي: القرآن الذي أُنذركم به، والنَّبأُ: الخَبرُ.

وقيل: هو الإنذار بالساعة، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فأمْرُ الساعة أمْرٌ عظيم؛ لِما فيه مِن النعيم المؤبَّد لقوم، والعذابِ المخلَّد لقوم.

وقيل: هو الإخبار بنبوَّته.

* * *

(٦٨ ـ ٦٩) ـ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾: أي: عن النبأ على الوجوه الثلاثة.

وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: هو إقامة البُرْهان على دعوى الرسالة، يقول: ما كان لي مِن عِلْم باختصام الملائكة في أمر آدم، وهو ما ذُكِرَ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] الآيات، وإنما علِمْتُ بإعلام الله تعالى، فدلَّ ذلك على رسالتي إذ علِمْتم أني لم أُسافرْ ولم أُخالطْ مَن يخبرني به ممَّن قد علِمَه، وإنما علِمْتُه بوحي الله تعالى إليَّ.

ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «لمَّا عُرِجَ بي إلى السماء قال الله تعالى: يا محمد! فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ فقلتُ: في الكفارات والدرجات، فقال: وما الكفاراتُ يا محمد؟ فقلتُ: إسباغُ الوضوء في السَّبَرات[1]، ونَقْل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. قال: وما الدرجات؟ فقلتُ: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[2].

والأشبه بنَظْم الآيات ما تقدَّمَ.

وقيل: اختصموا في أمر آدم، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال الله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وكان[3] في ذلك ذِكْر الرسل، وفيهم ذِكْر محمد، فأنا ذلك المذكور في ذلك الوقت.

* * *

(٧٠ ـ ٧٢) ـ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: أي: ما يوحى إليَّ ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي: هذا الكلام يُوحى إليَّ.

---

(١) السَّبَرات: جمع «سَبْرة»: وهي شدة البرد. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١/ ١٨٤).

(٢) رواه الترمذي في «سننه» (٣٢٣٥)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢٢١٠٩)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. قال الترمذي: (حسن صحيح، وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح).

وللحديث طرق وألفاظ مختلفة، وقد تكلم في إسناده ومتنه بعض المتقدمين. انظر الكلام عليه في حواشي «المسند».

(٣) في (ف): «وما كان».

وقيل: أي: ما يوحى إليَّ القرآنُ وسائر وجوه الوحي إلا لأني[1] نذير مبين؛ أي: رسول مبين.

وقولُه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: أي: يختصمون حين قال ربك يا محمد للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾: وهو آدم.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾: أي: هيَّأْتُه الهيئةَ التي لا يبقى بعدها إلا نفخُ الروح فيه.

﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: أي: أدخلْتُ فيه روحاً أنا خلقْتُه له.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي: فخُرُّوا على وجوهكم ساجدين له سجدةَ التَّحيَّة.

* * *

(٧٣ ـ ٧٥) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾.

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾: تعظَّمَ عن السجود له.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: وصار من الكافرين بإباء الأمر[2].

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾: هو سؤال تَقْريع وتَوْبيخ؛ أي: لِمَن انفردتُ بإيجاده، وصوَّرْتُه بلا واسطة.

﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾: بقطع الألف، استفهامٌ بمعنى الإنكار ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾؛ أي: أتكبَّرْتَ للحال أم كنتَ مِن المتكبِّرين قبل هذا؟!

وقيل: أي: أم صرتَ مِن الطالبين العُلُوَّ؟!

* * *

(١) في (ر): «أني».

(٢) في (ف): «بإباء أمر السجود».

(٧٦ ـ ٧٨) ـ ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ ﴾: لها نورٌ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: له ظُلْمةٌ، وقد بيَّنَّا وجوه خطئِه في هذا القياس.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾: أي: مِن الجنة. وقيل: مِن السماء. وقيل: مِن صورتِكَ بالمسخ.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾: أي: متى همَمْتَ بالعَود إلى السماء رُجِمْتَ بالشُّهُب؛ أي: رُميتَ بها وطُردتَ عن السماء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾: أي: قد أوجبتُ على الملائكة والبشر أنْ يلعنوكَ إلى يوم القيامة، ثم أُدخِلُكَ النار تحقيقاً لهذا اللعن.

وفيه إخبار أنه يبقى على الكفر إلى يوم القيامة.

(٧٩ ـ ٨٣) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ ﴾: أي: فأَمْهِلْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾: خاف الموت، فسأل النَّظِرة إلى يوم القيامة.

﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾: وهو فَناء الدنيا.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: أي: لأُضِلَّنَّ بني آدم بالوسوسة.

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾: فإنه لا يعمل فيهم إغوائي.

قال القُشيري رحمه الله: لو عرف عزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته.

وقال في قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾: مِن كمال شَقاوته سؤالُ إنظاره، فإنه تزداد عقوبته بزيادة أوزاره، فأجابه الله تعالى فإنه بلسانه سأل تمام شَقاوته[1].

* * *

(٨٤) ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾: قرأ عاصم وحمزة[2]: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع، و﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون كليهما بالنصب[3].

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف كليهما بالخفض على القسم[4] قسماً بعد قسم، عطفاً على قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

ومَن رفع الأول فمعناه: فأنا الحقُّ، أو هو مبتدأ، ومعناه: فالحقُّ بأني أملأُ جهنم منكَ ومِن مُتَّبعيك[5].

ومَن نصب فعلى القسم؛ كقولك: «فحقاً»، والثاني نُصِبَ بوقوع القول[6] عليه: وأقول الحق.

* * *

(٨٥ ـ ٨٦) ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٦٤).

(٢) في (ف): «قرأ عاصم غير المفضل وهبيرة وحمزة وخلف ويعقوب غير ورش».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٥٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٨)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١).

(٥) في (أ): «وممن تبعك» بدل: «ومن متبعيك».

(٦) في (أ): «الفعل».

وقولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أي: على الإنذار وتبليغ القرآن، فيقع عندكم أني مُسْتَأْكِل.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أي: مِمَّن يتكلَّفُ إظهار خلاف الإضمار، بل أنا على ما عرفتُموني به مِن الصدق والأمانة ومحاسن الأخلاق، ولو كان تكلُّفاً مني لظهر على تطاول الزمان خلافُه، وذلك دليل صدقي في دعوى رسالتي.

وقيل: وما أنا مِن المتكلِّفين في القرآن كما يقولون: إنه يختلِقُه، بل هو وحي من الله إليَّ، وما أنا بقائل ما لا عِلْم لي به.

* * *

(٨٧ ـ ٨٨) ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾: أي: وما هو، يعني: القرآن.

﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: ختمَ السورة بما بدأها به، فإنه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، وكذا قال في أثنائها: ﴿وَاذْكُرْ﴾، ﴿وَاذْكُرْ﴾، ﴿وَاذْكُرْ﴾، ﴿وَاذْكُرْ﴾، ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾: وهو ما قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ على الوجوه الثلاثة.

﴿بَعْدَ حِينٍ﴾: أي: بعد ورود الأمر بالقتال.

وقيل: بعد الموت بتحقيق العذاب.

والحمد لله رب العالمين

* * *